ندره اليازجي

الأعمال الكاملة

الرسائل الإنسانية

دار الغربال





ندره اليازجي

الرســـائل الإنســـانية

ــ رسائل في حضارة البؤس

ــ رسائل في مبادىء الحياة

المجلد الأول

دار الغربال

الطبعة الأولى ١٩٩٨

مطبعة اليازجي ــ دمشق ــ ٢٣١١٢٧٩

الإهداء ...

الى زوجتي



رسائل في حضارة البؤس

الطبعة الأولى ١٩٦٢



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في الربع الأخير من عام 1962. وكنت قد كتبت الرسائل التي يشتمل عليها هذا الكتاب في الثانية والعشرين من عمري، أي قبل عشر سنوات من صدوره ونشره. ولـمّا كانت هذه الرسائل تعود إلى كتاباتي في مرحلة الشباب، فإنني لم أجر أي تغيير أو تعديل فيها. ولقد حافظت على الأسلوب الذي عبّرت فيه عن آرائي، ومواقفي وقيمي الأخلاقية والإنسانية.

كنت في مقتبل عمري أهتم، كما أهتم في الوقت الحاضر، بتلك المرحلة من حياة الإنسان التي ندعوها مرحلة الشباب. وإذ كنت أراقب وأدرس الأوضاع الاجتماعية السائدة، وأشاهد الأخطاء الناتجة، وجدت أن واجبي يقضي بالكتابة إلى صديقي وهو كل شاب يافع أو شابة يافعة الذي يتهيأ للدخول إلى النطاق الاجتماعي. حاولت أن ألفت نظره إلى هذه الأخطاء، وأنبهه إلى تجنّب المفاهيم المنحرفة أو السيئة التي تسيطر على عقول الناس ونفوسهم فتحول آراءهم وعواطفهم إلى انفعالات. شئت أن يرى صديقي ويفهم المساوئ التجمعية، ويدرك المغزى الطبيعي والكوني العميق المتأصل في كيانه أو في جوهره الإنساني. وسعيت إلى جذب انتباهه إلى ما يقع بعد المظاهر التجمعية والظواهر الخارجية عامة، ليدرك الغاية القصوى لوجود الإنسان على كوكب الأرض، ويتجاوز الحدود الضيقة والحواجز المصطنعة التي وضعتها وفرضتها الشرائع التي أغفلت الحقيقة الإنسانية، وألزمت الناس على التقيد بأعراف وتقاليد تشكل التربة الخصبة لنمو الانفعالات، والرغبات والشهوات.

تميّزت مرحلة حياتي في تلك الفترة الزمنية بالتأمل في معنى الحياة البشرية وقيمتها. وكانت المثالية المتسامية، التي تقع إلى ما وراء العقل العملي والواقعي، تهيمن على تفكيري، وتحليلي ونقدي المباشر لكل ما أراه في المجتمع. وفي هذا المنظور المتسم بالتأمل المثالي والمتعالي، وجّهت نقدي الدقيق والصارم إلى السيئات الاجتماعية والمظاهر الزائفة. ولـمّا كانت مثاليتي قد تجاوزت حدود الواقع السائد لتجعل مني ناقداً لا حكيماً، فقد شعرت بمسؤولية كبرى جعلتني أتجه إلى صديقي الشاب، أي كل شاب وشابة، أحدثه بما سيصادف من صعوبات إثر دخوله إلى حلبة الصراع الاجتماعي،

وانحرافات عن القوانين الطبيعية والكونية، وأذكر له العوائق والعقبات التي تشكل حواجز يصطدم بها وهو يحاول تطبيق المبادئ المثالية السامية التي تعلمها ونشأ عليها، واعتبرها القواعد التي يقوم عليها كيانه الإنساني.

عندما أعود إلى قراءة تلك الرسائل من جديد، وبعد انقضاء عشرات السنين، ألاحظ أن مسحة التشاؤم الناجمة عن مثاليتي المتسامية والمتجاوزة قد طغت على محتوياتها ومضامينها. وبالإضافة إلى ذلك، أدرك أن النقد المباشر الذي وجّهته، والأسلوب الذي عبرت من خلاله عن موقفي، والحلول التي قدمتها أو عرضتها، بدت وكأنها موعظة أخلاقية، ودعوة إلى التغلب على الواقع المأساوي كما تخيلته وتصورته. وهكذا، حاولت أن أضع أمام صديقي لوحة رسمت عليها المظاهر السلبية الطاغية في المجتمع الذي سيدخله في المستقبل القريب. ومن جانبي، أعترف أنني، لحساسيتي الإنسانية والخلقية، صوّرت لصديقي الجانب السلبي لأرشده إلى رؤية ومعرفة الجانب الإيجابي، الأمر الذي جعلني، كما ذكرت، ناقداً لا حكيماً. حدثته عن الكذب ليكون صادقاً، وعن التكبر ليكون متواضعاً، وعن الرغبة والشهوة ليكون فاضلاً، وعن الاستغلال ليكون متوازناً ومتعقلاً ومنصفاً في الكسب إن هو سعى إليه، وعن المظهر الخارجي الخادع لكي يهتم بباطن كيانه...كتبت له هذه الرسائل لكي يتعرف على الإيجاب من خلال رفضه للسلب، ويفهم الإيجاب نتيجة لإعراضه عن السلب.

عندما أعود إلى قراءة تلك الرسائل وتأمل مضامينها، أعلم أنني كنت، في تلك المرحلة الفكرية من حياتي، متأثراً بالشريعة المفروضة على بني الإنسان على نحو قاعدة أخلاقية ناهية. ولمّا كانت الشريعة تنهي ولا تأمر، فقد سعيت لتحذير صديقي ليتحلى باليقظة إزاء سلبيات الواقع على نحو نهي يؤدي إلى إدراك إيجابيات هذا النهي. ويحق لي أن أقول بأنني لم أكن، في تلك الفترة، قد اتخذت من الأمر الأخلاقي، أو الشريعة الآمرة، سبيلاً لرؤية الحقيقة. فأنا لم أحدث صديقي عن الصدق، ولم أقل له، على نحو آمر، كن صادقاً، بل كنت متوافقاً مع الشريعة الناهية التي تعلن عن قاعدتها الأخلاقية قائلة: لا تكذب. ومن جانبي، أعترف بأن الفرق القائم بين الشريعة الناهية والأمر الناهي، أي الشريعة الآمرة، اختلاف كبير يثبط المرء ويحول دون أن ينشئ صلة أو جسراً بينهما. هذا، لأن النهي عن الكذب يردعني عنه بطريقة أو بأخرى دون أن يجعلني صادقاً أو يعلمني كيف أكون صادقاً. أما الأمر الأخلاقي «كن صادقاً» فإنه

يحدثني عن الصدق القائم والكامن في كياني، ويؤكد أنني كائن صادق، ويطلب مني ألا أهدم مثال حقيقتي الصادقة.

إذ أتأمل تلك الرسائل أعلم أنها تأسست على قاعدة النقد اللاذع للانحرافات التجمعية ساعية إلى تقويض أعراضها، ولم تقم على أساس يعتمد الإيجاب والتعليم غير المباشر. وهكذا، كنت أنبه صديقي إلى تجنب تلك السلبيات، لكي يحتفظ بيقظته وفطنته وهو يواجه السيئات الطاغية على المجتمع. والحق، أنني لم أكن، في رسائلي تلك، معلماً أرشده إلى معرفة نفسه، ومعرفة الطبيعة، ومعرفة الكون، ليُحدث تأليفاً بينها، ويسعى إلى تحقيق المركز المُوحّد في كيانه ؛ ولم تكتمل تلك الرسائل إلا في وقت لاحق في حياتي، يوم تخليت عن الشريعة الناهية التي تقيم أهميتها على السلب، وتعاقب دون أن تُحب، وبدأت أتعمق في كيان الإنسان لأفهم المبادئ التي تعتمد عليها الشخصية الإنسانية المتوازنة... تلك المبادئ التي تجعله يشعر بقيمته الحقيقية، وبالمغزى الكوني المتضمن فيه. وعلى هذا الأساس، وضعت كتابي «رسائل في مبادئ الحياة».



الرسالة الأولى

المثالية والواقع

صديقي...

قد تعجب، وقد يدفعك العجب إلى التأمل والتفكير.فكرت فيك وأنا جالس إلى طاولتي هذا المساء... فكرت أن أكتب إليك هذه الرسائل التي تحدثك عماّ يستتر في داخلي... وها أنذا أحاول إخراجها من صدري.

أنا لا أدري حقيقة شعوري! هل أراني أحلق في عالم المثل الذي لا يعتمد على قاعدة مادية وواقعية؟ لعمري، إن أكثر ما يعذب قلب الإنسان هو أن يحيا في غفلة عن مثاليته الحقة! وهذه الواقعية؟ وما هي الواقعية؟ هل هي انغماس في كل ما يراه ويعيشه في واقعه التجمعّي بدون أن يفكر في حقيقة عيشه ويتأمل سمو وجوده؟

إني أحاول، في هذه الرسائل، أن أردد المواضيع ذاتها التي اعتدت أن أرددها وإياك، وأن أتحدث بها إليك عندما كنت لا تزال صغيراً. والآن، وبعد أن نفث فيك الشباب عنفوانه، أرى أن تقف على حقيقة الحياة والواقع، وأن تتأمل في كل ما يجتاح قلبك النابض من مشاعر.

هنا تبدو وكأنك تفكر وتتأمل... وأنت لا تدري إن كنت حقاّ تفكر أم أنك تعيش في دوامة من الصراع الداخلي الذي لا ينتهي. وتكاد عندئذ أن تكفر بالقيم وأن تتجرد من كل المفاهيم... وتكاد أن تتجاوز إرهاصات هذا الصراع لتبلغ نطاق الوعي. وماذا يمكنك أن ترى وتجد وتحس؟ إنك تحس بلواعج القلب وأنّات الصدر ومرارة التفكير... وكيف لا تشعر بهذا ما دمت شاباً ترى الحياة وكأنها تنقاد لك وتخضع؟

فكرت أن أكتب إليك في هذه الأمسية. لقد ترددت في أعماقي آمالك وأمانيك التي يزخر بها قلبك. وكان قلبك يفيض بالسعادة وعقلك يزدهي بالمثل... ألا زالت تلك المثل حيث كانت؟

عندما نظرت إلى حالة شبابنا وما يعانيه من قلق واضطراب... عندما شعرت بالخطر الذي يحيط به بعد أن خرج إلى المجتمع... تصورتك... فتى على أهبة الاستعداد للدخول إلى معركة الحياة... لقد جزعت... وهلع قلبي خوفاً من أن يسيطر عليك تيار هذا المجتمع الجارف... وخفت من أن تصيبك المفاهيم بقسط كبير من الألم... فيخيب أملك... وترتد وتتراجع.

ومن جهتي، لا أعتبر نفسي مرشداً لك... وكل ما ستقرأه من كتابتي هذه ليس إلا تذكيراً لك... إنها آمال راودتني وأنا أمر في طريق الحياة، فلاحظتها وشعرت بها... ولعلي، إن قلتها لك، أن أحظى بقسط من نبلك وعطفك وسموك.

كل إنسان، يا صديقي، تعتريه أفكار غريبة. وكل إنسان يقع في تجربة الحياة الاجتماعية. وكل إنسان يتعرض لصعوبات الدهر. وكل إنسان ينظر إلى الحياة ويحاول فهمها. وكل إنسان يحس بأهازيج الحياة التي يحياها وبشقاء وتعاسة من لا حياة لهم. كل إنسان لا بد وأن يقع في حالة شبيهة بالفوضى ويكون عرضة للضياع. لذلك، جئتك برسائلي هذه علك تستطيع أن تقرأها بهدوء ورصانة... واستيعاب... إذ يصعب على المرء أن يمر بالأمور مرور الكرام... فلا مناص له أن يتفهم ويدرك الأعماق لكي لا يرى في الحياة سراً غامضاً.

لقد حاولت أن أحدثك بأمور كثيرة ؛ ولا تخرج كلها عن الدائرة التي رسمتها لك... وهي الإنسان... قيمته ووجوده... وخلقه لمفاهيمه الأنانية التي أدت إلى شقائه. لقد خلق الإنسان مفاهيمه دون أن يدري ماذا يخلق... لقد تظاهر بالخلق وتشبه بالإله. فأوجد أصناماً له ومفاهيم خرجت به عن دائرة الحقيقة السرمدية وألقت به في حضن التعاسة والألم السلبي.

تستطيع أن تعتبر رسائلي أنها آمال أخ محب وصديق عطوف لا يريد أن يعظ بل أن يقدم محبته... ولا بد لمن يتلقى محبة صديق أن يعاملها برفق وحنو... ورأفتك هذه تنطوي على قراءتك لهذه الرسائل البسيطة.

الرسالة الثانية

المحبة والنزعة الفردية

صديقي...

ما كنت على يقين من أمري. لقد شجعتني وخلقت فيّ إرادة جديدة وأملاً جديداً. وبدا لي أن رسالتك حملت كل عبارات الجمال والمحبة والعطف... قرأت سطوراً جميلة، مليئة بالخير والحق. وتصورت روحك الصافية التي أعادت الطمأنينة إليّ وعلمتني أن الصداقة الحقة لا تتأثر بالنسيان المؤقت. ولذلك، أقف أمام رسالتك فخوراً لما لمسته من عظمة نفسك وتقبلك لمناقشة أفكاري. وكيف أستطيع أن أشكرك وأنت عزيز على قلبي؟ وهل يستطيع القلب المحب أن يجهر بمحبته؟ وهل يستطيع أن يعبر عنها بالألفاظ؟ إن أجمل ما يقوله القلب هو الصمت، وإن أعظم ما تعبر عنه النفس هو التأمل، وإن أسمى وأحلى ما تحيا به الروح هو الخلود. وهذه الصفات الثلاثة تشملها المحبة التي تتجسد بالصداقة.

لاحظت أن المحبة قد فقدت وأصبحت قلوب الناس قاسية ظالمة. وهكذا، فقد الناس اهتمامهم بغيرهم. فتسلطت الأنانية الفردية وحب الذات. وهذه المفاهيم كلها تدل على انحطاط الحضارة والقضاء على القيم الإنسانية.

إن ما يخيفني هو هذا الشعور الذي يتولد عند المرء بأن لا أحد يحبه حقاً. والمرء الحكيم يستطيع أن يفرق بين المحبة الحقة وتظاهر الناس بها. فالمحبة تنبع من القلب وتعني التضحية. وإن كان الناس لا يضحون من أجل غيرهم، فإن المحبة تموت. وهكذا يموت الإنسان.

الإنسان الذي لا يحب لا يضحي. ومن لا يضحي لا يشعر بعظمته في هذا الوجود العظيم. والإنسان الذي لا ينبض قلبه بالمحبة ولا يشعر بألم غيره لا يحقق شيئاً من كيانه.

كيف يمكن أن يقضي الإنسان على إنسانيته؟ ألا يعني هذا أنه قضى على حضارته أيضاً؟ ما دامت المحبة هي أرفع وأنبل قيمة في الوجود، فلا يحق للإنسان أن يتجرد منها. هل تصورت عالماً خلا من المحبة؟ هل رأيت زوجاً يرتبط بزوجته بدون محبة؟ هل رأيت أماً تضحي من أجل ولدها بدون محبة؟ هل رأيت نبياً أتى إلى هذا الوجود بدون محبة؟ هل رأيت تضحية بدون محبة؟ فالمحبة إذاً هي النور السرمدي لوجود الإنسان.

لا تستطيع روح الإنسان أن تقوم بعملها في هذا الوجود بدون محبة. إن الروح الغاضبة والناقمة والحاقدة والمتذمرة لا تستطيع أن تفهم وتدرك وتتأمل. والعقل الجامح الذي يتأثر بالانفعالات الهوجاء وأعاصير الأعصاب المنهكة أو الثائرة والتي تصبح عبدة ذليلة للغضب وتنقاد لأهواء الأنا المتمثلة بالحقد والكراهية والكبرياء، هذا العقل لا يستطيع أن يحقق قواه الكامنة. لذلك، كانت المحبة كالماء الراكد الصافي. ونحن لا نستطيع أن ننظر إلى قاع الماء ونرى ما يحتويه إلاّ إذا كان صافياً ونقياً. وفي الصفاء، نستطيع أن نرى جوهر الأشياء. وإذا ما هبت العواصف وأضحى الماء قذراً وعكراً، فإن الركود والسكينة يضمحلان... ولا نرى ما كنا نراه.

إن المحبة هي التي تقود الروح والعقل إلى السكينة والهدوء لكي يحققا كيانهما. أماّ إذا لعبت عواصف الحقد والغضب والكبرياء، وإذا ثارت ثائرة الشهوات والانفعالات، فإن الإنسان يهلك ويصبح عبداً لانفعاله. وإذا تجرد الإنسان من المحبة فإن شهواته تسيطر عليه وتتلاعب به رياح وعواصف الحقد والسيطرة، وإلى ما هنالك من مفاهيم ذاتية وخاصة.

رأيت الناس قد تجردوا من المحبة وطغت على قلوبهم جميع الأهواء والنزوات. وأصبح الإنسان يفضل مصلحته الخاصة... وهكذا، أصبح لا مبالياً. واللامبالاة هي انحلال المجتمع وتغلب النزعة الفردية. والنزعة الفردية هذه هي وسيلة لتحقيق الأنا بكل مظاهرها من أثرة وسيطرة وشموخ وكبرياء وتسلط وكره وبغض واحتقار الغير. وهكذا تتهدم الحضارة.

تعد النزعة الفردية مرضاً من أمراض الحضارة. هذا، لأن الإنسان لا يفكر إلاّ بتحقيق مطالبه ورغباته. ومتى تعلق الإنسان بمطالبه الأنانية فإنه يعمل على تحقيقها دون سواها. ولا يمكن أن يحقق الإنسان مطالبه هذه إلاّ إذا أساء إلى الآخرين، فيبقى

هؤلاء دون تحقيق شيء. ويؤدي هذا إلى صراع عنيف بين الفئات الاجتماعية وذلك لأن الفردية التي تركزت في المصالح وتمثلت بالمطالب، لا تعمل لتحقيق الأنا. وهكذا يصبح الإنسان أنانياً وبالتالي مريضاً.

حضارتنا موبوءة ومريضة لأنها أصبحت حضارة الفرد، حضارة نزعاته وأهوائه، حضارة تحقيق مطالبه بأية وسيلة كانت، حضارة «ميكيافيلي»، حضارة تحقيق الهدف الذاتي، حضارة عدم الاعتراف بحقوق الغير، حضارة التغاضي عن والتعدي على حقوق الغير، حضارة عدم التفكير بالغير، حضارة التنكر لإنسانية الغير، حضارة تتمثل بالصراع لأجل تحقيق كل ما يمت إلى الفردية بصلة.

حضارتنا موبوءة لأنها تجردت من المحبة، فتجردت من التضحية. إننا لا نرى الإنسان الذي يضحي، الإنسان الذي يعمل لأجل هدف نبيل وجميل وعظيم، الإنسان الذي يخدم الآخرين، الإنسان الذي يحيا لنفسه ولغيره، الإنسان الذي ينظر إلى ما وراء نفسه، الإنسان الذي يحقق الإنسانية الكائنة فيه، الإنسان الذي يعلم أنه هدف الوجود، ويعمل لأجل الحق والحرية، ويتعلم لأجل العلم والمعرفة.

حضارتنا موبوءة لأنها تجردت من المحبة وأصبحت حضارة ناقمة وحاقدة ومتذمرة وكارهة ومتكبرة. وقد أخذت هذه الحضارة صفاتها من الإنسان الذي تتركز فيه هذه المفاهيم... وتجعل منه بطلاً.

حضارتنا موبوءة لأن بطلها أصبح ذلك الإنسان الذي يتصف بصفات الحضارة البائسة التي ذكرتها. والبطل هو ذلك الفرد الذي تطغى عليه ميوله فيحققها، ويظهر بمظهر المنتصر من خلال قيم ومفاهيم الحضارة التي خلقته وخلقها.

تأملت هذا الواقع الأليم، وعلمت أنه من واجب الإنسان أن ينقذ نفسه لكي لا يجرفه تيار الحضارة البائسة القوي. ولاحظت أننا نستطيع أن ننتصر على هذه الحضارة التائهة بانتصارنا على ميولنا وانفعالاتنا ودوافعنا اللاواعية التي تنبثق عن اللاعقلانية. هذه اللاعقلانية التي تسيطر على الحضارة وبالتالي تجعلها لاهدفية. وكيف يمكن أن تتجرد الحضارة من الهدف والغاية ؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يتجرد من الهدف والغاية؟.

لا يكون الانتصار على الميول إلاّ بتهذيب القوى النفسية والعقلية، وتوجيه الإنسان إلى ما هو سامٍ. وهكذا، يتحقق الخلق والإبداع الحقيقيان. وما لم يبدع الإنسان

ويخلق وفق ما يقتضيه القانون الكوني، فإنه ماثت. وهذا الخلق لا بد وأن تعلـوه المحبـة على نحو تاج مرصع تنقش عليه جميع الآيات التي وجدت لتكريـم الإنسـان. بالتـهذيب يحب الإنسان نفسه ويحب غـيره... فيضـحي. ولا تكون التضحية بقتـل النـاس وإذلال نفوسهـم بـل بإحيـائهـم وإحيـاء الفضائل والقيام بالأعمال الجليلة.

قيل في القديم «يجب أن يخجل الإنسان من أن يمـوت قبـل أن يكـون قـد قـام بعمل جليل وعظيم». فالعمل الجليل والعظيم، والفكرة الطيبة، والإرادة الحسنة، والمثالية العالية، والخلق الرفيع، والتضحيـة اللامشـروطة، والابتسـامة البريئـة، هـذه كلـها مـن صفات المحبة.

الرسالة الثالثة

مؤسسة الكذب

صديقي...

يعود استمراري في الكتابة للثقة التي أوليتني إياها وللتشجيع الذي أوليته لي. أنت محق، كان يجب ألاّ أعتمد على أسلوبي هذا. ولكن، ماذا أفعل؟ لقد وجدت صعوبة كبرى بادئ الأمر، وكدت أن أتجاهل هذا الموضوع لأنني لم أستطع أن أنظم أفكاري في أسلوب فلسفي.

لقد زودتني بنصائحك الجميلة، وسأستمع لك دوماً. وفي رسائلي القادمة سأطرق الموضوع دون مقدمات.

تزداد دهشتي يوماً بعد يوم. ولا أكاد أصدق ما أسمع وأرى. وكثيراً ما أشعر أن ما يحيط بي ليس إلاّ أسطورة من أساطير القدماء. وأصبحت لا أدري إن كان الإنسان قد تجرد من كل القيم الكونية التي نُقشت في كيانه. وكلما حاولت أن أبرر أعمال الناس، أراني أحدد تبريري بكلمة هي «المصلحة». هذه الكلمة التي عبرت عنها في رسالتي السابقة بالأنانية.

إن مجتمعنا موبوء ومريض. أتعلم أن الإنسان قد أصبح عبداً لشر كبير هو الكذب؟ ولا أبالغ إن قلت لك إن الكذب، أي عدم الصدق، أصبح مؤسسة اجتماعية. الكل يكذب.

هل تصورت إنساناً يحدثك بأمور وأشياء كاذبة، ومع ذلك توافقه؟ هل تصورت إنساناً يكذب عليك لأنه يريد أن يجد مخرجاً، فيحرف أقواله ويتظاهر بالنبل والاستقامة والكرامة؟ هل تخيلت إنساناً يتراءى لك بأنبل صورة وأعظم مثال ويتظاهر بالخير والصلاح لكي ينال مأربه ويحقق مطلبه؟ هل رأيت إنساناً يقدم لك خدماته ويمجدك

بلسانه مع أنه لا يطبق شيئاً من الذي يقوله؟ هل وجدت إنساناً يبتسم لك ابتسامة تبدو أنها بريئة لكي يحصل منك على وعد أو على شيء؟

هذه أسئلة وضعتها أمامك لكي تتصور حالة هذه الحضارة التي يتسلط عليها مفهوم واحد هو الكذب. إني استمعت إلى إرشادات وأقوال الأساتذة «الكبار» الذين يعتبرون أنفسهم مربي الأجيال فوجدتهم لا يفهمون الحكمة الكامنة في مفهوم التربية، ولا يضعون تلك الحكمة موضع التطبيق. وهكذا، فهم يكذبون. واستمعت إلى الموظف الجالس وراء طاولته فوجدته يخادع ويماطل ويكذب. وجدته يعد بأشياء لا حقيقة لها ولا يقوم بواجبه. وهكذا، فهو يكذب على نفسه وعلى غيره. واستمعت إلى التاجر الذي يصور لك سلعته بألوان زاهية، ويجعل منها الجمال المجسد، فوجدته يكذب. واستمعت إلى كثير من الناس الذين يصورون لك الأشياء بصورة جميلة لكنهم يرمون إلى هدف أبعد... فوجدتهم يكذبون.

لقد دهشت وعجبت! وأي أمر يمكن أن يزيد في دهشتي أكثر من إنسان يغلف نفسه برداء الصدق مع أنه كاذب؟ وهذه مشكلة كبرى وتأخر شديد. لقد أصبح الصدق والاستقامة والصلاح والخير وسائل لتثبيت الكذب. ويصعب عليك أن تميز بين شخص وآخر طالما أن الجميع يستترون بثياب الحقيقة والخير. وأية صدمة أشد على القلب من تلك التي لا يمكن التغلب عليها؟

لقد قسمت هؤلاء الكذبة إلى ثلاثة أقسام:

الكاذب الذي يبدو أنه يكذب فتعرفه بسهولة.

الكاذب الذي يراوغ ويخادع لكي يحصل على شيء وينفذ أمراً.

الكاذب الذي يستتر برداء الحقيقة والصدق والاستقامة والخير.

يعد النوع الثالث أسوأ أنواع الكذبة. فقد جعل من الفضيلة وسيلة لهدف منحط. فكيف يمكن ربط الاستقامة والصدق بالكذب؟ ألا يجعلك هذا الكاذب تفقد الثقة بالجميع؟ ألا يقودك إلى عدم الاعتراف بأحد؟ ألا يجعلك تنظر إلى الصدق والاستقامة والحق أنها مفاهيم وقيم خيالية لا تطبق في هذا العالم؟

الكذب عامل من أهم عوامل تقويض الحضارة وتهديم عرش الفضيلة. إنه يؤدي إلى عدم الاعتراف بعالم تسوده الفضيلة ويفعل فيه الخير. إنه يعتبر الإنسان الفاضل خيالياً ومثالياً وشاذاً، ويتهمه بأنه يعيش في عالم الطوباوية. إن الكذب هو مصيبة

الحضارة لأنه يؤدي إلى تحقير الشخصية الإنسـانية إذ ينظر النـاس إلى بعضـهم وكأنـهم كذبة لا يصدق الواحد الآخر. وتكمـن هـذه المصيبـة في أن جميـع الكـذبة يتظاهـرون بتصديـق بعضهم، ولا يتـورع مـن يكـذب عليـك أو تكـذب عليـه أن يودعـك إلى البـاب ويفتحه لك ويبتسم ويعدك بالآمال الكبيرة. وهكذا، يقف الناس علـى مسـرح الكـذب ولا نستطيع أن نفرق بينهم.

إن مـا يؤلـني ويزيـد في دهشـتي، هـو أن النـاس أكـثر ميـلاً لتصديـق الإنسـان الكاذب، وذلك لأنه ينمق الكلام بأسلوب لبق ويظهر الأمور علـى عكـس مـا هـي عليـه، ويصورها كما يريد النـاس. وأيـن يمكـن أن يقـف الصـادق؟ إنـه يُـرذل لصدقـه وأمانتـه! وهكذا، تموت الفضائل وتبقى الرذائل! إذ لا يجد الإنسان وسيلة، غير الكـذب، ليحقـق مطالبه وينال ما يرغب فيه. لقد ماتت الفضيلة، فضيلـة الصـدق والشـرف. هكـذا، أقـام الناس تمثالاً للكذب... وأسسّوا مدرسة يتخرج منها الكاذب بأرفع المناصب والأوسمـة... وهكذا، أصبح الكاذب هو الإنسان النـاجح، الإنسـان الـذي يؤخـذ مثـالاً صالحـاً لغـيره. وهكذا ماتت الحضارة لأن الإنسان قد دفن الصدق والفضيلة في كفن بسـيط، وشـيد صـرح حضارته على مفاهيم جديدة ترمز إلى الكذب وإلى الدور الذي يلعبه في تقويـض الحضـارة.



الرسالة الرابعة

مفهـــوم التربيـــة

صديقي...

تتهمني بالتطرف! وكيـف يمكنـني أن أكـون متسـاهلاً مـع مـن يتنكـر لحقيقـة إنسانية؟ وهل تستطيع أن تنظر إلى قيم ومبادئ الحياة وتعتبرها أموراً لا أهميـة لهـا؟ ألا نعتبر حياتنا عندئذ مروراً سريعاً في عالم يسوده النظام؟ ألا توجد حقيقة في هـذا العـالم؟ إن كان هذا العـالم مجـرداً من الحقيقة فمن الحـق أن أصمـت لأن الكـلام لا ينفـع، وإن كان معبراً عن جوهر الحقيقة، فمن الحق أن أتكلم.

ما هو الأفضل؟ أن نغلق أفواهنا ونكون كالأموات ونحن أحياء، أو نكـون أحيـاء بكل معنى الكلمة؟ إنني أعتبر نفسي حياً، إذن أعتبر نفسي ممثلاً للحياة لأن صفات هذه الحياة تركزت في كإنسـان. ولذلـك، يجـب أن أحقـق قـوة الحيـاة، نظامـها، عظمتـها، حقيقتها وصلاحها وخيرها. فالحياة أو الطبيعة أو الوجود الإنساني لا تحمل معنى الشـر بل هي خير مطلق. ويتمثل هـذا الخـير في الفضـائل الكامنـة في كيـان الإنسـان. ولذلـك، يجب أن يعمل الإنسان من أجل تحقيق أكبر قسط من وجوده، أي خيره المطلق.

وهكذا، لا يمكن لمن يـرى أن يصمـت. وإن مـن يصمـت عـن الحقيقـة لا بـد أن يقترف الشر ويقيم في موطن الخطيئـة. فـالنور لا يمكـن أن يخفـي الأشياء بـل يظـهرها. وهكذا، يجب ألا يعيش الإنسان في عالم الظلام. ومن يعيش في عـالم الظـلام يمـوت وهـو حي. ولا يمكـن أن ينصـاع الإنسـان لمفـاهيم لا تقـوده إلى الحقيقـة ولا تنـير لـه الطريـق. والإنسان الذي لا يعمل من أجـل تحقيـق هـدف نبيـل، هـو ذاك الـذي لا يـهتم بنفسـه كإنسان، فيرذل نفسه، ويحقرها ويكذب عليها، وبالتالي لا يكـون أهـلاً لأن يحمـل اسـم إنسان.

أثار اهتمامي موضوع مهم هو التربية. وهذه الكلمة تنطوي على معان متعددة. فبعضهم يتخذ منها وسيلة لصقل المواهب، وبعضهم الآخر يعتبرها وسيلة لإذكاء الدماغ. ويعتمد عليها بعضهم كأسلوب لتهذيب النشء. وأنا، من جهتي، لن أتدخل إلاّ في الناحية الأخيرة لأنني أعتبرها الرباط الذي يقوم بين الآباء والأبناء مباشرة.

لا يمكنني أن أبحث في موضوع التربية كما جاء في الكتب العديدة التي بحثت فيه وناقشته. وليس بمقدرتي أن أورد النظريات المختلفة التي تُعتمد كوسيلة للتربية. لذلك، سأحصر بحثي في القيم البسيطة التي يعتبرها الناس والتي يلقنها الآباء لأبنائهم.

يؤلمني أن أقول إن التربية قد فقدت معناها تماماً. وإن مشكلة إنجاب الأطفال لم تعد مسألة تربية لأجل تنمية أرواح تجسدت والأخذ بيدها إلى أعلى درجة في سلم الحياة. لقد أضحت التربية وإنجاب الأطفال أنموذجاً اجتماعياً يقتدي به الجميع لمجرد التقليد. والتقاليد الاجتماعية كثيرة ولا حصر لها. فهناك الآباء الذين يرغبون بإنجاب الأطفال فقط لكي يحملوا أسماءهم وألقابهم يوماً ما، ولكي يرثوا عنهم ملكياتهم بعد مماتهم. ويتعلق هذا التقليد بمسألة امتداد الأنا أو الذات التجمعية. والحق، أن رغبة الناس في امتداد ذواتهم التجمعية مشكلة تتعلق بالأنانية مباشرة. ولذلك، فإن هؤلاء الذين ينجبون لأجل هذا المفهوم يفقدون كل أهمية للتربية. هذا، لأنهم لم ينجبوا لكي يهذبوا روحاً وجسداً، أي إنساناً، بل لكي يحمل إنسانهم الجديد مفاهيمهم وقيمهم ومناقبيتهم وسلوكاتهم وأساليب معيشتهم. وهكذا، نعلم أنهم لم يفعلوا شيئا جديداً وبالتالي لم يعمدوا إلى تطوير القيم البالية وخلق قيم جديدة، بل حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم القديمة. وهؤلاء دفنوا أنفسهم في الماضي لأنهم لم يخلقوا شيئاً جديداً.

ثمة من ينجب حباً بالتقليد. وهذا النوع من الناس لا يعرفون الكثير عن حياتهم ووجودهم. فهم يقلدون غيرهم ويعملون الأشياء على نحو تلقائي. وإذا سألتهم عن أسباب رغبتهم في شيء فلا جواب لديهم إلاّ «هكذا عشنا، هكذا تعلمنا وهكذا فعل الآخرون». لا يمكن لأناس من هذا النوع أن يقوموا بتربية أبنائهم وبناتهم تربية صالحة لأنهم لا يسعون إلى غاية ولا يهدفون إلى تحقيق مثال.

وهناك من ينجب لمجرد الإحساس بأن الإنجاب مكمل لوجودهم المادي، أو أنهم يشعرون بأنه نتيجة «طبيعية» للزواج. وهكذا، فهم يتقبلون أولادهم ويعتبرونهم

ثمرة ارتباطهم هذا. وهذا النوع من الناس يحاولون أن يقوموا بواجبهم لأن هذا الواجب قد فُرض عليهم.

وهناك من ينجب، وهم القلة، لكي يهذبوا روحاً أتوا بها إلى الوجود. وهذا النوع من الناس يعتبرون، لقلتهم، النخبة. ويجد هؤلاء القلة أو النخبة صعوبة كبرى في تنشئة أولادهم لأنهم محاطون من كل جانب بفئة كبيرة من الناس تغاير مفاهيمهم وتختلف عنهم اختلافاً بيناً. لذلك، نجدهم محافظين نوعاً ما، منعزلين إلى حد ما. فهم لا يقدرون أن يسيروا مع الركب ولا أن يوافقوا على المبادئ العامة التي يتبعونها ولا أن يتفقوا معهم في قضية التربية. وهؤلاء القلة هم جماعة من الأخلاقيين.

يقوم الجميع بتربية أولادهم حسب مفاهيمهم. ولذلك، سوف أتجنب ذكر الأقلية لأنها تقوم بتربيتها وفق أخلاقها الخاصة ووفق الأسس التي سأذكرها. تنشئ الفئات أطفالها الذين أتوا إلى الوجود لتحقيق أهدافهم وغاياتهم. ولذلك، فقد أتى هؤلاء الأطفال لكي يحققوا غايات آبائهم. وهكذا، فقد خطط لهم هؤلاء الآباء برنامجاً قبل مجيئهم، ووضعوا لهم هدفاً وغاية قبل ميلادهم أو بعده. وهكذا، يربي هؤلاء الآباء أبناءهم حسب المفاهيم التي كانوا قد صاغوها والأسس التي كانوا قد وضعوها.

تنعدم التربية في مثل هذه الحال لأن إنجاب الأطفال كان نتيجة فكرة طاغية ومسيطرة في عقل الآباء الذين تأثروا بالقواعد الاجتماعية العامة. فالولد يأتي لكي يحقق فكرة أبيه وأمه. ولذلك، فإن تربيته تعتمد عليهما ؛ ويتصرف الآباء كما يشاءون. ويبدأ الوالدان:

- بتعليم أولادهم مهارة العيش ومهارة الحصول على العيش بوسائل وطرق تكفل لهم النجاح.

- بتلقين أولادهم الطرق الاجتماعية الناجحة وكيفية الحصول على المراكز العليا.

- بتنشئة أولادهم على المكيافيلية وتحقيق مآربهم بأية وسيلة كانت.

- بتلقين أولادهم فن النجاح، فن الانتصار على الغير، فن القوة الزائفة والغلبة. وعندئذ، لا يتفهم الأولاد معنى «القوة الحقيقية» هذا إذ يعتبرون القوي هو ذاك الشخص الذي يصل إلى مآربه بطريقته ووسيلته ويحصل على ما يرغب.

- بإفهام أولادهم بأنه يجب أن ينجحوا وإلاّ فإن غيرهم سيتغلب عليهم وينجح عوضاً عنهم. فالغلبة يجب أن تكون لهم وإلاّ فأنهم يضيعون الفرص المؤاتية.

ـ بتدريب أولادهم على استغلال وسائل النجاح. فالتاجر يأخذ ولده إلى متجره، ويرى الولد هناك أموراً لا يفقهها. فهو لا يعلم كيف يربح والده المال الكثير! ولا يعلم لماذا ربح الكثير! بل يعلم أن الربح الكثير فن ومهارة. وهكذا، يتعلم الولد المهارة «الزائفة» وفن التربص بالآخرين والكذب عليهم، دون وعي وإدراك.

ـ بتعليم أولادهم الإقدام الخادع، إذ يظهرون لهم أن الحياة الاجتماعية ملأى بالكذب والنفاق. ويستنتج الأبناء أن البشر جميعهم منافقون... وما هي الوسيلة التي يجب أن يعتمدوها؟ الدهاء... وهكذا، يرسم الأبناء صورة كاذبة أو غامضة للحياة الحقة.

ـ بتعليم أولادهم أن المال هو الأساس الذي يقوم عليه النجاح التجمعي. فهو الوسيلة الوحيدة المعتمدة للشراء والبيع واقتناء المنزل الفخم والزواج والجاه. ويفتخر الوالد بأن حصوله عليه كان نتيجة جهده وكده. ويفتخر أنه، بهذا المال، يرسل أولاده إلى المدرسة. ويقتنع الولد بأن المال هو وسيلة لتحقيق كل شيء، لتحقيق العلم: من لا يملك المال لا يملك العلم ؛ لتحقيق الفضيلة: من لا يملك المال لا يملك الفضيلة ؛ لتحقيق السعادة: الإنسان لا يستطيع أن يشتري الأشياء بدون مال ؛ لتحقيق الرفاه والاستقرار والراحة: الإنسان لا يستطيع أن يشتري الثياب الثمينة بدون مال ؛ لتحقيق الجاه: الإنسان لا يستطيع أن يكرم الآخرين بدون مال ؛ لإظهار المحبة: الإنسان لا يبرهن عن محبته إلاّ بالمال ؛ لتحقيق كل شيء: كل شيء يشترى بالمال.

هكذا، ينمو الولد ويتطور عقله ويتعلق بكل هذه المفاهيم. فهو يرى أن ذهابه إلى المدرسة وحصوله على الشهادة ليس إلاّ لتحقيق هدف اجتماعي ومركز مرموق، ويشعر أن كل ما يدعوه أخلاقاً لا يعد وسيلة لكسب المال أو الجاه. لذلك، فإن تربيته تتجه نحو تحقيق الذات التجمعية. وهكذا، يتعلم الأولاد أن يحققوا المفاهيم التي وجدوها لدى آبائهم وسمعوها منهم. وهذه المفاهيم الخاطئة تسود وتسيطر على عقولهم فيعملون من أجل تحقيقها. ويصبح عملهم هذا مرتبطاً بتحقيقها في الحلقة الاجتماعية. وهكذا، يصبح المجتمع الذي سيعيشون فيه والصفات التي سيتصفون بها نتيجة حتمية لما تعلموه وتلقنوه. وهكذا، يصبح الأولاد عبيداً لتلك الأوصاف والمفاهيم والقيم التي تعلموها دون أن يعوها.

هذا هو ما يتعلمه الأبناء من آبائهم. ولكن، ماذا يجب أن يعلِّم الآباء الأبناء؟

يجب أن يعلموهم المحبة وبالتالي التضحية.

يجب أن يعلموهم حب التعاون لكي يقضوا على فرديتهم، وليكونوا فعالين في المجتمع.

يجب أن يعلموهم أن العمل المثمر هو الوسيلة الوحيدة للمعيشة.

يجب أن يعلموهم الشجاعة الأدبية الحقة لكي لا يكونوا جبناء.

يجب أن يعلموهم أن يهدفوا إلى معرفة الحق لكي يسيروا على درب الحقيقة.

يجب أن يعلموهم العمل المجدي والنافع اجتماعياً.

يجب أن يعلموهم أن العلم مرهون بمنفعة الإنسان، لتطوير معرفته، وأن الإنسان وُجد في الحياة ليفهم وليعرف، وأن المعرفة هي الغاية السامية في هذه الحياة.

يجب أن يحثوهم على الفضيلة لأنها تمثل الغاية القصوى للمعرفة.

يجب أن يعلموهم أن اللذة تختلف عن السعادة. اللذة مؤقتة وتتعلق بعمل آني، بينما السعادة هي دوام غبطة الإنسان، وتعقله وتحقيق الخير والصلاح.

يجب أن يعلموهم أن يوجهوا قواهم وطاقاتهم نحو المجتمع، وأن يعملوا لأجل منفعة الآخرين. هذا، لأن قيمة الإنسان تكمن في قدرته على التضحية بفرديته.

يجب أن يعلموهم أن قيمة الإنسان هي في عمله الحقيقي، في فضيلته، في تواضعه، في احترامه للغير، في أخلاقه وفي معرفته وعلمه ووعيه.

يجب أن يعلموهم أن النجاح يختلف عن العظمة. فالناجح هو الإنسان الذي يأخذ أكثر مما يعطي ؛ هو تاجر يعبث بالقيم. أما العظيم فهو الإنسان الذي يعطي أكثر مما يأخذ، هو عامل مفيد.

يجب أن يعلموهم أن الإنسان يستطيع أن يكسب عيشه بالطرق الشريفة، وأن العظيم هو الذي يكسب بالحق، ويعمل دون أن يجني ثمار عمله.

يجب أن يعلموهم أن التواضع الحقيقي يعبر عن عظمة الإنسان ويقربه من الفضيلة والحقيقة.

يجب أن يعلموهم أن المظاهر الاجتماعية لا تعادل الحقائق التي خلقت في الإنسان ولأجله.

يجب أن يعلموهم ألاّ يتكبروا على الغير، وأن يحترموا كل كائن بشري مهما كانت منزلته، أو نوع عمله، أو عرقه أو لونه.

يجب أن يعلموهم أن يتحملوا المسؤولية وألاّ يتهربوا منها. وكلما كان الإنسان مسؤولاً كان عظيماً. والمسؤولية هي أن يكون الإنسان مسؤولاً عن نفسه وعن الجميع.

يجب أن يعلموهم ألاّ يبيعوا أنفسهم لتكون إنسانيتهم صادقة.

يجب أن يعلموهم ألاّ يخافوا من المجهول لأن الخوف طاقة مدمرة لقوى الإنسان.

إن حضارتنا تبني مؤسساتها على كل ما يجهله النشء الجديد. هي حضارة تذوي وتموت ما دام الأولاد ينشأون على تقاليد عامة لا تمت إلى واقع الحياة وعظمتها بصلة. هكذا، ينشأ الجيل على مفاهيم تعد «مظاهر» حضارية. فالحضارة هذه هي حضارة المظاهر.

تقوم حضارتنا على مفهوم الخوف، هذا الوهم المدمر، ولا يعيش فيها إلاّ الجبان. وأما الجبان فهو الضعيف الذي يكذب ويتهرب من المسؤولية ويلقي بها على عاتق غيره. أما القوي، القوي الذي لا يخاف ولا يتهرب من المسؤولية ويقول الصدق ولو على نفسه، فهو الذي يبني الحضارة.

ولماّ كانت حضارتنا لا تعتمد على القوي، لذلك فهي حضارة الضعف والتهرب... التهرب من الحق... والإنزواء في خفايا الذات التجمعية والفردية والأنانية.

ولماّ كانت حضارتنا هي حضارة المهارة الزائفة، فهي تلك الحضارة البائسة التي تؤدي بالأبناء إلى «تربية» شهواتهم وانفعالاتهم ولاعقلانيتهم. إنها حضارة مدمرة لأنها لا تمت للإنسانية بصلة.

الرسالة الخامسة

مفهــوم الــزواج

صديقي...

لا أوافقك تماماً. إنك تتهمني بالمثالية المتعالية. وأنا، من جهتي، لا أتنكر لهـذه المثالية إذا قيست الأمور بالمجتمع الذي يعيش فيه المرء. وحقيقة القـول هـي أن كـل مـا أتى في رسائلي السابقة يمكن أن يوضع موضع التنفيذ.

صديقي، أيمكن أن يتطور الإنسان إلى الأفضل ما لم يسمُ في عالم المثـال؟ وكيـف يمكن رسم صورة عن المستقبل ما لم نتجاهل الوقائع التي تثيرنـا وتوقـظ فينـا الانفعـالات الغافلة؟ وإذا لم يفعل الإنسان كما ذكرت فإنه سيبقى في عالمه المتخلف.

أنا لا أستطيع أن أحكم على النـاس أو أدينـهم. لكـني أقـدر أن أنظـر بعيـني، وأسمع بأذني وأتصور بعقلي. وأجدني أرسم لمجتمعنـا صـورة. لذلـك، أردت في رسـالتي هذه أن أحدثك في الزواج.

رأيت الناس يتزوجون لأجل المتعة.

رأيتهم يتزوجون لإنجاب الأطفال وخوفاً من الشيخوخة.

رأيتهم يتزوجون لأنهم يرغبون أن يفعلوا كما يفعل غيرهم أو كما فعلوا.

رأيت الناس يتعلقون بالمفاهيم التالية:

يُقبل الفتى على الفتاة «الجميلة».

تقبل الفتاة على الشاب «الظريف».

يقبل الشاب على الفتاة الغنية.

تقبل الفتاة على الشاب الغني.

يقبل الجميع على المراكز الاجتماعية وعلى الإعجاب بالمنازل التي «دكّها» أصحابها بالأثاث الفاخر.

رأيتهم جميعاً يضعون شروطاً لزواجهم.

رأيتهم يبتهجون بالمجوهرات، بالذهب والمال ويعتبرونها شرطاً أساسياً من شروط الزواج.

رأيتهم جميعاً يُشترون ويباعون.

رأيتهم جميعاً يتعلقون بهذه المفاهيم ويهملون قيم الشخصية. ويقيمون وزناً للملكية الإنسان المادية بينما يهملون الإنسان، ويغضون الطرف عن كرامته وشرفه.

رأيت الشباب يتأخر بالزواج لأنه أصبح لا يطيق شروطه وقيوده.

رأيتهم يتأخرون بالزواج ليصبحوا «أهلاً له».

وتضيع عليهم فرصة ذهبية... أضاعوها في اللهو والتسلية على حساب أخلاقهم.

وتضيع الفرصة على الشاب والفتاة.

فيقبلان بزواج بيع وشراء.

ويقبلان بزواج مصلحة وتفاصيل متعددة.

ويتجردان من الإدراك والمحبة والتفاهم.

ويقضيان على المفهوم الأسمى للزواج... مفهوم إبداع الإنسان ومسؤولية مجيئه إلى هذا العالم.

يبقى مفهوم الزواج متدنياً لأنه يعبر عن رغبة أو مصلحة خاصة. ويعد هذا المفهوم سلوكاً أنانياً لا يمت إلى كيان الإنسان بصلة. وهكذا، يبقى الزواج متعة لأنه ظل في إطار الرغبة والمصلحة.

هناك قلة من الناس يتزوجون للأسباب التالية:

يتزوجون لأنهم يبحثون عن صديق، ويريدون العيش والحياة معه. فما أجمل الصديق وما أعظمه!

يتزوجون لأنهم يريدون أن يشاركوا شخصاً معيناً وجودهم وقيمهم ومفاهيمهم.

يتزوجون لأنهم بحاجة إلى المحبة والعطف والرأفة والحنان والتضحية.

يتزوجون لأنهم يريدون أن يُحيوا طاقة طبيعية تفعل فيهم وتهدف إلى تحقيق غاية كونية.

يتزوجون لأن الزواج مكمل للجسد والروح معاً. وهل يتم الخلق، على مستوى كوكب الأرض، بدون زواج اثنين؟

يتزوجون لأنهم ذكر وأنثى وُجدا متزامنين ومتساويين ومتكاملين.

يتزوجون لأنهم يعتقدون أن الجسد هو إناء الروح، والروح من الوجود الكلّي.

لذا، كان الجسد هيكل الروح. وكان الزواج تحقيقاً لوظيفة الروح في العالم الأرضي.

يتزوجون لأنهم يعتقدون أن الزواج فضيلة وبالتالي علاقة سرّانية، وعودة بالثنائية إلى الوحدة البدئية.

يتزوجون لأنهم يقدسون ثمرة الزواج والوسيلة التي أتت بها هذه الثمرة.

يعد الزواج قانوناً طبيعياً وكونياً: هو حلول الروح في عالم الجسد. هو غيبوبة أو نشوة الشعور والحس، نشوة تجعل من المادة هيكلاً... هو لقاء الروح والجسد.

مبارك هو الزواج لأنه قانون كوني.

يتم الزواج بمعزل عن المال والمجوهرات.

يتم بمعزل عن الحفلات الباهرة والمظاهر الخداعة التي يعقبها الخصام وعدم الاتفاق.

يتم بمعزل عن المطالب العديدة والتفاصيل الكثيرة.

يتم الزواج بالاتفاق الروحي والتفاهم النفسي وتقارب الأذواق وانسجام الآراء والتضحية المشتركة.

يتم بالاحترام المتبادل والحب الخالص.

ليت حضارتنا صحيحة... ليتها لم تصب بمرض عضال. ليت مفاهيمها تستقيم وتجعل منها مبادئ طبيعية وعظيمة.

ليت حضارتنا حضارة الزواج الصحيح.



الرسالة السادسة

المظاهر الاجتماعية

صديقي...

أنقذني جوابك وخلصني من مأزق كبير. وكدت أن أتردد في الكتابة لولا أنني لست في كتابتك تجاوباً وتأكيداً لما أقول. وكادت عزيمتي أن تفتر، وكاد الوهن أن يدب في أوصالي. وكدت أنهي كتابتي هذه لو أنني لمست اللامبالاة في رسالتك.

إن تشجيعك لي مهم للغاية. وأنا أشكرك من أعماق قلبي. وسروري قد صدر عن تفهمك لهذه الوقائع التي أعتبرها أساسية في حياة الإنسان. أليس من السخف أن نفهم الأمور ونتبناها كأولئك الذين لا يعبأون بمثاليتها؟ أليس من الحماقة أن نتصرف على نحو مجرد من التفكير العميق والمعرفة الأكيدة؟ أليس من المخجل أن نجهل قوانا وطاقاتنا؟ أليس من المخجل أن تموت هذه الطاقات أو تبقى خاملة؟ أليس من الجهل أن نهمل معرفة النظام الطبيعي للكون؟

هكذا، أنطلق من نقطة أعتبرها قيمة طبيعية ومبدأً عقلياً شاملاً. فالطبيعة قد زودتنا بقيم ومبادئ لا تتبدل ولا تتغير. ولذلك، يجب أن نحيا في وفاق معها، وألاّ نشذ عنها. وكل شذوذ عن المبادئ الطبيعية هو انحراف عنها وبالتالي تصرف يؤدي إلى الضرر والفساد والشقاء. وكل من يسير على قاعدة الطبيعة يسير على طريق الحق. إن الطبيعة قد علمتنا المثال. ولذلك، فإن كل مبدأ طبيعي هو مثالي أو عقلي.

ليست المثالية ما يعتبره الناس خيالاً أو وهماً أو مسألة يصعب تطبيقها. المثالية هي الواقع الطبيعي الذي يصدر عن العقل وليس عن الإحساسات المباشرة التي تخطئ. لذلك، هي مبدأ طبيعي. هذا، لأن الطبيعة لم تخلق إلاّ المثال الكامن فيها، المثال الذي يعود بالخير والصلاح.

إن ما نراه من فوضى وشقاء وتعاسة الناس يعود إلى أنهم تجاهلوا القوانين الطبيعية. لقد جعلوا من الزواج مفهوماً اجتماعياً زائفاً. لذلك، تنبههم الطبيعة بشتى الوسائل إلى انحرافهم. وجعلوا من المحبة والعطف والرأفة قاعدة اجتماعية تتمثل في الكذب. وهكذا، تنبههم الطبيعة بوسائلها الخاصة أي بما نراه من خصام وأنانية وتعاسة في المجتمع. وجعلوا من التربية الطبيعية وسيلة لامتداد ذواتهم وأنانيتهم. وهكذا، تنبههم الطبيعة بالفروق القائمة بين الآباء والأبناء، وبالاختلافات على صعيد العائلة، وبالمساوئ الناتجة عن عدم سيادة المحبة.

يدعونا القانون الطبيعي، الماثل فينا، إلى عدم الانحراف عنه أو الشذوذ عن مبادئه الكونية. فالنبات الذي يعيش بدون حرارة الشمس ونورها لا بد وأن يذوي ويذبل ويموت. والإنسان الذي تتعارض مفاهيمه مع مبادئ الطبيعة ينحدر ويُغلب، وذلك لأن القوانين الطبيعية تهدف إلى المثال أي إلى الخير. ومن يتجاهل المبادئ الكونية ينحرف ويصيبه التحول ويعتريه المرض وتلاحقه التعاسة. لقد تمرد الإنسان على المبادئ الطبيعية فعاقبته... لا بل عاقب نفسه.

ولما كانت المبادئ الطبيعية قائمة في المثال، فإن كل مبدأ طبيعي يعتبر مثالياً. وما لا يحتفظ بمثالية الطبيعة ينحرف إلى واقع المجتمع. هذا، لأن غالبية المفاهيم الاجتماعية التي يعتبرها أصحابها واقعية تقف في تضاد مع الطبيعة. إذن، هي غير مثالية. ويعد كل ما نراه من تعاسة الناس وشقائهم نتيجة لخروجهم عن المبادئ الطبيعية التي هي أخلاقية في جوهرها.

ألقيت نظرة على الشبان والشابات فوجدت أنهم فقدوا الكثير من المثالية. لقد اتصفوا بالاصطناعية وأضاعوا الكثير من القيم. وهكذا، أصبح عالم الشباب خالياً من القيم. وماذا يمكن أن يحركهم ما داموا قد تجاهلوا قيم حياتهم؟ تحركهم أهواؤهم التلقائية وأمانيهم التي جللوها بانهزاميتهم، وآمالهم التي أقاموها على أسس فردية واهية، وأخلاقهم التي أهملوها وتركوها في مكان مظلم من باطنهم، وفوضويتهم التي لا تعرف النظام والتي جعلت منهم ألعوبة وتحكمت في نفوسهم حتى شوهتهم، وتصرفاتهم الصبيانية التي تحرك فيهم انفعالات ونزعات لا حصر لها، وأنانيتهم التي زرعت في أعماقهم بسبب الاضطراب والقلق، وكبرياؤهم الفارغة التي لا تقوم على أساس من احترام الشخصية، وعقائدهم الجامحة التي لا تتبلور بهدف يسمو ويعلو. أصبح عالم شبابنا خالياً من القيم والفضائل... وأصبحوا يتخبطون في عالم خلقوه معتقدين أنه العالم

الحقيقي لوجودهم. فهم في حيرة وقلق... لماذا يقلق الشباب إن كانوا يمثلون عنصر القوة في حياة الإنسان؟ إنهم يقلقون ويضطربون لأنهم لا ينظمون قواهم وفعالياتهم. وهكذا، يقعون في ظلمات الفوضى. وتضطرب عقولهم ومشاعرهم فلا يجدون لها موضعاً في التركيز والتحمل والتفكير. وهكذا، فهم يحولون طاقاتهم إلى اللهو وعدم التركيز، إلى اللامبالاة واللاهدفية. وهكذا، يقعون في تيار الفوضى، هذا الضياع الذي لا يقف عند حد مادامت حدود تمرّد اللاوعي غير مرئية.

ماذا حل بشبابنا؟ لِمَ لا يهتمون إلاّ بقشور الحياة؟ لِمَ لا يسعون إلى تحقيق هدف نبيل؟ لمَ لا يعرفون من الحياة إلا الأهواء والنزوات؟ لمَ لا يحولون طاقاتهم إلى إبداع وخلق؟ لمَ لا يقرأون ويتفهمون ويدركون المزيد عن الوجود، المزيد عنهم، المزيد عن الحياة؟

أصبح شبابنا لا يهتمون إلاّ باللباس والمظاهر الاجتماعية الخادعة. لقد أبعدوا عن عقلهم كل علم حقيقي وكل عمل نافع وكل حقيقة واضحة. وانساق شبابنا وراء أهوائهم الفردية محاولين تحقيق المظهر دون الحقيقة. لقد أغرتهم المظاهر حتى صعقتهم، وجمدت عقولهم، وأثارت غرائزهم وقتلت فيهم روح البناء. وهكذا، بدأت الحضارة تموت.

فإذا كان عنصر الشباب قد وهن وداهمته سيول اللاهدفية واللامبالاة، فإن المجتمع يحتضر والحضارة تتقهقر وتستسلم لعوامل غير طبيعية. لقد جعلت الطبيعة من الشباب عنصر القوة ورمز الجهاد وذلك من أجل تحقيق هدف الحياة. وإذا كان الانحراف قد حولهم من عنصر قوة إلى عنصر وهن، ومن عنصر جهاد وعمل إلى عنصر كسل وخمول وعقم، فإن الحضارة تحتضر.

ألا يخجل الشباب الذي لا يفكر إلاّ باللباس والزينة؟

ألا يخجل الشباب الذي لا يهتم إلاّ في إرواء غرائزه وانفعالاته اللاواعية؟

ألا تخجل الفتاة التي لا تعرف شيئاً عن أمور مجتمعها أو عن العالم ؛ الفتاة التي لا تهتم بالعالم، بالفقراء والمساكين الذين هم بحاجة إليها؟

ألا تخجل المرأة التي ترتدي ثوباً ثميناً؟ هل يتحمل جسدها ثقل هذا الثوب؟ ألا تفكر بالعدد الكبير من الناس الذين لا يجدون ما يسترون به أجسادهم؟

ألا تخجل المرأة المتكبرة من ارتداء معطف فرو لم يكن أكثر من جلد على جسم حيوان لم يعرف الكبرياء؟

ألا يعني هذا أن المرأة لا تحقق وجودها بالفضيلة والمعرفة؟ ألا يعني أنها تجهل الكثير عن الحياة والوجود الحقيقي؟ ألا يعني أنها أنانية لا تهتم إلاّ بمظهرها وأهوائها؟ ألا يعني أنها لا تفكر بغيرها؟

ماذا تعرف الفتاة أو السيدة عن الضرائب التي ترهق كاهل المجتمع؟ ماذا تعرف عن الفقراء الذين لا يجدون مأوى؟ ماذا تعرف عن المساكين الذين يقيمون في منازل بسيطة؟ ماذا تعرف عن الجياع؟ ماذا تعرف عن دنياها وسبب وجودها؟ كيف إذن تستطيع أن تلبس ثوباً ثميناً؟

ألا تخجل المرأة عندما تعرف أن ثمن ثوبها يكفي لإشباع مئات الأفواه؟

ألا تخجل روح الإنسان ويخجل عقله من اللباس الثمين؟ وهل يتحمل الجسد، الذي حلّت فيه الروح، وزن اللآلئ والماس والذهب والرداء الذي كلف الكثير؟

ألا يخجل الرجل أن يخضع لنزواته ونزوات زوجته؟ ألا يحتقر نفسه عندما يصبح عبداً لأهوائه؟ ألا يندى جبينه خجلاً عندما يتعلق بمظاهر خالية من الحقيقة؟

ألا يخجل الناس أن يخضعوا لشهواتهم وينقادوا لها؟ ألا يعلمون أن الخضوع والانقياد للشهوات هو سلوك غريزي لا يخضع لتحكيم العقل؟ إن من يفكر يعقل، ومن يعقل يعلم، ومن يعلم يتحرر من عبودية الجهل.

لقد ماتت الحضارة وماتت روح الإنسان ولا نرى سوى المظاهر.

لقد تحول الشباب من عنصر الحياة إلى عنصر الموت تدريجياً.

لقد تقهقر تفكيرهم وتحولت طاقاتهم إلى أعمال لا تطابق المبادئ الطبيعية. وهكذا، فقد خرج الناس من الطبيعة ودخلوا المجتمع الذي خلقوه المجتمع الاصطناعي.

من أجل هذا الخلق الاصطناعي سقط آدم... ومن أجله سقط الإنسان... ومن أجله تقاتل قايين وهابيل... ومن أجله ماتت الحضارة.

يكمن شقاء الإنسان في هذه المظاهر. فإذا تحرر منها، تحرر من الجهل والغباء، من اللاهدفية واللامبالاة، ومن عبودية الشهوات.

يجب أن يكون الشباب هادفاً، صاحب غاية رفيعة.

يجب أن يترفع الشباب عن كل المظاهر الخادعة.

يجب أن يعمل الناس لما هو أهم... لأجل خلودهم في عالم الحقيقة.

يجب أن يتعلم الإنسان أن هناك عالماً أفضل في هذا العالم الذي نحيا فيه ونعيش، عالم القيم والمثال، عالم تحقيق الكيان، عالم تحقيق المبادئ الطبيعية والأبدية.

يجب أن يستيقظ الإنسان من سباته العميق.



الرسالة السابعة

المفاهيم والقيمة الإنسانية

صديقي...

لقد صدقت في ما تقول. لم يخلق الإنسان وفي عنقه طوق من اللآلئ أو عقد من الماس. لم يخلق الإنسان وجيوبه ملأى بالمال وجسده مغطى بالثياب البراقة. لقد خلق الإنسان ببساطة وتواضع. أما جميع هذه الأمور، وعلى رأسها المال، فقد وجدت للاستعمال البريء النافع، كما وجدت لتكون وسيلة للتبادل. إنها لم توجد كقيمة مطلقة... هو الإنسان الذي خلقها... هو الذي أبدعها... هو الذي وضعها تاجاً على رأسه... هي الدعاية التي بالغت بتلك البدع... هي سخافة المرء التي نحتت تمثالاً لتعبده.

هذه هي حضارة الإنسان البائسة... الحضارة الزائفة التي خلقها... حضارة المظاهر السخيفة. حضارة قيمه ومفاهيمه التي تتعلق بالقشور الخارجية. لقد فعلت هذه الحضارة فعلها، فجعلت من الإنسان مسخاً. وعندما وُجد الإنسان، وُجد بأجمل صورة، واتصف ببهاء المبادئ الكونية. لذا، كان وجود الإنسان رمزاً للمثال الكوني. لذلك، كان الوجود جميلاً، وكان الوجه، وهو المعبر الأول عن صورة المثال، جميلاً وجميلاً جداً. فكيف نسمح لأنفسنا أن نمسخ صورة الكون الجميلة ونشوهها بأعمالنا المصطنعة التي خلقناها وصغناها، فكانت غير طبيعية؟ وهل أن هذه المظاهر تضيف إلى جمال الإنسان جمالاً؟ وهل يعتبر كل إنسان نفسه جميلاً؟ وماذا عن القبيح؟ هل تزيده المظاهر جمالاً؟

لقد مسخ الإنسان نفسه حتى بات مظهراً. وهكذا، أصبحت الحضارة مظهراً. ألا نعتبر أنفسنا متحضرين إلاّ إذا جعلنا من هذه المظاهر هدفاً لنا؟ ألا يحب الرجل زوجته إلاّ إذا قدّم لها الماس والذهب؟ ألا تحب الزوجة زوجها إلاّ إذا قدّم لها الماس والذهب؟

ألا تعتبر المرأة مخلصة إلاّ إذا بدت «بأبهى» زينة «وبأجمل» منظر؟ ألا يستحق الإنسان الحياة إلاّ إذا تحلى بهذه المظاهر؟

هل يستطيع كل فرد أن يحصل على هذه الأشياء؟ يوجد الملايين من الناس الذين لا يتمكنون من تحقيق أمر كهذا. ألا نعتبر هؤلاء بشراً متحضرين؟ وهل نستطيع أن نجردهم من الحضارة؟ ألأنهم لا يقتنون مثل هذه الأشياء نجردهم من «أوصاف» الحضارة ونسلط عليهم سيف الموت والشقاء؟

لقد تفشت أمراض الحضارة البائسة في الإنسان، فأصبح ينظر إلى عقد يطوق الجيد ويهمل الوجه. ومتى كان العقد أجمل من الوجه؟ وهل يتخلى الإنسان عن أجمل ما فيه لكي يجذب الأنظار إلى قطعة من المعدن كانت مدفونة في باطن الأرض؟ وهل يتجاهل الإنسان تعابير الوجه والابتسامة النيرة والنظرات العميقة والملامح الإلهية لكي ينظر إلى قطعة من المعدن أو قطعة من القماش؟

يصعب علينا أن نجد المرأة العظيمة والرجل العظيم. لقد انساق الجميع وراء شهواتهم ودوافعهم الفردية. لقد تحول الإنسان من كائن إنساني يمثل الألوهة إلى كائن اجتماعي يمثل المفاهيم الاجتماعية السائدة. لقد تنكر للمبادئ الطبيعية وللقانون الأسمى الذي يحكم هذا الكون. ولذلك، فقد خضع هذا الإنسان لقوانينه هو، قوانينه التي تمتاز بطابع الزوال والتبدل والموضوعية.

كيف ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى غيره؟ لقد تبلور موقف الإنسان من نفسه، من سلوكه ومن غيره. فالفرد الذي يمتلك المفاهيم الاجتماعية يُعتبر الشخص القوي الذي يُحترم ويُطاع. لقد طغت المفاهيم الاجتماعية وأصبح الإنسان يُقاس بها. وهكذا، وُجدت الفروق بين الناس. فتميز الواحد عن الآخر بسبب هذه الفروق المصطنعة التي تعتبر من خلق الإنسان الراغب والمتملك.

ما هي الصفات التي يجب أن توجد في الفرد لكي يعتبر ناجحاً وقوياً ومحترماً في المجتمع؟ هي الصفات الاجتماعية التي تجعل منه غنياً أو صاحب جاه أو صاحب مرتبة أو صاحب محتد. أما المدخل الرئيسي لهذه الصفات فهو المال. فالمال مقياس فظيع للحضارة البائسة في الوقت الحاضر وفي كل وقت. وما هي الصفات الأخرى التي يجب أن تتوافر في مثل هذا الفرد لكي يعتبر ناجحاً وقوياً ومحترماً؟ هي الصفات الاجتماعية الأخرى التي يعتبر الناس صاحبها قوياً... فيعرف كيف يسلب غيره ويتسلط عليه.

ويعرف كيف يكون حاذقاً فيتهرب من مسئولياته وأقواله ويماطل ويسوّف. ويعرف كيف يعتمد على عادات «مهذبة» فيقنع الغير «بلطفه» ويخدعهم بتصرفاته «اللائقة»، ويتقلب في كل الأوجه، ويتغلب على صعوباته بكل الوسائل. فإذا امتلك الفرد هذه الصفات أصبح ناجحاً في المجتمع.

هكذا، تقوم حقيقة الإنسان الاجتماعية على هذه الصفات المادية والمعنوية الظاهرية الزائفة. وتكون الصفات المعنوية وسيلة للحصول على المادية. فلا يستطيع المرء أن يصبح غنياً ما لم يتخذ من الكذب والمهارة والتصرف بلباقة واستغلال الظروف وسائل له. وتكون الصفات المادية وسيلة للحصول على المعنوية أيضاً. فلا يستطيع المرء أن يكون صاحب سلطة أو جاه أو مركز ما لم يكن لبقاً ومدعياً، ويستند على جدار من الذهب. وهكذا، تقوم المفاهيم الاجتماعية على هذه الوسائل المختلفة المعتمدة لتقييم الإنسان.

أين هي القيمة الحقيقية للإنسان؟ هل هي في هذه المظاهر المتقلبة التي لا تستقر؟ وإذا أخذناها بعين الاعتبار، ألا يمكن أن ينقلب المرء فيها من سيد إلى مسود ومن ثري إلى فقير، فيفقد القيمة التي كان يعتمد عليها والتي كانت قد حددت سلوكه وموقفه الاجتماعي؟ وعلى هذا الأساس، يتبدل الإنسان بتبدل القيم الاجتماعية الزائفة. إذن، لا قيمة حقيقية للإنسان في المجتمع، وذلك لأنه يعيش في عالم من فوضى القيم التي خلقها بنفسه وطبقها على نفسه، فثارت عليه وطغت وأخضعته لها... فأصبح عبداً.

هل تجثم قيمة الإنسان في أخلاقه أم في شخصه المهذب، أم في صدقه واستقامته، أم في كرامته وشرفه ونبله؟ أين تقع هذه المفاهيم الجديدة؟ إنها تقع في عالم القيم التي يطلق عليها عنوان الفضيلة التي لا تطبق في المجتمع. فهل حُكم على المجتمع أن لا يحقق شيئاً من هذه الفضيلة وأن يبقى خاضعاً لمفاهيم الذات التجمعية التي تجعل من الإنسان عبداً؟

كيف ينظر الغني إلى الفقير؟ وكيف ينظر إلى منظف الطرقات؟ وكيف ينظر إلى بواب منزله؟ كيف ينظر صاحب الجاه إلى الفقير؟ كيف ينظر ذوو الألقاب الاجتماعية إلى غيرهم ممن حرموا منها؟ كيف يعتبر الثري العامل الذي يعمل عنده ولأجله؟ كيف بنظر إلى موظف في إحدى دوائره؟ ألا يعتبر هذا الثري أن فارقاً اجتماعياً كبيراً يقوم بينه وبين من ذكرناهم؟

أين تكمن قيمة الإنسان؟ وما هي الأسس التي نعتمد عليها لتقييم الإنسان؟ هل نعتبره مساوياً لغيره في القيمة ؟ إنه لكذلك. فلماذا توجد هذه الفوارق المادية المتعددة والمصطنعة؟ لقد أقامت هذه الفوارق حواجز عائقة بين الإنسان والإنسان. لقد دكت عرش محبة الإنسان للإنسان وقضت على مفهوم مساواة الأخ لأخيه... فتقاتل قايين وهابيل.

وُجد الجوهر الإنساني الواحد وتميز الإنسان بصفات كونية. وعندما تعددت الأعراف والأنواع البشرية، قام اختلاف شديد بينهم، فتملك بعضهم بينما بقي البعض الآخر بدون ملكية وعمل بعضهم بينما بقي البعض الآخر بدون عمل. وتسلط بعضهم بينما بقي البعض الآخر بدون سلطة. ورتب بعضهم لأنفسهم مراتب خاصة بينما لم يفعل الآخرون مثلهم. وأقام بعضهم لذاتهم خصائص حرموا منها الآخرين.

كانت تلك الفوارق، ولا تزال، مصطنعة. وبقي الإنسان إنساناً ولم يتبدل. وماذا تبدل في الإنسان؟ هل يختلف الإنسان الفقير عن الإنسان الغني بإنسانيته وكيانه؟ هل تتبدل القيمة، أي الروح، التي تجسّدت في المادة؟ هل أن المفاهيم المصطنعة التي أوجدها الإنسان كفيلة بأن تبدل في قيمته وجوهره؟

لقد ضاعت قيمة الإنسان في المجتمع. وماتت هذه القيمة لأن الإنسان لا يبحث عن قيمته وجوهره بل يحاول أن يتملك الوسائل التي يعتبرها الأداة أو القيمة التي تجعل منه ذاتاً اجتماعية. وهكذا، فقد انحرف الإنسان عن حقيقته التي وُجدت فيه منذ الأزل وتعلق بخلقه، بمفاهيمه، بقيمه التي جعل منها صنماً يعبده. لقد عبد المال فاعتقد أن حصوله عليه يرفعه إلى مصاف الآلهة. وعبد الجاه، فاعتقد أنه، بحصوله عليه، يحقق قيمة أضاعها. واعتقد أن الناس لا يمجدونه ولا يحترمونه ولا يخافونه إلاّ إذا تسنّم المرتبة التي ينشدها.

هذه هي حضارتنا! الحضارة التي تقوم وتعتمد على وسائلها وصفاتها الخارجية، ومظاهرها التي تتمثل بالجاه والغنى. إن حضارتنا هي حضارة عدم احترام القيمة الإنسانية وعدم تقييمها. لذلك، فشلت جميع أنظمة الحكم، بما فيها الديموقراطية. ومتى كانت الحضارة قائمة على هذه الأسس، فإنها تموت ويموت معها الكائن الحي.

الرسالة الثامنة

التصنيف الاجتماعي

صديقي...

أنا لم أقصد، فيما سبق وكتبت، أن الإنسان يستطيع أن يتخلى تماماً عن المفاهيم التي ذكرتها. لقد قصدت أن يعمق فيها الإنسان روح المثال. وكما أعتقد أن كل مفهوم في هذه الدنيا يحمل رأسين يتمثلان بالإيجاب والسلب، والإنسان هو الذي يختار أحدهما أو يوفق بينهما. لذلك، تتوقف جميع الأشياء عليه ؛ فهو الذي يقرر ويختار ويريد وينفذ، ولا أحد غيره يجعل من الأشياء مفاهيم حية. وهكذا، نفهم الحرية. إن المفاهيم لا تعقل ولا تفكر ولا تريد ولا ترغب ولا تختار الناس. هي صفات مجردة من المعنى إلاّ عندما يحقق فيها الإنسان إرادته... وبالتالي حريته.

لذلك، يخلق الإنسان الصفات والمفاهيم فتبدو خيراً أو شراً. ولا وجود للخير والشر معاً في جوهر الأشياء. إنهما يصبحان صيغتين بعد أن يجسد الإنسان فيهما المعنى والإرادة... فيصبحان مفهوماً. فالمفاهيم والقيم كلها من خلق الإنسان، وتحمل معنى الشر ومعنى الخير لأن الإنسان هو الذي صاغها في هذا القالب.

إن جميع الأشياء في الطبيعة تعمل مع الإنسان الذي يعرف حقيقة كيانه. ولمّا كان الوجود خيراً في جوهره، وكانت الأشياء كلها خيراً في حالتها الطبيعية، فإن كل شيء هو خير في هذا الوجود. فمن أين يأتي الشر؟ إنما الشر من صنع الإنسان. فهو الذي يصوغ الأمور ويضع لها قيماً ومفاهيماً، ويختارها ويريدها... وهكذا يعبر عن حريته.

هكذا تتحول القيمة الأصلية للجوهر إلى قيمة مصطنعة وغير حقيقية. وتفقد الأشياء ميزاتها ومفاهيمها الأولى. ولا يبقى منها إلاّ الشكل، ويعطيها الإنسان معنىً جديداً يتفق مع أهوائه وميوله. والطبيعة ذاتها لم تفرق بين الأشياء ولم تُكسب جوهراً صفة أكثر مما أكسبته لجوهر آخر. وهكذا، تعمل الطبيعة، التي هي الوجود الظاهري،

على تقييم الأمور كلها بالخير والبركة. وهنا، تدخل الإنسان فأكسب الجواهر صفات معينة تتدرج من سيئ إلى أسوأ ومن حسن إلى أحسن. وهذا لا يعني أن الصفات الحسنة التي أكسبها لبعض الأشياء هي حسنة، كما لا يعني أن الصفات السيئة التي أكسبها لبعض الجواهر الأخرى هي سيئة، بل أن تقييمه هذا كان قائماً على رغباته وميوله وشهواته أي لاعقلانيته ولاهدفيته.

يعد المال وسيلة للتبادل لا أكثر ولا أقل ؛ وليس هو وسيلة للاحتكار والسيطرة. لذلك، فقد تحول من مفهوم عادي إلى صنم يعبد. ولماذا أصبح المال صنماً؟ لقد وجد الإنسان أنه يستطيع أن يحل مشاكله به فجعل منه وسيلة لبروز الأنا في المجتمع. لقد أصبح المال المفهوم والوسيلة التي تحقق رغبات الإنسان وشهواته ولامبالاته.

هكذا، تحولت القيم والمفاهيم الطبيعية إلى صفات اجتماعية، فانحرفت ؛ والانحراف تحول غير طبيعي عن المجرى الحقيقي. إذن، هو عرض من أعراض المرض. وكل انحراف هو مرض. لذلك، كانت الصفات والمفاهيم التي أوجدها الإنسان انحرافاً وبالتالي تحولاً عن المبادئ الطبيعية، فأصبحت مرضاً يحاول أن يجد الإنسان له دواءً.

لا تُقدّر الشخصية الإنسانية ولا تكرم كما يجب. وما لم نكرم الإنسان، فإننا نحتقره ونرذله. وأصبحنا لا ننظر إليه كإنسان بل ككائن اجتماعي يحمل صفة معينة: إن هذا الإنسان فلاح، إذن هو أقل رتبة ودرجة وأقل قيمة من «سيده» المالك. وهذا عاملٌ، إذن هو أقل رتبة ودرجة من قيمة «سيده»، رب العمل. وهذا موظف، إذن هو أقل رتبة وقيمة ودرجة من «سيده» المدير أو الوزير. وهكذا، تتدرج الصفات الاجتماعية ويُصنف الناس وفقاً لها.

ما هو المقياس الذي نتبعه في تصنيف الناس؟ لقد ذكرته في رسالة سابقة. ذكرت أن المال والجاه والمرتبة والمركز هي أمورٌ تعد عوامل مهمة للفروق بين الناس. ولا يعتبر هذا القياس صحيحاً لأنه لم يؤسس على قيمة الإنسان. لقد ضاعت قيمة الإنسان بين هذه العوامل العديدة، وبين هذا المزيج الغريب من المفاهيم النسبية. ولمّا كانت المفاهيم نسبية، فلا بد أن تكون نسبيتها نسبية أيضاً. ولذلك، فهي تتبدل وتتغير. وهل يمكن أن تخضع قيمة الإنسان للتبدل والتغير؟ إن قيمة الإنسان أزلية لأنها تمثل الوعي الكوني. وأما القيم الاجتماعية التي تخضع للتبدل فإنها نسبية ولا تعتمد على حقيقة. وبالرغم من ذلك، فإن هذه المفاهيم الاجتماعية أوجدت مقاييس عديدة وأوزاناً مختلفة للبشر أقامتها على

أساس من النسبية المتبدلة. وهكذا، يتقلب الإنسان في جحيم خلقه الزائف. وهكذا، فقد غرق في لجة من الأباطيل الكاذبة.

ولما كان هذا التصنيف لا يمت إلى الطبيعة بصلة، فيمكننا أن نعتبره شراً. لقد خرج الإنسان عن النظام الكوني الذي بواسطته انتظمت الكينونات. وقد وُضع الإنسان« الإنسان الواحد» ذو الجوهر الواحد، ذو الكيان الواحد، في رأس قائمة الوجود الأرضي. وتميّز هذا الإنسان بالصفات الوجودية الكاملة. وهكذا، تبوأ سيادة الوجود الأرضي. فالإنسان سيد وليس عبداً، عظيمٌ وليس حقيراً، وخيرٌ وليس شراً، وحاكم وليس محكوماً، وحر وليس مقيداً. والإنسان جوهر واحد وحقيقة واحدة. فكيف يستطيع أن يصنف نفسه وغيره ويبتدع مقاييس وأوزاناً متعددة؟ كيف ينقلب من سيد إلى عبد ومن حر إلى مقيد ومن خير إلى شر؟ ومن أوجد هذا التحول؟ أهو الوجود المحض؟ إنه الإنسان. ألا يعني هذا أن انحرافاً وتحولاً قد طرأ على الإنسان؟ وكيف طرأ هذا الانحراف؟ ومن استهله؟ لم يتدخل الوعي الكوني في هذا التحول لأنه قاعدة أبدية ونظام دائم وسرمدي لا يتبدل ولا يتحول ولا ينحرف... إذن، فقد تدخل الإنسان.

تدخّل الإنسان وتمرد على الشرائع الأبدية وانقلب على النظام . لقد تمرد الإنسان. وكان التمرد نتيجة اللاوعي والجهل. وفي تمرده هذا، قلب النظام إلى فوضى والشرائع الأبدية إلى شرائع متبدلة ونسبية. وتمرد على الوعي الكوني لأنه لم يدركه. فاتهم الوجود بالعبث واللاجدوى والتفاهة ونسب إليه أسباب شقائه. فكانت أعمال الإنسان كلها نتيجة اللاوعي... وكان تمرده... لقد استعاض الإنسان عن الجوهر بالمظهر. ولذلك نراه يتخبط في مفاهيمه ومقاييسه ولا يستطيع أن يخرج من أزمته... لقد قضى على نفسه بالشقاء.

اعتمد تصنيف الإنسان للأشياء على تغيير جوهرها. وكان تصنيفه لنفسه التصنيف الأكبر في نطاق التغيير. لقد حول جوهره إلى مقاييس وصفات متعددة. وأوجد له تصنيفاً جديداً. وكيف يستطيع أن يوجد تصنيفاً لجوهر واحد، دائم الصفات وأبدي القيمة؟ ألا يعني هذا أن الإنسان قد اعتدى على نفسه؟ ألا يعني أنه اعتدى على الوعي الكوني وسعى إلى تشويهه؟ هكذا، صنف البشر ووضعهم فوق بعضهم في سلم المجتمع... هكذا، خلق الإنسان درجات للإنسان... هكذا، وُجد التفريق والتصنيف.

هل رأيت حضارة خلت من هذا التصنيف؟ لقد حملت الحضارات بذور شقائها وتعاستها واضمحلالها. ويعود هذا كله إلى سبب واحد هو أن الحضارة البائسة لم تكرم الإنسان ولم تجعل من الناس قيمة واحدة. لذلك، وجد تفاوت كبير بين جميع الناس وانتهى مفهوم المساواة. وكيف يمكن أن توجد المساواة مادام التصنيف قائما بين البشر؟ كيف يمكن أن نحقق قيمة الإنسان في المساواة مادامت القيمة الجوهرية قد عدمت؟

حاول الإنسان أن يحقق المساواة بالشرائع والقوانين. والحق، أن هذه الشرائع تخرج عن نطاق مبادئ الطبيعة والكون. لقد ذكرت أن الإنسان قد حرف الطبيعة فخلق شرائعه المتبدلة بدلا من الشرائع الدائمة. ولما كانت الشريعة الطبيعية دائمة لا تتبدل، فإن شريعة الإنسان تنتج عن رغباته. ولما كانت شريعة الكون أبدية ودائمة، فإن شريعة الإنسان مؤقتة. إذن، فشريعة الوجود تقوم على جوهر ولا تفرق بين جوهر وجوهر. وعلى غير ذلك، تختلق شريعة الإنسان صفات متعددة للجوهر وتوجد تصنيفا مزيفا. لذلك، لم تأبه الشرائع للمساواة الحقة بين الناس لأنها لم تبنها على حقيقة المساواة المطلقة في الجوهر.

هكذا، سادت اللامساواة بين الناس. والشارعون الذين أرادوا أن يقللوا من شأنها من خلال القوانين المدنية، أضاعوا فرصة ذهبية لأنهم لم يفعلوا شيئا بهذا الخصوص. فالقانون الذي أشار إلى المساواة بين الناس أوجد حق التملك اللامتوازي وغيره من الحقوق التي تبقي على عدم المساواة. وهذا تناقض ظاهر يقوم في صلب الشرائع البشرية. هذه الشرائع التي تحاول أن تزيل تصنيف البشر بينما تبقي عليه شرائع أخرى وبأشكال أخرى، وبالتالي تؤدي إلى صراع عنيف. وهكذا، يفسر القانون ويشرح ويجتهد فيه وأخيرا يتبدل ليحل محله قانون آخر يعبر عن رأي السلطة الجديدة. ويبقي هذا التبديل على التصنيف لأن القانون أو الشريعة هو عمل من أعمال الإنسان الذي يضع خطة لإنسان آخر ؛ ليست الشريعة وثيقة كونية.

لا يمكن أن نفسر القانون الطبيعي أو الكوني إلا بتفسير واحد، وذلك لأنه يحمل جوهرا واحدا لا يتبدل ولا يطرأ عليه الانحراف والتحول ولا يزول. ولذلك، فإن هذا القانون الطبيعي أو الكوني الذي جعل الإنسان واحدا منذ الأزل وإلى الأزل، ما زال قائما إلى هذا اليوم. فلماذا نجد الفروق وأنواع التصنيف بين الناس؟ لقد خرق الإنسان الطبيعة وتحدى النظام الكوني. لذلك، نراه يتخبط في ديجور حياته المأساوية التي ملأها بالعذاب

والتعاسة. ولماذا جعل الإنسان من هذا التصنيف وسيلة لارتكاب الحماقات وأنواع الصراع الدامي بين الفئات الاجتماعية؟ لماذا حول الإنسان حياته إلى تعاسة وشقاء بينما جعلها الوعي الكوني مصدر سعادة له؟ إنه اعتدى على النظام وحوله إلى فوضى، وجعل من الجوهر الواحد مقاييس وأصنافاً عديدة لا يمكن أن تتوافق مع بعضها... وهكذا تتصارع؟

يتساوى جميع الناس في القيمة والجوهر. وتكون هذه المساواة حقيقية لا لأن القانون المدني أو الشرائع، التي تتجسد في الدساتير، تقرها بل لأن المبادئ الطبيعية والكونية قد أقرتها. وكيف أقرتها المبادئ الطبيعية أو بالأحرى كيف جعل الوعي الكوني الإنسان جوهراً واحداً؟

أصبح الإنسان مثالاً للوجود الأرضي، إذ تركزت فيه حياة هذا الوجود. فالإنسان إذن هو مثال الوجود الأرضي، وتتمثل فيه أعظم صفة للوجود ألا وهي الحياة. فالحياة متمثلة بالإنسان بأعلى صفاتها. لذلك، يحمل الإنسان صفة الحياة العليا. وتتدرج الحياة من عالم الجماد إلى عالم النبات إلى عالم الحيوان حتى تصل إلى عالم الإنسان.

إن تجسيد الروح في الإنسان دليل على أن تجسيدها في المادة يؤدي إلى المعرفة أي إلى إدراك المادة. ولما كان الإنسان يمثل أعلى صفة للحياة فقد وُجدت فيه جميع عناصر الكون. ولما كان الإنسان ممثلاً للحياة، فإنه يمثل أيضاً كيان الحياة والكون وتتمثل فيه جميع قوى الكون أي عناصره. وهكذا، يتوحد الإنسان مع الكون والوجود والحياة.

يمثل جميع الناس وحدة الإنسان لأنهم يعبرون عن جوهر واحد وكيان واحد. وهكذا، تكون المساواة بين الناس هي المساواة في الجوهر أي في كيان الحياة الواحدة ومثالها. وأين يقف التصنيف الذي يؤدي إلى اللامساواة؟ أين تقف الحضارة البائسة التي تقوم على هذه الأسس التي لا تعبر عن حقيقة الإنسان؟ إن الحضارة التي لا تبنى على حقيقة الإنسان هي حضارة زائفة.



الرسالة التاسعة

المساواة الجوهرية

صديقي...

حدثتك في رسالتي السابقة عن تصنيف البشر: هـذا التصنيف الذي يؤدي إلى التفريق بينهم، وبالتالي إلى لا مساواتهم. لقد نشأت طبقة من الناس أو بالأحرى مجموعة منهم تعتقد أنها تتميز عن غيرها بصفات اجتماعية. وهم يفتخرون بتلك الصفات التي تحلوا بها وصاغوها على نحو يتفق وموقفهم من الحياة وسلوكهم في المجتمع. ويعتبرون أن من يتحلى بها هو إنسان له أصالة المحتد وشرف المولد.

يؤدي هذا التصنيف إلى صراع عنيف بين أبناء هذه البشرية. وتتولد عقد النقص عند الفقير وعقد العظمة عند الغني، ويتعرض كلاهما للنقص. وهكذا، تصبح البشرية مريضة في نفسها. وأنت تعلم شدة هذا المرض ووطأته. فالفقير متذمر وحاقد وناقم، ولا يرضى بمركزه الاجتماعي لأنه ينظر إلى وجوده من خلال المزايا والمفاهيم التي أوجدها التصنيف. ويجد أن تلك المزايا لا تنطبق عليه فلا يرثها ولا يورثها. وهكذا، يبقى خارج دائرة المفاهيم. ويعتقد أن الشقاء والتعاسة يخيمان عليه وأنهما من نصيبه. إنه برم بالحياة حتى ولوكان يتظاهر بالقناعة.

أما الأغنياء فإنهم صرعى عقدتهم أيضاً. إنهم مرضى الكبرياء والغطرسة وحب العظمة الفارغة والسعي وراء المفاهيم التي خلقوها. وهكذا، تتشكل في أعماقهم عقدة الطبقة أو عقدة الجماعة المميزة. ففي زعمهم أنهم يمتازون عن غيرهم. وأما العناصر والعوامل التي تخلق هذا الامتياز فهي تلك التي أدت إلى إفقار الغير. إنهم يعتبرون الغنى والألقاب المتوارثة من دواعي وأسباب امتيازاتهم. ولما كانوا يحتكرون هذه الامتيازات فإنهم يعتبرون أنفسهم جماعة مختارة.

أعجبني تفكيرك كثيراً. أنت تعتقد أن الإنسان يولد في عزلة عن كل المفاهيم، لكنه يتصف بها بعد أن يكبر وينمو، ويتعلق بها لأنها تصبح جزءاً منه. فهو قد تعلم أن يعيش في وسطها، وتعلم أن يعمل بها، وتعلم أن يتعلق بها لأنها تمثل وجوده التجمعي وتميزه عن غيره. لقد أوجد الكون إنساناً طبيعياً ولم يخلق معه ميزاته. إنه لم يرث صفات على الإطلاق، لكنها أصبحت مكتسبة على مر الزمن. لقد اختار له أهله اسماً كما اختاروا نوعية حياته ومعيشته. ولذلك، فقد ألصقوا به الصفات التي تعتبر من أصول وجودهم الاجتماعي. ولذلك، يكتسب الإنسان تلك الصفات الاجتماعية أو التجمعية، وينتمي إلى المجموعة التي ولد فيها، ويعتبر أنه فرد منها وحامل لوائها.

لقد وجد الإنسان في حالة طبيعية كغيره. فكما تشكل الفقير في أحشاء أمه كذلك تشكل الغني. وكما ولد هذا ولد ذاك. والدوافع التي دفعت بوالدي الفقير هي ذاتها التي دفعت بوالدي الغني. والفرح الذي اجتاح أهل هذا هو ذاته الذي اجتاح أهل ذاك. وكيفية الوضع تمت لكلتا الولادتين وفي حالة واحدة.

إن الطبيعة لم تبخل على إنسان دون إنسان، ولم توزع المواهب على أحد دون آخر، ولم تعط أسباباً للوجود وعناصر معيّنة لهذا دون ذاك. ولم تفرق بين هذا وذاك. ولم تهب إنساناً أكثر من إنسان من حيث الوجود الكامل. ومع ذلك، ومنذ ولادة الإنسان، اكتسب واحد أكثر من الآخر، وربح واحد أكثر من الثاني. وأخذ واحد أكثر من الآخر. إن هذا الكسب لم يكن على حساب الطبيعة بل على حساب الإنسان الذي يؤدي إلى التناحر الاجتماعي. لم يكسب واحد من المواهب الطبيعية أكثر من الآخر ولم يربح من حكمة الطبيعة وذكائها وعقلانيتها أكثر من غيره. ولكنه حصل على مكاسب تجمعية أكثر بكثير من غيره. وفي عرف الطبيعة لا تعتبر هذه المكاسب مكاسب حقة أو صفات حقة، وذلك لأنها لا تفرق بين إنسان وإنسان من حيث الجوهر، ولأنها تساوي بين الناس من حيث الكرامة والوجود.

فمن أين أتى تصنيف البشر؟ لقد أتى من الإنسان ذاته... الإنسان الذي أوجد حدوداً بينه وبين أخيه، وحاول أن يترفع عليه، وأن يستثمره ويستغله أبشع استغلال. ولذلك، وقع واحد تحت تأثير الآخر. وهكذا، وجه الإنسان قواه لاستغلال غيره. ويعود هذا الاستغلال إلى التصنيف الذي قام به وإلى تحديد الصفات وانتحال بعضها وتجريدها من بعضها الآخر. وهكذا، أدى هذا الانتحال إلى اللامساواة والفوارق.

هذه الحضارة موبوءة بالكبرياء والعقد النفسية التي تقوم على تصنيف الناس وتقييمهم نسبياً، وعلى المفاهيم التي خلقها الإنسان... ومتى كان الإنسان أفضل قيمة من الإنسان؟

أدت هذه الحالة إلى مفهوم تجمعي يسمى بالانتهازية أو الوصولية. وهذه الانتهازية هي «فلسفة» العصر ومبدؤه المتأصل في البشر. ولما كان الإنسان عبداً لأصنامه التي هي القيم التجمعية المتعددة، فهو يدأب بكل قواه للحصول عليها. وإذا لم تكن هذه القيم والمفاهيم نتيجة خلق جيد أي لم تكن وليدة الطبيعة وبالتالي ليست خيراً، فإن الإنسان يدأب ليحصل عليها بشتى الوسائل ومختلف الأساليب. فهو لا يهتم إن كذب، إذا كان الكذب يحقق له مبتغاه. ولا يهتم إن خادع الناس إذا كان الخداع يكفل له الوصول إلى الكراسي أو إلى المرتبة التي يتمناها. وهو لا يهتم إن باع نفسه إذا كان هذا البيع يشتري له رغبته.

لقد باع الإنسان نفسه. فهو يبيع الكلام إذا كان سياسياً. ويبيع نفسه عندما يطلق العنان للسانه بالوعود الكاذبة وتخدير ضمير الناس. ويبيع نفسه عندما يحدثهم بما لا يعتقد وبما لا يؤمن. ويبيع نفسه عندما يتخاذل أمام الناس ليحصل على «رضاهم». ويبيع نفسه عندما يخرج عن نفسه، فيصور لهم نفسه بأنه محب وعطوف وغيور على مصلحة الناس. ويبيع نفسه عندما يصل إلى الكرسي بالوسائل الكاذبة. لقد وصل... وهذه هي الوصولية: والوصولية هي الانتهازية لأنها استغلال للوسائل اللاأخلاقية وتسويغها. وهكذا، «يصل» الإنسان بوسائله التي استطاع أن يستغلها. فهو إنسان يرقص الرقصة التي يطلبها الناس حتى يجذب اهتمامهم وينال رضاهم. فإذا جذبهم وحصل على مبتغاه، أدار ظهره لهم وأبقاهم في ظلمتهم. وعندئذ... ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ إنهم يثابرون... ويسيرون على الطريق ذاته. فإما أن يعود إليهم بالأساليب ذاتها أو بأساليب جديدة مختلفة ويوقع بهم مرة أخرى، وإما أن يعود إليهم غيره فيقوم بتمثيل الدور ذاته ليحصل على النتيجة ذاتها.

لقد وصل ذلك الشخص إلى مركزه وبات لا يتعرف على أحد. لقد حقق هدفه ومركزه التجمعي بالانتهازية، بتخدير الأفكار، بقوله إنه خادم الناس، بإصراره أنه يفضل المصلحة العامة على مصلحته، وبترديده أنه أمين على مصالح غيره. إنه ينادي بكل هذا ويدعي أنه الوحيد المؤهل لحمل هذا العبء الثقيل.

ما هي إرادة الناس؟ إنها إرادة ضعيفة هشة. وأين هي إرادتهم؟ هي في بساطتهم التي استغلها «راقص الحبل» هذا. وأين هو التمثيل الصحيح؟ إنه في كلمات منمقة وأساليب ملتوية تخدر الجمهور فيخضع ويستسلم. وهكذا، يقول الشارعون إن الشعب يسلم إرادته... إنه الاستسلام لا التسليم... إنه الخضوع لا الإرادة!

إن إنسان هذه الحضارة ممثل بارع يتظاهر بما لا يبطن، وهو قادر على إخفاء أمور كثيرة لم يعودوا يطالبونه بها. فهو يُظهر لهم الخيال دون الحقيقة والظل دون الشخص. وماذا يمكن أن يعمل المتفرجون؟ إنهم يصدقون... فيستسلمون ويرضخون.

إن إنسان هذه الحضارة ممثل ميكيافيلي بارع. فهو يستعمل كل الوسائل لكي يفوز وينتصر ويكسب. ومتى كسب فإنه يدير ظهره. وإذا طالبه أحد بالعودة إلى المسرح ليروه كما كانوا يرونه سابقاً، فإنه يرسل لهم وفوداً تسليهم «وتلهيهم» عن واقعه وواقعهم. وهم في كل هذا لاهون! وهو في كل هذا يلهو بكرامة الإنسان التي اعتدى عليها وخذلها.

إن حضارتنا هي حضارة الانتهازية والوصولية. هي الانهزامية بكل معنى الكلمة. وإنسان هذه الحضارة فارغ في عمقه: لقد أفرغ كيانه من الشرف والضمير والوجدان والكرامة، وانتزع نفسه من واجباته ومسؤولياته. وفي القديم قيل: «من مات ضميره مات وجوده، ومن مات وجوده ماتت قيمته». وعندئذ، تندثر معالم الحضارة الحقة لتقوم مكانها حضارة الإنسان الانهزامية والوصولية.

إن حضارتنا هي حضارة استغلال الحقيقة الإنسانية. هي حضارة تخدير العقل وتوجيهه كآلة يتصرف بها المستغل كما يشاء. هي التظاهر بالفضيلة والتخلي عنها بآن واحد. هي اعتناق المبادئ الصالحة لفترة قصيرة جداً والتخلي عنها نهائياً. هي القضاء على الغير إذا كانوا منافسين. هي المهارة التي يعتمد عليها «راقص الحبل» لكي يُحبط أساليب الغير ويفوز بالغنيمة. ولذلك، تحتضر قيم الحضارة.

الرسالة العاشرة

الخدمة والتضحية

صديقي...

حدثتك في رسالتي الأخيرة عن الانتهازية والوصولية. وأنت تعلم أن هذا المفهوم مرض يتفشى في الحضارة ويؤدي إلى انحلالها. ليس كل فرد صالحاً وكفؤاً للحكم. ومتى عرف الناس هذه الحقيقة فإن عدد من يرغب بالمناصب الكبيرة يقل. لقد قيل في القديم: «من أراد أن يكون رئيساً فليكن خادماً». وهذا صحيح إلى حد بعيد. تنظر الانتهازية إلى المركز دون العمل الجدي، وتهدف إلى الجاه والسلطة دون القيام بالعمل النافع والمجدي. ولذلك، تنهار الحضارة وتتقوض أسسها لأن من يقومون عليها لا يطورون مفاهيم الإنسان ولا يحررون غيرهم من نير الجهل والاستعباد.

عندما يعلم كل فرد أن الحكم والسلطة يرتبطان بمفهوم الخدمة، يتراجع لأنه يقف أمام المسؤولية وجهاً لوجه. ولا يجرؤ الأشخاص أن يهدفوا إلى الحكم أو يطمعوا به أو يطمحوا إليه وذلك لأن مفهوم الحكم أصبح صرحاً جباراً بالنسبة لهم، يقفون أمامه كالأقزام. وعندما يعلم طالب الحكم أو الجاه أو الرتبة أو السلطة أنه سيكون خادماً لغيره لا رئيساً له، ينكمش على نفسه ويتخاذل أمام المسؤولية التي تلقي على كتفيه أعباءها. قلة هم الذين يعتبرون أنفسهم كفؤاً للحكم. وقلة هم الذين يضحون بمصلحتهم الخاصة في سبيل المصلحة العامة. وقلة هم الذين يتنازلون عن أنانيتهم وحب الذات. وقلة هم الذين يستحقون أن يتبوأوا المركز ويتسلّموا دفة الحكم.

ولمّا كانت الرئاسة مرتبطة بالخدمة، فإن عدد من يتقدم منها قليل جداً. هم الناس النادرون الذين وُهبوا روح الخدمة والتضحية، أو الذين دربوا أنفسهم على التخلي عن كثير من مفاهيمهم الذاتية. ولذلك، يعتبر الرئيس خادماً لأنه يرتبط بمفهوم العمل والتضحية. وتَكثُر مسؤوليات هذا الرئيس لأن خدماته تكثر، وأعماله تزداد. ولذلك، لا يتحمل وطأة هذه المسؤوليات إلاّ العظيم، والعظيم جداً.

كيف يمكن أن تصمد الانهزامية والوصولية؟ إنها تنهزم أمام هذه الحقيقة. فالانهزامي جبان لأنه باع نفسه واشترى ضمير الناس بثمن بخس. وعندما يقف وجهاً لوجه أمام حقيقة الرئاسة والخدمة وكثرة المسؤوليات فإنه يتهرب... ويهرب.

توجد مرآة ينظر فيها الإنسان نفسه كما هي. فالمشوه يرى نفسه مشوهاً، وصاحب القلب الرديء والمخادع والكاذب والمحتال والسارق يرون أنفسهم كما هي تماماً. ويرى الطيب القلب وذو النفس الكبيرة والعقل الراجح نفسه كما هو. لذلك، يجب على طالب الحكم أن ينظر في مرآة الضمير ليرى نفسه قبل أن يتسلّم الحكم. وعندما يتأكد مما يرى فإنه يقف أمام طريقين: إما أن يتراجع وإما أن يستمر.

هكذا، تموت الانهزامية أمام الشجعان من بني البشر الذين يضحون من أجل الآخرين. وهكذا، يوجد الأقوياء الذين لا يخافون ولا يأبهون للصعوبات والأهوال. هؤلاء هم الذين يقفون أمام الحقائق ويعلنونها، وينتصرون على الظلم والطغيان، ويجهرون بأفكارهم علناً منادين بالمثل وتحقيق كرامة الإنسان. هؤلاء هم الذين يخدمون الناس ويضحون لأجلهم. هم الذين يتصفون بالكرامة والعمل لأجل إسعاد الآخرين. لقد قيل: «أعطني رجالاً عظماء لكي أنافس الجبال».

أين يمكن أن يقف المتخاذل والمرائي أمام ضميره ووجدانه؟ وأين يمكن أن يقف الجبان الذي لا يفهم شيئاً عن عزة النفس وكرامتها؟ إن شخصاً لا يعرف شيئاً عن حقيقة التضحية هو شخص انهزامي. إن شخصاً لا يتفهم واجبه في الحياة شخص انهزامي. إن شخصاً يتنكر بالفضيلة لكي يحقق هدفه الدنيء هو شخص انهزامي. إن شخصاً يقارع الظلم ويقف أمام الصعوبات ويهزأ بالموت في سبيل الحق ويناضل لأجل الحقيقة هو شجاع وجريء ويستحق أن يحمل اسم إنسان. إن شخصاً يضحي ويخدم ويجعل من حياته عملاً متواصلاً لأجل الحق والخير والجمال هو عظيم. فالعظمة هي الخدمة. وبقدر ما يكون الإنسان عظيماً يكون، بالقدر ذاته، مضحياً.

هكذا، تموت حضارة الانهزامي والوصولي لأن جذورها لا تنبت في أرض الشجاعة والمروءة والتضحية والعمل المجدي. وهكذا، تعيش حضارة الخادم الأمين والرئيس المخلص المضحي لأن جذور شجرته تمتد في كل اتجاه: الأرض الصالحة تنبت

أشجاراً صالحة وتعطي ثماراً صالحة. والحضارة تتقدم على أيدي أولئك الذين يضحون أمام مذبح القداسة والخدمة.

تنتابني هواجس كثيرة وأكاد أكفر بالقيم الاجتماعية. وأنّى ألتفت لا أرى إلاّ الذين يعانون من مرض اجتماعي فتّاك هو الفهم العامي لمفهوم السياسة.

لقد قرأت في كتب الإغريق أن السياسة كلمة تعني حسن الإدارة والتدبير. فهل هي كذلك في حضارتنا؟ لقد مر على هذا القول زمن طويل. فهل تقدمت الإنسانية أم أنها عادت إلى الوراء؟ وهل عرف الإغريق حسن الإدارة والتدبير أكثر مما عرفه أقوامنا في الوقت الحاضر؟ وهل وصلت حضارة الإغريق إلى تحقيق واقع اجتماعي يقوم على مبادئ طبيعية أم أن حضارتنا لا تزال تتخبط في الفوضى؟

السياسة فن اجتماعي يهدف إلى إسعاد الآخرين. أما واقعنا فإنه يُظهر عكس هذه الحقيقة. انظر إلى الجماعات العديدة التي تصغي إلى أقوال أحد المتزعمين... انظر إليهم كيف ينساقون وينقادون كالعميان! استمع إلى أقوال «مشاهير السياسيين» وقادة البلاد في أية أمة... استمع إلى مناوراتهم وأحابيلهم... ألا تجد بأنهم يتزلفون، ويلوكون الكلمات، ويمضغونها جيداً ويجترونها ويعيدونها مراراً وتكراراً حتى تغرس جيداً في ظلمات العقل البشري المنفعل؟ وشاهد الجماهير التي تأثرت بأقوال هؤلاء... كيف يعودون إلى منازلهم وكأنهم سكارى... كيف يتحدثون في المنازل وفي مراكز أعمالهم وفي الأندية والمقاهي... كيف يبدون في زحمة الأقوال التي سمعوها... كيف تخدروا وباتوا لا يفقهون إلاّ ما تردد أمام مسامعهم وما ترتب في أدمغتهم وأصبح صفاً متراصاً من الأقوال التي أخذت مكانها ويصعب أن تخرج منه بسهولة. واقرأ الصحف التي تمدح هذا دون ذاك، وتصور هذه المشكلة لا تلك، وتردد ما كان قد قيل، وتزين لك الأمور بأسلوب بليغ، وتضعك أمام صورة وتحاول أن تطبعها في دماغك وتصوغها مبدأ أو عقيدة لك. واستمع إلى المذياع، وتفهم ما يعيده ويكرره... ألا تدرك أنك تقف أمام مهزلة بشرية تسمّى بفن الدعاية وحسن التصوير وتخدير العقول؟

هذه هي السياسة التي فتكت بحضارتنا وحولتها إلى حضارة مريضة: هي فن الدعاية كوسيلة للوصول. إذن، هي شيء من الانتهازية والمكيافيلية. هي حياكة نسيج الأقوال وصبغه بألوان زاهية تبهر الأبصار. هي ترديد وترديد وترديد... هي تخدير

وتخدير وتخدير... هي انصياع وانصياع وانصياع... هي هذه الدعاية التي تمازحك وتضحكك وتسليك، حتى إذا وقعت في أحابيلها، تبكيك.

أصبح العلم دعاية فتجرد العلم من الحقيقة. وهكذا، خضع العلم للسياسة. هذا العلم الذي يجب أن يكون وسيلة للانطلاق من عبودية الجهل ووسيلة لتحرير الإنسان من كل قيد. وأصبحت الفضيلة سياسة. وأصبحت الوطنية سياسة. والعمل أصبح سياسة. وأصبحت السياسة هي المفهوم «المطلق» لكل واقع اجتماعي. وأصبحت السياسة هي طريق الوصول إلى المركز... إذ بدونها لا يمكنك أن تحقق شيئاً من آمالك الغافلة في أعماق شعورك. ومتى كانت السياسة وسيلة للوصول فهي وصولية وبالتالي انهزامية لأنها اتخذت من كل فضيلة وعمل قومي أو اجتماعي أو أخلاقي أو فكري وسيلة لتحقيق مأرب. إنها إذن فن الوصول.

لا يمكن لأمة أن تتقدم إلاّ إذا كان رؤساؤها هم خدمها. ولا يمكن أن يطرأ أي تحسن على مجتمع إلاّ إذا كانت السياسة تعني فن الإدارة وحسن التدبير، وبالتالي حسن النية الذي يتحقق في العمل العظيم والمنتج. ولا يمكن لرؤساء الأمة أن يأخذوا بيدها إلى الأمام إلا إذا تفهموا معنى المسؤولية وعرفوا أنهم يضحون لأجل الآخرين. ولا يمكن لمجتمع من أن يسير على طريق التقدم إلاّ إذا كان رؤساؤه أناساً تجردوا من كل أنانية وتعالوا على الأمور التافهة.

لا تنهض أمة إلاّ على السياسة التي تجعل من حسن التدبير غاية لها، إذ ليست الحضارة إلاّ حصيلة نتاج هذه الغاية. ولا يمكن أن تكون حضارة الإنسان حضارة القلة الذين يحكمون... لأن هؤلاء يرضخون لأهوائهم السياسية وبالتالي تكون حضارتهم هي نتاج مفاهيمهم الخاصة. وما هو هذا النتاج؟ هو حضارة الذات التجمعية التي تتعلق بأهوائها وتنطلق منها. وتخضع لميولها ولمصلحتها وللاوعيها، وتتركز في المفهوم السياسي العامي.

لا تقوم حضارة على السياسة إن كانت فن الوصول ووسيلة لتحقيق الأهداف الشخصية. ولا تقوم الحضارة إلا على أساس الخدمة الواقعية للحكام الذين يتحملون مسؤوليات كبيرة لا يتحملها إلا القوي جدا والشجاع كثيرا والمقدام والبطل الحقيقي المترفع عن الأنانية والمتعالي على المصلحة الذاتية... إنها حضارة الشجاع أدبيا والقوي معنويا... إنها حضارة الحق.

لقد سَمَت الحضارة الإغريقية لأن فلاسفتها تحدثوا عن المثال. وتحدث سقراط، من بين فلاسفة الإغريق، عن صفات الحاكم. قال: «يجب على الحاكم أن يكون فيلسوفاً».

ما هي الفلسفة؟ هي محبة الحكمة. ومن هو الفيلسوف؟ هو محب الحكمة. ومن هو محب الحكمة؟ هو الإنسان الذي يتجاوز شهواته ويحولها إلى فضائل. تتحول شهوة الكذب إلى الصدق، والبغض إلى المحبة، وحب الذات إلى التضحية، والنميمة أو الغيبة إلى الشجاعة الأدبية، والانحطاط في الميول إلى التسامي والتعالي، والجبن إلى الشجاعة. ألا توافق أن الفلسفة هي رائد الإنسان والحاكم؟

ماذا قصد سقراط عندما جعل الحاكم فيلسوفاً؟ إن هذا الفيلسوف يترفع عن الأنانية بحيث أنه لا يحكم لأجل نفسه بل لأجل الآخرين. إنه يترفع عن الكذب ويقول الصدق. وهكذا، لا يتوخى الربح والكسب لنفسه بل يعمل لأجل الآخرين. إنه لا يبغض أحداً لأن مصلحته لا تتعارض مع مصلحة الآخرين. ولذلك، فإنه إنسان محب وعطوف وشفوق، ويعامل الجميع كأخوة له. إنه لا يهتم لذاته ولا يبحث عن غنى ولا يعمل لأجل اقتناء ثروة أو منزل ولا يسعى وراء الجاه ؛ وهكذا، يضحي الفيلسوف. إنه لا يغتاب أحداً ولا يحمل في قلبه عداوة لأحد، ولا يستعمل النميمة كسلاح لإثارة الإنسان على الإنسان. وهو يمتدح أخلاق الغير ولا يذم أحداً. وهكذا، يعمل الفيلسوف لإعلاء شأن الآخرين. إنه لا يحط من قدر الإنسان بل يعمل على رفع مستواه. ولذلك، يتخذ من الحكمة أداة لتحقيق العدالة والمساواة، ويهذب الغير، ويضع في قلوبهم روح البناء والفضيلة. وهذا الفيلسوف لا يهدم بل يبني، لا يقضي على غيره بل يحاول أن يخلق منه إنساناً فاضلاً ونافعاً للمجتمع. إن هذا الفيلسوف يجب أن يكون على رأس الأمة لأنه يكون عقلها، ولأن الأمة بحاجة ماسة إليه.

هل أدركت كيف يكون الرئيس خادماً ومثالاً؟ إن صفات هذا الفيلسوف تنطبق على الخادم المطيع، المثال المحتذى، الحاكم المتواضع، الرئيس البسيط المتسامي، السيد صاحب القلب الصالح والعقل النير، المضحي في سبيل الآخرين.

الحضارة تقوم على الرئيس الخادم والمثالي، الرئيس الفيلسوف. ولا تقوم على المتوارين خلف جدران الفضيلة والمتظاهرين بالنبل والكرامة والاستقامة. إنها لا تقوم على مظاهر التجمع وعلى السياسة التي تؤدي إلى الانهزامية.

إن السياسة، بمفهومها العامي، مرض، وقد انتشر في نفوس وقلوب شبابنا ورجالنا ونسائنا وشيوخنا وأطفالنا أيضاً. إنها مرض الحضارة لأنها لا توجه قوى الأمة إلى السكينة والهدوء بل إلى الفوضى والتمرد والرفض والجموح وجيشان العواطف. والإنسان السياسي هو كل إنسان يؤدي دوره الإنساني في عمله ووظيفته.

تكمن الحضارة في قلب الإنسان الشجاع الذي تتمثل فيه الحكمة وتبرز فيه الفضائل. إنها تكمن في الإنسان الذي يخدم مجتمعه بوسيلة حقة: هي الخدمة التي لا مقابل لها. إنها تكمن في الرئيس الذي يعمل بصمت، فتزدهر البلاد ويسعد الناس.

الرسالة الحادية عشرة

ظاهـــرة العنـــف

صديقي...

ركزت في رسالتي السابقة على مسألة التضحية التي تتبلـور في خدمـة المجتمع وتوجه قوى الأفراد إلى الخير العام. فالتضحية أو الخدمة تتجلـى في القـدرة علـى العمـل بقهر الأنانية والمصلحة الفردية. وعنـدئـذ، تنتصر الحضـارة على كل أمراضها ومن بينها السياسة الانتهازية، وتجعل من الإرادة الحسنة موضوعاً جديداً لحضارة الإنسـان المتفـوق والحر.

بدت ظاهرة جديـدة في المجتمع، أحسسـت بـها، وتلمستـها وشـعرتها في كـل مراحل النشاط الاجتماعي. وهذه الظاهرة غريبة حقـاً... هـي تجـرد الإنسان مـن الرأفـة والشفقة والعطف والحنو. هذه الظاهرة هي العنف.

لقد تكلم غاندي عن اللاعنف ومن بعده تكلم فينوبـا. وامتـلأت الديانـة البوذيـة بهذه القيمة العظيمة. لقد دعا بوذا إلى الفضيلة. وهكذا، فقـد دعـا إلى كـل وسـيلة تقـرب الإنسان من النرفانا أي الخلود في العدم، علـى مسـتوى الكـون، والغبطـة الـتي تتـألّق في الشخصية المتوازنـة. لقد بحث بوذا عــن الحقيقـة فوجدهـا في السـكينة، سـكينة القلـب والروح والعقل، في راحة الإنسان. وترفع هذه السكينة الإنسـان إلى نطـاق الحكمـة لأنـها تبعده عن مزايا هذا العالم وتقضي على ثورة أعصابـه وجموحـه الدائـم وانفعالاتـه، وهـذه كلها تتمثل في مفهوم اللاعنف. وهكذا، يغتبط الكائن الحي في هـذا الهـدوء الداخلـي، في هذا السلام الحقيقـي الـذي لا تزعجـه أو تؤثـر فيـه الفوضـى، فيحيـا في عـالم السـكينة والمحبة.

لقد تكلم غاندي، وهو الفكر المنير في القرن العشـرين، عـن مبـدأ اللاعنـف. إنـه ربط بين هذا المبدأ وبين مبدأ البحـث عـن الحقيقـة. إن محـب الحقيقـة لا يعتمـد علـى

العنف وسيلة لحل مشاكله. إن محب الحقيقة يبحث عن الحقيقة ليجدها في داخله وخارجه معاً. ويحافظ هذا الباحث عليها بوسائل تحقيقها. فالهدوء النفسي، والتفوق على الشر، والانصياع لنداء الوجدان والضمير، وتحقيق القوى الروحية وتفضيلها على القوى المادية، ومقابلة الشر بالخير، والتسامح مع الناس، وغفران سيئاتهم، كلها عوامل تساعد الباحث عن الحقيقة على تحقيق هدفه.

تعبّر مقابلة الشر بالخير، والانتصار على سيئات الغير ومسامحتهم عن قيمة اللاعنف. وعندما يسامح الإنسان غيره يبعد عامل العنف والقساوة والظلم. وعندما يقابل شر الآخرين بالخير فإنه يحقق طاقاته الروحية. ولذلك، ربط غاندي بين مبدأ اللاعنف ومبدأ البحث عن الحقيقة. ومن الصعب أن يكون الإنسان الحاقد، الناقم، المتذمر والكاذب باحثاً عن الحقيقة. ومن المستحيل أن يكون من يسعى وراء شهواته ويستسلم لانفعالاته باحثاً عن الحقيقة. ومن الصعب أن يكون المسيء أو من يرد الإساءة بالإساءة باحثاً عن الحقيقة. لذلك، جعل غاندي من يعتنق مبدأ اللاعنف باحثاً عن الحقيقة. فالروح لا تستطيع أن تحقق إمكاناتها وطاقاتها إلاّ في جو تسوده المحبة، والسلام الحقيقي والسكينة، ولا تستطيع الروح أن تتغلب على الشرور المحيقة بها إلاّ إذا انتصرت على الحقد، والبغض، والكبرياء، والنميمة، والكذب، والعنف، والظلم والاندفاع وراء الشهوات. لذلك، كان مبدأ اللاعنف مكملاً للبحث عن الحقيقة.

لقد قاد غاندي أمة بأكملها إلى تحقيق استقلالها دون أن تسفك دماء بريئة. وغاندي هذا، لم يصبح بطلاً هندياً بل أصبح بطلاً إنسانياً تناجيه القلوب الظامئة للهدوء والسكينة والفضيلة والبحث عن الحقيقة. إن غاندي، عقل الإنسانية النير وقلبها النابض وروحها المتعالية السامية، يقدم لنا أمثولة عظيمة وهو يعلّم اللاعنف.

لقد تأثر غاندي بمفكر إنساني هو رسكن. كان رسكن إنساناً تكلم عن اللاعنف وانتقد مظاهر الإنسان كما انتقد الإنسان الذي يقضي حياته مفتشاً عن اللذة لا عن السعادة، وساعياً وراء الثياب الفاخرة وغير عابئ بالحقيقة وناسياً لواجبه الإنساني.

ألتفت الآن إلى حضارتنا... حضارة العنف. ما هو هذا العنف؟ إنه الوسيلة التي تعتمد على القوة الغاشمة الزائفة لحل المشكلات المعلقة. وهل أن الحل الذي يقدمه العنف صحيحاً؟ هل استطاعت الثورات الدموية أن تحول مجرى الصراع في التاريخ؟ هل استطاع الإنسان القوي بجسده والذي يعتمد العنف سبيلاً أن يحل مشاكله؟

إني أسائل نفسي: كيف ومن أين أتت مشاكل الإنسان؟ لقد وجدت هذه المشاكل بسبب طمع الإنسان وجشعه، لكثرة مطالبه، لأنانيته وذاتيته، لكبريائه وانقياده لشهواته.فالإنسان المشاكس يخلق المشاكل، والإنسان الذي لا يحقق فضيلة يخلق المشاكل. ولمّا كانت مشكلة الإنسان تنبثق عن هذه المصادر فإنه يبقى مصدراً لمشاكل متعددة تتلو بعضها على نحو متصل. وإذا بقي الإنسان عبداً لذاته فإن مشاكله تبقى.

تتطلب مشاكل الإنسان حلاً جذرياً. فما هي الوسيلة؟ تنحصر وسيلته في مفهومين... إما أن يعتمد على الخداع والتهرب بحيث أنه يخفف من وطأة مشكلته فلا يقع في المأزق دون أن يحل مشكلته أبداً، وإما أن يعتمد العنف حلاً مؤقتاً. وهكذا،كان العنف وسيلة لحل مشاكل الإنسان المعقدة. ومع ذلك، لا يعد هذا العنف وسيلة لحل مسألة شريفة ونبيلة بقدر ما يعد خلاصاً خاصاً ومؤقتاً للإنسان من مشكلته الخاصة. فإذا ما تخلص منها بهذه الوسيلة فلا بد أن يقع في مشكلة أخرى. وهكذا، يدور الإنسان في هذا الفراغ الدائم... وينتحر قلب الإنسان لقساوته، وتعمى بصيرته لأنه لا يعتمد إلاّ السبل المؤذية لحل المشكلة. ويصبح عبداً لانفعالاته الشخصية... والحل... أين هو الحل؟... إنه في العنف.

ألتفت الآن إلى حضارة اللاعنف هل يؤدي اللاعنف إلى إثارة الأزمات للإنسان؟ إن الإنسان المحب لا يستطيع أن يكره غيره، فينسى كل سيئة، ويقابل الشر بالخير، وهكذا، يستحيل أن يوجد عنف في عالم المحبة. وإذ لا توجد مشكلة فلا يوجد عنف. فاللاعنف هو نتيجة حتمية ومنطقية لحقيقة الإنسان، لخيره، ولمسيرته في طريق الحق، ولتطبيق مبادئ الكون التي لا تتبدل.

يثبت اللاعنف الشرائع الطبيعية لأنه ينبثق عن روح الإنسان ونفسه الخيرة. فالنظام الذي يسود الكون ثابت ولا يتبدل ويعبر عن جوهر وعن حقيقة. والنظام خير لأنه يؤدي إلى المزيد من التنظيم، وإلى النتائج التي يترقبها الإنسان ويعتقد أنها مفيدة له. فالحياة هي وليدة فكرة أزلية، محبة، خيّرة، صادقة، منظمة وكائنة بحد ذاتها. وتحمل هذه الحياة بذور الخير. وإذا ما اعترى الحياة عامل الفوضى وقعت في مأزق. وعامل الفوضى هذا لا ينبثق عن الكون ذاته لأنه لا يحمل فكرة الفوضى. لذلك، كان عاملاً خارجياً صدر عن الإنسان. وهكذا، تقع الأزمات والمشاكل بسبب هذه الفوضى. وتتعلق هذه كلها بالعنف كخلاص. لكن العنف المخلّص يزيد الحياة سوءاً وشراً. وإذا كان العنف يؤدي إلى الشر فإنه يؤدي إلى الاضطراب والشقاء.

يعد اللا عنف المبدأ الروحي والعقلي الذي يسود الكون والحياة: إنه مبدأ تحقيق طاقات الإنسان ورفعه إلى الأعلى. ونحن لا نستطيع أن نتصور أن العقل البشري يعمل بهدوئه ونظامه إذا اعترته الفوضى والعنف. فالأعصاب الثائرة لا تصمد أمام الحقيقة ؛ وفي ثورتها الانفعالية هذه لا تفقه شيئاً من الموضوع. فلا يمكن أن تتفق الثورة الانفعالية مع السكينة. وهكذا، يخرج العقل عن دائرة حقيقته في حالة الثورة السلبية والانفعال. وهكذا، ينعدم النظام وتسود الفوضى الناتجة عن العنف أو عن الثورة الانفعالية التي تسلطت على قوى النظام. فاللاعنف إذن، هو المرحلة الأخيرة من الهدوء النفسي، وهو الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق الفضيلة والحياة المعاشة في الحقيقة.

لا تستطيع أن تعلم بواسطة العنف ؛ ولا تستطيع أن تكون مثالاً يحتذى به.

لا تستطيع أن تكون مرشداً بواسطة العنف ولا تستطيع أن تضحي.

لا تستطيع أن ترشد الناس إلى الخير بواسطة العنف ولا تستطيع أن تحقق الفضيلة.

لا تستطيع أن تنادي بالمحبة وبالعنف معاً.

لا تستطيع أن تغفر بالعنف ولا تستطيع أن تسامح.

لا تستطيع أن تعلو وتسمو بالعنف ولا تستطيع أن تتواضع.

لا تستطيع أن تبحث عن الحقيقة بالعنف ولا تستطيع أن تحيا في سكينة الغبطة.

المحبة واعية لأنها تترأف وتحنو، إذن هي لاعنف.

الفضيلة معنوية ورمزية وروحية ولا تتحقق إلاّ باللاعنف.

التعليم هو غرس الروح النير في روح الغير، إذن هو لاعنف.

إرشاد الناس إلى الخير والصلاح يمثل حقيقة اللاعنف.

التسامح أو الغفران هو لاعنف لأنه يخرج من القلب الصادق.

السمو أو التعالي هو إمكانية الإنسان وقدرته أن ينتصر على نزواته وشهواته وهكذا، هو لاعنف. وهكذا، يتمخض اللا عنف فيلد الفضيلة ويهب المحبة والخير.

إن حضارتنا محملة بالعنف. فالسجون رمز للعنف لأنها تخلق شعوراً بضياع العدالة والحق، وتؤدي إلى الإحساس بأن البشرية قد فقدت وسيلة لتربية الناس وتهذيبهم وتحسين أحوالهم المعنوية والخلقية والمادية. والمحاكم رمز تختلط فيه

العدالـة بالظلم، القسوة بالرحمـة، الشفقة بالقوة، الحقيقة بالباطل. هي رمز لا يتمثل فيه مفهوم العدالة ولا يتحقق فيه لأنه تعبير عن الظلم والجور. والقانون رمـز للقـوة الانفعاليـة النفعية ورمز للحق الاجتماعي ؛ ولا يمكن أن يخلـط الحـق بـالقوة الانفعاليـة الـتي هـي العنف.

هكذا، يقف الإنسان في وسط هذا التيار الجارف من العدالة واللا عدالة، المساواة واللامساواة، الحق والظلم، النور والظلام، الرحمة والقسوة وتبرير العقـاب وعـدم تـبريره. ويخاف الإنسان... يخاف من القوانين والسجون، ومن كل ما يتمثل فيه العنف. فالعنف مشكلة الإنسان. وإذ يحل مشكلته به يجد أن مشكلة أخرى قـد نبعـت. وهكـذا، يـؤدي العنف إلى الخوف... الخوف من مجهول يلاحقه ويطارده... تلاحقه العدالـة... فكيـف يخاف منها؟ إنها تحمل طابع العنف... تلاحقه القوانـين الـتي خلقتـها السـلطة لحفـظ النظام الاجتماعي والحفاظ على ذاتها، فيخاف منها لأنها تحمل طابع العنف... تلاحقه الدولة لأنه لا يوافق على آرائها وأعمالها السياسية فيخاف لأن المطـاردة عنـف. تلاحقـه أفكاره، حتى في أحلامه، لأنه يعلم، إن هـو بـاح بـها، فـإن العنـف سيطارده. يصمـت ويسكت، ولا يبوح بما يفكر لأحـد لأن العنـف يقـف علـى بـاب داره. يتحمـل العـذاب النفسي خوفاً من العنف... العنف موجود علـى أبوابنـا، وفي منازلنـا، وفي شـوارعنا، وفي مؤسساتنا، وفي قلوبنا وفي كتبنا. إنه موجـود في مؤسسـات الإصـلاح. فـالإصلاح والعدالـة والقانون، كلها تحمل طابع العنف.

يعيش الإنسان في عالم يحمل العنف في أحشائه، فيسوده الخوف ويسيطر عليــه ويقضي على معنوياته ويحول طاقاته أو يخمدهــا. ولذلـك، يعيـش الإنسـان علـى هـامش الحياة. فتختلط المفاهيم في عقله ونفسه، وتمتزج لدرجة يتعذر عليه أن يفرق بينـها. ومـا هي الحدود القائمة بين العنف واللاعنف مـا دام الاثنـان يتدفقـان مـن ينبـوع واحـد؟ ألا ينفي الواحد الآخر؟ إذن، يجب أن ننفي العنف لكي نحقق اللاعنف.

يتضمن تاريخ البشرية في تاريخ العنف... تاريخ الصراع المتمثل بالجهاد الدائم في سبيل تحقيق الأنا. هذا هو تاريخ الإنسان الذي يمتلئ دماً فيفيض ؛ يمتلئ ثورة انفعاليـة فتؤدي إلى القتل والدمـار ؛ يمتلـئ بـالحقد فيـهدم ولا يبـني ؛ يمتلـئ بالأزمـات فيبـدل الأوضاع من شكل إلى شكل، وليس من حسن إلى أحسن.

لقد طغى العنف على الحرية فجمدها في مـهدها، فتوقفت عـن النمـو والتطـور. وطغى العنف على الاستقلال القومي فحول الأمم إلى حلبة صراع دائم. لقـد حـول العنـف الأرض إلى مكان يتنازل فيه القوي الانفعالي الضعيف فيغلبه. وهكذا تموت الفضيلة.

إن حضارتنا تحمل طابع العنف، لذلك هي مهددة بالانفجار... إنها تتفجر كـل دقيقة لأنها لم تستطع أن تحقق الغاية السامية التي من أجلها وجد الإنسان. وقد قيل في القديم: «من يأخذ بالسيف، بالسيف يُؤخذ».

الرسالة الثانية عشرة

فلسفة اللاعنف

صديقي...

يحتل اللاعنف مركزاً رئيسياً في نفسي. وكم أود أن تأخذ به كل الفئات الحاكمة والمحكومة. وأنا أعتبر هذا المبدأ غاية في الأهمية عندما تعتمد عليه الفئات التي تطالب بحقوقها أو باستقلالها. ويمكن تطبيقه الآن في كل قطر من أقطار العالم. يحق للزنوج والمضطهدين أن يجعلوا من حركتهم حركة اللاعنف. إنهم لا يستطيعون أن يحققوا مطالبهم قبل مضي مدة طويلة أي حتى يبلغ الناس في أي قطر مستوى عالياً من الإنسانية والوجدان... أما الآن فيمكنهم أن يعتمدوا على هذا المبدأ الفعال.

تئن جماعات وشعوب من مشكلة التفريق العنصري، هذا المبدأ الرهيب. ويستطيع هذا الشعب أو تلك الفئة أن يحصل أو تحصل على حقوقها عن طريق مبدأ اللاعنف. فإذا ما أضرب العمال في المناجم وقاموا بحركة عصيان سلمية، فإن المعامل تتوقف ولا تقدم المناجم ثرواتها. وهكذا، يستطيع المضطهدون من بني البشر أن يشلوا الحركة الاقتصادية العامة إذا اعتمدوا مبدأ اللاعنف.

يستطيع كل شعب في كل أقطار العالم أن يتمسك بهذا المبدأ ويعلنه جهاراً. هناك فئات مضطهدة داخل بلادها بسبب الديكتاتورية العنيفة التي تعتقد أنها تعمل لأجل هدف سيتحقق في المستقبل. تباً لأهداف المستقبل! هل يموت الإنسان لأجل المستقبل؟ هل يموت لأجل تحسين معيشته ببضع دريهمات؟ تتمثل حياة الإنسان في حياته الحاضرة. حياته هذه التي يجب أن تكمل وجوده الذي وجد ليحققه... وهكذا، يجب ألا يكبل الإنسان بقيود زائفة مدفوعاً إلى تحقيق هدف ذاتي مر في دماغ أحد« أصحاب العقائد» المرضى. إن حرية الإنسان لا يمكن أن تتوقف على الأحزاب وعقائدها.

شئت أن أبحث في رسالتي هذه أنواع العقائد وكيف أنها تؤدي إلى صراع الإنسان مع الإنسان. توجد أنواع متعددة من المبادئ والعقائد والأحزاب والمفاهيم التي شادها الإنسان وتبلورت بصيغ ومقاييس معينة. وتحاول كل عقيدة أن تحل مشكلة الإنسان بوسائلها الخاصة. فأصبحت مشكلة الإنسان متعددة بسبب تعدد الحلول والآراء. فالحرية تعني مفاهيم مختلفة نسبة لكل مفهوم وكل عقيدة. والتنظيم الاجتماعي يعني حلولاً مختلفة. ويقصد منه وضع خطط تختلف الواحدة منها عن الأخرى. لقد جزأت هذه المعتقدات الوحدة الإنسانية. وهكذا، يعيش ضمير الإنسان في صراع وجداني عنيف.

إلى أية عقيدة يجب أن أنتمي؟ ما هي العقيدة الفضلى التي يجب أن أعتنقها؟

هنا يبدأ الصراع الداخلي. وإذا ما قذفتني «المصادفة» إلى قراءة رأي أو مذهب أو عقيدة معينة فلا بد أن أنتمي. وهكذا، أقضي على حرية فكري. إن اعتناقي لأي مذهب يشكل حركة دماغي وقلبي في ذلك الاتجاه. إنني أرتبط عندئذ بمصير معين. فأموت في جهلي وتعصبي هذا. وأميت غيري لأنني أعتقد بأن عقيدتي يجب أن تحتل المركز الرئيسي، وأرفض الإطلاع على المبادئ الأخرى بعقل وقلب منفتحين. فأصبح متعلقاً بهدف معين أنظر إليه من خلال زاويتي الخاصة أو المركز الوحيد الصحيح... وهنا تبدو الأنانية.

إن «الاعتقادية المذهبية» ضرب من سيطرة الذات التجمعية الموغلة في لا وعيها. هي تعلق الإنسان بعقيدة معينة إذ يحاول أن يخطط أو يضع المقاييس لهذا العالم أو لغيره. ويعتقد «أصحاب الحلول» بأنهم واسطة لخلاص المجتمع والعالم من كل مشكلة وخلاصُهما الروحي المرتقب. ألا تؤمن كل عقيدة بأنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البشرية؟

إن «الاعتقادية» تقضي على حرية الفكر. فكما أن عالم الكيمياء، وهو إنسان يعرف، يجهل كثيراً عن الحياة، كذلك فإن عالم الرياضيات، وهو إنسان يعرف، يجهل الكثير أيضاً، وكذلك عالم الفيزياء، مع أنه إنسان يعرف، يجهل الكثير. ولكن هؤلاء جميعاً لا يتناحرون بل يحاولون أن يكملوا بعضهم بعضاً. إنهم لا يعملون في عالم تسوده الأنانية ويُفضل فيه شيء على شيء آخر. إنهم يعملون معاً في عالم الحقيقة. في عالم الشرائع الطبيعية، في عالم يسوده النظام، في عالم المبادئ الأزلية والسرمدية.

أماّ أصحـاب المبـادئ والشـرائع المتعـددة، أصحـاب المعتقـدات المذهبيـة والآراء السياسية، العامية الجوفاء، فإنهم يعيشون في عالم الأنا التي تقوم على الصـراع. إنـهم لا يحيون في نطاق الحقيقة ولأجلها. وهم لا يحيـون في انسجام مـع مبـدأ دائـم لا يتبـدل، يتحقق في الكون وفي الإنسان ؛ إنهـم لا يفهمون حقيقـة الإنسان ووجـوده وكيـانه. إنـهم يعملـون في نطـاق المفـاهيم الاجـتماعيـة المتعـددة، ويقيمـون مفـاهيمهم علـى تناقضـات التاريـخ والصـراع. وهكذا، فإن ديالكتيك هذا الصراع عنيف إذ أنّ جميع المفـاهيم تقضـي على بعضها وتناقض بعضها. وهـكذا، يبني الإنسان آراءه على تناقضـات جوفـاء تمـوت ويقضي عليها الغـير، تنـاقض بعضـها، وتستمد جذورهـا مـن لا وعـي الإنسـان وجهلـه ودوافعه المنحرفة وانفعالاته وهواجسه المتعـددة الـتي لا يبررهـا الوجـود بـأي شـكل مـن الأشكال، وذلك لأن الوجود يقوم على نظام دائم وحقيقة لا تتبدل.

إن «الاعتقادية» هي الطريق الذي يؤدي إلى العنـف وبالتـالي إلى الصـراع الدائـم. وينطلق هذا الصراع من الإنسان لأنه لا يعرف ماذا يختار وماذا يريـد. وهكـذا، يضيـع في هذا العـالم الاصطنـاعي الـذي خلقـه مـن مفاهيمـه الخاصـة. وعندئـذ، يختـار الإنسـان الطريق... وباختياره هذا يقف وجهاً لوجه أمام غيره من الذيـن اختـاروا طريقـاً آخـر... وينتقل الإنسان من حلقة صراعه مع نفسه، الذي أدى به إلى اختيـار طريقـه، إلى حلقـة صراعه مع الغير... هذا الغير الذي اختار طريقاً آخـر. فإذا كـان اختيـار الإنسـان قائمـاً على إرادته المطلقة وعلى حريته، فإن الحريات تتصارع. وهـل تتصـارع الحريـات؟ كـلا. إنها حريات زائفة لم تبنَ على حقيقة الحرية التي هي انطـلاق الإنسـان مـن الجـهل إلى عالم المعرفة والخير والجمال.

لا يقـف الإنسـان في صراعـه عنـد هـذا الحـد... تتكتـل الجماعـات... فتصبـح عقائدية... وتقف أمام بعضـها... وتصـارع بعضـها... وهكـذا تـؤدي العقائديـة إلى زيـادة العنف ومن ثم الصراع.

إن حضارتنـا تحمـل في أحشـائها مرضـاً يسـمى «العقائديـة». وهـذه الصفـة الاجتماعية تحاول أن تقضي على غيرها من الصفـات. إنـها تقضـي علـى الحريـة لأنـها تعمل على تقويض المبادئ الأخرى. إنها تقضي على العدالة لأنها تحاكم الغير.

إن كل مذهب أو كل عقيدة تحاول أن تقوض عرش العقيـدة الحاكمـة. وإلى أيـن يصـل هذا الصراع؟ ومن هو الذي يتحمـل عواقبـه؟ أليـس الإنسـان هـو الـذي خلـق هـذا

الصراع؟ أليس حريا أن ننادي مع غاندي «أريد أن تهب على نافذتي رياح العالم كلها، لكنني لا أريد أن تحطم نافذتي واحدة منها».

الرسالة الثالثة عشرة

فلسفة العدالة

صديقي...

أنا لا أدري إن كنت توافقني على كل ما ذكرته في رسائلي السابقة. فقد أصبحت رسائلك متقطعة وقليلة. ومن جهتي، لا أجد مبرراً للانقطاع ما دمت أعتقد أنني أقوم بواجبي أو أنني أعبر عن حرية فكري.

ذكرت أن «العقائدية» سببت تناحراً على المفاهيم الاجتماعية لأنها جمدت الفكر والعقل. لقد وجهت أنظار الناس وتطلعاتهم إلى أمور تدور في دوامتها فقط، وأصبحت الأخلاق شكلاً من أشكال العقائدية التي تدمر وتحطم كل القيم الأخرى. ويصعب علينا أن نبحث في موضوع الأخلاق ما دامت مرتبطة بالعقائدية. لقد قضي على الأخلاق كمثال لوجود الإنسان الوجداني. وتحول هذا المثال إلى موضوع اجتماعي يتصل بالعقائدية ويعترف بأركانها. وهكذا، وجدت الأخلاق الاجتماعية. وهكذا، فرضت هذه القيم وجودها.

تنتج العقائدية عن التناحر والصراع الذي قام بين الإنسان ونفسه، بينه وبين الغير، وبين الفئات التي تشكلت ووقفت ضد بعضها. ويعود هذا إلى أن الإنسان خلق الشرائع التي لم تنبثق عن الطبيعة ولم تكن صدى أو مثالاً للمبادئ الكونية الثابتة. لقد خلق الإنسان... خلق شرائعه... خلق قوانينه ونظمه... وحافظ عليها... حافظ عليها بالعنف... وكان العنف وسيلة القوي... وسيلة المسيطر من بني البشر... فإذا ما اعترى الضعف ذلك القوي المنفعل بعنفه، فإن الجماعات الأخرى تنفعل وتتمرد... وتعتمد ذات الوسيلة التي اعتمدتها الفئة المقهورة... وهكذا، تصبح الحضارة صراعاً بين الناس، صراعاً يعتمد على العنف وسيلة لإظهار وتثبيت الذات التجمعية.

أدركت أن غالبية القوانين قد سنت نتيجة للأحداث الاجتماعية. لذلك، تعتبر القوانين «عملاً اضطرارياً» وتدين هذه القوانين كل من لا ينصاع لها أو يخرق مبادءها. ويعتبر من يخرقها مجرماً.

المجرم هو ذلك الإنسان الذي يخرق القانون أو بالأحرى هو من يقف ضد المفاهيم الاجتماعية الممثلة بالسلطة. هل سمعت بسارق؟ لقد سرق إنساناً فزج به في السجن بعد محاكمته. لقد برهن القانون الممثل بالقاضي أنه سارق... لقد عاقبه القانون وفرض عليه الجزاء. هل سمعت بمجرم؟ إنه أجرم ضد السلطة أو قتل شخصاً أو ضربه أو أهانه... عاقبته العدالة وفرضت عليه جزاء. وهكذا، يعمل المجتمع «بعدالته القانونية»... ويرسل هذا أو ذاك إلى السجون لمجرد العقاب.

ما هو العقاب؟ أليس هو شكلاً من أشكال العنف؟ ألا يتمثل العنف به؟ فكيف يمكن تطبيق العدالة بالعنف؟ ومن هو الذي يطبقها؟ ألا يمكن لمن يطبقها أن يدان بها؟ القوة، العنف، السيطرة، القانون... صفات قائمة بحد ذاتها... ويعتمد المجتمع عليها لأنه أقام مؤسساته عليها. لقد أقامت العدالة مؤسساتها على الصيغة الاجتماعية التي وضعت بها. ولذلك، تطبق على كل شخص لا يسلك ويعمل وفق القانون.

هل سمعت بسارق أو مجرم غير هذين اللذين ذكرتهما؟ أنا متأكد أن البشر لا يعرفون غير هذين النوعين! إن الرعية لا تعرف إلاّ التأكيد على القانون والتشبث به لأن القانون هو إرادة السلطة... إرادة القوة التي تطبقها كسلطة... إن الناس يطالبون بعدالة السلطة لأنهم يخضعون لها... فتكون العدالة عبودية لهم.

هل سمعت بمجرم أو سارق غير هذين؟ هناك مجرم وسارق أكثر خطورة منهما.

من هو المجرم؟ هل هو ذاك الإنسان الذي سرق قطعة من أثاث أو مبلغاً من مال أو عقداً من الماس؟ من هو المجرم؟ هل هو ذاك الجائع الذي نقم على المجتمع، على الإنسان، فاضطر أن يدخل مطبخ منزل الغني وسرق؟ هل هو ذاك الإنسان الذي مد يده إلى جيوب غيره من الناس واختطف قطعة من الدراهم؟ هل هو ذاك الإنسان الذي قتل غيره؟ هل هو ذاك الذي أهان غيره؟ هل هو ذاك الذي هدد وتوعد ونفذ؟ من هو المجرم؟ هل هو ذلك الإنسان الذي ينتقد المجتمع ويتكلم عنه بتذمر ونقمة؟

إن هؤلاء الناس «مذنبون» لا مجرمون. والمذنب لا يعتبر مجرماً. وهؤلاء، يجب أن نهذبهم ونرفعهم إلى سوية المستوى الإنساني اللائق. هؤلاء، يجب أن نعلمهم حقيقة

الحياة... وإذا كان لا بد من العقاب فإنما يجب أن يعاقبوا لكي يتحسنوا وينتصروا على دوافعهم وميولهم اللاواعية، وهل يمكن أن يسرق الإنسان الواعي أو يجرم؟ هكذا، يحتاج المذنب إلى رعاية وتهذيب وتربية. لقد كانت تربيته ناقصة... تربيته المنزلية... تربيته الاجتماعية... تربيته النفسية. لذلك، يجب أن تهتم العدالة بتقويم هؤلاء وإعادتهم إلى ما كانوا عليه، كما يجب أن تخلق منهم أناساً يسيرون على طريق الفضيلة والخير.

ألم توجد العدالة إلاّ لعقاب المذنب؟ ألم توجد القوانين إلاّ لتزج بهؤلاء في السجون؟ ألم توجد العدالة إلاّ لاستعمال العنف؟ ألم يذنب غير هؤلاء؟ ألا يوجد مجرمون في المجتمع؟ ألا تستطيع العدالة أن تخلق من المذنب إنساناً صالحاً؟ إذن، كيف تسمى عدالة؟ وكيف تعالج الأمور؟ هل تنظر في مشاكل الناس التي لا تنتهي؟ ألا تعمل إلاّ على استنباط القوانين والمبررات لحل مشاكل تعمقت جذورها في التناقضات التي لا تنتهي؟ وهل هذه هي القوانين؟ وهل استطاعت هذه المؤسسة التي تسمى «العدالة» أن تنهي أو تضع حداً لمشاكل الناس؟ إن مشاكلهم تزداد... والعدالة تتضاءل لأنها تعتمد على التناقض وعلى كثرة الوسائل... إن العدالة تقيم أسسها على عملية سن القوانين والشرائع من المشاكل التي تبدو أمامها... مشاكل قامت بسبب الميول اللاواعية والتناقضات العديدة في الذات... هي قوانين المشاكل وليست شرائع إنسانية وأبدية تعتمد على قاعدة واحدة وهدف واحد وفكرة واحدة وجوهر واحد.

ماذا تفعل هذه العدالة التي بنت صرحها وشادته على تناقضات المشاكل وكثرتها؟ إنها ترسل المذنب إلى السجن أو إلى إصلاحية. إنها تفرض الغرامة على السارق أو تحجز على حريته. إنها تطبق شتى الأساليب لكي تضع حداً للإجرام والسرقات... هذه هي الصفات التي يجب أن تلتصق بالعدالة... لا عدالة لولاها... لا عدالة لولا السرقات والإجرام.

ألا يؤلمني أن أرى العدالة قائمة بسبب الشذوذ البشري؟ ألا يؤلمني أن تكون العدالة قائمة في الشذوذ البشري؟ ألا يضحكني أن يكون المذنب مذنباً في نظر العدالة التي سنت قوانينها بسبب مذنب؟ إن هذا كله مؤلم حقاً! تسعى العدالة إلى معاقبة المذنب بينما تترك المجرم الحقيقي...

من هو هذا المجرم الحقيقي؟

هو المحتكر عندما ترتفع الأسعار أو عندما تشتد الأزمات ؛ مجرم لأنه خلا من الوجدان.

هو الكاذب الذي يجعل من كذبه سبباً للإجرام.

هو المرائي الذي يبدو لك بألف وجه... إنه مجرم فظيع... الكاذب والمرائي مجرمان مات ضميرهما.

هو القاتل الحقيقي... المسبب للأزمات والقائد إلى الحروب... إنه مجرم لأنه ليس إنسانياً.

هو المسبب للويلات التي تصيب المجتمع والمشاحنات التي تقوم بين الفئات الاجتماعية.

هو مسبب البغضاء والكراهية، وزارع حب الانتقام في نفوس الأبرياء.

هو الذي يشتت عائلة مسكينة لكي يستفيد من بضع دريهمات.

هو الذي يبيع ضميره لكي يكسب ويربح.

هو المتعصب لفكرته فيجمع حوله أنصاراً أو يعلمهم التعصب.

هو خالق الثورات العنيفة التي تزهق الأرواح.

هو من نسميه بطلاً وهو ليس ببطل.

هو الجبان الذي يتخلى عن مسؤوليته فيؤدي إلى الشر والفوضى.

هو الذي يتقاعس عن واجبه الفردي والاجتماعي والإنساني، فيشّل حركة الحياة ويسبب اختلالها.

هو الذي يقتل روح غيره دون أن يؤذي جسده.

هو الذي يقود غيره إلى الرذائل والشهوات.

هو الذي يتاجر بكل أنواع التخدير المادي والمعنوي.

هو الذي ينشد الفضيلة وهو كاذب في حقيقته.

هذا الذي يتاجر بشرفه ليكسب ويربح.

هـو الهازئ بغيره... الهازئ الذي يقتـل معنويـات غـيره ويخلـق فيـه عقـدة لا تستأصل.

هـو الذي يدمر حياة إنسان بجهله ولا وعيه.

هـو كل من يتخذ من عمله وسيلة للكسب فقط.

هـو الذي يقيم الولائم المكلفة التي تكفي لإشباع مئات من الجائعين.

هـو كل مسؤول لا يعمل لنفع رعيته الإنسانية ولا يضحي لأجلها...

لقد خان ضميره وتهرب من المسؤولية الملقاة على عاتقه.

هـو الذي ينهب أموال الأرامل واليتامى والضعفاء.

هل يعاقب القانون هؤلاء؟ هؤلاء المستترون بـرداء الفضيلـة والخـير! هـل وجـد القانون لهم؟ وكيف يعاقبهم القانون مـا دامـوا صانعيـه، ويعتـبرون مثـالاً للعدالـة وقـدوة صالحة! هؤلاء المتلبسون بالجريمة والسرقات... الذيـن يعذبـون غـيرهم وهـم يبتسـمون، ويهزأون بغيرهم وهم يعانون النقص في ذواتهم... الذيـن يـتركون المجتمـع بـدون عدالـة ويتشدقون بالعدالة... هؤلاء جميعهم مجرمون وسارقون... هؤلاء الذين يتركون السـارقين يمرحون فتمتلئ جيوبهم بوخزات الضمير.. بالمال العفـن... بضحايـا أعمـالهم القـذرة... هؤلاء جميعاً لا يدركون الفضيلة مع أنهم يتباهون بهـا... هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون.

من هو السارق إذن؟ وهل نستطيع وصفه بالمجرم؟ هـم الذيـن يقوضـون العـروش والحكومات والدساتير ويتركون الناس في فوضى! الذين يقودون غيرهم إلى تحقيق أهدافهم ومبادئهم!

إن العدالة ذاتها تستتر بالعنف. ألم يكن العنف وسيلة للعدالـة؟ ألم تكـن القـوة دعامة لتطبيق القانون؟ ألم يدع القادة والرؤساء بأنهم مضطـرون لاسـتعمال القـوة كدعامـة لتطبيق القانون؟ ألم يدع القادة والرؤساء بأنهم مضطرون لاسـتعمال القـوة لأنـها الوسـيلة الوحيدة! ألم يدع المتهـرب من واجبه بأنه لا يستطيع أن يقوم به؟

في المجتمـع مذنـب مسـكين يظـهر للنـاس بينمـا يسـتتر آلاف المجرمـين الحقيقيين... هؤلاء هم تجار الضمـير! مـن يستطيع أن يحـاكم غـيره؟ مـن يسـتطيع أن يدعي الفضيلة ويقول إنه يتحلى ويتصف بها أكثر من غيره؟ ومـن يجـرؤ أن يدعـي بـأن الحق إلى جانبه أكثر من غيره؟ ومن يتباهى بأنه يحمل نبراس الحقيقة أكـثر مـن غـيره؟

ومن يقدر أن يدعي بأنه يمثل ضميراً ووجداناً حياً، فيدين غيره؟ ومن يستطيع أن يدين؟ ومن يستطيع أن يتهم غيره بأنه مجرم؟ وأين هو الجريء الذي يغض الطرف عن هؤلاء المذنبين المساكين ويلتفت إلى المجرمين الحقيقيين فيضع حداً لمؤامراتهم وأعمالهم النجسة؟

هكذا، تبدو المسألة... الإجرام والسرقة... تنفيذ العقاب بأناس بسطاء... ألا نتعلم من ضمير العالم إذ يقول: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجم الزانية بحجر».

الرسالة الرابعة عشرة

القيم الزائفة

صديقي...

حدثتك في رسالتيَّ السابقتين عن الصراع الذي ينشأ في المجتمع ويشلّه. ولقد أرجعت هذه الأسباب إلى المفاهيم الاجتماعية السائدة التي تتبلور في العقائدية التي تؤدي إلى العنف.

أنا لا أعلم إن كنت قد أقمت الدليل على ما أقول. وإذ لا أريد أن أتمسك بآرائي وأبررها وأحسبها كاملة، فإنني أترك لك حرية الاختيار. ومن جهتي، أعتقد أن القناعة الوجدانية أسهل طريق للاعتقاد، ولا أعتبر الجدل وسيلة للإقناع.

إن حضارة المظاهر السخيفة هي التي تتحكم في كل مجتمع تسوده روح المنافسة وحرية العمل. وأنا لا أقصد من هذا أن نظاماً ما يعتبر أفضل من نظام آخر، إذ أن كل الأنظمة سواء. هي أنظمة لا تفقه معنىً لوجود الإنسان لأنها لم تُبنَ عليه ولم تعبر عن حقيقته وجوهره. ولذلك، لا يوجد فرق في الأنظمة إلاّ في الدرجة. وكل ادعاء من نظام وتطرف وانتهاك حرمة نظام آخر وتظاهر القائمين عليه بأنهم يتبعون طريقاً سوياً، ليس إلاّ مناورة سياسية تقوم بها الفئة الحاكمة. ولعمري، لا أجد كاذباً تبرأ من كذبه أو ادعى أنه كاذب... والكل يدعي الصدق... الكل يعتبر نفسه نزيهاً... الكل يرى أخطاء غيره ولا يرى غير حسناته. الكل يسير على الطريق الصحيح والآخرون ضاعوا في ظلام أفكارهم... كيف يمكنني أن أجد ضالتي في الأنظمة؟ كلها من صنع الإنسان وخلقه... وكلها أدت إلى شقائه.

إني أعود إلى أصل المجتمعات لأرى كيف شكلّت مفاهيمها. لقد صاغت هذه المجتمعات لذاتها صفات معينة ومفاهيم خاصة وعامة. إن نزعة الجاه لعبت دوراً كبيراً، ولعب المال دوره كوسيلة لتحقيق أماني الإنسان. ولعب المحتد وشرف الأصل دورهما

كوسيلة ناجعة لدخول الفرد إلى المجتمع، وكوسيلة للاحترام. ولذلك، نرى أن مبادئ عامة وخاصة سادت المجتمعات. وهذه المبادئ أدت إلى فقدان الفضيلة وإلى تقليص قيمة القوى والطاقات الإنسانية.

لقد حولت هذه الصفات الاجتماعية قوى الإنسان عن حقيقتها... حولتها إلى مجرى جديد... هو الكسب على حساب الآخرين، والتبجح على حساب الآخرين، وحب العظمة على حساب الآخرين، والتكبّر أو التفاخر على حساب الآخرين، والتعلق بمزايا الحضارة المحتضرة. واتجه الإنسان إلى هذه الصفات... فهو يريد أن يكون ذاتاً اجتماعية... تفتخر وتدعي... تتبجح وتتكبر وتتعالى... وتتفاخر، وتحتكر، وتتسلط على جميع الوسائل التي تكفل لها العزة والمجد والسؤدد.

هكذا، تحولت قوى وطاقات الإنسان. فعوضاً عن أن يفتخر الإنسان بعلمه، ولا فخر في العلم، أصبح يفتخر بماله. وعوضاً عن أن يفتخر بأخلاقه، ولا فخر بالأخلاق، أخذ يفتخر بملكيته الأرضية والعقارية. وعوضاً عن أن يفتخر بأعماله المجيدة، ولا فخر في العمل الصالح، أخذ يفتخر جهاراً بأعماله وحسناته في الجمعيات والأندية. وعوضاً عن أن يفتخر بتواضعه وبساطته وتفكيره السليم، ولا فخر في التواضع والبساطة، أخذ يفتخر بكبريائه. وعوضاً عن أن يفتخر بنبله الحقيقي وأصالته الحقة، ولا فخر في النبل والأخلاق، أخذ يفتخر بمحتده وأجداده.

الحقيقة لا تفتخر، والأخلاق لا تفتخر، والعلم والمعرفة لا يفتخران... فكيف يفتخر الإنسان بالأمور الواهية والضعيفة؟ هكذا تصبح حضارتنا حضارة البؤس.

يتعلق الإنسان بمفاهيم المجتمع ويعتبرها حقائق لا تدحض. فقد اتخذها مثالاً تجسد فيه وتقمصه فأصبح عبداً لها. إن النظام القائم مسؤول، في بعض الوجوه، عن هذه السخافة التي تورط فيها الإنسان. والنظام الاجتماعي لا يقوم بدون وجود الناس. لذلك، فالمسؤولون عن هذا النظام الاجتماعي هم الذين زادوا في سخافة المفاهيم. لذلك، تقع على أعناقهم مسؤولية كبرى، ويجب أن يدفعوا الجزاء لأنهم جربوا الناس وأوقعوهم في الخطأ. وقد قيل في القديم: «ويل لمن تأتي على يده العثرات».

إن المحرض على القتل مسؤول كالقاتل، والمحرض على السرقة مسؤول كالسارق، والمحرض على الكذب والنفاق مسؤول كالكاذب. وفي رأيي، أن المحرض أكثر إجراماً من الذي يرتكب الموبقات. إن المحرض هو صاحب الفكرة، هو المحرك الأول.

أما المنفذ فهو آلة بيده. إن الفاعل مسؤول، لكن سلوكه يدل على أن تفكيره أقل صلابة وتركيزاً من المحرض... وإلاّ لما وقع تحت سيطرته ولما انصاع لآرائه. هكذا، نرى أن الذي يدفع الناس إلى القيام بعمل معين يكون مسؤولاً مثلهم كما يكون مسؤولاً عن خطيئته. إنه مسؤول عن ارتكابه حماقة وخطيئة، ومسؤول عن تعليم غيره وتحريضه له على ارتكاب الخطأ... إن خطيئته مزدوجة.

توجد أيادٍ تحرك المجتمعات في الخفاء، وتفرض سيطرتها عليها. وعندما يدخل الفرد إلى المجتمع يجد أنه يساير مفاهيمه ولا يخرج عن خطوطه الكبرى، وإلا فإنه يعتبر شاذاً وأحمقاً. يقوم الإنسان بأمور كثيرة ويبرر أعماله لأنه يرى غيره يقوم بالأعمال ذاتها، فينساق في التيار. وإذ يصطدم بالآراء الاجتماعية والمفاهيم، يقابلها بشيء من الترحاب والقبول الضمني، وذلك لكي لا يكون شاذاً عن مجتمعه وخارجاً ولا منتمياً. وعندما يتزوج الإنسان، يحاول أن يقوم بمراسيم معينة لا يقتنع بجدواها، وذلك لكي لا يقال بأنه خرج عن المألوف... وعندما يريد أن يسلك بطريقة معينة عليه أن يساير مجتمعه وتقاليده وأن يقوم ببعض الترتيبات التي تتوافق مع تقاليد الآخرين. إن الفرد الاجتماعي يصنع كل هذه الأمور لكي لا يقوم ضد المجتمع وتقاليده وعاداته وقيمه.

إن النظام الاجتماعي مسؤول عن كثير من الأمور. وهذا النظام يفرض ذاته على الإنسان منذ ولادته حتى يوم مماته. وعندما يولد الطفل وينشأ، يتشبع بما يحيطه،ويتأثر به، ويتكيف معه ويتعلق به أيضاً، حتى أنه ينقاد لأساليبه... إن الإنسان يحاكي ويقلّد... فهو يفعل الأشياء إرضاء لذاته وإرضاء للآخرين. وهو يفعل الأشياء لأجل الآخرين، ويبررها. وهو يتصرف وفق القواعد الاجتماعية لكي لا يخرج عنها أي لكي لا يسيء إلى الذوق العام.

كل نظام مسؤول عن هذا الأمر لأنه يعتمد على حرية العمل وإدارة رأس المال. تفتح حرية العمل الباب أمام الجميع ليعملوا ما يشاءون، وهكذا، يكونون أحراراً. وأنا لست من مناوئي الحرية، إنما أعتقد أنه أسيء فهمها، فأدركها الناس خطأ. وعندما يخرج الإنسان إلى المجتمع يحاول أن يجد عملاً معيناً... إنه يجد هذا العمل، فيعمل. وإذا لم يجده في المؤسسات القائمة فإنه يجده في عمل يخصه أو بالأحرى يخلقه. وإذا كان ماهراً بكفاية فلا بد وأن ينشط هذا العمل بواسطة الدعاية وفن المهارة. وتصبح الدعاية وسيلة هامة في هذا المجال.

إن شخصاً كهذا يمكن أن يأتي بشيء لا يفيد المجتمع أي لا يفيد الناس. ولكنه حر أن يفعل ما يشاء! والناس أحرار أن يفعلوا ما يشاءون! وماذا يمكن أن يفعل شخص كهذا؟ إنه يعتمد على الدعاية. إنه يبيع هذه السلعة الجديدة ويخلق لها شكلاً جديداً، ويحاول أن يقنع الناس بأنها هامة وضرورية. والناس أحرار كما ذكرت! لكنهم يخضعون للدعاية التي تزيّن الأمور وتضعها في مظهر يجذب الإنسان... فيشتريها. وعندئذ، يتحول الإنسان من شراء الأشياء النافعة إلى شراء الأشياء التي أصبحت تعتبر من صلب مفاهيم المجتمع الدعائي والاستهلاكي.

هكذا يتحول الإنسان... إنه يخضع للمفاهيم التي خلقها له غيره وللصور والخيالات التي رسمها له، وللدعاية التي سيطرت عليه. ويقع هذا الإنسان فريسة للجديد! وما هو الجديد؟ هو «بدعة» اختارها إنسان معين «وفذلكها». فيقبل الناس عليها إقبال العطشان على الماء... حتى إذا تعلق بها وامتلكها... حتى إذا انقضت سنة أو سنتان... تتلاشى... وينبذها الإنسان ليتعلق بواحدة أخرى.

هكذا، يصبح الإنسان عبداً «للبدع»، يتأثر بها وينفعل، ويتخذ منها أسلوباً جديداً لحياته ومعيشته... ولا بد أن ينفر منها... ويعود إليها أو إلى غيرها من البدع الجديدة. ومن هو المسؤول عن هذه البدع التي جذبت الإنسان وأوقعته في دائرة مغلقة لا يعرف كيف يخرج منها؟ هو صاحب الفكرة... هو الحر في عمله... هو الذي يتخذ من حرية العمل وسيلة للكسب والربح والاستفادة... هو الذي استطاع أن يغري الآخرين ويصور لهم الأمور بأسلوب جميل ويشجعهم على استعمالها أو على شرائها.

علام يعتمد هذا «المبتكر» العظيم؟ إنه يعتمد على الدعاية. ولماذا يعتمد على الدعاية؟ لأنه يريد أن يبرهن للناس أن ما صنعه أو خلقه لأجلهم خير. وهكذا، يخدر عقولهم. وماذا يفعل الناس عندئذ؟ إنهم يقعون في الشرك! فإذا ما طلبوا الأمور التي تأثروا بدعايتها وأقبلوا على شرائها، سعوا إلى الحصول عليها... وهكذا، تتراىء لهم عكس ما هي... عليهم أن يدفعوا المال الكثير للحصول عليها. لقد أصبحت هذه الأشياء ذات قيمة كبرى لمن يطلبها ويسعى إليها. وهكذا، نرى أن صاحب «الفذلكة» أو صاحب «البدعة» قد استغل الضعف الإنساني. إنه حوّر الأشياء واستمال الناس بدعايته... فيقع الناس في أحابيل الدعاية ويتأثرون بها... وهكذا، يطلب الإنسان شيئاً لا يريده.

لماذا اعتمد هذا «المبتكر» المصمم وصاحب «الفذلكة» أو السلطة على الدعاية؟ إنه يعرف كيف يجيب وبِمَ يجيب. هو يعلم أن الناس تحركهم أهواؤهم وميولهم اللاواعية... فعليه إذن أن يتلاعب بهذه الأهواء... أن يقويها ويغذيها... أن يجذبها... أن يوجهها كما يرغب... أن يؤثر عليها ويصور لها الأشياء كما يرغب. وهو يعلم أنه إذا استطاع أن يظهر سلعته أو فذلكته أو أقواله بمظهرها اللائق فلا بد أن يستميل ذوات الناس. وهكذا، يتلاعب هذا المبتكر بأذواق الآخرين وميولهم. ويعلم هذا المبتكر أنه يستطيع أن «يخلق» لهم سلعاً ومظاهر جديدة وينمقها بدعايته فيهرع الناس إلى« الجديد». هو يعلم أن الإنسان العاقل لا يتأثر بهذه البدع، فلا يقترب منها ولا يقبل عليها. إذن، فدعايته ليست له بل هي لهؤلاء الذين يتجاهلون قواهم العقلية، الذين تحركهم أهواؤهم، الذين يخضعون لسيطرة شهواتهم.

هناك مسألة أخرى على جانب من الأهمية. هناك مسألة المال. إن حرية العمل لا تتحقق بدون المال طالما أن شراء واقتناء الحاجيات لا تتمان بدونه. وهكذا، يوجه المال وجهة غير صحيحة ولا أخلاقية. إن المال الموجه بهذه الحرية يدمر حرية الإنسان. والمال وسيلة للتبادل ووسيلة للعيش وليس هدفاً ومثالاً للإنسان. فإذا وجدت السلع المختلفة، وجدت الدعاية الكافية، وجد المال، فيخضع الإنسان لهذه المؤثرات... إنه يخضع لها ويصبح عبداً. ويتعلق بها أشد التعلق، ولا يستطيع أن يتجاهلها، لأنها أصبحت مفاهيم اجتماعية فرضت ذاتها عليه، وقيّم نفسه من خلالها.

هكذا، تكون حرية العمل الظاهرية الزائفة وحرية رأس المال عاملين محركين لميول الإنسان وأهوائه. ليست الحرية أن يعمل الإنسان ما يشاء... إنها قوة الإنسان في الخلق الجيد، في التعليم الجيد، في التوجيه الصالح وفي التفكير الصحيح المطابق لمبادئ الطبيعة. فكيف تعتبر حرية العمل حرية إن كانت تهدف إلى تقوية الشهوات والأهواء التي تنطلق من «مبدع» لا يضبطها ولا يعقلها ولا يحولها؟ والميول يجب أن تُعقل ؛ فإذا عَقلت، أصبحت حرة لأنها أصبحت مفكرة. ليست حرية العمل إذن حرية لأنها تعمل في لاوعي الإنسان فتقوي ميوله المكبوتة.

من هو المسؤول عن هذه التوجيهات التي يتأثر بها الإنسان فيسلكها كطريق مهيأة له؟ هو ذاك الإنسان الذي يلعب بمقدرات ومواهب غيره فيطغى عليها ويشقيها ويحولها إلى أهواء مسيطرة وقوية... هو ذاك الإنسان الذي ينصاع لها ويخضع ويسير في مسالكها... هو ذاك الإنسان الذي لا يعقل ولا يفكر.

أصبحت هذه القيم مسيطرة على نفس البشرية وعقلها. وهكذا، أصبحت حضارتنا على حافة السقوط والانهيار. فإذا لم يشرع الإنسان للعودة بنفسه إلى ما كانت عليه في الحالة الطبيعية للوجود... فإنه سيسقط.. وسقوطه هو سقوط الحضارة... وسقوط الحضارة مريع وفظيع... تتلاشى القيم وتموت... ويموت معها الإنسان... وتُمّحى الحضارة.

ما أصعب أن نرى حضارة الإنسان تسير إلى التلاشي! إن ما يؤلمني حقاً هو أن أرى الناس ينقادون كالعبيد لأهواء غيرهم وطرقهم الخيالية. وما يؤلمني هو أن أرى قلة من الناس يصطنعون أشياء صغيرة، تافهة في جوهرها، ويقدمونها للكثرة الباقية، فيقنعونهم بأنها صنعت لهم ويجب عليهم أن يتصفوا بصفاتها. أهذا ما يسمى في حضارتنا إبداعاً؟

إن كانت حضارتنا هذه حضارة إبداع، وإن كانت تقدر تصورات الإنسان المخبأة في ثنايا أهدافه وأهوائه... فإنها حضارة بائسة لأنها حضارة «البدع».

الرسالة الخامسة عشرة

ضيــــاع الشبــــاب

صديقي...

ضاع الإنسان في خضم هذه المفاهيم التي خلقها. وأصبح لا يفرق حقيقتها من زيفها. لقد ضاع الإنسان في خلقه هذا لأنه لا يقوم على المبادئ الطبيعية والشرائع الكونية الثابتة. لقد خرق الإنسان النظام الطبيعي وأنشأ مؤسسات كثيرة من المفاهيم تصارع بعضها بعضاً، وتقضي الواحدة منها على الأخرى، وتشعل الحروب في الدول، وتزيد البغضاء والتناحر بين الناس. وهكذا، فقد الإنسان روحه وأضاعها في هذا العالم الذي يضج من غلوائه في التقييم.

يظهر هذا الصراع في كل مؤسسات حضارتنا القائمة. ويعود هذا الصراع إلى تقييم الإنسان للأشياء بأسلوب انفعالي. لقد علق الإنسان آماله على القيمة المادية. وجعلها الفكرة الوحيدة التي تسيطر على الوجود، واعتبر أن كل شيء ينبثق عنها. وهكذا، فقد علّق الإنسان مفاهيمه بالقيم المادية. ولمّا كانت هذه القيم المادية أقرب إلى إدراكه الحسي، فقد أعطى الأشياء قيماً تتناسب وما يتصل به مباشرة.

فالمسألة إذن هي مسألة تقييم الإنسان لأموره. لكن هذا الإنسان أضاف إلى تقييمه قيماً وجعل من مفاهيمه وسائل لتحقيق كل عمل ذاتي. ولمّا كانت القيم البشرية تختلف فيما بينها لأنها نتيجة خلق سيء، فإنها تقضي على أواصر الصداقة والمحبة بين الناس. ولا ينفك الناس يتعلقون بقيمهم حتى يجدوا أنفسهم في مأزق شديد. فهم لا يدركون أن قيمهم تتعارض مع قيم الغير. وهكذا، ينشأ الصراع وتسود نزعة النقمة والبغض والتسلط.

لقد تحول هذا الصراع في التقييم إلى مرض من أمراض حضارتنا هو حيرة الشباب وقلقهم. لماذا يحتار الشباب ويقلقون؟ لماذا لا يأبه للنظام ولا يتمسك بالمثل؟

لقد خرج الشباب إلى عالم تسوده الفوضى.

إنهم وجدوا الصراع العقائدي السائد.

إنهم رأوا التقييم الذي بناه الإنسان على اللا شيء

إنهم وجدوا أنفسهم وسط حلبة العنف.

إنهم أصبحوا ضحايا الانهزامية والوصولية.

إنهم وجدوا القوانين المتبدلة والزائفة التي لا تنبع من حقيقة ثابتة.

إنهم أحسوا بهذا الضياع في عالم ضاعت فيه القيم.

إنهم أحسوا بالكره والبغض والحقد يسود المجتمعات.

لقد شعروا بمأساة حضارة الكذب وعاشوها.

لقد نشأوا على قواعد وشرائع التربية الانفعالية... تربية الماهر الذي يعرف كيف يحصل على هدفه بدون تعب.

إنهم تعلموا أن لا ينظروا إلى الحياة بعين الحكمة والفهم... بل أن يجعلوا منها وسيلة للكسب.

إنهم وُجدوا في حضارة اللا هدف.

إنهم تلقنوا أساليب هذا العالم منذ الصغر، فعلموا أن القيم المادية هي كل شيء وأن القيم المعنوية هي لا شيء. وعلموا أن من لا يبقى متمسكاً بامتيازات وصفات« نوعه» سوف يلاقي الفقر والحرمان.

إنهم تعلموا أن يحتقروا الصفات الإنسانية.

إنهم نشأوا على عدم تفهم القيم الإنسانية وعدم احترام وتقدير الغير.

إنهم نشأوا على الخوف من المجهول... من الحروب والويلات... من السلطة... من عدم رؤية الغد.

وهكذا ضاع الشباب.

كيف حاول الشباب أن يجدوا منقذاً؟ وكيف حاولوا أن يتفهموا العالم ويدركوه؟

لقد حاولوا أن يتفهموا بأحاسيسهم ووسائلهم التي اكتسبوها بدون معرفة.

إنهم غرقوا في بحر الأنانية لأنهم أبناء حضارة الأنانية. وغرقوا في بحر الكذب لأنهم أبناء حضارة الكذب...وانحرفوا وتحولوا إلى هاربين.

لقد تهرب الشباب! ومما تهربوا؟ هل يتهربون من شبح مخيف يطاردهم؟

إنه شبح الخوف من الحياة، إنه شبح الانهزامية والجهل.

لقد تهرب الشباب من المعرفة كوسيلة للحكمة والتعقل... لذلك، فقد الشباب صفة العقلانية.

إنهم تهربوا من مسؤوليات الحياة وغاياتها.

وأصبحوا لا يبالون إن بقي العالم أم لم يبقَ.

لقد أنهكتهم الحروب وأعمتهم أضاليل أصحاب النفوذ.

لقد أصبح الشباب لا مبالياً... وهذه اللامبالاة هي أشد أمراض الحضارة... لأنها لاهدفية.

واستسلم الشباب للرقصات الجنونية الهوجاء لأنها تمثل واقعهم... للأغاني الصاخبة لأنها تعبر عن لا وعيهم... للكتب الخيالية التي تعبر عن نزواتهم اللاواعية واللامبالاة التي تحملها في ثناياها.

واستسلم الشباب «للبدع» الاجتماعية التي خلقها وتصورها أناس يحرضهم دافع الكسب والمصلحة... فاعتنق الشباب مبدأ البدع وتعلقوا بأهدافها... واكتسبوا «معالم» هذه الحضارة.

واستسلم الشباب لأهوائهم... فهم لا مبالون لأنهم لا يبالون... وبمَ يبالون؟ أيبالون بالعالم الذي لا حقيقة له؟ أيبالون بالمعرفة وهي تعني لا شيء لهم؟ بماذا يبالون إذاً؟ أيبالون بآبائهم وأمهاتهم وأقاربهم وقد أصبحوا غرباء عنهم إذ لم يلقنوهم إلاّ لغة اللامبالاة؟ أيبالون بالكتب، وهي وسيلة للمعرفة، وبالمجلدات التي تُقرأ ولا تطبق وتتحدث في حقيقة غير موجودة؟ أيبالون بالأخلاق؟ وما هي هذه الأخلاق؟ وأين يجدونها؟ أيجدونها في معركة هذا العالم الذي فقدت فيه القيم؟

واستسلم الشباب لحيرتهم... حيرتهم الكئيبة والخرساء... المتمردة الرافضة... الناقمة... اللاهية... الضاحكة... الصاخبة... المترفعة حيناً والمنحطة حيناً آخر... الهادئة حيناً والمتطرفة حيناً آخر.

واستسلم الشباب لقلقهم... ومما يقلق الشباب؟ أيقلقون من الخوف الذي نتج عن هذه الأمور كلها؟ وهل هذه الأمور تدعو للقلق؟ أيقلقون بسبب عدم إيمانهم بالغد، وبحكامهم وقادتهم، ورجال الفكر؟ أيقلقون لأنهم ما عادوا يجدون الحقيقة في صفحات الكتب؟ أيقلقون لأنهم فقدوا ثقتهم في عالم مشحون بالبغضاء والكراهية؟ أيقلقون لأنهم لا يتأكدون من العيش؟ أيقلقون لأنهم سيذهبون إلى ساحة القتال ولن يعودوا؟

واستسلم الشباب لهذا القلق المريع الهائل... القلق من كل ما يحيط بهم... القلق الذي يتمثل بالخوف من المستقبل... وبالتشاؤم من الماضي... القلق المستمر في عالم يعيش في دوامة، في دوران مخيف تحيط به أشباح الفكر الغامضة السوداء.

واستسلم الشباب للقلق لأنهم لا يرون بصيص أمل للخلاص والنجاة في عالم تاهوا في أروقته المظلمة.

ويبحث الشباب عن خلاص... ويحاولون أن يجدوا منقذاً أو مخلصاً.

إنهم لا يجدون...

فيثورون ويندفعون... ويعتقدون بأنهم قد وجدوا الخلاص.

التهرب من الحاضر هو الخلاص.

التهرب الآني هو الخلاص.

بإطفاء وساوسهم آنياً يخلصون.

بالتهرب من واقعهم يخلصون.

ويستسلم الشباب للبدع... للكحول...

فيعتقدون أنهم ينسون... ولا ينسون.

ويعتقدون أن شعلة الوساوس قد خبت. ولكنها تزداد اشتعالا.

ويعتقدون أن ثورتهم اضمحلت... لكنها تزداد انفعالاً.

ويعتقدون أن ذاكرتهم قد امتلأت بأمور لابد وأن تقضي على ذكرياتها وتفكيرها وأشواقها... لكنها تبقى فارغة من التعقل وممتلئة بالقلق.

ويعتقدون أنهم سوف يحطمون كل قيمة... فيتنكرون لها... ولكن القيم ذاتها تبقى والصراع يبقى.

ويستمر الصراع المتمثل بالحيرة والقلق. ويجد الشباب أن تصرفاتهم ومواقفهم لم تنقذهم... فتزداد ثورتهم ويزداد اندفاعهم... ويزداد تنكرهم للحقيقة... ويزداد تعلقهم بأهوائهم... ويزداد تهربهم... وتزداد نقمتهم... ويزداد ضياعهم.

ضياع الشباب وفقدانه في عالم لا قيمة فيه!

هذا هو سبب الضياع.

إنني أتألم لهذا الشباب الضائع الذي يقضي على مواهبه ويتهرب من واجباته ومسؤولياته... مسؤولية المعرفة والواجب.

وكيف يمكن لهذا الشباب أن يعود إلى حظيرته؟

بتجاوز مؤسسات الحضارة الكاذبة...

بتبديل القيم والمفاهيم السائدة... بالتعلق بالنظام الطبيعي...

بالتقليل من شأن الشرائع البشرية...

بالقضاء على العقائد الجامحة...

بالقضاء على مفهوم العنف...

برفض المفاهيم العديدة وطرحها في هاوية النسيان...

بتربية الشباب على حب المعرفة وتحقيق الفضيلة...

بخلق غاية نبيلة يعمل لأجلها الشباب... بتعليم الشباب التضحية، ومحبة الغير، وحب التعاون، والشجاعة الأدبية، وعدم الإغتياب والانتصار على الذات.

بتعليم الشباب هذه القاعدة الذهبية:

لا يحيا الإنسان ويعيش في هذه الدنيا للأكل والشرب، أو للمتعة الآنية، أو للمال والثروة... إنه يحيا لتحقيق هدف الوجود الكلي ومثاله... إنه يحيا لأجل المعرفة والوعي والحكمة.

إن حضارة القلق هي حضارة العصر الحديث... حضارة الجنس. الحضارة التي ماتت فيها كل وجدان وضعفت فيها الإرادة. وإذا مات الفكر... مات الإنسان.

هذه الحضارة البائسة لا يمكن أن نملأ فراغـها إلاّ بالمعرفـة. والفـراغ هـذا، وهـو مرض الحضارة، لا يُغلب بالتهرب والاندفاع في أجواء مختلفة من الشـهوات والانفعـالات والتمرد، بل بالتعقل والفهم والإدراك.

إن الفهم والوعي والمعرفة هي الأصول الحقة للقضاء على هذا الفراغ الأثيم الـذي خلقته حضارة البؤس.

فليهذب الشباب إحساسهم وشعورهم.

وليهذبوا أنفسهم بالتأمل الشخصي.

وليهذبوا عقلهم بالمران... بممارسة االتفكير الجدي... فيبصرون.

الرسالة السادسة عشرة

فلسفة الحرية

صديقي...

هذه هي رسالتي الأخيرة... وهاأنذا أحدثك ببساطة. ولا ادري إن كنت قد قمت بواجبي في رسائلي السابقة وعبّرت عمّا يجيش في أعماقي! فأنا أريد أن أتكلم مع أنني أفضل الصمت... حاولت مراراً أن أمزق هذه الصفحات... وكثيراً ما سألت نفسي: ماذا أنجزت؟ وماذا قلت؟ وكيف عبرت؟ وهل تحدثت عن الحقيقة؟... من يدري؟

غير أني شعرت بارتياح في أعماقي. إن كتابتي هذه بسيطة جداً وقصيرة... فضلت أن أوجز في التعبير دون أن أخلق بلبلة واضطراباً. وماذا يحقق طول الشرح؟ إن كلمة بسيطة صادقة يمكن أن تحمل في ثناياها عمق الحقيقة السامية... إن كلمة واحدة يمكن أن تهز الوجدان الإنساني أكثر من كل ما جاء في الكتب.

هاأنذا أنتهي... وماذا يمكنني أن أقول؟ ثمة أمور كثيرة لا تزال في أعماقي... وسأتركها حتى يحين وقتها.

إن موضوع الحرية يشغل بالي. لقد فتشت في الكتب الكثيرة التي تكلمت عنها... وأعدت الأقوال التي وصفتها... فوجدتني لا أقف على حقيقة ولا أفهم لها معنى... ومع ذلك، اتضح لي أمر واحد هو أن الحرية الاجتماعية كلمة نسبية... فما هي الحرية في المجتمع؟

كنت قد ذكرت لك أن المجتمع تبنى ما خلقه من مفاهيم وقيم. والحرية قيمة اجتماعية. لذلك، فقد خضعت لتناقضات القيم المختلفة. إنها مزيج من الصفات الاجتماعية التي يطلقها القائلون بها على حالات اجتماعية معينة... ولذلك، فقدت الحرية معناها.

كان إبكتيت عبداً رومانياً لكنه كان حراً. وعندما شعر سيده بأن من يستعبده حر، منحه الحرية... لقد أطلقه من عقال العبودية المادية والاجتماعية الاصطلاحية. لكن إبكتيت كان حراً ولو أنه كان عبداً... كان حراً مثل مارك أوريليوس الإمبراطور ولو أنه كان إمبراطوراً. من يستطيع أن يقيد حريتي؟ إن حريتي لا تقيّد لأنها حرية فكري. والناس لا يفهمون إلاّ الحرية الاجتماعية، الحرية الزائفة، الحرية التي تتصل بالعبودية بسلسلة واحدة وبمفهوم واحد. هل تستطيع أن تقيد حرية فكري؟ هل تستطيع أن تقيدها حتى ولو قيدتني بقيود مادية ثقيلة، حتى ولو احتجزتني في غرفة ضيقة؟ إن فكري يبقى منطلقاً في آفاقه.

إن حريتي تخترق الجدران التي تحيط بي... إنها لا تعبأ بالأغلال... إنها فكري وروحي... إنها المعرفة... وعبوديتي تبقى ضمن الجدران التي تحيط بي... إنها تعبأ وتخاف من الأغلال والقيود. إنها عبودية الفكر والروح... إنها الجهل.

الحرية هي انطلاق في المعرفة والوعي والحكمة، وكلما عرف الإنسان وازداد وعيه، أصبح حراً.

الحرية هي القضاء على الجهل والانطلاق من قيوده العمياء.

الحرية هي المعرفة والعبودية هي الجهل.

أنا أخضع إن كنت جاهلاً ولا أخضع إن كنت حراً.

أنا عبد إن كنت أجهل وحر إن كنت أعلم وأفكر.

أنا عبد تقيده قيود الجهل، فأخضع له لأنني لا أعلم، ومتى علمت فإنني أتحرر.

إذن، في المعرفة تكمن الحرية.

لقد قيل في القديم: «اعرف الحق والحق يحررك».

لا يمكن أن توجد حرية بدون معرفة. ولا يمكن أن أكون حراً إن كنت أجهل... فالمعرفة هي طريق الحرية.

الحرية المدنية نسبية لأنها ألاعيب الأطفال يلهون بها ويلعبون... والقوانين لعبة الأطفال... إنها تُعطى وتؤخذ لأنها نسبية... هي حرية وظلم في الوقت ذاته... هي

السلطة التي تمنحها... فتلقب هذه المنحة بالحرية... هي القانون الذي يمنح... فيلقب بالحرية... ألا تتبدل السلطة؟ ألا يتبدل القانون؟... لكن الحرية لا تتبدل.

إني وجدت أحراراً بين الناس البسطاء أكثر مما وجدت أحراراً بين الذين يتكلمون عن الحرية... ووجدت أحراراً بين هؤلاء الناس الذين لا نسمع بأسمائهم ولا نجلهم ونحترمهم... لقد وجدتهم أحراراً لأنهم تحرروا من الأنانية وحب الذات وقدموا أنفسهم لخير المجتمع...وجدتهم أحراراً لأنهم يصدقون ولا يكذبون... لأنهم لا يبيعون أنفسهم ولا يرضون أن يكونوا عبيداً... وجدتهم أحراراً لأنهم لا يستغلون الفرص لكي يستثمروا غيرهم ويستعبدوهم.

لا يرضى هؤلاء الأحرار أن يقتلوا أرواح غيرهم... أما الذين يتشدقون بالحرية... هؤلاء... ظلموا الكثير من الناس مع أنهم لم يحاكموا... وأدانوا الكثيرين مع أنهم لم يقدموا أحداً إلى المحاكمة. ولا يرضى الطيبون الأحرار أن يهزأوا بالآخرين ولا أن يقضوا على مواهبهم... إنهم ينظرون إلى البعيد... إلى حيث يقيم الحق والمعرفة في أعماق الكيان الإنساني... حيث لا قيود مادية أو معنوية.

في القديم تحدث سقراط وأبان أن المعرفة هي الفضيلة. فإذا كانت الحرية هي المعرفة فلا بد وأن تكون المعرفة فضيلة والفضيلة معرفة... المعرفة تُحررك من الجهل. وقد قيل في القديم: «يبقى الإنسان عبداً للأشياء ما دام يجهلها».

فالمعرفة تحرر، إذن هي فضيلة.

إن من يعرف يتحرر ومن يجهل يُستعبد. من يتفهم شهواته يحولها إلى فضائل. ولذلك، كانت المعرفة سبيلاً مستقيماً إلى الفضيلة. ولا نستطيع أن نفرق بينهما.

كلما ازددتَ معرفة ازددتَ فضيلة. فعندما تعلم شيئاً عن نقائصك، وتعرف نقاط ضعفك، فإنك تحولها إلى فضائل... ولا يمكن أن تتم الفضيلة بدون معرفة... كما أنه لا توجد معرفة إن لم تكن تؤدي إلى فضيلة.

إن الإنسان طاقة ملأى بالمعرفة وبالفضيلة... وما عليه إلاّ أن يعرف هذا... وإذا جعل من المعرفة غاية له... فإنه يخلق هدفاً... فتستيقظ طاقاته... ويكون الهدف متمثلاً بالحرية لأنه انتصر على بقايا ميوله ولاوعيه كما يكون متمثلاً بالفضيلة لأنه حول الشهوات إلى مُثُل.

هكذا، ينمو الإنسان نمواً متواصلاً. وكلما فتح باباً من أبواب المعرفة يقرع باباً جديداً ويدخله. ألا تلاحظ أنك تنتصر عندما تحل مشكلة؟ لقد كنت مقيداً بها... أما عندما وجدت لها حلاً تحررت من قيودها وسيطرتها عليك... فإنك تشعر عندئذ بنشوة روحية رائعة... هذه هي الأبواب والحلول التي يجدها الإنسان عندما يتحرر من القيود التي كان قد رُبط بها.

وكلما تفتحت طاقة في الإنسان وأدركت ذاتها، تحولت إلى طاقة جديدة. وهكذا، يموت الإنسان القديم الجاهل ويحيا الإنسان الجديد الحرّ.

ويلقي الإنسان نظرة إلى الوراء... وماذا يرى؟ يرى كيف كان مكبلاً... وقد أصبح حراً. فلو لم تتفتح منافذ المعرفة، ولو لم يجعل من المعرفة سبيلاً وهدفاً... لبقي عبداً.

إني قرأت حياة الحكماء وآراءهم فوجدتهم أناساً اتخذوا من التأمل سبيلاً للمعرفة. لقد استهل كل واحد منهم حياته بالتأمل أي بالتفكير العميق، الخالص من الانفعال.

إن التأمل يشحذ الفكر والنفس لأنه يطلق الوجدان... فيسبح هذا الوجدان في عالم الحقيقة... ويطلع على عالم الحقيقة... فيستنير بما رآه وشعر به.

والشعور الدقيق تأمل، لأنه يرفع الإنسان إلى إدراك مستوى الأشياء عبر النور المتدفق من الأعماق... من الدماغ... من الأعصاب الحساسة... وقد قيل في القديم: «تولّدَ الشعور عندما تجسدت الروح في المادة».

عبر هذا الشعور السامي الذي ينقلك إلى عالم تملأه قوى الإنسان وطاقاته وأنواره... قوى الكون... وقوى الوعي الكلي التي تسود الكون... يتأمل الإنسان.

هذا التأمل... استغراق الإنسان في نفسه وفي أعماقه... في كيانه... هو دخول الإنسان إلى نفسه لكي يبحث ويعرف... فالتأمل معرفة وبالتالي فضيلة وحرية... وهو البحث عن الحقيقة.

من لا يتأمل لا يبلغ أغوار نفسه ولا يفقه من سر الكون شيئاً.

إن جمود العقل والإحساس والشعور هو موت حياة الروح وعيش المادة.

إن تعلق الإنسان بالأرض قتل لطاقاته العلوية.

إن الاعتماد الكامل على الدماغ لتحقيق العقل، والعقل أسمى من الدماغ، طريقة لا تؤدي إلى التأمل.

إن بقاءك في هذه الدنيا مجرداً من غاية تقع إلى ما وراء وجودك، يعيق التأمل.

إن نظرتك البسيطة إلى الأمور ورؤياها كما هي، تقضي على التأمل لأنه انطلاق في اللامحدود.

إن التأمل هو غفلة الحس ويقظة الشعور وانطلاقه في عالمه... وأنت تتأمل تشعر بنشوة روحية لا مثيل لها لأنها تنقلك إلى عالم أكثر صفاء ونقاء وجمالاً ورقة من عالم الحس.

من لا يتأمل لا يدرك كنه وجوده لأنه يبقى متعلقاً بالظاهر المرئي. ومن لا يتأمل لا ينفك من قيوده التي شدته إليها مظاهر المجتمع لا حقيقته.

إن التأمل قوة رائعة توقظ في الإنسان شعوراً بأنه يرقى إلى الوعي الكوني... ويحيا في كنفه... لقد أصبح روحاً تحلق في عالمها.

وهل أبدع المفكرون والعلماء والفلاسفة بدون هذا التأمل؟

فتأمل يا صديقي... وتعلّم وكن حراً.

إن التأمل والمعرفة والحرية هي عالم الحق والمثال.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسائل في مبادئ الحياة

الطبعة الأولى 1991



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «رسائل في مبادئ الحياة» ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب عام 1991. وكنت قد كتبتها آملاً أن تكون الرسائل المكملة لكتاب آخر كنت قد وضعته في فترة مبكرة من حياتي، وصدر في الربع الأخير من عام 1962 بعنوان «رسائل في حضارة البؤس». ولمّا كانت تلك الرسائل الأولى غير كافية على نحو مبّرر لتوجيه «صديقي» إلى معرفة المبادئ الإنسانية التي تمده بالقوة اللازمة لشعور الشخصية بالقيمة والمعنى في وجودها الأرضي، فقد عمدت إلى إكمال تلك الرسائل برسائل أخرى أكون فيها حكيماً لا ناقداً، ومرشداً لا ناصحاً، ومصلحاً لا هادماً، وفاعلاً لا منفعلاً، ومزوداً بفلسفة الأمل والرجاء التي تتجاوز التشاؤم والتفاؤل. وهكذا، شئت أن أتمم النقد المباشر الذي وجهته إلى القيم الاجتماعية، بمبادئ كونية وطبيعية وإنسانية يتبناها «صديقي» وتجعله يتسامى في وجوده الاجتماعي، وتسمو معه القيم والمعاني الملحقة بالواقع المشروط بالتقاليد والتربية الانفعالية. وبالإضافة إلى ذلك، رجوت «صديقي» أن يعالج القضية الإنسانية برمتها، انطلاقاً من عالم الداخل دون أن يكتفي بتوجيه أنظاره إلى عالم الخارج، وذلك لكي يقيم توازناً بين هذين العالمين. ولقد ألمعت إلى هذا الأمر علماً مني بأن توجيه النقد إلى المفاهيم التجمعية التي تقع خارج كيانه لا يفي بالقصد السامي الذي يهدف إلى بلوغه، ما لم يسعَ إلى تحقيق المبادئ الكونية والطبيعية والإنسانية الجوهرية الكامنة في كيانه.

ولما كانت هذه الرسائل تحمل في طياتها المبادئ الرئيسية التي اخترتها، لتكون القواعد والأسس التي تبنى عليها «القيمة» التي يتوخاها الإنسان في وجوده الأرضي و «المعنى» الذي يضّمنه في وجوده هذا، فقد جعلت منها مبادئ عامة وشاملة يأخذ بها أبناء البشرية جمعاء، ولم أجعلها «بعضاً» من المبادئ، وذلك لأن المبادئ لا تنحصر ولا تُحتجز ضمن النطاقات العرقية، أو المذهبية، أو الفكرية أو العقائدية الخاصة. ولهذا السبب، جعلتها تنضوي تحت عنوان «رسائل في مبادئ الحياة». ولماّ كان «صديقي» قد أشار علي وأوصاني أن أشرح وأوضح بعض العبارات المذكورة في رسائل معينة، وأتطرق لموضوع خاص، فقد سرني أن ألبي طلبه وأرضخ لإشارته ووصيته هذه، فأضفت رسائل ثلاثاً تبحث في القضايا التالية:

1ً ـ المغزى المتضمن في مفهوم الموت، والعمق الـذي نعاينـه في عبـارة «المـوت هـو القـانون الأسمى الذي يوحِّدنا مع الكون».

2ً ـ التعمق في المساواة الجوهرية القائمة بين الرجل والمرأة، والمضمونـة في الكيـان الواحـد الذي يتكامل فيه قطبا الأنوثة والذكورة.

3ً ـ الواقع الاجتماعي الذي ينشد مثال التحقيـق في النطـاق الاقتصـادي، والعقـل التقـني الناتج عن التقدم العلمي الذي يؤتي ثماره في ازدهار البشرية ورخائها.

ندره اليازجي

الرسالة الأولى

المبادئ، قيمة إنسانية وكونية

صديقي...

هذه هي المجموعة الثانية من رسائلي، أبعثها إليك وأنا أسعى إلى تذكيرك بالمبادئ والقواعد التي يهدف الإنسان إلى تحقيقها في حياته، والعمل بموجبها [1]. ولئن كانت رسائلي الأولى التي كتبتها، وأنت ترتع في ريعان الصبا وتزهو بعنفوان الشباب، تهيئة نفسية تساعدك على اجتياز صعوبات مقبلة، فإنني أحاول، في رسائلي هذه، أن أغوص معك إلى عمق الموضوعات التي تشكل القاعدة الأساسية لحياتنا ومعرفة القيمة الجوهرية التي ينطوي عليها وجودنا الأرضي. لذا، تعد رسائلي هذه حواراً أجيب من خلاله عن التساؤلات العديدة التي كانت تراودك وأنت تتصدى لمعرفة القيمة المتضمنة في حياتنا، والمغزى الحقيقي لكياننا والمعنى الذي يشتمل عليه وجودنا. وإذا كانت القواعد أو المبادئ التي أحدثك عنها تحمل في صميمها بعض الأسس التي ترتكز عليها حياتنا، فيمكنني أن أقول إنها التحقيق العملي، والممارسة الفعلية التي تتجاوز مفهوم السعادة أو التفاؤل لتنتهي إلى فلسفة الأمل والغبطة.

ثمة مبادئ، أو قواعد، تلازم حياتنا. وإن توافرها يعني أننا أصبحنا نفهم الغاية من وجودنا الأرضي أولاً، وندرك أننا كائنات كونية، متصلة بلامحدودية الشمول، ومتحدة مع «الحقيقة السامية» أو الحياة الكلية المتجسدة، أو الحالّة في كياناتنا ثانياً. والحق، أن هاتين المقولتين تبدعان منا كائنات تعرف وتعي، وتتمثل الوجود المحض،

[1] صدرت المجموعة الأولى في كتاب «رسائل في حضارة البؤس» عام 1962.

وتخلقان منا أناساً، هم غاية في ذاتهم، يتوافقون مع المبدأ الكوني أو الوعي الكوني من خلال تطبيق المبادئ أو القواعد التي تحفل بها رسائلي إليك.

وإذا كانت الغبطة هي الجوهر الذي تتمحور عليه حياتنا، فيسعني أن أقول إن «التفاهة» لن تجد طريقاً إلى كياننا، وذلك لأننا غاية بذاتنا، ووجود غير منقسم، متحد في صميمه ومتصل بالكل. وإذا كانت التفاهة تعني انعدام الغبطة، وبالتالي انعدام القيمة، فلا بد لي أن أتبنى مبادئ وقواعد تساعدني على معاينة الحقيقة التي أكونها، ووعي الموضع الذي أحتله في سلسلة الوجود الكبرى، وذلك لكي أنجو من جحيم العيش في عالم مبتذل. وعندئذ، أتحرر من الإشراطات التي تقيدني إلى رغباتي وتحتجزني في انفعالاتي، وأنعتق من الإحساس بالتفاهة... ألا تتولد التفاهة من إحساس «لاجدوى» الانفعالات والرغبات، ومن عبث الوجود المبتذل؟ ويمكنني أن أقول إن حريتي تكمن في تجاوز مفهوم «التشيؤ»... هذا، لأنني أسمو على كل ما هو «شيء» أو «تملك» في وجودي الإنساني والاجتماعي... «الشيء» الذي يقلصني إلى قوقعة من يرغبون أن يجعلوا مني «شيئاً» أو «تملكاً»، أي كائناً تافهاً.

أحب أن أقول إن المبادئ الحياتية أو القواعد المعيشية [2] التي أحدثك عنها لا ترتبط بعقيدة ثابتة، ولا تتأصل جذورها في صيغة أو معادلة فكرية معينة، ولا تأخذ لها اتجاهاً خاصاً، ولا تنزع إلى التضييق على قيمة الحياة ضمن مفاهيم مغلقة إنها مبادئ شمولية إنسانية في جوهرها، وكونية في حقيقتها، تعلمني كيف «أحيا»، وأعني، كيف أجسد الحياة الكلية في غبطة العيش، وسمو الإنسانية... وإذا كان الإنسان يعلن صراحة أنه «حي» على مستوى كوكبي معين، فيقضي هذا الإعلان الصريح أن يتساءل عن سر حياته، ليعرف كيف «يحيا»، وذلك في سبيل تجنب الألم السلبي الذي يشير إلى «عبث» الوجود. ولما كان الإنسان يرفض أن تكون حياته «عبثاً» و «لاجدوى» فإنه يسعى إلى إضمار «المعنى» و «القيمة» في حياته الأرضية. والحق، أن هذا «المعنى» لا يتوافر إلا في مبادئ ملازمة لكينونته، بحيث أن خروجه عليها أو جهله لها، وعدم تطبيقه لها، يرميه في هوة الضياع، ويلقي به في متاهة الصراع الداخلي الأليم، ويريه... «تفاهة» الوجود.

---

[2] راجع فصل «الحياة والمعيشة» في كتابي «بحوث فلسفية».

تحمل رسائلي في ثناياها فلسفة الأمل والرجاء المتوافقة مع مبدأ الغبطة [3].
ففي فلسفة الأمل، ينتهي التشاؤم الذي يلازم التفاؤل، ويسود الانسجام الداخلي، وتتحقق الشخصية المتكاملة والمتوازنة. والحق، أن فلسفة الأمل تشير إلى القوة الفاعلة في كيان الإنسان،... وإلى محبة العالم... هي فاعلية داخلية ناتجة عن رؤية كونية للوجود تُنشّط الطاقة، وتبدع فينا إحساساً وشعوراً بأننا أسمى من كل «شيء». وليس تحقيق هذا الشعور إلاّ دليلاً على الحرية والوعي. ولما كان الوعي ملازماً للحرية، فإنه يعتقنا من كل ما يمكن أن يقيد كياننا ويشرط حياتنا.

أخيراً، أحب أن أعلمك أن الفضيلة، والمعرفة، والوعي، والمحبة، والغاية النبيلة، والحرية، والفاعلية هي بذور نزرعها في الحقل الاجتماعي. هذا، لأن المجتمع هو النطاق الذي يحقق فيه الإنسان إنسانيته وكونيته في آن واحد. ولا أبالغ إن صرّحت، بملء قلبي وعقلي، أن إنسانية الإنسان تتجسد في اجتماعيته. وعلى هذا الأساس، أدعوك إلى تطبيق مضامين المبادئ والقواعد الحياتية التي تتبناها في الحياة الاجتماعية، وذلك لكي تكون خدمة الإنسان، ومحبة الآخر، وصداقة جميع الناس، وتحمُّل جميع الآراء والمعتقدات الغاية القصوى والنهائية التي تتمثل فيها حياتك، وتتجلى فيها «القيمة» المعزوة إلى وجودك [4].

[3] راجع فصل «العلم ومصير الانسان» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

[4] راجع فصل الانسان وأبعاده الاجتماعية في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسالة الثانية

فلسفة الصعوبة

صديقي...

تأملت ما جاء في ردك على رسالتي الأولى، فأدركت أنك تحبذ الحوار الذي دعوتك إليه، وتفضل أن أكتب إليك باستمرار، وأحدثك بالقضايا المتعلقة بجوهر الإنسان، وصميم وجوده الاجتماعي والكوني. وسررت، بل اغتبطت، لمعرفتي أنك تشجعني، وتحثني على مناقشة موضوعات تتجاوز السطحية والسذاجة إلى العمق، وتأبى أن تكون عادية وعامية. وعلمت أنك تثيرني إلى التعمق في طرح المسائل الإنسانية، لسبب أصيل هو أن الإنسان لا يتفهم حقيقته، ولا يعي وجوده إلاّ في سرية العمق... عمق نفسه وعمق الكون. وفي هذا العمق، نجد السرية التي تنطوي عليها كل حقيقة وواقع.

تدفعني محبتي إلى بحث موضوع هام يرتبط بالمعنى الذي نضفيه على وجودنا، والأهمية الكبرى التي نعزوها لحياتنا، والقيمة الإنسانية التي تعني انتهاء التفاهة. ولماّ كنت أُلِحّ على تجاوز «التفاهة» إلى الإحساس بالقيمة والمعنى، فلأنني أتصدى لهذه الكلمة وأنا أحاور أشخاصاً ينظرون إلى الحياة بمنظار العبث واللاجدوى. فالحياة، في نظرهم، تحمل في طياتها مصائب لا تحصى، الأمر الذي يجعل منها قضية تافهة لا تستحق الجهد والعيش. ولم يتورع أولئك الذين حدثتهم عن التصريح بأن حياتهم، وإن كانت تافهة وحافلة بأنواع المصائب، تمتلئ بـ «المعنى» إن كانت تمدهم بالملذات والمسرات. فهم يعتقدون أن مصائب الحياة تُواجه بمسراتها وملذاتها. أما الآخرة، في رأيهم، فقضية إيمان تقليدي يقودهم إلى الخلاص. والحق، أن تلك الفئة من الناس يتمثلون الأبيقورية ومبدأ اللذة، الأمر الذي يجعلهم يحرِّفون مفهوم «المعنى والقيمة» إلى التفاهة.

1 ـ المصيبة حدث

لجأت إلى وحدتي، إلى طمأنينتي، أتأمل حقيقة حياتي الأرضية. واستغرقت في عالم يزخر بالتصورات والمفاهيم والقيم، فاستخلصت ما يلي:

1 أرفض وجود مصائب في الحياة، وذلك خشية أن أجملها في مصيبة واحدة، هي وجودي. وعلى هذا الأساس، لا أقبل أن يكون وجودي مصيبة بدرجة واحدة وشدة واحدة.

2ـ أعلم أن مفهوم المصيبة نسبي، وأدرك أن ما هو نسبي لا يحتفظ لذاته بجوهر وحقيقة. فما يمكن أن يكون مصيبة لي، قد لا يكون مصيبة لغيري، أو قد لا يكون مصيبة بدرجة واحدة وشدة واحدة.

3ـ أتيقن من عدم وجود المصيبة؛ هذا، لأن ما يقع لي ليس أكثر من حدث... ثمة أمور عديدة تحدث لي؛ ولا يليق بي، وأنا الكائن الذي يعترف بوجود حقيقة كونية شاملة، أن أدعوها مصائب.

4ـ أعتقد أن الوعي يحدد مفهوم الحدث، أو قيمته ومعناه. وأجزم أن مستوى الوعي يعيِّن مفهوم الحدث. والحق، أن الإنسان الواعي، الكوني بتفكيره وعقلانيته، ينظر إلى الحدث بأنه مجرد «صعوبة». أما الإنسان الذي يتميز بوعي متدن فإنه يعتبر الحدث الذي يقع له، أو يسمع به، أو يراه، مصيبة. وعلى هذا الأساس، يكون الحدث صعوبة في نظر الإنسان الواعي، ومصيبة في نظر الإنسان الذي لم يحقق وعيه الكامن. وقد يكون هذا الأخير سبباً لمصيبة تحلّ بغيره.

عندما بلغت هذا المستوى من التحليل، أدركت أن الحياة صعوبة وليست مصيبة، وأن الأحداث بأنواعها، الاجتماعية والطبيعية، صعوبات تتطلب الوعي الذي يجد حلولاً لها، ويدرك قوانينها.

2 ـ تمثُّل الصعوبة

كيف أستطيع أن أتمثل الصعوبة بمفهومها الفلسفي والفكري؟ ولِمَ تكون الصعوبة موجودة على مستوى كوكب الأرض؟ وهل هي سمة خاصة تلازم الوجود الأرضي أم هي مبدأ كوني؟ وهل يوجد توافق بين مبدأ الصعوبة والوجود المادي؟ وهل يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى الحقيقة من خلالها؟ وهل يتمكن من الانتصار عليها بالطرق العقلية والوسائل

الجسدية المتاحة له؟ وهل تُعد الصعوبة إدانة للكائن البشري أم تُعد وسيلة خلاص وطريقاً إلى المعرفة والوعي؟

أسئلة طرحتها على نفسي ساعياً إلى إجابة أو إجابات كافية ومبررة. ولقد هدتني بصيرتي إلى النتائج التالية:

1 ـ يُعد كوكب الأرض، وهو أحد كواكب العالم المادي، «أدنى» وجود في سلسلة الوجودات. فهو يحتل الدرجة الأولى في السلم الصاعد إلى الوجودات أو العوالم الأخرى. والحق، أن صفة «أدنى» لا تتضمن مفهوم الانحطاط، إنها تعني الكثافة التي يتميز بها هذا العالم المادي. لذا، تتوافق كلمة «أدنى» مع كلمة «كثافة». ويمكنني أن أقول إن العالم المادي هو الموضع أو المكان الأكثر كثافة في تتابع الوجودات الصادرة، عن طريق الفيض، أو المنبثقة من الكيان الأكثر لطافة. ويتأسس يقيني على دليل يعتمد مبدأ الاهتزاز. هذا، لأن المادة اهتزاز يقع ضمن حدين. ولعل العلماء قادرون على البرهنة بأن جميع الاهتزازات الكونية المسجلة أكثر لطافة، وأقل كثافة، من اهتزازات عالمنا الأرضي. وبالإضافة إلى هذا، أستطيع أن أعلن، بصراحة، صعوبة تصوُّر كائن أكثر «أنانية»، أي تركيزاً للطاقة، من الكائن البشري. ألا ينفعل الإنسان الأناني بكلمة، أو برغبة أو بشهوة قد تدفعه إلى القتل والتدمير؟

2 ـ تعد الصعوبة القانون المهيمن على كوكب الأرض: جميع الأشياء قائمة في الصعوبة. الصعوبة كامنة في قلب كل شيء الولادة صعوبة، الموت صعوبة، العلم صعوبة، الجهل صعوبة، الحصول على القوت صعوبة، كسب الصديق صعوبة، خسارته صعوبة، تحقيق المثال صعوبة، المرض صعوبة... الخ. ألا ترى أن الصعوبة هي المبدأ السائد على كوكب الأرض؟

3 ـ تعد المصيبة حصيلة عدم التغلب على الصعوبة: هي نتيجة وليست سبباً. وإذ تضعف قدرتي على التغلب، تزداد الصعوبة، وبالتالي تتحول إلى مصيبة. والحق، أن اعتماد هذا التصور يعني أن المصيبة تتضاعف بتناقص الوعي. ثمة سبب أدعوه الصعوبة، وثمة نتيجة أدعوها المصيبة. لذا، يمكنني أن أقول إن مستوى الوعي يعيِّن مفهوم الحدث، على نحو صعوبة أو مصيبة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يقضي بتفسير هذا الواقع من خلال مثال أو مثالين أضربهما لك:

آ. يزداد الخلاف بين شخصين بزيادة العجز في تضييق الفجوة القائمة بين وجهتي نظرهما، الأمر الذي يؤدي إلى التنافر، والصراع ، والكراهية ، والخصام الذي قد ينتهي بالتدمير. هذا، لأن انعدام الوعي عند كل منهما، والأنانية المتأصلة في انفعالهما، وتقاعسهما عن إرساء قاعدة التفاهم، يجعل من الصعوبة التي يواجهانها مصيبة.

ب. تزداد الصعوبة بتأجيل حلها يوماً بعد يوم، الأمر الذي يؤدي إلى مصيبة.

4 ـ يوازي العقل الإنساني، لا بل يتجاوز، الصعوبة القائمة في العالم المادي. فبقدر ما تتجلى الصعوبة في الطبيعة المادية، يتهيأ الإنسان لمجابهتها بعقل يحتويها، يتجاوزها ويسمو عليها. وعلى هذا الأساس، يكون العقل أوسع من المادة لأنه يمتد إلى الكون كله. وإذا كانت الطبيعة والعقل كياناً واحداً، فلا بد أن تكمن في العقل قدرة تتسع للطبيعة وتتجاوزها. ومن هذه العبارة نستنتج أن الصعوبة الطبيعية كامنة في الصعوبة العقلية، وخاضعة لتسامي العقل عليها.

5 ـ عندما أتساءل عن سبب وجود الإنسان في عالم تهيمن عليه الصعوبة، أجيب قائلاً: إن العقل البشري لا يتطور، ولا ينمو إلاّ من خلال الصعوبة. وإذا كان الأمر كذلك، علمنا أن العقل يتخلف ويتقهقر في السهولة. فلا شيء يصقل العقل غير الصعوبة... هي الحافز والدافع إلى الإبداع والخلق والفهم . والحق، أن الصعوبات الطبيعية من هزات أرضية ، وبراكين، وأعاصير...الخ، تعلّم العقل طريقة استنباط القوانين واستدلال المبادئ المتمثلة بالعلم. هذا، لأن العقل يعجز عن الانسجام والتوافق مع قوانين الطبيعة إلاّ من خلال معرفة قوانينها. وعندما وقف الإنسان أمام البحر، استطاع أن يجهز ذاته بالمراكب، فأوجد هندسة البحار، وتنبأ بالأعاصير بعد أن زوّد نفسه بمعرفة التيارات الهوائية. وعندما زرع الإنسان بذور الطبيعة، أنشأ هندسات عديدة تتصل بالزراعة. وهكذا، استطاع الإنسان، من خلال الصعوبة القائمة في الطبيعة، أن يدرك قوانينها وأسرارها. وعلى غير ذلك، نجد أن العقل الحيواني يتوافق مع سهولة عيشه. وتشير سهولة العيش هذه إلى عجز العقل الحيواني عن التجريد في العلوم الرياضية والفكرية عامة. فإذا كان الحيوان يجد ملجأه أو مأواه في الطبيعة، في عش يبنيه أو في جحر يلتجئ إليه، أو في ظل شجرة يأوي إليه، فإن عقله يعجز عن إنشاء الهندسات الفراغية، والهندسات الأخرى العديدة. وإذا كان يسعى إلى غذائه بسهولة، فإنه يعجز عن تأسيس العلوم المختلفة والمتصلة بهذا النطاق. وهكذا، نستنتج أن الصعوبة التي

يواجهها الإنسان تصقل قدراته العقلية. وبالإضافة إلى ذلك، نقول: إن توقف الصعوبة عند حد يعني توقف العقل عن المعرفة.

6 ـ لا تنطبق نسبية مفهوم المصيبة على الصعوبة. فإذا كانت المصيبة مجردة من الجوهر، فإن الصعوبة تُعرف بجوهرها. ويشير جوهر الصعوبة إلى تدرج مفهومها. لهذا، نرى أن العقل الإنساني بدأ باستيعاب القوانين الأكثر بساطة والأقل تعقيداً. فمبدأ سقوط الأجسام أو طفوّها، وقانون الوزن النوعي لم يشغلا بال الإنسان مثلما شغلته قوانين الترموديناميك. وعلى هذا الأساس، أدرك العقل القوانين وهو يتدرج في سلّم صعوبتها: القوانين الأكثر بساطة، الظاهرة على سطح الأرض، تقع في القاعدة، وتصعد حتى تبلغ التعقيد الذي يتصف بصعوبة كبرى. وقد استطاع العقل الإنساني، من خلال تدرج الصعوبة، تجميع القوانين وتنسيقها في منظومة متصلة ومتماسكة. إذن، فتدرُّج الصعوبة يشير إلى اتصال وتناسق في الجوهر؛ أما نسبية المصيبة فتشير إلى انفصال، وتجزئة وعدم انسجام في الصميم. وبالإضافة إلى ذلك، يشير التدرج إلى هرمية المعرفة التي تبلغ قمتها في التجريد الكامل، والتنظيم العقلي وفق قوانين كونية أسمى. ولما كان الموت يعني الصعوبة الكبرى، فإنه يمثل القانون الأسمى الذي يوحِّدنا مع الكون.

7 ـ تتمثل الصعوبات الخارجية بالظواهر التي نطلق عليها صفة الكوارث والفواجع التي نشاهد آثارها في البراكين والزلازل والأعاصير. والحق، أن النتائج الأليمة التي تخلفها هذه الصعوبات الخارجية ظاهرة للعيان. فهي تدمّر ما بناه الإنسان، وتزهق أرواح العديدين، وتترك وراءها البؤس والتعاسة. ومع ذلك، لا يحق لنا أن ندعوها مصائب لسببين: أولاً: قدرة الإنسان على الاستفادة من الصعوبات الخارجية. إنه يستفيد من الطمي الذي تخلفه الأنهار بعد فيضانها، ومن الحمم التي تخلِّفها البراكين بعد انفجارها، ومن السمّ الذي تنفثه الأفاعي، ومن احتجاز مياه الفيضانات في سدود تستعمل للري... الخ. وهكذا، نرى أن الإنسان يستمد طاقة من الصعوبات الخارجية. ثانياً: إن توقف الصعوبات الخارجية يعني توقف العقل عن المعرفة. فإذا كانت أسرار الطبيعة المادية قائمة في صعوباتها، في المقاومة السالبة المضمونة فيها، فإنما يعني هذا أن اكتشاف المزيد من الأسرار، والولوج إلى باطن الصعوبات، يشير إلى تطور العقل في نطاق المعرفة. وإذا كان مستوى الوجود على كوكب الأرض يشير إلى الكثافة المادية التي تتصف بالغليان، والحركة، والديناميكية...الخ، كانت المعرفة متلازمة مع الصعوبات الخارجية؛ هذا، لأن محاولة الإنسان بلوغ أعمق نقطة في المحيط من أجل الحصول على

تراب يساعده على دراسة الاهتزاز الأرضي، الـ «سيسمولوجيا»، قضية تعني أن دراسة الاهتزاز الأرضي تقود إلى دراسة الاهتزاز الكوني. وإن ما يطبّق في هذا النطاق، يطبق أيضاً في نطاقات عديدة أخرى. ومع ذلك، لا نستطيع أن ننكر الآثار الأليمة التي تخلّفها المقاومة السالبة المركزة في الكثافة المادية.

8 ـ يتلازم الوجود مع الوجوب. الوجود قضية معطاة، والوجوب هو الوجود كما يجب أن يكون. ولا شك، أن الوجود تعبير عن صعوبة قاسية، إذ مطلوب من الإنسان أن يحقق أنبل المبادئ وأسماها، ويستنبط أرقى القوانين في أدنى العوالم، في أكثف العوالم وأكثرها مادية. لذا، يمكنني القول إن الوجوب فاعلية تنشّط الطاقة الإنسانية لتبلغ أعلى درجاتها. وعلى هذا الأساس، يُعدّ الانتقال من الوجود إلى الوجوب، وهو تحوّل متصل، عملية شاقة تشير إلى الصعوبة الكامنة في صلب البنية المادية، المعبّر عنها بالمقاومة السالبة. والحق، أن وجود المقاومة السالبة، وهي الوجود المادي، يتلازم مع وجود المقاومة الإيجابية التي هي الوجوب، الأمر الذي يعني أن الوجوب فعل دائم ديناميكي، يهدف إلى تحويل المقاومة السالبة إلى توافق مع القانون الكوني، الوعي الكوني أو الحقيقة السامية... فعل يشير إلى روحنة المادة، وإلى تأليف الأجزاء المتنافرة بظاهرها في وحدة متكاملة ومتناسقة كلّية... وهل ثمة ما هو أصعب من تحقيق الوجود المحض، والوجوب الكامل، والنظام الأسمى، والوعي الكوني في عالم الوجود الأرضي الكثيف؟

9 ـ ترتبط الصعوبة بالوعي، وترتبط المصيبة بانعدام هذا الوعي. لذا، يمكنني أن أقول إن المصيبة غير موجودة أصلاً، لأنها لا تلازم جوهر الوجود المحض. وكما ذكرت، ثمة حدث يقع للإنسان؛ ففي كل لحظة من لحظات حياتنا حدث؛ في كل لحظة نحيا ونموت، ونموت ونحيا. والحق، أن الوعي المرافق للحدث يحدد مفهوم الصعوبة، ويقيم انسجاماً بينه وبين الحياة الكلية. ولما كان الوعي يتمثل في نظرتنا الكونية المتكاملة والمنسجمة إلى الوجود، فندرك أن الوعي يجد في كل حدث صعوبة. وذلك لأنه يعمل على تحويله من وجود إلى وجوب. وعلى هذا الأساس، لا يرى الإنسان المتميز بوعي كوني مصيبة في وجوده الأرضي، بل يعلم أن وجوده يعني تحقيق الحضور الكلّي بوصفه كياناً يملأ الكون كله. ولا شك، أن هذه النظرة الشاملة الناتجة عن وعي كوني تجعل الإنسان يدرك اتصاله بالكل وعدم انفصاله عنه. فإذا كانت الصعوبة قائمة في صلب وجوده فلأن الاتصالية الكونية تتطلب منه جهداً كبيراً إذا ما تخلّى عن إحساسه بالانفصالية. أما انعدام الوعي فيجعل الإنسان يعيش انفصاليته التي تتحوّل، في نهاية

الأمر، إلى مصيبة. إذن، فالصعوبة تكمن في انسجام الكائن البشري مع الكل اللاّمنقسم، وتكمن المصيبة في الاعتقاد بالجزئية والانفصال والانقسام.

10 ـ تشير اتصالية الكائن الإنساني مع الكل المتجانس في أنحاء الكون، إلى تقويم ذاته على نحو متوافق مع هذه الاتصالية التي تتواشج خيوط نسيجها، ومع الكلية والشمول. ولا شك، أن صعوبة هذه النظرة، أو هذا الموقف، تكمن في عملية التحقيق. وكما ذكرت في بند سابق، يُعد الإنسان مسؤولاً عن تحقيق أسمى المبادئ في أدنى العوالم وأكثرها كثافة... تلك هي صعوبة الوجود الأرضي. وتشير الانفصالية إلى الإحساس بضآلة القيمة، وتفاهة المعنى في كون لا تُعرف له حدود... تلك هي المصيبة. وبالإضافة إلى ما ذكرت، تشير الاتصالية إلى اعتبار الإنسان كائناً سامياً، متعالياً ومتجاوزاً لوجوده المادي، الأمر الذي يجعله يتسامى على كل ما يشده إلى مركزية الأنا ويقيده بمظاهر العيش الزائفة، ليحيا حياة العقل والروح. وتشير الانفصالية إلى انقياد الإنسان لرغباته وانفعالاته، الأمر الذي يجعله مشروطاً بمظاهر العيش الخادعة ومقيداً بسلاسل عبودياته، فيقوّم نفسه من خلالها، ويتيه في عالم التفاهة... والمصيبة.

أشعر، وأنا أكمل رسالتي الثانية، أنني وضعتك في قلب الاختبار. والاختبار، يا صديقي، لا يشير، من قريب أو من بعيد، إلى التجربة. ففي التجربة تكرار دون إعمال العقل والبصيرة، وفي الاختبار إعمال العقل والبصيرة لمعرفة الحقيقة المنطوية في التجربة. في الاختبار يتجاوز الإنسان الصعوبة لأن طاقته الداخلية تعمل على نحو وافٍ، وفي التجربة يقبع الإنسان في ظلام ذاته، دون أن يكون قادراً على تجاوز الصعوبة، فيخلق المصيبة بعجزه المتكرر.

شئت أن أضعك في قلب الاختبار لأنني أعلم أنه الوسيلة الوحيدة التي تمنحك فرصة التفكير والتأمل، وتجعلك تقرر. ففي اختبارك لما جاء في هذه الرسالة، إدراك يُكسبك القدرة على التساؤل، وطرح الأفكار، وتوجيه النقد، ومتابعة البحث في القضايا التي، ونحن نفهمها بوعي كوني وأرضي، نبدع منها مبادئ وقواعد تمنح حياتنا القيمة والمعنى والخلود في غبطة الوعي.



الرسالة الثالثة

من الحياة وإلى الحياة نعود

صديقي...

أدركت، وأنا أقرأ ردك على رسالتي الثانية، وهي فلسفة الصعوبة، أنك تعلق أهمية كبرى على تلك العبارة التي تحدثت فيها عن الموت لكونه الصعوبة الكبرى في الوجود الإنساني. وعلمت أنك تسعى إلى شرح مفصّل أو موجز أوضّح فيه المقولة التي جذبت انتباهك واهتمامك وهي: «الموت هو القانون الأسمى الذي يوحّدنا مع الحياة الكونية الشاملة».

إذ أتأمل الموت، أدرك أنه القانون الذي يوحدني مع الحياة الكونية الشاملة التي أحياها بكاملها على مستوى كوكب الأرض، وأعلم أن وجودي في الجسد رمز إلى انفصالي عن الكل الشامل، وأن الموت دعوة إلى استعادة الوحدة المفقودة في عالم الثنائية. والحق، أن تكوّن الإنسان في جسد إشارة إلى انفصاله عن الحقيقة السامية، عن الوعي الكوني وعن الواحد الكل الذي يتمثل في الألوهة التي تتخلل وجودي الأرضي. فبقدر ما تكون الولادة، أو التكوّن في جسد، مدخلاً إلى الانفصال عن الحقيقة السامية، بقدر ما يكون الموت مدخلاً إلى الاتصال مع الكيان الإلهي. وإذا كانت تلك هي الحقيقة، علمت أن الموت معلول أو نتيجة للانفصال، من خلال الولادة، وعلة أو سبب للعودة إلى الحقيقة السامية الكلية التي انبثقنا منها.

إذ أتأمل هذا الواقع الإنساني، أتساءل ما إن كان الموت، وهو التحول الطارئ، مدخلاً إلى نطاق الحقيقة السامية، وإن كنت قادراً على التوحد مع تلك الحقيقة يوم أغادر هذا العالم. وإذ أتساءل، أجيب: إن كانت الحقيقة الإلهية هي الحياة الفاعلة،

كان وجودي علـى كوكـب الأرض استمراراً لتلـك الحيـاة الأبديـة اللانهائيـة. وإذا كـان حضوري في هذا العالم الأرضي تمثيلاً لتلك الحياة السرمدية، كان الموت استـمراراً وليـس نهاية لها. وإذ أستغرق في تـأمل هــذا الوجــود الواقــعي، أعلـم أن حضــوري في العـالم الأرضـي هـو حيـاة تتعيـن في شكـل وصورة، وأن غيـابـي عـن هـذا العـالم الأرضـي، أو فـراقـي لـه، حـيــاة تتـجـرد من التعيــّن والشــكل، وتحتفـظ بـالصورة. وعندئـذ، أدرك أنني أتيت من الحياة وسوف أعود إلى الحياة.

وإذ أركّز انتباهي على مقـولة «من الحيـاة أتيت وإلى الحيــاة أعــود» أعــلم أن عبارة «من التراب وإلى التراب أعود» ناقصة في جوهرها. هذا، لأنها تُخضع كلية وجودي الإنساني للعدمية والموت. والحق، أن هذه العبارة تستقيم نسبياً إذا ما وُضعت في الصيغـة التاليـة: «أيـها الإنسـان، بعضـك يعـود إلى الـتراب موتـاً ظاهريـاً وبعضـك يعــود إلى اللانهايـة حيـاة حقيقية». هذا، لأن الإنسان روح وجسد. وتتألق هذه العبارة في جوهرهـا إذ نقول: «أيها الإنسان، تعود عناصر جسدك المادي المكوَّن من الجزيئات الماديـة الحيـة والمتآلفة في جسم ينبض بالحياة إلى الحياة الكلية دون أن تتعرض تلـك العنـاصر للمـوت، ويعود جسدك الروحي إلى الحياة الكلية دون أن يتعرض للموت. وفي هذه الصـورة أشـاهد الحياة وحدها، وأعلم أن الموت هو مجرد تحوّل. فكما أن الولادة مدخل للحياة أو تحـوّل لهـا إلى المـوت، أي إلى الوجــود المـادي المعبـّر عنـه بالانفصـال، وتحــوّل مـن الحيــاة اللامتعينـة إلى الحياة المتعينـة، كذلك يُعـد المــوت مـجرد تحــوّل مـن المـوت، بمعنــى الانفصال، إلى الحياة، بمعنى العودة إلى الاتحاد مع الاتصالية الكونية.

وإذ أتأمل من جديـد عبـارة »من الحياة أتيت وإلى الحياة أعود« أعلم أن المـوت غير موجـود إلاّ على هيئـة انفصال نـاتج عن تشكل أو تكـوّن أو خلــق في الجسـم الـذي يُعيـّن ذاتـه في الأنـا الفرديـة، وأدرك عمـق العبـارة القائلـة »لا مـوت في الحيـاة». لـذا، يحتمل أن تكون الحياة الـتي أجسـدها علـى كوكـب الأرض موتـاً: إنـها تعـين وتشـكل وانفصال عن الاتصالية الكونية. وبالإضافـة إلى هـذا، أعلـم أن الحيـاة الأرضيـة، لكـي لا تكون موتاً ناتجاً عن الانفصال الذي أدى إلى التكون والتفرد، تقتضـي أن تكـون اسـتمراراً للحيـاة الإلهيـة وهي الحقيقة السامية، التي انبثقت منها الحياة الأرضية. وإذ أبلغ هــذا الحد من التفكير التأملي، أتساءل: كيف تكون الحياة الأرضية اسـتمراراً، بـل تحقيقـاً، للحياة الإلهية، أو للحقيقـة الساميـة أو للوعي الكوني دون أن تكون موتاً؟ وكيف يكـون الموت، بمعنى التحول والانتقال، حياة تتجـاوز الموت الذي نهابـه ونجـــزع منـه ونعمـل

على تجنبه وتفاديه؟ ألا يعني هذا التساؤل أن الحياة الأرضية المنبثقة من الحياة الكلية تسعى لأن تظل متوافقة مع الحياة الكلية، وذلك لكي تسمو على الموت، بمعنى الانفصال عن الحقيقة الشاملة السامية ونفيها أو رفضها، أو لكي لا تتعرض للموت؟ ألا يعني هذا القول إن الموت لا يشير إلى تلك اللحظة التي فيها تودع روحي جسدي الأرضي، بل يشير إلى موت الحياة، وأعني موت المبادئ الكونية التي يتوجب علي تحقيقها على مستوى كوكب الأرض؟ ألا يعني هذا المفهوم أن الموت هو عدم تحقيق الحياة التي صدرت عنها على مستوى كوكب الأرض، وليس هو تلك اللحظة التي تستدعيني فيها تلك الحياة السرمدية والأبدية للمثول أمامها أو للحضور في نطاقها أو ملكوتها.

وإذ أتأمل هذه التساؤلات التي أجد الإجابة عنها في ذاتها، أعلم أن الإنسان الماثل في إرادة العالم الأرضي لا يكون حياً ما لم يكن فاعلاً في تحقيق مبادئ الحياة الكونية التي يجسدها ويمثلها في هذا العالم، وأفهم أن هذا الإنسان يكون ميتاً في حال عدم تحقيقه لهذه المبادئ. إذن، فالموت لا يشير إلى تلك اللحظة التي يتم فيها الفراق الصعب والمؤلم لهذا العالم الذي نحيا فيه، والحياة لا تشير إلى تلك اللحظة التي نأتي بها إلى العالم الأرضي. وعلى غير ذلك، يشير الموت إلى موت الحياة، أي إلى انطفاء شعلة الألوهة في الإنسان. وتشير الحياة إلى حياة الحياة. أي إلى الإبقاء على شعلة الألوهة متألقة ومتوهجة في الإنسان أثناء وجوده على مستوى كوكب الأرض. إذن، فالموت أو الحياة ليس حدثاً طارئاً أو عارضاً يتمثل أحدهما بالالتحام والتوحد مع الكتلة المادية، ويتمثل ثانيهما بالانفصال عن الكتلة المادية، بل هما رمزان يطلقان على السّرية القائمة في الحياة ذاتها: حياة الحياة هي الحياة، وموت الحياة هو الموت.

وإذ أبلغ هذا المستوى من فكري التأملي أتساءل: كيف تظل الحياة حية وكيف تنتهي إلى الموت؟ أجيب، وأنا أعتمد الأمثلة التي تبسط وتوضح واقع الحقيقة بتساؤل جديد: كيف يكون الإنسان ميتاً وهو حاضر في العالم الأرضي الذي ندعوه عالم الزمان والمكان، أي عالم الحياة الأرضية، علماً أن الحياة واحدة ولا تتضمن في مقولتين: حياة أرضية، وحياة سماوية؟ الحياة هي الحياة في كل نقطة من نقاط الكون. وإذ أُلِحُّ على ضرورة الإجابة أقول: الإنسان الخامل الكسول ميت وهو حي بظاهره؛ الإنسان المتكبر ميت وهو حي بظاهره؛ الإنسان الخاضع للرغبات والشهوات والانفعالات ميت وهو حي بظاهره؛ الإنسان المتهرب من الواجب وقول الحق والمتعلق بالباطل والزيف،

والخاضع للتعصب العقائدي وضيق الأفق الفكري، والمنطوي على ذاته في زنزانة الأنا المظلمة إنسان ميت وهو حي في ظاهره؛ وبكلمة وجيزة أقول: الإنسان الأناني، القابع في إشراطات وقيود أناه المنغلقة على ذاتها والمنفصلة عن الاتصالية الكونية، والرافضة للاتصالية الإنسانية والاجتماعية، إنسان ميت نتيجة لنفي الألوهة وتجسيد إبليس. وهكذا، أدرك أن الإنسان الذي أمات الألوهة هو إبليس الذي يمثل الموت مقابل الحياة. و هكذا، أتساءل: كيف يحيا في الحياة الأبدية من كان ميتاً في حياته الأرضية؟

وإذ أتساءل: كيف يكون الإنسان حياً وهو حاضر في العالم الأرضي؟ أجيب: الإنسان الحكيم، المُحب، الواعي، إنسان العرفان، الهادف إلى غاية وحيدة هي الحياة في الحقيقة وتطبيق مبادئها الكونية، هو الإنسان الحي في ظاهره وباطنه. مثل هذا الإنسان يتألق جسده بنور روحه. الإنسان الخادم، المضحي، الفاعل وفق القوانين السرمدية، المتواضع في مجده، العارف والحكيم هو الإنسان الحي... الإنسان الذي تتألق فيه شعلة الحياة القادمة إلى الأرض بسرمديتها والمُفارقة للعالم الأرضي بأبديتها ولانهائيتها. ألا يعني هذا أن العالم الأرضي جسر يبدأ بالحياة وينتهي بالحياة وأن انهدام هذا الجسر، بمعنى عدم تحقيق استمرارية تيار الحياة بين قدومها ومفارقتها، هو الموت... فإذا كانت الحياة المبدأ الذي يتخلل الكون كله، كان وجود الموت في الحياة قضية باطلة.

هكذا، أدرك أن الإنسان الحي هو الإنسان الذي يحافظ على الحياة الأبدية المتمثلة في التجسد الأرضي تماماً كما أقبلت، ليودعها في سرمديتها تماماً كما تلقاها. هذا، لأنه الحياة ذاتها.

الرسالة الرابعة

فلسفة الصداقة

صديقي...

حملت رسالتك في ثنايا سطورها تباشير البهجة والأمل. أحسست أنك تتجه إلى إدراك كنه القضايا الإنسانية، الاجتماعية والكونية. وشعرت أنك أخذت موضوع «الصعوبة» مأخذ الجد والرصانة. تقول بأن غبطةً غمرتك، وملأت كيانك، وأصبح كل من عقلك وقلبك مفعماً بنشوة الحياة وإرادة الوجود. وسُررت إذ علمت أنك بدأت تنتصر على عقبات كأداء كادت تحول دون تحقيق قيمة وجودك. والحق، أنني أعدت قراءة عبارتك التي تذكر فيها أنك لم تعد كائناً «تافهاً» أو عديم القيمة أو خالياً من المعنى. وتأملتك جالساً تعيد النظر بأمورك الخاصة والعامة، ساعياً إلى حلٍّ القضايا المعلقة التي تتطلب موقفاً سلوكياً واضحاً. ورأيتك ببصيرتي تنشد السعادة والغبطة من خلال تبنّي المبادئ الكونية التي تتمحور عليها حياتك.

أتساءل، وأنا أحرر هذه الرسائل، التي أريد أن تكون تذكيراً للمعرفة التي أتيت بها إلى الوجود الأرضي وانطوت مستترة في اللاوعي الذي هو وعيٍ كامن [5]، عن السبب الحقيقي الذي يدفعني إلى الكتابة. ولئن كنت أجيب نفسي قائلاً: إن الصداقة هي الرباط القدسي الذي يضمنا إلى بعضنا، ويُوحّدنا في علاقة لا تنفصم عراها بسهولة، فلأنني أريد أن أتحدث عن فلسفة الصداقة. ومن جانبي، لا أنكر عليك الصعوبة القائمة في بحث هذا الموضوع.

---

[5] راجع فصل «المعرفة سبيل إلى التكامل النفسي» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

رأيت غالبية الناس يتحابون، وشاهدتهم ينتهون بحبهم إلى نفور وكراهية. رأيتهم يقيمون علاقات يضمنونها أجمل الألفاظ، ويمجدونها بالأقوال المنمقة التي تحمل جمال العلاقة في ظاهرها، ويكللونها بالهدايا والعطايا الثمينة، ومن ثم يعدلون عنها بعلاقات عدائية، تقلب الألفاظ والأقوال إلى نقيض ما عبرت عنه في بداية عهدها. وأدركت أنهم أطلقوا على المرحلة الأولى من علاقاتهم كلمة «صداقة» وعلى المرحلة الثانية كلمة «عداء». وتساءلت عن سر تلك العلاقة التي انطوت على الصداقة والعداء في آن واحد.

أحب أن أَصْدقك القول وأعلن لك أن العلاقة المذكورة لا تحمل من الصداقة إلاّ قشورها، ولا تتميز إلاّ بظاهرها الخارجي. وأضيف قائلاً: لم أستطع أن أحدد مفهوم الصداقة ضمن إطار العلاقة التي تتجه إلى التفاعل حيناً وإلى الانفعال حيناً آخر. ولقد سألت نفسي: ما حقيقة تلك العلاقة؟ ما حقيقة الصداقة؟

أدركت أن العلاقة التي تقوم على هذا الأساس تعجز عن أن تكون صداقة. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الناس يتحدثون عن «صداقة حقيقية» و «صداقة زائفة أو كاذبة»، لكنني رفضت الاعتراف بوجود صداقة صحيحة وأخرى كاذبة. هذا، لأن الصداقة لا تكون باطلة أو زائفة. لذا، بدأت أبحث عن تفسير لهذه القضية الشائكة لأخلص إلى معرفة هي أن الرباط الذي يصل بين شخصين هو مجرد «علاقة».

تأملت حقيقة هذه العلاقة، فوجدت نفسي أقر بوجود علاقة قد تكون صحيحة وقد تكون كاذبة. وعندئذ، فهمت أن العلاقة الصحيحة هي الصداقة. والآن، يمكنني أن أصرِّح بوجود «علاقة صحيحة» و «علاقة زائفة»، وأعلن أن ما كان منها صحيحاً كان صداقة. وعلى الرغم من وضوح هذه النتيجة التي استخلصتها، ظلت معاناتي قائمة، وذلك لأنني شئت أن أتفهم أصول العلاقة الصحيحة. وسألت نفسي: كيف تكون العلاقة صحيحة؟ وما الركائز أو الأسس التي تقوم عليها هذه العلاقة الصحيحة؟

أحب، وأنا على عتبة بحث الأصول التي ترتكز عليها العلاقة الصحيحة، أن أحدثك عن حكمة صينية تتصل بفلسفة الصداقة. تشير تلك الحكمة إلى «الصدق» الذي تجلّى في شخصية رجل مسن دخل قاعة المحكمة التي كانت تنظر في قضية شاب متهم بالقتل، أدانته أقوال الشهود الذين أدلوا باعترافاتهم الدامغة. وفي تلك اللحظة، طلب الرجل المسن الإدلاء بشهادته... واعترف الشيخ بأن ابنه الوحيد هو القاتل الحقيقي...

لقد اعترف الشيخ بالجرم الذي يدين ابنه لسببين: أولاً: لأنه كان يحب قول الصدق، ثانياً، لأنه أحب والد الشاب المتهم الذي ربطت بينهما الصداقة... وهكذا، تقترن الصداقة بالصدق.

تقوم الصداقة على المبادئ التالية:

أولاً ـ قول الحق

يُعد قول الحق ركيزة أساسية في العلاقة الصحيحة التي نسميها صداقة. ولماّ كان الحق أو الصدق تعبيراً جوهرياً لكيان الإنسان «الحقيقي» أو «الصادق»، فإنه يعتبر صعوبة كبرى تتطلب قدرة أخلاقية ووعياً سامياً لدى تطبيقها. ولما كانت غالبية الناس ضعفاء تلعب بهم الانفعالات والرغبات، وتجتاحهم الأهواء، ويدعون الصدق وقول الحق، فالأمر يقتضي بحث مقولة الحق والصدق بدقة وأمانة. فإذا شئتَ أن تكون علاقتك بغيرك صحيحة وصادقة، فعليك الالتزام بالقواعد التالية:

آ. عليك أن تعرف الحق، أو قدراً كبيراً منه، قبل أن تقوله. هذا، لأن معرفتك بالحق تنجيك من الأنانية والادعاء بالصدق. وهكذا، لا تستطيع أن تكون صادقاً إن كنت تجهل الحق.

ب. عليك أن تقول الحق، لتكون صادقاً، بألطف طريقة ممكنة، وبأسلوب غير مباشر. هذا، لأن قول الحق جارح.

جـ. عليك أن تتجنب قول بعض الحقائق التي لا تمت إلى شخصية الإنسان بصلة، لأن قولها لا يفيد. والحق، أن قولك للأعمى بأنه أعمى تصرف لا يليق بالكرامة، ولا يعبر عن الشخصية الراقية والمتوازنة.

د. عليك أن تقول الحق إن وجدت نفسك مضطراً إلى قوله. هذا، لأن تقاعسك عن الجهر بالحق، إذا اقتضت الضرورة، يجعل منك شاهداً للباطل. ولما كان الحق أعلى من الإنسان وأسمى، وهو الحقيقة السامية، فمن واجبك أن تقوله حتى ولو كانت النتائج الحاصلة أليمة وقاسية. ومع ذلك، أريد أن تعرف أن قولك للحق يتلو النقاط الثلاث الأولى. ولسوف تعلنه بعد أن تكون قد استنفذت جميع الوسائل الممكنة لإقناع الآخر أو لتعريفه بخطئه، أو لإرشاده إلى معرفة الحق.

ثانياً ـ التحمل، التسامح، التجاوز والاحترام

تحمل هذه الكلمات الأربع في مضامينها فكرة واحدة، حقيقة واحدة، ومعنىً واحداً. وهي، إن دلّت على شيء، فإنما لتشير إلى محاكمة موقفك من الغير بالطريقة التي تحاكم بها نفسك، الأمر الذي يجعلك تستبعد الانفعال والحكم الخاطئ. والحق، أن المعنى المتضمن في هذه الكلمات لا يستقيم إلاّ بعد فهمها وشرحها:

آ. التحمل يتناقض مع الصبر. فإذا كان الصبر قبولاً ظاهرياً ورفضاً داخلياً، كان التحمل موقفاً عقلياً منفتحاً ومتفهماً، وسلوكاً أخلاقياً ووجدانياً من الآخرين، ومن أمور الحياة والمعيشة. لذا، يتساوق التحمل مع الفهم والإدراك والوعي. فالإنسان المتحمل يعرف أن الحياة والموت متصلان اتصالاً مباشراً في حقيقة واحدة، وأن الوجود على مستوى كوكب الأرض يقتضي الوعي، وأن الآخرين يتميزون عنه بأفكارهم، واتجاهاتهم، وعقائدهم، وأمانيهم، وآمالهم... الخ. وبالفعل، يجهزه علمه هذا بالقدرة على تفهم قيمهم، ودراسة أفكارهم، ووسائل عيشهم، وتأمل عقائدهم. وفي هذه الحالة، يقف من غيره موقف المتحمل الذي يحاكم ويعقل. وهكذا، يكون صديقاً.

ب. التسامح يتوافق مع مفهوم التحمل. هذا، لأنه، في هذا السياق، يتصل بالعقل أكثر مما يتصل بالأخلاق. وهكذا، يشير التسامح إلى دراسة قضايا الآخر دراسة عقلية وافية، وتجاوز الخطأ الناتج عن تصرفاته. فعندما أسامح غيري، أحاكم سلوكه أو تصرفه من خلال محاكمتي لنفسي لو أنني تعرضت للظروف التي اعترضته أو عجز عن تجاوزها. وعندئذ، أعلم أن تسامحي قائم على تبرير أفعاله من خلال تعقلي ووعيي ومحبتي. ففي مقولة التسامح التحمل تسود وجهة النظر العقلية على وجهة النظر الأخلاقية، إنما لا تتناقض معها. وهكذا، أكون صديقاً.

جـ. التجاوز فعل إنساني يشير إلى أمرين: أولاً، التسامي الذي يعني أن الإنسان العاقل، المتحمل والمتسامح يتجاوز كل أذيّة أو تصرف مبتذل، أو سلوك سيئ. فهو يتجاهل، أو يتجاوز أو يترفع لأنه أسمى من أن يتصرف بالطريقة ذاتها، وأرفع من أن يسمح لنفسه بالهبوط أو السقوط إلى مستوى أدنى من مستواه الإنساني اللائق. ومثل هذا الإنسان المتجاوز يتأكد من أنه أسمى من أن يكذب، أو يسرق، أو يخدع، أو يتكبر، أو يخون، أو يغتاب أو يستغل... الخ. ثانياً، إذا كانت هذه المزايا هي التي تخصه بقدرة التسامي، فإنه يتجاوز ضعف الآخرين. إذن، فالمتجاوز يسامح أو يتحمل الضعف

الذي يتملك غيره. إنه يأخذ الضعف الإنساني بعين الاعتبار. وهكذا، يكون صديقاً، يدرك أن محبته تتجاوز الأخطاء الصادرة عن غيره.

د. الاحترام يقترن بالتحمل والتسامح والتجاوز... هو تطبيق هذه المفاهيم المتصلة ببعضها... الاحترام، لا يتصف بظاهر المعاملة. فأنا لا أحترم شيخاً أساعده على اجتياز الطريق إن كنت أتذمر من شكله، أو أتكبر عليه، أو أحتقر إنسانيته، أو أشمئز من مظهره... الخ. فمثل هذا السلوك لا يمت إلى الاحترام بصلة... الاحترام يقوم على تحمل آراء غيري، وفهمها، وتأملها، والإقرار بها أو ببعض ما جاء فيها بعقل منفتح. الاحترام يعني تقدير الشخصية الإنسانية، وتقدير الآراء التي يتبناها غيري، وتقييم العمل أو المهنة التي يقوم بها، والوقوف من مشاعره موقف المتفهم. وهكذا، أكون صديقاً.

ثالثاً ـ المحبة والتضحية

تختلف المحبة عن الحب... فقد يكون الحب الوجه المادي للمحبة. أما وجه الاختلاف فيظهر على النحو التالي: آ يقوم الحب على التبادل. ب يتحول الحب إلى كراهية. وإذا كان الأمر كذلك، علمنا أن الحب انفعال تسيطر فيه الرغبة والشهوة. أما المحبة فإنها لا تقوم على التبادل، ولا تخضع للانفعال، ولا تتحول إلى كراهية. هذا، لأنها تتصل بالتحمل، والوعي والوجدان. والمحبة، لا تقابل الإساءة بالإساءة، لأنها تتجاوز تبادل السلوك المبتذل بمثله. وإذا كانت المحبة تتجاوز الإساءة، فلأن الإنسان المحب، بمعنى المحبة، يتألم إذ يرى أن المخطئ يسيء إلى الجوهر الإنساني الكامن في داخله. وقد تزداد المحبة بزيادة الإساءة.

يمكنني أن أوضح مفهوم التضحية بالطريقة التالية: التضحية أحد أمرين:

آ ـ هي وضع المحبة موضع التطبيق.

ب ـ هي المحبة وقد بلغت ذروتها.

والحق، أن هاتين النقطتين تتصلان ببعضهما. ويعود هذا الاتصال إلى واقع هو أن المحبة تتدرج في سموّها حتى تبلغ التضحية. وهكذا، يكون المحب المضحي صديقاً لأنه يحب الحقيقة الإنسانية، ويضحي متى وضع محبته موضع التطبيق[6].

---

[6] راجع فصل «فلسفة المحبة» في كتابي «بحوث فلسفية»

رابعاً ـ صداقة جميع الناس

أنت تعلم، يا صديقي، أن الكثيرين يعتبرون الصداقة علاقة تقوم بين شخصين. ومن جانبي، أعترف بهذا الاعتبار وأضيف تساؤلي التالي: كيف أكون صديقاً لجميع الناس؟ تتمثل إجابتي في تيقني بأن صداقتي للبشر، بأنواعهم، وأعراقهم، وآرائهم المتباينة، وعقائدهم المتغايرة، تتحقق في صورتين:

آ. تطبيق المبدأ الثاني من مبادئ الصداقة، المتمثل بالاحترام، والتسامح، والتجاوز. ولا أبالغ إن قلت بأن هذا المبدأ الرباعي البعد، المتحد في جوهره، يمنحني فرصة الاعتراف بوجود شعوب غير شعبي، وألوان غير لوني، وأعراق غير عرقي، وعقائد غير عقيدتي، ويهيئني بقدرة تجعلني أفهم واقع هذا الكوكب... واقع الكثرة في الوحدة، والتعدد في التآلف، والتنوع في الانسجام. ولما كانت البشرية شجرة باسقة تتفرع عنها أغصانها، فإن الناس، في أصقاع العالم كلها، إنسانٌ واحدٌ، يتنوع إلى فروع إنسانية عديدة، تلتقي فيها الإنسانية.

ب. الانفتاح العقلي والقلبي.

عندما أعلم حقيقة هذا الأمر، أجد نفسي ساعياً إلى معرفة المبادئ، والعقائد، والآراء، والفنون، والعلوم... الخ التي تتميز بها الفئات الأخرى. وعندما أطّلع عليها بعقل منفتح متحمل، وقلب منفتح متسامح، أعلم أن ثمة قواسم مشتركة بيني وبينهم. وعندئذ، أتعرّف على نفسي من خلال الآخرين، وأجد في آرائهم، وعقائدهم، وعلومهم، وفنونهم حقائق تتنوّع عن حقيقتي... كما أقيم صلات فكرية وإنسانية، وأوطد علاقاتي معهم، وأعترف بوجود علم غير علمي، ومعرفة غير معرفتي، وأعلم أن الآخر قادر على لمس الحقيقة بوجه آخر أو بأسلوب آخر،... هنالك الغير... الآخر الذي ألمّ بالمعرفة كما ألممت بها، وحقق الفضيلة كما حققتها، وسبر سر الوجود كما سبرته، وسار على درب الحق كما سرت...الخ.

ذلك الآخر هو صديقي... هؤلاء الآخرون هم أصدقائي... الناس جميعهم أصدقائي... هذا، لأنني أتصل بهم، وأتعرف إلى حقيقتهم بعقل منفتح وقلب منفتح... وأتجاوز أنانية ذاتي إلى شمولية روحي وعقلي.

خامساً ـ صداقة النفس

تأملت المبادئ الأربعة التي جعلتها أسساً وركائز لمفهوم الصداقة، فوجدت أنها لا تكتمل إلاّ بصداقتي لنفسي. ولكنني، تساءلت في سرّي: هل يمكن أن يكون الإنسان عدو نفسه؟ فأجبت: قد أكون عدو نفسي. وأضفت، وأنا أغوص إلى صمت أعماقي: إذا كنت عدو نفسي، فلا بد لي أن أكون عدو الآخرين. وتساءلت من جديد: كيف أكون عدو نفسي وأنا أحب نفسي؟ وأجبت: إن كان الحب هو الذي يضمني إلى نفسي، فلا بد أن يكون عداء لنفسي... هذا، لأن الحب يكمن في الانفعال، ولأنني أنفعل في حبي لنفسي.

حاولت أن أطرح أسئلة على نفسي لأعلم حقيقة أمري: أعدوٌ أنا لنفسي أم صديق لها؟ وسألت نفسي: هل أنا كاذب أم صادق؟ مخادع أم وفي؟ متكبر أم متواضع؟ طامع أم قانع؟ هل أغتاب الآخرين أم أذكرهم بصفاتهم الحميدة؟ هل أستغل الآخرين أم أعدل معهم؟ هل أهزأ بالآخرين أم أرفع مستواهم المعنوي والمادي؟

حدثت نفسي قائلا: إن أنانيتي المجسدة في الكذب، والخداع، والهزء، والاستغلال، والكبرياء، والنميمة، والحسد، والاغتياب، والتعصب الفكري أو المذهبي...الخ لا تسمح لي أن أكون صديق نفسي. فإن كنت أنانيا، أجمع هذه الصفات السيئة في ذاتي، فلا بد وأن أكون عدو نفسي. وسألت نفسي من جديد: هل يسمح لي عدائي لنفسي أن أكون صديق الآخرين؟ وأجبت: إن كنت عدو نفسي، كنت عدو الآخرين... إذ كيف يمكنني أن أجعل ممن أهزأ به، وأكذب عليه، أو أخدعه، أو أستغله، أو أحتقره، أو أقف موقف المتعصب من رأيه أو عقيدته، أو أتكبر عليه، أو أحسده، أو أغتابه، أو أطمع به...الخ صديقا لي؟ إن عدائي لنفسي لا يسمح لي أن أجعل غيري صديقا لسبب أصيل هو أنني أثرت فيه عداءه لي من خلال عدائي لنفسي إذ مددت هذا العداء إلى غيري، فأصبح عدوا لي. وعندئذ، أدركت أن العدد الأكبر من أعدائي هم أناس جعلت منهم أعداء لي، وخلقت فيهم انفعال الكراهية.

أحب أن أذكرك بتلك الحكمة التي كنا نرددها معا، ونسعى إلى تأويلها بما ينطبق على واقع العلاقات البشرية. قالت الحكمة: ما لست أريده إياه أفعل؟... عندما أفكر بهذه العبارة، أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف أفعل ما لا أريد؟ وأجيب قائلا: أنا لا أريد أن أكون كاذبا، فلم أكذب؟ أنا لا أريد أن أكون مخادعا، فلم أخدع نفسي وغيري؟ أنا لا أريد أن أكون متكبرا، فلم أتكبر؟ أنا لا أريد أن أكون طامعا، فلم

أطمع؟ أنا لا أريد أن أكون ظالماً، فلمَ أظلم؟ أنا لا أريد أن أكون هازئاً، فلمَ أهزأ؟ أنا لا أريد أن أكون مستغلاً ، فلمَ أستغل؟ أنا لا أريد أن أكون متعصباً على نحو مذهبي أو عقائدي، فلمَ أتعصب؟ أنا لا أريد أن أكون أنانياً، فلمَ أنفعل؟ أنا لا أريد أن يُهزأ بي، أو أُستغل، أو أُظلم، أو أُحتقر...الخ. فلمَ أتصرف على هذا النحو؟ وإن كنت أتصف بهذه المزايا السيئة، فلا بد لي أن أكون عدو نفسي وعدو غيري.

أراني أقدم لك مبادئ ترتكز عليها الصداقة، مبادئ تحفل بالصعوبة. وقد تدفعك هذه المبادئ، بعد تأملها ووعيها، إلى اليأس أو إلى الأمل. ففي قولك: إن هذه المبادئ تحجب عني رؤية الصديق، لأنها مبادئ يصعب تطبيقها، وبالتالي، ينــدر أن أجد الصديق وَفْقَ ما نصّت عليه، إدانة للعلاقات الإنسانية الصميمة والصحيحة. وفي قولك: يحفزني مبدأ الحياة والحقيقة إلى تطبيق الجوهر الإنساني في المجتمع الإنساني، وذلك من أجل تجاوز كل صعوبة تعترض تحقيق هذا المبدأ الذي يستغرق فيه وجودي، ويحضر فيه الوعي، وتتألق الغبطة، وتنسجم فيه وحدة الإنسانية، تكريم وتوقير للعلاقات الإنسانية الصميمة.

أحب أن تتأمل ما جاء في رسالتي هذه وتوجّه أضواء نقدك. وكما تعلم أن النقد، في نظري، يعني الدراسة الوافية، وليس هو إبداء الرأي المنفعل، أو اعتبار عمل من الأعمال من وجهة نظر معينة تخلو من التقصي، والبحث والوعي. وأريد أن تنظر إلى الجانب الذي يؤكد إنسانيتك، وذلك لأنني أسعى، كما ألمحت في رسالتي الأولى، إلى وضع مبادئ أو قواعد تساعدك على تحقيق الحياة وفق مفهوم الغبطة والوعي.

الرسالة الخامسة

السعـــادة واللــــذة

صديقي...

وجدت نفسي، وأنا أقرأ رسالتك، أحادث شخصاً حراً، ومسؤولاً، وواعياً يعرف ما يقول، ويعبّر عن فكره بوضوح. أعجبتني دراستك الدقيقة التي تتبطن بنقد صريح هو ثمرة الفهم العميق لما جاء في رسالتي. ومن جانبي، أقر وأعترف بأن المبادئ التي أحدثك عنها مغروسة في حقل المثالية. والحق، أن إقحامي للمثالية يعود لأمرين: أولهما، يرتبط بواقع الحياة، ويشير إلى أن التطبيق الفعلي ينتج عن المثال. فإذا كان المثال سامياً كان التطبيق فعالاً ومتناسباً مع «الفكرة» المعبرة عن المثال. ولما كان الإنسان يتجاهل المثال ويسعى إلى الواقع، فإنني أسعى إلى وضع قاعدة مثالية لكي أرفع من مستوى الواقع. وهكذا، أطالبك بالكثير لكي نطبّق القليل. وثانيهما، هو أن المثالية لا تتحمل المعنى المتضمن في الفلسفات التقليدية، وفي المفهوم الذي أثقلتنا به الفلسفات المغرقة بالمادية. فالمثالية، في رأيي، تشير إلى الوجوب الذي يقابل الوجود، وأعني تحويل الوجود إلى وجوب، والواقع إلى مثال. فإذا كانت الأرض المهملة، المغطاة بالأشواك، وجوداً أو واقعاً، أشار الوجوب أو المثال إلى تحويل هذا الوجود الواقع، كما هو، إلى انتزاع الأشواك، وتسوية الأرض، والبحث عن مصادر المياه... الخ. أقول هذا، لأن الإنسان الأناني، اللامبالي، اللامسؤول، العابث، المؤمن بالانفصالية يتجاهل المثالية ويتهمها بـ «الغيبية»، أو يعدها ضرباً من «الخيال». أما الإنسان المسؤول الذي يسعى إلى تحويل وجوده إلى وجوب، ويريد أن يكون كما يجب أن يكون، يعلم أن الإنسانية الخالية من مثال وجود أو واقع يعبر عن السقوط، والتفاهة، والألم السلبي.

جلست، صباح هذا اليوم، أعيد النظر وأتأمل سؤالاً طرحه عليٌّ أحد السائلين: ما السعادة وما اللذة؟ وهل أن اللذة تقود إلىالسعادة أم هي السعادة ذاتها؟ كيف يمكنني أن أكون سعيداً؟ ولمَ يُصر بعضهم على أن اللذة هي الدافع إلى السلوك، والمحرّض إلى العمل، والحافز إلى التصرف؟ فكرت ملياً بهذا السؤال المتشعب... وهاءنذا، أجعل منه موضوعاً لرسالتي. وعلى الرغم من صعوبة تعيين أو تعريف المفهوم المتصل بالسعادة، لكنني أسعى إلى بحث مفهوم اللذة، وآمل أن تستخلص منه مفهوم السعادة. وهكذا، أسمح لنفسي أن أقول لك بأنني، للمرة الأولى، أنتقل في معالجة موضوع من السلب إلى الإيجاب.

أحب أن أحلل المعاني التي تنطوي عليها اللذة، ومضامينها المستترة عن عقول الكثيرين، كما أحب أن أشير إلى حقيقة هي أن غالبية الناس لا يتعمقون في دراستهم إلى أصول المفاهيم والتصورات.

1 ـ مفهوم اللذة

اللذة إحساس عابر، آني ومؤقت، ينقضي بانقضاء الموضوع. ويسعى إلى هذه اللذة أولئك الذين لا يرون في حياتهم غير الآنية، واللحظة العابرة. إنهم يعجزون عن رؤية الخيط الذي يشكل «لحظات» وجودهم، أو «هنيهات» ذاتهم في كلٍ متصل. فهم يعيشون «موت» اللحظة أكثر من «حياة» الديمومة. لذا، يتألمون ألماً سلبياً. ولكنهم، في الوقت ذاته، يسعون إلى تحويل حياتهم إلى سلسلة متصلة من اللذات أو تتابع مستمر للهنيهات واللحظات.

رأيت، يا صديقي، أن الأشخاص الذين يسعون إلى السعادة عن طريق التتابع المتصل لهنيهات اللذة، يفشلون في تحقيق ما يصبون إليه للأسباب التالية:

آ. اللذة منهكة... إنها تؤدي بصاحبها إلى التهلكة... إنها تضني الجسد، وترهق النفس، وتشتت العقل. ولقد أدركت أن الساعي إلى اللذة يدمّر حياته، وتسيطر عليه خيبة الأمل. فهو يخلص إلى نتيجة تلزمه على الاعتراف بأن التهافت على استمرارية اللذة لا يؤدي إلى السعادة.

ب. رد الفعل الناتج عن اللذة... تشير الدراسة المعمّقة إلى أن رد الفعل ينحصر في الاشمئزاز من موضوع اللذة بعد الإفراط في إشباعها، أو الإكثار من الانغماس بها. لذا، يكون رد الفعل عكسياً إذ تكون الاستزادة من اللذة سبباً للنفور، والإحساس

بالتفاهـة التي تلف المرء الـذي يسعى إلى الاستمرار فيها. ويمكنني أن أقول: إن الشعور بالتفاهة، وعدم الجدوى، والعبث، والسأم، أسباب تـؤدي إلى السـعي للـتزود بـاللذة، وتنتج عنها في آن واحد.

2 ـ الألم السلبي

وجدت الذين يسعون إلى اللذة، يتألمون ألماً سـلبياً. إنـهم يتـألمون ألمـاً سـلبياً لأن التفكير يعقب اللـذة. وإذا كـان التفكـير يعقـب اللـذة فلأنهـا نتيجـة حتميـة للانفعـال والانفعال، كما تعلم، هو انحراف الدافـع أو العاطفة [7]. ولـما كـان الإنسـان يفكـر في كـل عمل يقدم على تنفيذه، فإنه يرى نتائجه الإيجابية أو السـلبية. وعندئـذ، يتـألم للنتـائج المأسوية، أو المخزية التي اختلقها بتصرفه وسلوكه، أو ابتدعها في خيالـه. وعلـى الرغـم من أن الإنسان يحاول تغطية أعماله والتستـر عليهـا، لكنهـا تبقـى حيـة في تلك المنطقـة التي ندعوهـا «مـا دون ساحـة الشعـور» المنطـقة الـتي تحتفـظ بكـل فكـر أو شـعور لا نستدعيه إلى ساحة وعينـا في اللحظـة الحـاضرة. ويكـون وجودهـا في تلـك المنطقـة سـبباً لإحساسه بالذنب والإثم، وعلة لمعرفته بأن تلـك اللـذة المنقضيـة لم تحمـل في تضاعيفـها قيمـة تذكـر، أو معنـى حقيقيـاً. وعندئـذ، يتـألم الإنسـان لأن تفكـيره، الشـعوري والـلا شعوري، يريه تفاهة ما أقدم عليه في لحظة انفعال.

3 ـ الألم الإيجابي

يجدر بي، وقد تحدثت عـن الألم السـلبي، أن أتحـدث عـن الألم الإيجـابي [8]. يرافـق الألم السلبي إحساسٌ بالضيـق، والتـعاسة، واليـأس، والعـدوانيـة، والاحتقـار، والاشمئزاز، والكراهية، والحسد والتفاهة... الخ. ويرافق الألم الإيجابي شعور بالواجب، ومحبة العطاء، والتضحية، والإبداع، والخدمة، والغبطـة المُعـبر عنـها بدمعـة تصاحبـها ابتسامة، والمحبة، والسمو، والشعور بالقيمة... الخ.

فبقـدر ما يتـألم الإنسان إيجابياً يغتبط.. يغتبط لأنه أعطى. وضحـى، وخـدم، وأبدع، وشعر مع الآخـر، وأدخل السعادة إلى قلب الآخر. وبقـدر مـا يتـألم الإنسـان ألمـاً سلبياً يشقى، ويتعس، ويتمزق في أعماقه، ويضمحل في شعوره. ففي حسده لغيره وغيرته

---

[7] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

[8] راجع فصل «فلسفة الألم» في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».

منه، ألم سلبي. وفي كبريائه غير المحققة ألم سلبي. هذا، لأن هذه السلبيات انفعالات. والحق، أن عدم تحقيقها يؤدي إلى الحرمان من اللذة، وبالتالي تقوده إلى الألم السلبي.

4 ـ اللذة والفردية

تأملت موضوع اللذة، فأدركت أنها ترتبط بالفردية. ولما كانت الفردية هي الفرد الذي يضيف، من خلال انفعاله، إضافات كاذبة إلى ذاته، فإن الفرد المنفعل يسعى إلى اللذة من أجل تغطية عيوب ونقائص فرديته. أمّا الشخصية التي تتكوّن وتنمو من خلال الإضافات الصحيحة فإنها تسعى إلى السعادة لأنها تتكامل في صميمها [9].

علمت، وأنا أسعى إلى تبيان الحقيقة، أن اللذة تجنح إلى الأخذ بينما تتجه السعادة إلى العطاء. هذا، لأن الكسب، أي كسب، هو الهدف الأقصى الذي ترنو إليه اللذة. ولما كانت الفردية تنفعل في لذتها، فإنها تسعى إلى الأخذ المتميز بالكسب والتملّك. وعلى غير ذلك، تعبّر الشخصية عن ذاتها في العطاء الذي يشير إلى تقليص الأنانية، وبالتالي مبدأ الأخذ، والكسب واللذة، إلى حدّها الأدنى.

5 ـ العظمة والنجاح

أنعمت النظر في مفهوم العظمة والنجاح، فأدركت أن الإنسان الناجح يجنح إلى الأخذ والكسب واللذة، وأن الإنسان العظيم يميل إلى العطاء والسعادة وعدم تقويم نتائج عمله المثمرة والمفيدة بالكسب. وعلمت أن الشخصية عظيمة في جوهرها وأن الفردية ناجحة في سلوكها.

أنشأت محكمة عقلية سليمة، وأنا في صدد البحث عن مفهوم الخير، ففهمت أن الخير نوعان: خير مؤقت وذاتي، وخير دائم ومطلق. وفهمت أن الإنسان الناجح، الهادف إلى اللذة، يسعى إلى الخير المؤقت الذاتي، وأن الإنسان العظيم، الهادف إلى السعادة، يسعى إلى الخير الدائم والمطلق. وعندئذ، تأكدت أن اللذة تكمن في الخير المؤقت والذاتي، إذ ينفعل المرء بموضوع لذته ويجد فيه خيره المؤقت. ولما كان الخير المؤقت والذاتي، لذة أو مصلحة خاصة، يركّز الإنسان عليها وجوده، فلا بد وأن تتحول هذه اللذة، بعد انقضاء الخير المؤقت، إلى تعاسة وإحساس بالتفاهة. وإذا كان الإنسان يلتذ بخير مؤقت، آني، متمثل بحب المال أو الشهوة الجامحة، أو الكبرياء، ويقتنص الفرصة

---

[9] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».

السانحة، فإنه سيتعرض لندم يطوّح به في عالم الضياع، وذلك، لأنه لن يجد سعادته في انتهاز فرصة عبرّت عن انفعال في نطاق اللذة. هذا، لأن التفكير، كما ذكرت سابقاً، يعقب كل انفعال ولذة. وإذا كان الإنسان يسعد بخير دائم ومطلق، متمثل بالعطاء، والمحاكمة السليمة، فإنه ينتصر على الانفعال، ويتجاوز اللذة الآنية. ولهذا السبب، يرى الأناني لذته، وليس سعادته، في حرمان الآخرين واستغلالهم والتكبّر عليهم، وذلك لأنه يجعلهم موضوع لذته وخيره الذاتي. ولا أبالغ إن قلت لك، بأن الخير المؤقت والذاتي المتمثل باللذة، عنصر رئيس لمفهوم الشر، وأن الخير الدائم والمطلق عنصر رئيس لمفهوم الخير الحقيقي.

استخلصت، وأنا أبلغ هذه النتيجة، أن اللذة مبدأ سادي لأنها تقوم على تعاسة الآخرين، أو حرمانهم، أو تعذيبهم. والحق، أن صاحب اللذة يجد متعته في تعاسة الآخر. فأنا، إن كنت أكره فلانا من الناس، ألتذ إذ أسمع بأنه أهين أو أذل، أو وقعت له حادثة مؤلمة، أو هزئ به، أو أصابه مكروه. ولما كان التفكير يعقب التصرف، فلا بد أن يعتريني الندم المرير والألم السلبي.

6 ـ الخوف وعقدة النقص

عاينت في الخوف مفهوما فاضحا لمفهوم اللذة. رأيت الناس يخافون الشيخوخة، فتهلع قلوبهم إذ يتخيلون بأنهم سيحرمون من لذاتهم. عندئذ، يقبلون على اللذات اعتقادا منهم بأنهم سيحرمون منها... ألا يشير إقبالهم هذا إلى أنهم يعانون من الخوف المقترن بالحرمان المرتقب؟ ألا يعني هذا أنهم يفرغون حياتهم من القيمة ويجردونها من المعنى؟ ألا يدل هذا التصرف، أو الإحساس، على التفاهة التي تضج بها حياتهم؟

شاهدت أدعياء اللذة يقاسون من مرارة الإحساس بعقدة النقص والشعور بالدونية. والحق، أن الشعور بالنقص لا يخلق مشكلة للإنسان العاقل الواعي، وذلك لأنه دافع إلى الكمال. ولما كان كل إنسان على كوكب الأرض يشعر بالنقص، فإنه يعمل جاهدا لملء هذا الشعور بالمعرفة والوعي وذلك لكي يتكامل في داخله. أما الإنسان الذي لا يملأ شعوره بالنقص بالمعرفة والوعي والفضيلة، فإنه يتحول إلى امرئ تطغى عليه عقدة النقص. وإذا ما خضع لعقدة النقص، سعى إلى تغطية عقدة نقصه بعقدة العظمة [10]. ولما كانت عقدة العظمة انفعالا ناشئا عن انفعال، فإن الإنسان يسعى إلى تغطيتها بالصفات

[10] راجع فصل «الشعور بالنقص دافع إلى الكمال» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية»

الزائفة التي يضيفها إلى ذاته. والحق، أن تلك الصفات المزعومة انفعالات تقبع في «ظلمة» الذات. وعندئذ، ينزع المرء الناقص في تكوينه الروحي والنفسي والعقلي إلى الرغبات والشهوات المعبّر عنها باللذات لتغطية «فراغ» ينهشه، ويعرضه للصراع والتمزق.

7 ـ الفراغ النفسي

هالني أن أرى الفراغ النفسي طاغياً عند الذين يجدون في مبدأ اللذة غاية لهم. فهم يحسّون بأن وجودهم يدور في فراغ رهيب مضن، فيعملون على تغطيته. وسرني أن أرى الامتلاء النفسي عند الذين يجدون في مبدأ السعادة والغبطة غاية لهم. فهم يشعرون بأن وجودهم يمتلئ بالمعنى والقيمة. وبهذا الصدد، أحب أن أميّز بين التغطية والامتلاء. ففي التغطية يبقى الفراغ موجوداً، وفي الملء أو الامتلاء يتراجع الفراغ، وتكتمل الشخصية بكل ما هو مفيد لحياتها الداخلية. فأنا، إن غطيت فراغ نفسي وروحي، بأمور عادية تقبع اللذة في ثناياها، أبقيت على هذا الفراغ الذي قد يزداد يوماً بعد يوم. وأنا، إن ملأت فراغ نفسي وروحي، بأمور هامة وعظيمة تحفل بالغبطة والسعادة، أزلت الخواء أو الخلاء الذي يطوّح بي ويرميني في هوة الضياع والعذاب، ووجدت المعنى الحقيقي في حياتي. وعلاوة على ذلك، يتراءى لي واقع الامتلاء والفراغ في المثل التالي: إنسان شيخ قضى حياته باللذات المعبّر عنها بالرغبات والشهوات، يستدعي ماضي حياته ليتذكر وقائع تلك الحياة. وإذ يتداعى في ذلك الماضي يقول في سرّه: تافهة هي الحياة، باطل هو العالم، وعبث هو الوجود. وإنسان شيخ أمضى حياته في الأعمال المفيدة، وملأها بالعلم والمعرفة والفضيلة، وجعل من القيم الإنسانية الرفيعة مثالاً له، يقول في داخله: عظيمة هي الحياة، حقيقي هو العالم، وحافل هو هذا الوجود بالمعنى والقيمة. ألا يعني هذا أن الامتلاء ينتج عن السعادة والغبطة، وأن الخواء أو الفراغ ينتج عن اللذة؟

8 ـ امتلاء الشخصية الإنسانية

عندما أفكر في وجود الإنسان، وأتساءل عن الغاية من وجوده، أتوصل إلى الإقرار بإحدى هاتين النتيجتين:

1. الإنسان: كائن أرضي، منفصل عن الوجود الكلي.
2. الإنسان كائن أرضي، متصل بالوجود الكوني.

وعندما يبلغ تفكيري هذا الحد، ألقي على نفسي السؤال التالي: ما النتائج الحاصلة من هاتين الفكرتين؟ وأجيب:

1ً ـ إن انفصال الإنسان عن الكون يشير إلى واقع أليم، يعزله عن الوجود، يقضُّ مضجعه، ويلقي به في نطاق التفاهة... إنه كائن هزيل، لا ينبثق من مصدر، لا جوهر له، لا مكان له يلتجئ إليه، إنه كائن تائه. والحق، أن هذا الإحساس يقوده إلى الارتماء في أحضان اللذات على نحو يتلاءم مع إحساسه بالتفاهة.

2ً ـ إن اتصال الإنسان بالكون يشير إلى أنه كائن عظيم يمثل كلية الوجود... إنه كائن يمتلئ بالمعنى والقيمة... كائن لا تضنيه الغربة، ولا يعزله هذا الكوكب عن مسيرة الحياة الكونية والكلية... كائن يشعر بأن المعرفة والوعي ملازمان لوجوده فيغتبط، ويبذل جهده في سبيل تحقيق الطاقة الكونية المنطوية فيه. هكذا، تتجلّى الاتصالية الكونية بالملء، والغبطة، والوعي. وتبدو الانفصالية في الفراغ، والتعاسة واللذة.

وجهت نظري إلى الكائن الإنساني الذي يتميز بالاتزان الداخلي والوقار والرصانة، فوجدت فيه إنساناً ممتلئاً، يسعى إلى تحقيق مثالية وجوده، ويغتبط بالمعرفة والوعي. ووجهت نظري إلى الكائن الإنساني الذي فقد توازنه الداخلي، فوجدت فيه إنساناً فارغاً، يجد العبث في وجوده، ويسعى إلى مبدأ اللذة الذي يجد فيه ملاذه. هذا، لأن الكائن الممتلئ يشعر بقيمة وجوده، ويعلم أنه نقطة لقاء مركزية لطاقة كونية. أما الكائن «الفارغ» الذي تتلاعب به أعاصير الرغبات والشهوات، فإنه يحس بلا جدوى وجوده، فيعمل على إظهار قيمته من خلال مبدأ اللذة.

في العبارات السابقة أتيت على ذكر كلمة «الغبطة». وقد تعجب وأنت تدرك أن حديثي يتمثل في توضيح مفهوم السعادة. والحق، أنني هدفت إلى استحضار كلمة الغبطة لأنها الصورة المثلى والمقام الأسمى الذي تبلغه السعادة، وهي تحقق المغزى الروحي المتضمن في الحياة. ففي الغبطة تتالق السعادة إذ تحقق أسمى درجات صعودهـ وامتلائها. وفي السعادة، تستهل الغبطة انطلاقها إلى الإحساس بكمال الوجود.

أنت تعلم أن السعادة، وهي السبيل المؤدي إلى الغبطة، ترتبط بالواجب. والواجب، كما هو في ذاته يشير إلى توحيد الفاعل والفعل الماثل في الموضوع. فإذا ما قمت بواجبي، أدركت أنني أتجه إلى غيري بفعل إلزام خلقيٍ أو قانوني أو اجتماعي شرعي. وعلى هذا الأساس، تنطوي السعادة في ذاتها على مقولة «الثنائية». وهذه، بدورها، تشير إلى الود المتبادل بين الإنسان والآخر. وهكذا،

تتمثل السعادة في هـذه القـاعدة الذهبيـة الـتي تعنـى بوجـود الآخـر، إذ يحقـق الإنسـان وجودها في وجود الآخر.

أنت تعلم أن الغبطة تتجرد من «الثنائية» لأنها مبدأ لا إثنيني. هو مبدأ واحدي يتحقق في المحبة. وإذا كانت المحبة هي اللحمة التي تشمل الوجود، بأجزائه كلـها، في حقيقة واحدة، كانت الغبطة المحققة بالمحبة المبدأ الكوني الذي تتمثـل فيـه كـل غايـة نبيلة على هذه الأرض وفي كل موضع كوني. والحق، أن إدراك الإنسـان لمبدئـه الكونـي، وتحقيقه للغاية المتضمنة في هـذا المبـدأ، مثـالٌ تنطـوي فيـه الغبطـة الإنسـانية في تكـامل الشخصية وتوحيدها، وتنتهي فيه اللذة المعبرة عن الفردية الأنانية.

حاولت، في رسالتي هذه، أن أجعلك تستخلص السعادة من نفي أو سلب مفهوم اللذة. والحق، أن الصعوبة تكمن في تعريف الحقائق المتصلة بالكلمات. ومع ذلك، أحاول أن أحقق غاية من كتابتي، أبثها في سطور هذه الرسائل. ولعلي لا أبالغ إذا قلـت بـأنني أسعى إلى جلاء الحقيقة في كل ما أفكر، وأعمل وأطبـق. لكنـني، أحـدث نفسـي قـائلاً: عليك أن تبحث عن شهادة تعترف بصدق كل ما تكتب، أو تشير إلى بعض الصدق. لذا، أرجو أن تعلمني بكل ما يدور في خلدك، وتبلغني كل شـعور يتحـرك في داخلـك باتجـاه المعرفة، وتنبهني إلى بعض العبارات، أو الأقوال أو المفاهيم التي يعتريها الغموض. هـذا، لأن الآراء التي تعتمد المحاكمة العقلية السليمة، تسند بعضها، وتتكامل دون أن تتناقض في مضمونها.

الرسالة السادسة

الترفُّع

صديقي...

أنتظر ردّك بتوق وأقرؤه بشغف وشوق. وفي كل جواب ترسله، ألمس شفافية نفسك، ورجاحة عقلك، ورصانة موقفك، وسلامة محاكمتك. وأجد نفسي منجذباً إلى تأمل ما تكتب، إذ أشعر بفيض محبتك يغمرني. ولا أبالغ إذا أشرت إلى أن رسالتك الأخيرة حملتني بعباراتها الشائقة إلى عوالم فكرية أرقى وأسمى، وشوقتني إلى مطارحة موضوعات أخرى تمت بصلة إلى مستويات علمية ومعرفية أكثر عمقاً من مثيلاتها في رسائلي السابقة. ومن جانبي، أشعر بدافع قوي يحثني على الخوض في تلك الموضوعات التي تشغل بال كل إنسان. ولكنني، أحب أن أقول لك بأنني أرتقي سلم الفكر درجة تلو الأخرى، وأسعى إلى أن تكون الدرجات التي أصعدها حلقات متصلة ومتماسكة في نطاق العقل والروح. وإني سأعمل على بسط الآراء التي تركز على معرفتها، وتسعى للكشف عن معالمها ومضامينها.

1 ـ الترفع والكبرياء

أحب أن أحدثك في رسالتي هذه عن مفهوم الترفع الذي يشير إلى الرفعة والتسامي والعفة. ولمّا كنا نعجز عن إدراك وتوضيح هذا المفهوم إلا بعد مناقشة مفهوم الكبرياء، فإنني أسعى، بادئ ذي بدء، إلى طرح هذا المفهوم الثاني على بساط البحث.

الكبرياء انفعال يطيح بالمرء الذي تسيطر عليه عقدة النقص. ويكون «الخيال الجامح أو المضخم» الوسط الذي تخصب فيه وتتضخم فيه مظاهر الكبرياء أو المعالم التي تشكلها. وبهذا الصدد، أتجه إلى التعليق على كلمة «الخيال»... فأنا أعتقد أن الخيال

عنصر هام في تفكير الإنسان، يتطلب التنمية والتوسيع. ولمّا كان الخيال يقتضي السعة والامتداد، فيجب علينا تنميته لدى الأطفال. ولكن تنميته بعد مرحلة الطفولة تعني أن «التصور» يرافق هذه التنمية وذلك التوسع. لذا، يفرض الواقع تنمية الخيال والتصور معاً. هذا، لأن الخيال لا يعد ملكة فكرية. ومن الأهمية بمكان أن نملأ كل خيال بتصور أي بتفكير. والحق، أن الاستزادة من الخيال في الأمور النفسية تعني احتمال انقسام الإنسان على ذاته، أو تعرضه للتشتت العقلي، أو جنوحه إلى أمراض نفسية. أمّا زيادة الخيال في القضايا العلمية فأمر يعتبر ضرورة كبرى. لأن العلماء والحكماء وأصحاب المواهب يتخيلون ويتصورون. فهم يتميزون بخيال واسع، وتصور يملأ هذا الخيال.

يتخذ الخيال الواسع من العوامل الوهمية التي تشكل الكبرياء حقلاً للعمل، يضخمها، ويلقي بصاحبها إلى هوة الانفعال. ففي الخيال الجامح أو المضخم يشكل المال، أو العائلة، أو السلطة، أو المركز، أو المهنة، أو الجمال الجسماني، أو الذكاء... الخ، مظاهر الكبرياء. والحق، أنها لا تشكل شيئاً من هذا القبيل، لكن الخيال الذي يضخمها، يشيد منها هرماً زائفاً ندعوه الكبرياء.

تقوم الكبرياء على عنصرين أساسيين: الخيال الجامح، والانفعال. لذا، تعد الكبرياء، في أساسها، انفعالاً يضخمه الخيال الجامح. وعندما يسيطر الانفعال سيطرة تامة، أو شبه تامة، من خلال الخيال الجامح أو المضخّم، يتخذ الإنسان المصاب بعقدة النقص من العناصر الوهمية التي تشكل الافتخار وسائل أو عناصر للكبرياء. وعندئذ، تؤدي الكبرياء إلى عقدة العظمة التي هي عقدة النقص بصورة أخرى... إنها تغطية لعقدة النقص الناشئة عن تعويض كاذب يقوم على العناصر المتوهّمة. ولما كانت عقدة العظمة انفعالاً، وتغطية لعقدة النقص، فإن المتكبر إنسان مصاب بعقدة النقص... يحاول، بخياله الجامح، أن يغطي عقدته هذه بالمعالم الزائفة التي ذكرتها.

يمكنني أن أقول إن الفردية تتكبر لأنها تنفعل بالعناصر الوهمية ولا تعتمد مبدأ المحاكمة، أو لأنها «تغير» مواقفها ولا تتميز بجوهر إنساني بسيط غير قابل للانقسام والتجزئة. ويمكنني أن أضيف قائلا: إن الشخصية لا تتكبر لأنها تحاكم، وتعقل دون أن تنفعل. فهي لا تغير مواقفها بل «تعدل» ذاتها باستمرار، وذلك لكي تتسامى في سلم المعرفة، والوعي، والإنسانية والكمال. ولما كانت الفردية تتكبر، وتبني كبرياءها «المتخيلة» على ركائز وهمية، فإن كبرياءها هذه تتجه إلى الإنسان. وهكذا، نبلغ النتيجة الحاصلة من الكبرياء: تتجه الكبرياء من الإنسان الذي يمتلك العناصر الزائفة «المتخيلة»

ويضخمها، إلى الإنسان الذي لا يمتلك تلك العناصر... الإنسان الذي يعاني من الحرمان... تلك حقيقة مرّة وأليمة... اتجاه الكبرياء من الإنسان إلى الإنسان... تحقير القيمة الإنسانية بسبب «حرمانها» من عناصر الكبرياء الوهمية.

يتناقض مفهوم الترفع أو الرفعة والسمو، مع مفهوم الكبرياء. فإذا كانت الكبرياء تتجه من الإنسان إلى الإنسان عن طريق تقليص القيمة الإنسانية إلى «الحرمان» من مظاهر زائفة لا تحمل أثراً للكبرياء في واقعها الطبيعي، فإن الترفع يتجه من الإنسان إلى أعماله وسلوكاته وتصرفاته وأفكاره التي تتجرد من جوهرها الإنساني. والحق، أن الترفع لا يقلص الإنسان إلى مجرد «شيء»، ولا يقيم اعتباره على ملكيته أو الحرمان منها، كما وأنه لا يقلل من أهمية الشخصية الإنسانية. هذا، لأن المترفع إنسان يحب الإنسان، الغير، ويقدّر القيمة الإنسانية التي ينطوي عليها، ويأسف لأن الآخر قد أساء لتلك القيمة وشوه معالمه الإنسانية، ويعمل على رفع هذا الآخر إلى مستوى أعلى على الصعيد الروحي والعقلي والاجتماعي والاقتصادي دون أن يتكبر عليه.

أحب أن أتحدث عن الفروق بين المتكبر والمترفع: المتكبّر يتفاخر على غيره حتى ولو كان يتصف بصفاته... المتكبر الزائف يتفاخر على «المحروم» الزائف، المتكبر المخادع يتفاخر على «المحروم» المخدوع، المتكبر الأناني يتفاخر على «المحروم» الأناني، المتكبر الشهوي يتفاخر على «المحروم» الشهوي... الخ. وهكذا، لا يختلف المتكبر عن «المحروم» إلاّ بمقدار ما يمتلك من عناصر الكبرياء المعنوية كالمركز والانتماء العائلي والذكاء وغيرها، وعناصر الكبرياء المادية كالمال والجمال الجسماني وامتلاك السلع والأشياء الخ... والمتكبر يتفاخر على الإنسان الآدمي، المتكامل بصفاته الخلقية، المنسجم في كيانه، المتواضع في إنسانيته، العميق في تفكيره، الشمولي في واقعه وحقيقته، المتعالي في عزته وكرامته، والطيب في صميمه... الخ، وذلك لأنه يمتلك عناصر الكبرياء الوهمية التي تعصف بها رياح الخيال الجامح. إذن، فالمتكبر يغطي عقد نقصه بعقد عظمته... وهكذا، تتجه الكبرياء من الإنسان إلى الإنسان.

عندما نلقي نظرة فاحصة على المترفع نجده يترفع عن أفكار ونوايا الكاذب، والمخادع، والأناني، والشهوي، والمستغل، والمتكبر، والهازئ، والطامع... الخ، دون أن يتكبر عليهم. ويكون ترفعه، أو رفعته وعزته وعفته، موقفاً يتجه إلى أعمال ومزايا أمثال أولئك المنحرفين عن طريق إنسانيتهم. وهكذا، يتمثل سلوك المترفع في مظهرين: أولاً محبة الآخرين التي تمده بقوة تسمح له بمساعدتهم، والتعاطف معهم، والعمل على

تقويمهم، والسعي لإعادتهم إلى جوهرهم الإنساني، كما تسمح له أن يتألم من أجلهم ألماً إيجابياً، إذ يعلم أنهم فقدوا قيمتهم الإنسانية الحقيقية. ثانياً الترفع عن أعمالهم، وتجنب الكبرياء عليهم، والاحتفاظ بطاقة تجعله يمد إنسانيته إليهم، وتساعده على تقدير إنسانية أضاعوها، والإبقاء على علاقة معهم برأفة وحنو وعطف. والحق، أن المترفع يتسامى على الآثار السيئة التي يخلّفها «المنحرفون إنسانياً» في الحقل الاجتماعي. ويعبر هذا المترفع عن مواقفه بالعبارات التالية: أنا أرفع من أن أكون كاذباً لأنني صادق في جوهري، وأرفع من أن أكون مخادعاً ومتكبراً... الخ، أنا كائن أسمى من أن أكون طامعاً، أو مستغلاً، أو هازئاً، أو شهوانياً... الخ؛ أنا كائن جدير بالاحترام والتقدير... كائن لا تسمح لي إنسانيتي أن أكون أنانياً... أنا كائن لا يليق بي أن أنحدر أو أنحط إلى تلك المستويات التي تحرفني عن تحقيق إنسانيتي؛ أنا كائن أعلى من أن أتنازل عن كرامتي وعزة نفسي، فلا أتمرغ في حمأة الذل ومستنقع الرذيلة؛ أنا كائن أرفع، وأسمى، وأعلى من كل شيء، وأتجاوز، بقوة عقلي وروحي، الوضاعة الجاذبية في كل شيء، وأتعالى على الجواهر، واللآلئ، والذهب، والمال، والمركز، والثياب الفاخرة، والانتماء العائلي أو الطبقي أو المذهبي، التي تطيح بي في هوة الانفعال والكبرياء؛ أنا كائن أعلى من أن أتكبر من خلال رداء فرو، لم يكن أكثر من جلد على جسم حيوان لم يعرف الكبرياء، أو من خلال قطعة ماس لم تكن أكثر من قطعة فحم في سابق عهدها، أو من خلال مال لم يكن أكثر من تعبير لرغباتي وشهواتي، أو من خلال مركز قد لا أكون أهلاً له، وقد أكون تسلمته نتيجة لمهارتي وسياستي ودهائي، أو من خلال عائلة حصلت على ألقابها وامتيازاتها بطرق لا إنسانية... الخ.

يُعدُّ هذا التمييز بين المترفع والمتكبر وافياً، إذ يكفي أن يجعلك ترى الفرق الدقيق القائم بينهما. ومع ذلك، لا يستقيم فهمنا للموضوع إلا بطرح أمثلة واقعية تشهد على ما قام به كبار المترفعين في العالم... أولئك الذين علمونا مبادئ السمو الإنساني.

استطاع غاندي، قديس النصف الأول من القرن العشرين، أن يحرر، بترفعه، عشرات الملايين من المنبوذين في المجتمع الهندي. فلو كان غاندي متكبراً، لظلت تلك الفئة العديدة منبوذة... لكن غاندي كان مترفعاً، رفيعاً، سامياً، محباً، منفتح القلب والعقل، لا طائفياً، لا طبقياً، لا يستغل بل يحقق إنسانيته. وكان المنبوذ مجرداً أو محروماً من مزايا الطبقات الاجتماعية: لم يكن يحق له الانتماء إلى طبقة أو طائفة؛ لم يكن يحق له أن يجالس الآخرين، أو يضع يده بيدهم. كان المنبوذ «نجساً» في نظر

المتكبرين الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية راقية ومتوسطة وفقيرة. وعندما نتساءل: كيف أصبح ذلك المرء منبوذاً؟ نجيب: لقد جعلت منه كبرياء المتغطرسين منبوذاً؛ وقد يكون الاستغلال، والتمايز الطبقي، والتمييز العرقي، واختلاف اللون... الخ، أسباباً ظاهرية تنضوي جميعها تحت مفهوم «الكبرياء».

سعى غاندي[11] إلى تحرير أولئك المنبوذين... حرك غاندي قلوب وعقول الهندوس باتجاه إنسانيتهم، وزرع المحبة في صدورهم... وعلّمهم الترفع، ونهاهم عن الكبرياء... علمهم محبة الحقيقة التي نراها في كل إنسان وفي كل شيء، ونطبقها في مجال الطبيعة والإنسان... جلس غاندي مع المنبوذين، تناول طعامهم، تعاطف معهم، ولم يكن في موقفه هذا متكبراً. وفي عدم تكبره، أي في رفعة وسمو إنسانيته، وترفعه عن «كبرياء» المتغطرسين، رفع من قيمة المنبوذين من خلال محبته لهم... لقد أحب غاندي فترفع... ورفع الظلم عن المنبوذين وأعاد لهم قيمتهم الإنسانية... وعندما نسأل: كيف استطاع غاندي أن يحقق هذا العمل الجليل؟ نجيب: لم يكن غاندي متكبراً... لم يكن طامعاً بالمال، أو المركز، أو السلطة المادية، ولم يكن يأبه بالجواهر واللآلئ والانتماء العائلي والطبقي... كان غاندي حراً في أعماقه، منعتقاً من إشراطات وقيود قوقعة «الأنا» المدعوة بالكبرياء،... ومن كان حراً كان حقيقياً في إنسانيته... ومن كان إنساناً حقيقياً كان مترفعاً، محباً، وصادقاً. لقد ترفّع غاندي عن كبرياء الجاهلين، عن أعمالهم وسلوكاتهم وأفكارهم... لم يكن غاندي متكبراً.

2 ـ الترفع والرفعة

استطاع المسيح أن يحرر «العشارين والخطأة» من كبرياء الفريسيين والكتبة الذين كانوا يمثلون الطبقة الكهنوتية اليهودية. كان الفريسيون ينظرون إلى «العشارين والخطأة» نظرة النجاسة والضعة. لم يجلسوا معهم، لم يتناولوا الطعام معهم، لم يسلموا عليهم بالأيدي. هذا، لأن الجلوس معهم أو تناول الطعام معهم ومصافحتهم باليد ضرب من النجاسة في نظر الفريسيين... كان الفريسيون متكبرين... يرتدون الثياب الفاخرة، يتناولون الطعام الشهي، يترفهون في مراكزهم الاجتماعية العالية، يتفاخرون بأنهم السائرون في الصراط المستقيم، يتباهون بعلومهم التوراتية، ويعتبرون أنفسهم القدوة الحسنة، ويُلزمون الناس على الخضوع لهم لأنهم «وكلاء» أهل الجنة على

[11] يُعد أشاريا فينوبا قديساً آخر شارك غاندي في عملية التحرير. كان فينوبا الرائد الأول في هذا المضمار.

الأرض . الخ. وكما وقف متكبرو الهندوس مـن المنبوذيـن، كذلـك وقـف الفريسـيون مـن العشارين والخطأة... ولما كان الفريسيون جماعة متكبرة، لا مترفعة، فإنـهم لم يسـاعدوا على رفع إنسانية أولئك الذين اصطلحوا علـى تسـميتهم بـ «العشـارين والخطـأة». ومع ذلك، لم يتورع الفريسيون عن القيام بأعمـال «الخطـأة والعشـارين». لقـد فرضـوا ضريبـة العشـر علـى المبيعـات في فنـاء الهيكـل، وكرهـوا النـاس. وهكـذا نـرى أن الفريسيـين المتكبريـن لم يكونـوا أفضـل من العشاريـن والـخطأة. هـذا، مع العـلم، أن التسمية الـتي نالتها تلك الفئة قد تكون تسمية خاطئة، إذ يمكن ألا يكون «العشارون والخطأة» عشارين وخطأة بالمعنى الحقيقي... وعلـى هـذا الأسـاس، لم يختلـف الفريسـيون عـن العشـارين والخطأة بالسلوك والتصرف... لكنهم، تكبروا عليهم.

بمكنني أن أستنتج العلاقة الجدلية بين الفريسيين من جهة والعشارين والخطـأة من جهة أخرى:

1.ـ لم يحب الفريسيون «العشارين والخطأة».

2.ـ كره الفريسيون «العشارين والخطأة».

3.ـ تكبر الفريسيون على «العشارين والخطأة».

4.ـ لم يترفع الفريسيون عن أعمال «العشارين والخطأة».

5.ـ لم يرفع الفريسيون مستوى «العشارين والخطأة» الإنساني.

وبالمقـابل، نجـد المسيح يحب «العشارين والخطأة»، يـأكل معـهم، يجالسـهم، يعلمهم، يتعاطف معهم، دون أن يتكبر عليهم. لكن المسيح ترفع عن أعمـالهم ولم يسـلك طرقـهم. لـذا، تـرفع المسيـح عـن سلوكاتهـم ولم يتكبـر عليـهـم. وبـهذا التـرفـع، واستبعـاد الكبرياء، حررهم المسيح من قيد الخطيئة الملحقة بهم، أو المذلة الـتي اسـتغلها الفريسيون شر اسـتغلال ليسـيطروا عليـهم. لقـد علمـهم المسـيح أن يكونـوا أحـرارا، وأن يترفعوا عن أعمال الفريسـيين التي جعلوا منها قيدا لهم... لقـد قيدهـم الفريسـيون بقيـود خطاياهم، فأسقطوا عليهم آثار ذنوبهم من خلال الكبرياء.

يمكنني أن أستنتج العلاقة الجدلية بين المسيح من جهة والعشارين والخطأة مـن جهة أخرى:

1.ـ أحب المسيح «العشارين والخطأة».

2.ـ لم يكره المسيح «العشارين والخطأة».

3.ـ لم يتكبر المسيح على «العشارين والخطأة».

4.ـ ترفع المسيح عن أعمال «العشارين والخطأة».

5.ـ رفع المسيح من مستوى «العشارين والخطأة».

استطاع المسيح أن يطبق القول الذي نادى بـه «من اتضع ارتفع». والحق، أن الإشارة إلى الترفع، أو الرفعة، كحصيلة لازمة للتواضع، أمر يدين الكبرياء. واستطاع المسيح أن يحوّل مفهوم السلطة، المتمثل بالمركز الاجتماعي، من التسلط إلى الفعل العظيم الذي يتجلى في السلطة الروحية. وعلى هذا الأساس، أقصى المسيح عن حياته كل عنصر من عناصر الكبرياء التي يضخمها الخيال الجامح، ويتلاعب بها الهوى والانفعال. لقد علّم المسيح أن رفع الآخرين إلى المستوى اللائق بإنسانيتهم، قضية لا تتحقق إلا من خلال المحبة.

3 ـ الترفع والعفة

أخيراً، أحب أن أشير إلى الصلة المباشرة القائمة بين الترفع والعفة. وأجدني، في هذا السياق، أعتمد الإجابة التي أطرحها عندما يحدثني شخص عن ترفعه. فإذا ما رأيت في تصرف ذلك الشخص كبرياء، قلت له: لست مترفعاً... لست عفيفاً... هذا، لأن العفة تأبى أن تكون ترفعاً عن أمور حسنة ولائقة. فأنا لا أستطيع، على سبيل المثال، أن أتعفف عن الزواج لأن العلاقة بين الرجل والمرأة خير في ذاته. ولا أستطيع أن أتعفف عن التواضع باسم «عزة النفس» الزائفة. فإن وجدت في العفة أو عزة النفس زيفاً، أدركت بأن الشخص يتكبر دون أن يتعفف، ودون أن يترفع. لذا، تدفعني جرأتي إلى القول: إن العفيف هو المترفع الذي يتعالى على الأمور الشائنة و المنحطة... هو مترفع عن كل ما يمت إلى الكبرياء بصلة... إذن، فالعفة هي الترفع، وعزة النفس هي الرفعة.

أنهيت بحثي عن الترفع صباح هذا اليوم، وتمنيت لو كنت حاضراً معي نناقش الأفكار التي أعدها تعليقاً على هذا الموضوع. فأنا أعتقد أن الحوار المبدع، المجرد من الجدل، يؤدي إلى لقاء الأفكار وتكاملها في مضمار الحقيقة. وعلى الرغم من اعتقادي أن تبادل الرسائل علاقة حميمة، تحمل الغبطة في مضمونها، وتنقلنا إلى جو فكري صرف، وتجمّل الكلمات بمعانٍ يعجز عن تبيانها العقل العملي، لكنني أجد في الحضور وجوداً

كلياً. والحق، أن الحضور الجسدي لا يفي بالغرض، وذلك لأن غياب الحضور النفسـي، الروحي، والعقلي والشعوري، أمر يشير إلى جحيم اللقاء... تعيس هو الإنسان الذي يشعر حضور غيره الجسدي، ويفتقد حضوره الحقيقي. وعلى غـير ذلـك، أرانـي أتحـدث عـن الحضور المفعم بنعيم اللقاء. لذا، أعترف بأن الحضور ماثل في رسائلنا، وذلك، لأنه مثول نفسي، وروحي، وشعوري، وعقلي في «حضرة» الحقيقة.

الرسالة السابعة

المحاكمة والشخصية

صديقي...

شعرت بامتلاء الغبطة وأنا أقرأ تلك العبارة الواردة في رسالتك: على الإنسان أن يكون حاضراً في العالم، متوافقاً معه، منسجماً مع طبيعته، ومتناغماً مع جوهره، ومحباً له. أعجبت بهذه العبارة التي تعلم الإنسان «كيف يحيا». وشعرت بنشوة تملأ كياني وأنا أقرأ تلك العبارة التي تعلن فيها عن ضرورة تبني مبادئ شاملة من أجل تحقيق الحياة الإنسانية والكونية. واطمأن فؤادي لمعرفة أن إرادتك الحرة، أو حرية اختيارك، تتجه إلى اعتناق المبادئ أو القواعد الحياتية التي أطرحها على بساط البحث بعد إجراء محاكمة عقلية نزيهة وسليمة.

أولاً ـ المحاكمة والحكمة

أحب، في رسالتي هذه، أن أبحث بعض القضايا العقلية والشعورية المتفرقة. وها أنذا، أبدأ بالتحدث عن المحاكمة.

تشتق هذه الكلمة من فعل يحاكم الذي يشير إلى الحكمة. وهكذا، تعني المحاكمة تطبيق الحكمة وليس التحكم. ويمكنني أن أستخلص نتيجة للمحاكمة تتمثل بالحكم الذي أصدره بعد إجراء محاكمة عادلة، ومعقولة لا أثر للإنفعال فيها.

أتساءل: هل أنا قادر على إجراء محاكمة عادلة؟

ينقسم الناس في مجال الإجابة إلى قسمين:

آ ـ فئة ترى قصور العقل وعدم تمكنه من إجراء محاكمة عادلة.

ب ـ فئة أخرى تعترف بإمكان العقل إجراء محاكمة عادلة.

يمكنني أن أقول لك، يا صديقي، بأنني أقف إلى جانب الفئة الثانية.

أتساءل: هل يستطيع العقل تحقيق نتائج فكرية صحيحة أو معقولة، وتجنب الخطأ ومقاربة الصواب؟

أعتمد، في إجابتي، على العبارة التالية التي كتبها العالم الفرنسي ديكارت، قال: يستطيع العقل أن يحقق نتائج صحيحة بشرط عدم الخضوع للانفعال [12].

أحاول الآن أن أقدم مثالاً قائماً في المحكمة القانونية بدرجاتها الثلاث. وأستطيع أن أقارن ما يجري في المحكمة القانونية مع ما يجري في محكمتي الداخلية. هنالك محكمة بدائية تسعى إلى معرفة وتدوين كل ما يتصل بالموضوع المطروح على بساط المحاكمة. في هذه المحكمة، تُجمع كافة الأدلة والبراهين، وذلك في سبيل تفادي خطأ محتمل في الحكم الصادر. وهنالك محكمة عليا تعيد النظر في الأحكام الصادرة عن المحكمتين السابقتين وذلك في سبيل إصدار حكم لا علاقة له بالانفعال.

عندما أطبق ما يجري في هذه المحاكمة على ما يجري في داخلي، أعترف بوجود محاكم ثلاث في كياني، متدرجة ومتصلة. هنالك محكمة عقلية أولية تسعى إلى جمع المعلومات المتصلة بالموضوع. وتكون قراراتها واقعية، كما تكون صارمة. وهنالك محكمة نفسية أخلاقية وسطى تعيد النظر في الحكم الصادر عن محكمة العقل، وذلك لكي تلطف من واقعيته وصرامته. وأستطيع أن أسمي هذه المحكمة الثانية بـ «محكمة الرأفة والرحمة». وهنالك محكمة ثالثة عليا أدعوها «محكمة المحبة والضمير» والضمير في هذا السياق، يعني المحاكمة الأخيرة، والمثالية والسامية. ويحكم الضمير من خلال مبادئه دون أن يكون للانفعال دور فعّال.

أتساءل: كيف أجري المحاكمة في داخلي؟

أجيب:

1ً أعيد النظر في أفكاري وأعمالي، وأتأملها.

2ً أعيد النظر في أفكار وأعمال غيري، وأتأملها.

3ً أعيد النظر في ما أقرأ، في ما أرى، في ما أسمع، وأتأمل.

---

[12] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

4 أتأمل الطبيعة، وأمد تأملي إلى الكون لكي أصل إلى حكم يبرر وجودي.

ثانيا ـ الدافع والرغبة

يشكل الدافع والرغبة الفكرة الثانية التي أحب أن أحدثك عنها.

أركز انتباهي، بالدرجة الأولى، على الدوافع كلها، البيولوجية، والنفسية، والإجتماعية، والعقلية، والمثالية باعتبارها قوى فاعلة في الكيان الإنساني. وعلى هذا الأساس، أبسط أمامي تعريف الدافع: هو طاقة حيوية تفعل في كياني من أجل تحقيق غاية.

يشتمل هذا التعريف على مفهومي الطاقة الحيوية والغاية، كما يستدل منه أن الدافع غائي في أساسه. لذا، يجدر بي أن أقول: إن الطاقة الحيوية هي قدرة الحياة الفاعلة في، وإن الغاية هي تحقيق الخطة المرسومة في حقيقة الحياة. وإذا كانت دوافعي تفعل في لتحقيق غاية، فإنما يعني أنها خير في جوهرها. فالغاية تشير إلى الخير المطلق الكامن في أعماقي، الذي يسعى إلى التحقيق. وفي رأيي، أن الغاية لا تتبطن بالشر وذلك لأنه لا يمكنني أن أقول: غايتي أن أكون لصا أو مخادعا فاللصوصية أو الخديعة ليست غاية إنسانية. ولما كان الدافع تحقيقا لغاية، فإنه يتساوق مع العقل وينسجم معه. لذا، أحجم عن القول بالسيطرة على دوافعي لسبب هو أن الدافع لا بتناقض مع العقل. وعلى غير ذلك أقول: علي أن أسمو بدوافعي.

تشير الحقيقة أن دوافعي البيولوجية، والنفسية، والإجتماعية تقبل الانحراف إلى رغبات وشهوات. فدافع المجد قد ينحرف إلى شهوة المجد، ودافع الاجتماع قد يتحول إلى شهوة التجمع، ودافع الطعام قد يتحول إلى شهوة الطعام، ودافع الجنس قد ينحرف إلى شهوة الجنس... إلخ. ومتى انحرف الدافع إلى رغبة أو شهوة، انحرف العقل معه، وأصبح أسيره، وخضع له، وبالتالي يعمل العقل جاهدا للسيطرة على الانفعالات المتجسدة بالرغبات والشهوات.

هكذا، ترى أن الشخصية المتوازنة هي الشخص الذي يتكامل فيه الدافع مع العقل، وأن الفردية هي الإنسان المنفعل الذي تجتاحه الرغبات والشهوات [13].

---

[13] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

ثالثا ـ العقل والنفس

يعد موضوع توازن «العقل والنفس» المبدأ الثالث الذي أسعى إلى التحدث عنه.

يعتقد بعض علماء نفس السلوك أن الخلل الذي يطرأ علــى تكـامل الإنسـان مـع نفسه ناشئ عن عدم توازن العقل مع الجسد. ويقول أولئك العلمـاء: إن مرحلـة الشـباب تشير إلى تقدم ونمو الجسد على العقل، الأمر الذي يحدث عدم التوازن، أو الخلل. لكـن الحقيقة التي يتحدث عنها علماء نفس التكامل تشير إلى أن الخلل ينتج عن عـدم توافـق العقل مع النفس النفس، في هذا السـياق، هـي مجموعـة القواعـد التربويـة الـتي يحصل عليها الإنسان.

يمكنني أن أقول إن التربية الإنفعالية تحـدث انفعـالا في صميـم الإنسـان، الأمـر الذي يؤدي إلى صراع ينشأ بين العقل والنفس. فقد نجد إنسانا صقل عقله دون أن يصقل نفسه. وإذا ما درسنا حياته النفسية وجدنـا انقسـاما في داخلـه يـؤدي إلى خضـوع العقـل للنفس. وقد نجد إنسانا قادرا على حل أموره العقلية وعاجزا عن حل مشـاكله النفسـية. فإذا ما نشأ إنسان على الكبرياء، أو الكراهية، أو التعصب، أو النفور، أو الاستغلال، أو الطمع... الخ. ظلت نفسـه محتفظـة بانفعالهـا. وسـوف تخضـع العقـل حتـى ولـو تميز بمدارك عديدة ومعلومات وفيرة... وعندئذ، أستطيع أن أتحدث عن عقل متكـبر، وعقـل كاره، وعقل متعصب، وعقل مستغل... الخ. وذلك في توافق مع نفسية متكـبرة، ونفسية كارهة، ونفسية متعصبة، ونفسية مستغلة... الخ. أما إذا نشأ على تربيـة عقليـة ونفسـية متوازنة، فإنه يهيئ ذاته لتكون شخصية متوازنة [14].

رابعا ـ الشعور بالنقص

الشعور بالنقص شعور طبيعي يبرر ذاته. إنه ملازم للطبيعة الإنسانية. ووجوده لا يشير، من قريب أو من بعيد، إلى وجود النقص. فهو شعور متصل بالكمال، وليس نقيضا له. فالإحساس بالنقص سعي إلى الإمتلاء أو التكامل... هو دافع إلى الكمال. والحق يقـال إن هذا الإحساس قاسم مشترك بين جميع الناس. وإذا اختلفـت أنـواع درجـات ومعايـير هـذا الإحسـاس بـالنقص، فـلأن كـل فـرد يحـس بـه مـن حيـث وجـوده الإجتمـاعي أو الإقتصادي أو الجمالي أو الأخلاقي الخاص... كل امرئ يحمل في ذاته شعورا بالنقص.

---

[14] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

يجدر بي أن أقول إن بقاء هذا الإحساس على حاله قد يعرضه للزيادة والتضخيم، وبالتالي، يتحول إلى عقدة النقص. وإذا عجز الإنسان عن التعويض عن شعوره بالنقص تعويضا إيجابيا، صحيحا وحقيقيا يجعله يتكامل في داخله، فإنه ينقلب إلى عقدة نقص تنحو إلى التعويض الكاذب القائم في الإضافات الظاهرة الزائفة. وفي الحالة الثانية، تنقلب عقدة النقص إلى عقدة العظمة، الأمر الذي يجعل الشخصية الإنسانية تفقد توازنها. والحق، أن الشعور بالنقص دافع من الدوافع المثالية التي تهيب بالإنسان لكي يتسنم درجة عالية في سلم التكامل والتوازن [15].

خامسا ـ الشخصية والفردية

يعد كل إنسان فردا. وعندما نسأل إن كان هذا الفرد يحقق إنسانيته، نميز بين الفردية والشخصية. ونعرف كلا منهما كما يلي:

آ ـ الشخصية هي الفرد الذي يضيف إلى ذاته صفات صحيحة وصادقة.

ب ـ الفردية هي الفرد الذي يضيف إلى ذاته صفات زائفة، غير صحيحة.

يمكنني أن أقول إن الإضافة الواحدة قد تكون سببا لتكوين عنصر شخصية لدى بعض الناس، أو عنصر فردية لدى بعضهم الآخر. هذا، إذا علمنا أن الوعي أو اللاوعي يعين أو يحدد هذه الإضافة. ومن جانبي، أعتقد أن الصفات الزائفة التي يضيفها الفرد إلى ذاته ترتبط بالأمور المادية أولا والمعنوية ثانيا، وأعلم أن الصفات الصحيحة التي يضيفها الفرد إلى ذاته، ترتبط بالأمور المعنوية والفكرية أولا، والمادية ثانيا.

أحاول أن أميز تمييزا مباشرا بين إضافات كل من الفردية والشخصية.

إضافات الشخصية	إضافات الفردية
1 الشخصية عاطفية، تتعاطف مع الآخرين.	1 الفردية انفعالية، تتنافر مع الآخرين.
2 الشخصية تمتلئ بالحياة والفكر والمثال.	2 الفردية فارغة تهتم بالمعيشة وتلجأ إلى الخيال الجامح.

[15] راجع فصل «الشعور بالنقص» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

3 الشخصية تثابر على المعرفة والعلم والثقافة.	3 الفردية ثابتة تعرض عن المعرفة وتكرر ذاتها.
4 الشخصية «تعدل» ذاتها لكي تتكامل.	4 الفردية «تغير» ذاتها وتنقسم على ذاتها.
5 الشخصية تعتمد الدوافع التي تتساوق مع العقل.	5 الفردية تعتمد الرغبات التي تُخضع العقل وتسبب ضياعه.
6 الشخصية تتجاوز الأنا إلى الكيان.	6 الفردية تقبع في ظلام الأنا.
7 الشخصية منفتحة ومُحبة.	7 الفردية مغلقة وكارهة.
8 الشخصية متواضعة، متكاملة، ومتوازنة.	8 الفردية متكبرة، مجزأة، وغير متوازنة.
9 الشخصية ممتلئة تشعر بقيمة الحياة.	9 الفردية فارغة تحس بتفاهة الحياة.
10 الشخصية تُعرف بمواقفها الإنسانية.	10 الفردية انهزامية، ووصولية.
11 الشخصية تسعى إلى السعادة والغبطة.	11 الفردية تسعى إلى اللذة.
12 الشخصية تخلو من عقدتي النقص والعظمة، وتسمو بالشعور بالنقص كدافع إلى الكمال.	12 الفردية تخضع لعقدتي النقص والعظمة، ولا تجعل من شعورها بالنقص دافعاً إلى الكمال.
13 الشخصية تنشئ المحاكمة العادلة المتزنة.	13 الفردية تنفعل وتطيح بمبادئ المحاكمة.
14 الشخصية تنسجم مع وجودها الأرضي، وتسعى إلى معرفة الحقائق المادية والروحية، وإقامة التأليف بينهما.	14 الفردية ترفض وجودها الأرضي أو تتمرد عليه، وتنكر الغاية النبيلة للوجود.
15 الشخصية تهدف إلى تحقيق الحياة.	15 الفردية تهدف إلىتحقيق المعيشة.

لا أدري إن كنت ترضى بما جاء في رسالتي هذه، وتوافق على الطريقة التي عرضتها. فقد حاولت أن أجذب انتباهك إلى هذه القضايا البسيطة الهامة لتكون محور تفكيرك. فأنا أرى أن تطبيق هذه المقولات يحقق الحياة في الواقع الذي يتألق بضياء المثال. وفي رأيي، أن خلو الواقع من مثاليته ضرب من التعاسة والتفاهة، الأمر الذي يؤدي بالمرء إلى التعلق بالمظاهر الزائفة، والسعي إلى الرغبات، وذلك من أجل تغطية إحساسه بالتفاهة. وهكذا، أودُّ أن ترفع مفهوم «العيش» إلى مفهوم «الحياة»، ومفهوم «الواقع» إلى مفهوم «المثال»، ومفهوم «الفردية» إلى مفهوم «الشخصية»، ومفهوم «الرغبة» إلى مفهوم «الدافع».



الرسالة الثامنة

الـــــزواج

صديقي...

لم أعد قادراً على الاستغناء عن رسائلك التي أصبحت ضرورة حية. والحق، أنني أعجز عن البدء بكتابة أية رسالة جديدة إليك ما لم أستلم جوابك عن رسالة سابقة. ولا أبالغ إذا قلت بأنك قادر على صياغة كل إجابة في صورة جديدة على نحو أفضل مما أستطيع. وإن قدرتك على ربط الموضوعات التي عرضتها في رسالتي السابقة لهو أمر أجلّه، إذ أعلم أن الطرح النظري للمبادئ والقواعد يتحقق في الصيغة الوضعية التي تؤلفها. فكأني أرى فيك الإنسان الحضاري، الإنسان الآدمي، الذي يعيش مبادئه ويضعها موضع التطبيق.

سرّني أن تقول لي إنك لا تعبأ بالتعليقات، أو أنواع النقد، الموجهة إليك، فأنت تعيدها للأسباب التالية:

أولاً: إن أولئك الذين ينتقدون طريقة عيشك في حياة مفعمة بالأمل وممتلئة بالغبطة، يعيشون على سطح الحياة أو على هامشها، ويتهللون في مستنقع المظاهر البراقة.

ثانياً: اعتقادك الراسخ بأن تعاليك على تفاهات العيش لا ينقص من قيمتك الإنسانية، وبالتالي لا تخسر غير الأشياء التي تقوض روحك ووعيك.

ثالثاً: اجتهادك للتمثل بالحكماء والعلماء الإنسانيين الذين يأبون التنازل عن حكمتهم وعلمهم لقاء أموال العالم كلها، وبهرجات التجمعات البشرية. فهم يرفضون مبادلة علمهم أو حكمتهم بالمركز الاجتماعي، أو بالسلطة الزمنية، أو بالمجد الزائف، أو

بالرغبات والشهوات... الخ. ولا يتورعون عن اتهام من يقايض «عظمتهم» بـ«نجاح» العالم، بأنه يحط من قدرهم، من قيمتهم، ومن شعورهم بأنهم يتسامون على كل ما هو مبتذل. هذا، لأنهم ثابتون في مبدئهم الإنساني، ويعرفون السبب الأصيل لوجودهم والغاية التي يريدون أن يحققوا فيها وعيهم الكوني.

رابعاً: سعيك الدائب لرفع الواقع من مستواه المأساوي الأليم إلى مستوى أكثر شفافية، تعانق فيه غبطة الوجود. ولقد أعجبني قولك بأن الناس يتذمرون من واقعهم، ومع ذلك، يفضلون البقاء في «واقعية» تجمعهم على «مثالية» اجتماعهم، ويغطون مأساتهم بالإضافات الكاذبة التي يتمنون لو أنها تؤدي إلى سعادتهم، ويصقلون ضحالة عيشهم ببريق آني من المسرات والملذات، أملاً منهم بأن تكفي جوعهم الذي لا يُشبع. وإني أوافقك بأن إحساسهم بعدم الطمأنينة وفقدان السلامة، يدفعهم إلى البحث عن وسائل تطفئ هذا الإحساس، فيعمدون إلى جني الأموال، وزيادة التملك، وتسلّم المركز، والظهور التجمعي، والافتخار بالانتماء الطبقي النبيل... الخ. ولكنهم يرتكسون، بعد حصولهم على هذه الصفات المؤقتة إلى ما كانوا عليه من قلق، وضياع، وانعدام الطمأنينة والسلامة [16]. وهكذا، ينتقلون من الإحساس بالقلق، إلى الطمأنينة الآنية الزائلة التي تقيم أسسها على مباهج العيش، ومن ثم إلى الارتكاس والتراجع إلى قلقهم المتزايد.

خامساً: يقينك بأن خلاصك من هذه المشكلات قائم في نشدان الغاية السامية للوجود، وفي وعي الحقيقة الإنسانية المتصلة بالحقيقة الكونية.

سادساً: إيمانك بأن كل عمل أو كل تصرف يقوم به الإنسان يجب أن يعبّر عن قيمة كونية، أو يقوم به على أفضل وجه. وهذا ما أدعوه العبور من «الأنا» إلى «الكيان»، من «الفردية» إلى «الشخصية»، من «الانغلاق» إلى «الانفتاح»، من «الانفصالية» إلى «الاتصالية»، ومن «التجزئة» إلى «الكلية».

---

[16] راجع فصل «فلسفة القلق» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

1 ـ العلاقة بين الرجل والمرأة

تحثني إرادتي، التي هي حصيلة محاكمتي المنطقية والفكرية، على الاتجاه إليك برسالتي الجديدة، باذلاً قصارى جهدي لأبحث معك موضوع العلاقة القائمة بين المرأة والرجل. ولئن كنت قد ضمّنت هذا البحث في أكثر من موضع في كتاباتي ومؤلفاتي، لكنني أخصك به بعد أن وضعته في صيغة تكاد تكون مختلفة. هذا، لأن العلاقة المذكورة تتميز بأهمية كبرى في توطيد أسس التوازن، والاستقرار الاجتماعي، والنفسي والروحي. وهي، بصورة أخرى، رباط هام بين الإنسان والإنسان، يشتمل على التعاون المتبادل والصداقة، ويؤدي إلى السعادة والاستقرار النفسي في حال توافق العلاقة، وإلى التعاسة والاضطراب النفسي في حال اختلالها.

تشير مقدمة هذا البحث إلى دراسة معالمه في الواقع الاجتماعي. والحق أقول، إن أقل تبصّر لواقع هذه العلاقة، التي أدعوها الزواج، تؤكد فشل مؤسسة الزواج في كل أنحاء العالم، آخذاً بعين الاعتبار الاختلاف النسبي المعزو إلى هذا الفشل. فإذا ما أخضع مفهوم الزواج للدراسة الإحصائية، وجدنا أن الشباب يُعرض عنه بمستوياته الثلاثة: 1. البيولوجية 2. النفسية الاجتماعية 3. المثالية الروحية، ليؤكد على جانبه البيولوجي وحده، أو، في حدّه الواقعي، على جانبه الاقتصادي والاجتماعي. وعلى هذا الأساس، أستطيع أن أتبين أسباب فشل مؤسسة الزواج في عدم تطبيق «صميمية» العلاقة بين الرجل والمرأة.

ثمة نقطة أخرى أريد أن أطرحها في مقدمة بحثي، تشير إلى أن حقيقة مفهوم الزواج و «صميمية» العلاقة لا تقوم على تركيب صيغة أو إحداث معادلة من مجرد دراسة التقاليد المتنوعة والمختلفة، المتبعة في أقطار العالم. هذا، لأن الجوهر الحقيقي لأية قضية لا يُستخلص من تجميع النسب المتقاربة للمفاهيم السائدة في أماكن متعددة من العالم. وإن استقصاء مفاهيم الزواج المعمول بها في مجتمعات متعددة لا يؤدي إلى خلق قاعدة عامة ومشتركة له. ويعود هذا العجز في تأسيس القاعدة إلى اختلاف شعوب العالم في مفاهيمها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وتقاليدها الدينية، الأمر الذي يجعل الزواج خاضعاً لتلك المفاهيم والتقاليد. فالقاعدة التي تطبق في مجتمع قد لا تطبق في مجتمع آخر، أو قد تكون نسبية إلى حد معين.

يعود الاختلاف القائم في التقاليد والطقوس والمفاهيم إلى قواعد وضعها أناس، أو إلى نواميس سنّها رجال وفق ما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم الخاصة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنني أعجز عن استخلاص حقيقة منها. ولما كنت من أنصار المبدأ القائل بتطبيق المثال على الواقع، أو رفع الواقع إلى المثال، فإنني أسعى إلى بحث موضوع الزواج، أي العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة، من وجهته المثالية، أو النظرية، دون الأخذ بالتقاليد المتبعة في المجتمعات العديدة. ولا شك أن اهتمامي بمثالية العلاقة يعود، في قسمه الأكبر، إلى اهتمامي بسعادة الإنسان، ويُرد إلى اعتقادي بأن العلاقات الجيدة تقوم على مبادئ أو قواعد جيدة وسليمة، وقد تكون مثالية في مستواها الأعلى.

2 ـ الثنائية الظاهرية والوحدة الباطنية

عندما أتأمل واقع الطبيعة والإنسان، ألاحظ الثنائية الظاهرية والوحدة الباطنية، فأدرك أن استمرارية الوجود على مستوى كوكب الأرض، لا تتحقق إلاّ من خلال هذه الثنائية. والحق، أن اعتمادي على هذه المقولة يجعلني أطرح العلاقة الصميمة القائمة بين الرجل والمرأة. ولما كان الرجل إنساناً والمرأة إنساناً، فإن العلاقة القائمة بينهما تتأصل في العلاقة الضمنية بين الإنسان في قطبيه: الرجل والمرأة. لذا، كانت الثنائية هي القانون المهيمن على المستوى الأرضي. ولما كنت من أنصار مبدأ التكامل الباطني والتناقض الظاهري في العلاقة بين الأشياء في الطبيعة، وبين الكائنات، فإنني أتحدث عن هذه العلاقة في مَعْلميها أو مظهريها. وهكذا، أستنتج أن العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة علاقة تحدث في الإنسان ذاته بين قطبيه [17].

أحب أن أتعمق في فهم هذه العلاقة، محاولاً أن أقيم براهين على الاستنتاجات الفكرية التالية:

كان الإنسان الأول، وهو النموذج البدئي للبشرية، وحيد الجنس، قابلاً للتحوّل إلى وحدتين متكاملتين، أدعوهما الثنائية. لذا، كان الإنسان الأول، المدعو آدم، رجلاً وامرأة في آن واحد، وأقصد أنه كان، في جوهره، كائناً لا يعرف الانقسام. والحق، أن آدم لم يكن، كما تدعي بعض الفلسفات اللاهوتية، رجلاً، بل كائناً يُعرف بواحدية إنسانيته وكيانه. ووفق هذا المنظور، يمكنني أن أقول: إن الإنسان واحد وليس هو اثنين،

---

[17] راجع فصل» الرجل والمرأة« وفصل» فلسفة الجنس« في كتابي» تأملات في الحياة النفسية«.

كما يمكنني أن أصف كلاً من الرجل والمرأة بالآدمية. أما الأسطورة التي تحدثت عن الرجل السابق والمرأة اللاحقة، فإنها انطلقت من فهم مبدأ الثنائية على نحو خاطئ، ومن عقيدة تفضيل الذكورة عن الأنوثة.

تراودني هذه الفكرة وأنا أتأمل عبارة تفوّه بها أحد الحكماء إذ قال: تشير العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة إلى وحدة أصلية في البدء، إذ يصبحان جسداً واحداً في زواجهما. والحق، أن تأملي لهذه العبارة، دفعني إلى البحث عن الدلائل التي يحتمل أن تفسر مضمونها. ولقد قادني تأملي إلى النتائج التالية:

أولاً، عندما يتزوج الرجل والمرأة تتشكل وحدة حياتية ملقّحة في رحم الأنثى، لا تكون، في جوهرها، وقبل تلقيحها، ذكراً أو أنثى. لكنها ستتحول في تكوينها إلى ذكر أو أنثى في وقت لاحق من نموها وتطورها. والحق، أن تلك الوحدة الحياتية التي لا تتسم بالذكورة أو بالأنوثة، هي عودة بالإنسان إلى ما كان عليه في البدء، وأقصد الواحدية الإنسانية.

ثانياً، يعد الاختلاف القائم بين الرجل والمرأة اختلافاً في الوظيفة، وليس في الجوهر. وهذا يعني أن «الروح» في أساسها ليست ذكراً وليست أنثى. لذا، لا أستطيع أن أقول: إن روح المرأة أنثى وإن روح الرجل ذكر، بل يمكنني أن أقول إن جسد المرأة أنثى وإن جسد الرجل ذكر، وذلك بحسب الوظيفة التي يقوم بها كل منهما. ولما كانت الوحدة الحياتية واحدة، ومنها ينشأ الجسد ويتكون، فإن الروح اللاأنثوية واللاذكرية التي تفعل فيها، تجعل من الجسد مركبة لها لتعبِّر عن ذاتها. فإذا كان الدور الذي ستقوم به على كوكب الأرض هو دور المرأة، جعلت من تلك المركبة جسداً أنثوياً، وإذا كان الدور الذي ستقوم به هو دور الرجل، جعلت من تلك المركبة جسداً ذكرياً. وهكذا، أستطيع أن أعبر عن فكري قائلاً: يتساوى الرجل والمرأة في جوهرهما الإنساني والروحي، ولا يختلفان أو لا يتنوعان، إلا في وظيفتهما الجسدية. وعلى هذا الأساس، تقوم المساواة الجوهرية بينهما.

ثالثاً، تشير التجارب والبحوث العلمية إلى أن كل ما هو موجود في المرأة موجود أيضاً في الرجل، وكل ما هو موجود في الرجل موجود أيضاً في المرأة، وذلك باختلاف النسبة. وعلى هذا الأساس، يكون الرجل في المرأة كما تكون المرأة في الرجل. ومتى أحب الرجل المرأة أحب ذاته فيها، ومتى أحبت المرأة الرجل أحبت ذاتها فيه، وذلك بحسب

مبدأ الأنيما والأنيموس، ومبدأ الـ«ين» والـ«يانغ»، ووفق ما تعلن الحكمة «يحب الرجل زوجته كما يحب نفسه».

رابعاً، يعد التفاعل القائم في الحقيقة الواحدة، أو الإنسان الواحد في قطبيه، واقعاً أتى به العلم أو الحكمة، وأطلقا عليه مصطلح الإيجاب والسلب. والحق، أن الفلسفات المتصلة بهذا الموضوع تتغاير في تقديم الإيجاب على السلب أو السلب على الإيجاب. ولكن الحقيقة تشير إلى أن السلب والإيجاب معْلمان ظاهريان لحقيقة واحدة لا تتناقض في باطنها. هذا، لأن الكينونة لا تتابع مسيرتها على مستوى كوكب الأرض إلا من خلال السلب والإيجاب، أو الثنائية الظاهرية، ثنائية الـ«يانغ» والـ«ين». أما جوهرية الإيجاب والسلب وواحدية جوهرهما فيمكنني الإفصاح عنها أو توضيحها بالتجربة الاختبارية التالية: استطاع أحد العلماء الأفذاذ أن يعزل جزيئاً من جانب الإيجاب وجزيئاً آخر من جانب السلب. ودُهش إذ رأى الجزيء الموجب ينقسم إلى موجب وسالب، والجزيء السالب ينقسم إلى سالب وموجب. وعندئذ، أدرك أن التسمية المطلقة عليهما مجرد اتفاق واصطلاح. وإذا كان الأمر كذلك، فيمكنني القول إن الخلية الواحدة التي تتفرّع إلى رجل أو امرأة عقب التلقيح، تتصرف على هذا النحو بفعل طاقة داخلية واحدة.

خامساً، عندما أتأمل، بعد تفكير مليّ، قضية الخنثى، أدرك الحقيقة البدئية التي أشارت إلى حقيقة الذكر والأنثى. ومن جانبي، لا أستطيع، كما لا يستطيع العلم، أن أقر بوجود المصادفة في هذا التشكل. هذا، لأن قوانين الوراثة لا تقيم صياغاتها ومعادلاتها على المصادفة بل على الاحتمال. ولما كان العقل البشري يستنبط القوانين الأقل صعوبة، فإنه لم يستطع أن يكتشف حقيقة الخنثى إلا بعد البحث والتقصي العميقين والدقيقين. ولقد أدرك العلم أن لا شيء يأتي من لا شيء، فلا بد أن يكون لكل ظاهرة «سر» عميق، أو أصل ينبثق منه. لذا، أستطيع أن أرى في ظاهرة الخنثى ذلك القوام الأولي لتكوّن الكائن البشري... المظهر الذي يدل على وحدة الرجل والمرأة، وانبثاقهما من أصل بدئي واحد دون التأكيد على أولوية أحدهما على الآخر.

3 ـ العلاقة الصميمة

تعد النقاط الخمس المذكورة رموزاً لحقيقة مستترة في جوهر الإنسان، تسعى للتعبير عن ذاتها في ثنائية الرجل والمرأة. والحق، أن العلاقة القائمة في «صميم» هذه الثنائية هي العلاقة التي نعمل على دراستها وفهمها. لذا، يمكنني القول بأن الزواج علاقة «صميمة» في باطن أو جوهر الإنسان. ولكن قولي هذا لا يستوفي حقه ما لم أكن قادراً على فهم هذه العلاقة الصميمة. وهكذا، يتبادر إلى ذهني سؤال يطرح ذاته كما يلي: كيف تكون العلاقة «صميمة»؟ ما المبادئ أو القواعد التي أجعلها أساساً لها؟ كيف أجعل منها فعلاً يحقق إنسانيتي، وأعاين فيه قيمة إنسانية وكونية؟

إن سؤالاً كهذا، أو أسئلة من هذا النوع، يقتضي أو تقتضي الاعتراف بأن كل فعل لا يعتبر إنسانياً، وكل علاقة إنسانية لا تعتبر «صميمة» ما لم يقوما على ثلاثة مستويات في الحد الأعلى، أو على مستويين في الحد الأدنى. وكل علاقة تقوم على بعد واحد أو مستوى واحد تتعرض لأن تكون ناقصة، غير كاملة، كما تؤدي إلى الانحراف الذي نسميه الشهوة أو الزنى. ولا شك، أن ذكر هذه المستويات الثلاثة يقودنا إلى دراسة الدوافع التي تتمثل في مستوياتها الثلاثة. فالدوافع، كما تعلم، ثلاثة أنواع: بيولوجية، نفسية اجتماعية، وعقلية مثالية.

يجدر بي أن أقول: إن العقل يتوافق مع الدوافع، ولكنه يتعارض مع الرغبات والشهوات المتجسدة بالانفعالات. وليست الرغبات، والشهوات غير انحرافات للدوافع المتنوعة في مستوياتها. فكما أن هنالك دوافع بيولوجية، كذلك توجد دوافع نفسية، اجتماعية ومثالية. وإذا كانت الدوافع المثالية عقلية، كانت الدوافع الأخرى شعورية وحسية تتفاعل مع العقل. وعلى الرغم من انسجام وتوافق الدوافع مع العقل، لكن العقل يسعى دائماً إلى السمو بها في سلم الكيان [18].

أسمح لنفسي أن أقدم مثالاً يوضح ما أنا هادف إلى تبيانه: لنفترض أن ثمة إنساناً جائعاً يسعى إلى تحقيق أو إشباع دافعه البيولوجي المتمثل بالطعام، وأن ثمة إنساناً آخر دعاه إلى إشباع هذا الدافع. لنضف إلى قولنا هذا بأن الجائع سُرَّ لتحقيق دافعه البيولوجي، ولكنه أحس، أثناء تناول الطعام، بأن مضيفه لم يكرمه، ولم يحسن

---

[18] راجع فصل» الشخصية المتكاملة« وفصل» المعرفة سبيل إلى التكامل النفسي« في كتابي» تأملات في الحياة النفسية«.

ضيافته، ولم يعامله باحترام على المستوى النفسي والاجتماعي... تلك قضية وقعت لهذا الشخص الجائع.

أسمح لنفسي بمتابعة تحليل ما يحتمل أن يحدث نتيجة لتصرف الداعي الذي أسقط الإكرام وحسن الضيافة والاحترام الذي ينضوي تحت مقولة الدافع النفسي والاجتماعي، لأعلم شيئاً عن رد فعل الشخص الجائع. والحق، أن الجائع يسعى أولاً إلى إشباع دافعه البيولوجي فيقبل على الطعام، ومن ثم يلاحظ التصرف الذي قابله به صاحب الدعوة الذي أغفل الجانب النفسي والاجتماعي، أي الدافع النفسي. ويمكنني أن أعلق على رد فعل الجائع بطريقتين: أولاً، إذا كان الجائع يُلقي الأهمية الكبرى على إشباع دافعه البيولوجي، فما عليه إلا أن يتجاهل الدافع النفسي والاجتماعي، فيُغفل إنسانيته. ثانياً، إذا كان الجائع يرى أن إشباع الدافع البيولوجي وحده غير كافٍ، بل يجب أن يعضده الدافع النفسي الاجتماعي، فلا بد وأن يرفض تناول الطعام لأن الجانب الإنساني المتمثل في دعم الدافع البيولوجي بالدافع النفسي قد أهمل، الأمر الذي يعتبره إهانة وإذلالاً. والحق، أن الاستنتاج الذي أسعى إلى إثباته وتأكيده يتجسد في الحقيقة التالية: كل دافع بيولوجي لا بد وأن يُدعم بدافع نفسي اجتماعي، وإلا فإنه يبقى ناقصاً. وهكذا، يمكنني أن أقول: إن ما ينطبق على تحقيق دافع الجوع ينطبق أيضاً على تحقيق الدوافع الأخرى. ولما كان الدافع البيولوجي وحده لا يحقق الغاية من وجوده إلا بتحقيق دافع نفسي أو اجتماعي أو مثالي آخر، فإن الإنسان الذي تتكامل شخصيته، ويتوازن في كيانه، يدرك أن تحقيق الدوافع على المستوى البيولوجي وحده لا يتم إلا بتحقيق مماثل للدوافع على المستوى النفسي الاجتماعي والمثالي. أما الإنسان الذي يتصف بالفردية، فإنه يسعى إلى إشباع الدافع على المستوى البيولوجي وحده، الأمر الذي يجعل منه شخصاً منحرفاً.

يتراءى لي أن الدافع لا يشتمل على القيمة الإنسانية ما لم يقترن المستوى البيولوجي مع المستوى النفسي الاجتماعي والمثالي. وفي سبيل تحقيق إنسانية مُثلى، يقتضي القيام بأي عمل، وأي تصرف أو سلوك، دعم الجانب النفسي للجانب البيولوجي.

أستطيع الآن أن أتحدث عن صميمية العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة، التي ندعوها الزواج. والحق، أن تحقيق هذه العلاقة في صميمها، أي في جوهرها، يستدعي اقتران الدافع البيولوجي مع الدافع النفسي الاجتماعي، مع الدافع المثالي. وهذا

يعني أن العلاقة الزوجية تكتمل عبر مستويات ثلاثة متداخلة، متصلة، ومتحدة في جوهر واحد، أو أنها تكتمل وفق مستويين يشكل الدافع البيولوجي أحد قطبيهما أو طرفيهما. لذا، يكون الزواج علاقة صميمة تتضمن في ذاتها المستويات الثلاثة في فعل واحد، أو تتضّمن المستويين البيولوجي والنفسي في هذا الفعل المتحد في جوهره.

4 ـ مستويات العلاقة الصميمة

يقتضي البحث دراسة هذه العلاقة الصميمة في كل مستوى على حدة:

أولاً، المستوى البيولوجي: يتمثل هذا المستوى في الدافع الجنسي الذي هو دافع بيولوجي. ولما كان الإنسان الأول قد انقسم إلى ثنائية، هي قطبا الوجود الإنساني المتجسد بالرجل والمرأة، فإنني أستطيع أن أقول إنَّ الدافع الجنسي هو توق، أو حنين المادة إلى المادة، والجسد إلى الجسد من أجل استعادة الوحدة البدئية المفقودة. وعلى هذا الأساس، يعد الجنس نفسياً بالدرجة الأولى لأنه توق وحنين، وجسدياً بالدرجة الثانية لأنه توحيد لقطبي الكائن في لقاء متكامل. لذا، يشكل كل من المرأة والرجل نصف الوجود المفقود منذ البدء. ومنذئذ، لم يستطع الرجل أو المرأة أن يعيدا، بعد هذا الانفصال، الوحدة التي فقداها وافتقدناها إلا بصعوبة.

أريدك أن تعلم أن العملية الجنسية، أو الدافع الجنسي، حقيقة جوهرية كامنة في صميم الإنسان، وأن تحقيرها أو اعتبارها علاقة مشينة أو معيبة أمر يشير إلى تحقير الإنسان ذاته وذلك لأنه نتاجها. وأريدك أن تعلم أن تحقيقها أو القيام بها، على المستوى البيولوجي وحده، هو الخطيئة الكبرى التي يقترفها الإنسان ضد نفسه الممتدة إلى غيره.

ثانياً، المستوى النفسي الاجتماعي: يرتبط الدافع الاجتماعي والدافع النفسي ارتباطاً وثيقاً يستدعي تحقيق الشخصية الإنسانية في الوسط الاجتماعي الإنساني. ولما كان الإنسان يسعى إلى تحقيق إنسانيته، فإنه يدرك أن المجتمع هو الحقل الأمثل لمثل هذا التحقيق. وعلى هذا الأساس، تكون إنسانية الإنسان هي اجتماعيته ذاتها، ويكون بعده الإنساني هو بعده الاجتماعي ذاته. ثمة دوافع نفسية يسعى الإنسان إلى تجسيدها في واقع اجتماعي، وثمة مشاعر يريد أن يحققها على الصعيد الخاص وعلى الصعيد الاجتماعي أيضاً. وتتمثل هذه الدوافع أو المشاعر في السعي إلى تحقيق الألفة، والأنس،

والصداقة، والمحبة، والتعاطف، والمشاركة والإحساس بالوجود من خلال الآخر. فهو يجد في أليفه أو أليفته، وصديقه أو صديقته، وفي حبيبه أو حبيبته التعبير الأفضل عن الشعور بإنسانيته. وفي الوقت ذاته، يسعى المرء إلى مدٍّ أو بسط شخصيته إلى الآخر وذلك في سبيل تحقيق كيان اجتماعي. ولما كان الزواج، أو العلاقة القائمة بين المرأة والرجل، يمثل الأساس الذي تتوطد فيه الدوافع النفسية الاجتماعية فإنه السبيل الوحيد إلى تحقيقها.

يجدر بي، وقد تحدثت عن الدوافع النفسية الاجتماعية، أن أقيم موازنة بين هذه الدوافع ومثيلاتها من الدوافع البيولوجية. وإذ تتساءل عن الأولوية التي تحتلها هذه الدوافع، تدرك أن الظاهر يشير إلى تقدم الدوافع البيولوجية على الدوافع النفسية. أما الباطن فإنه يؤكد أسبقية الدوافع النفسية. والحق، أن التأكد من أفضلية إحداها على الأخرى يتضح بمرور الزمن وعلى المدى الطويل، أو في اللحظة التي يقع فيها خلاف، أو تناقض، أو تضارب في الآراء، أو عدم توافق في الميول النفسية، أو عدم انسجام في المشاعر. وعندئذ، يدرك الإنسان أهمية الدوافع النفسية الاجتماعية، ويعلم أن الدوافع البيولوجية تطفو على السطح. أما الدوافع النفسية فإنها تتأصل في أعماق الكيان. ويستطيع أن يطلق على الدافع الجنسي الاصطلاح الذي يتبناه بول شوشار وعلماء نفس الأعماق وعلم النفس التكاملي وهو «الجنس النفسي».

وعندما نتعمق في دراسة الحياة النفسية نجد أن جميع المظاهر الخارجية، من دوافع وغيرها، تجد أصولها فيها. وإذا حاولنا أن ننشئ، على سبيل المثال، مقارنة بين الدافع الجنسي ودافع الجوع، نجد أن غالبية الناس يعتقدون، عن جهل أو تجاهل، أن الدافع الجنسي هو الأقوى بين الدوافع البيولوجية. وعندما نتعمق في تقصي الحقيقة عبر الاختبار التجريبي، نجد أن هذا الاعتقاد سائد بين الناس لأن العضو المرتبط بالدافع الجنسي ظاهر، بينما تستتر الأعضاء المرتبطة بالدوافع الأخرى. هذا، إذا علمنا أن دوافع كثيرة لا ترتبط بأعضاء مميزة لأنها عامة تشمل الكيان الإنساني بكامله. إذن، ففي العمق تستتر الدوافع الإنسانية، المثالية منها والنفسية، وعلى السطح تسرح الدوافع البيولوجية في حقل الظاهر. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أشير إلى حقيقة هي: أن كل علاقة بيولوجية تقوم على مستوى بيولوجي تبلغ نهايتها، أو تنحدر وتتقهقر، أو تسوء، أو تلقى مأساتها، ما لم تستند إلى ركائزها ومقوماتها الأساسية في العلاقة القائمة في المستوى النفسي.

ثالثاً المستوى المثالي: حدثتك في رسالتي السابقة عن المثالية، وأشرت إلى أنها الواقع كما يجب أن يكون، أو هي الواقع الذي ينشد مثاله الكامن في جوهره. وأحب أن أضيف فأقول: إن كل فعل يسعى إلى بلوغ مثاله وغايته. ففي المثال تكمن أهمية الفعل، وتتألق شعلة الروح، ويستنير العقل، وتغتبط المشاعر وتتحقق الحياة. فإذا كان الزواج فعلاً، فلا بد أن يهدف إلى تحقيق مثال قائم في صميمه... ثمة سر، هو عمق الوجود الإنساني، يتطلب منا الغوص إلى جوهر الحقيقة، والاستغراق في سموّها وروحانيتها.

تتمثل العلاقة الزواجية في حقيقتين:

أولاً: اعتبار الإنسان نتاج هذه العلاقة، والإقرار بأن سموها يُرد إلى سمو الإنسان. فإن كنا نعتبر الإنسان كائناً عظيماً، نبيلاً وسامياً، فإننا ملزمون على اعتبار الطريقة التي يأتي بها إلى هذا الوجود نبيلة، عظيمة وسامية. والحق، أن «قدسية» العلاقة تكمن في هذه المقولة الإنسانية الروحية، أو المادية الروحية. هذا، لأن الجنس طاقة مادية روحية [19]. والحق، أننا لا نجد رجلاً أو امرأة متزوجين يلقيان بالكائن الإنساني الذي ينجبانه إلى الموت، وذلك لأنهما يعتبرانه ثمرة محبة تدعو إلى الابتهاج والسعادة، والتهليل لحضوره في عالم المادة.

ثانياً: اعتبار الزواج، أو العلاقة الصميمة القائمة بين الرجل والمرأة، الوسيلة الوحيدة التي، من خلالها، تتجسد الروح في المادة. لذا، يمكننا أن نستنتج المقولة الهامة التالية: إذا كانت الروح نقية لأنها صدرت من مصدر نقي، فلا بد وأن يكون الجنس، وهو الوسيلة الوحيدة لتجسد الروح، نقياً... تلك هي قدسية الزواج. وفي هذا المقياس، يمكنني أن أسمي العلاقة القائمة على هذا المستوى «الجنس الروحي».

تشير العلاقة الصميمة التي تقوم بين المرأة والرجل إلى فعل يحقق جوهره على مستويات ثلاثة متداخلة ومتكاملة. لذا، كان الفعل الجنسي، المتصل بدافع الأمومة، فعلاً مادياً نفسياً روحياً. إنه يجمع في ذاته حقيقة كونية روحية، وحقيقة أرضية مادية في مستويات ثلاثة لا تقبل الانفصال والانقسام. والحق، أن الفصل بينهما مشكلة تؤدي إلى ضياع الإنسان. هذا، لأن الإنسان يسعى إلى معرفة ذاته... ثمة إطار واحد يجمع، في دافع واحد، المادة والنفس والروح.

---

[19] راجع فصل» فلسفة الجنس« في كتابي» تأملات في الحياة النفسية«.

تُعد رسائلي إليك نهجاً جديداً في التعبير عن حقائق الحياة، مبادئها، وقواعدها، يتماثل بل يتوافق، مع المبادئ التي طرحتها في مؤلفاتي كلها. وكما أعتقد أن هنالك»خيطاً» واحداً يجمع، أو يوحِّد، حبات عقد كتاباتي، أو خطاً واحداً تتصل فيه نقاط الوجود التي هي الأفكار، والمشاعر والأعمال. لذا، تراني أهدف إلى التعبير عن الجوهر الإنساني في صور متنوعة تحتوي جوهراً واحداً يتألق في وسطها. ومن جانبي، أراك قادراً على تمثل هذا الجوهر وأنت تتأمل السر أو العمق القائم في اللوحات التي رسمتها، وهي تحمل صورة واحدة بأنواع وتعددات ألوانها المتكاملة والمنسجمة ضمن إطار الوحدة الإنسانية والكونية. وهكذا، سعيت، وما زلت أسعى، إلى رفع الواقع إلى المثال، ورفع المادة إلى الروح، وأعني روحنة المادة، وذلك لكي يتميز وجودي بالمعنى.

الرسالة التاسعة

المساواة الجوهرية بين الرجل والمرأة

صديقي...

حدسْتُ، وأنا أعيد قراءة رسالتك التي حملت ردك على ما ذكرت في الرسالة السابقة التي أعددتها لتكون مدخلاً إلى العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة، والتي ندعوها الزواج، أنك تسعى أن تجعل من هذه العلاقة الحقيقية مبدأ لك يوم تقرر أن تختار المرأة التي ستؤسس معك قاعدة المحبة والحب لتعودا بالثنائية الذكرية والأنثوية إلى الوحدة البدئية التي انفصلتما عنها ولتشكّلا القانون السائد على كوكب الأرض... القانون الذي يهيئ الإنسان لعملية بقائه واستمراره. وعلاوة على ذلك، أدركت أن رسالتك تنطوي على حيرة وتساؤل حول ما قصدته في عبارتي التي حدثتك فيها عن المساواة الجوهرية بين المرأة والرجل، والاختلاف الظاهر لوظيفتهما الحيوية والنفسية.

يتبادر إلى ذهني، وأنا أعالج قضية، هي المحور الأساسي الذي ترتكز عليه الحقيقة الإنسانية، أن أشير إلى أن كل قضية تُطرح على مستوى الطبيعة المادية والطبيعة الإنسانية تقضي ببحثها، ودراستها والتعمق في مضمونها في بعديها أو في قطبيها المتمثلين بالسلب والإيجاب على مستوى الطبيعة المادية، وبالرجل والمرأة على مستوى الطبيعة الإنسانية. ولـمّا كان الرجل إنساناً وكانت المرأة إنساناً، فإن هذه القضية الماثلة في القطبية الإنسانية لا تخرج عن نطاق البحث، بل تكمن في صميمه، إذ نتقصى حقيقة الموضوع في جوهره الأصلي المتمثل في وحدة الكيان البشري وفي ثنائيته المتساوية في جوهرها، والمرموز إليها بالقطبية البشرية: الرجل والمرأة.

عندما أتأمل القضية الوجودية التي نحياها، والتي تتطلب البحث من موقف تكامل الرجل والمرأة في حقيقتهما وفي كيانهما، أجد نفسي ملتزماً بالتعمق في بحث هذا الموضوع على مستويين رئيسيين هما: مستوى نظري ومثالي، وآخر موضوعي وواقعي. وينقسم كل منهما إلى عناصره أو أبعاده. فعلى المستوى النظري أو المثالي، أعلم أن الرجل والمرأة كيان واحد، يتكاملان، على مستوى كوكب الأرض، ضمن ثنائية أو ضمن قطبين متقابلين، غير متناقضين. وهكذا، أقول: يتكامل الرجل الواعي والمرأة الواعية، ويتساوى الرجل الواعي مع المرأة الواعية. وفي تكامل هذين القطبين المتقابلين أو تساويهما الجوهري، يحقق كل منهما القطب الذي يمثله، وذلك لكي تعود الثنائية الظاهرية ثنائية الرجل والمرأة إلى الوحدة البدئية، الأصلية والجوهرية التي انفصلا عنها وتحدّرا منها وهما يسعيان إلى المثابرة على استمرارية الطاقة في بقائها كقوة فاعلة لبقاء الجنس البشري وتجسّد الروح في عالم المادة. وهكذا، نعلم أن الحياة على مستوى كوكب الأرض لا تتحقق إلا من خلال الثنائية. وعلى المستوى الموضوعي أو الواقعي ، أجد نفسي ملتزماً ببحث الموضوع من وجهة نظر تطبيقية أو خاصة لا تعبأ ببحث الموضوع في جوهره. وفي هذا الجانب، أعلم أن الناس ينقسمون إلى فئتين: فئة قليلة واعية تؤمن بالمستوى النظري وتسعى إلى تطبيق وتحقيق الوحدة الإنسانية من خلال قطبيها، بحيث تتساوى، أو تتعادل، أو تتكامل ثنائية الرجل والمرأة عبر الوظيفة الجسدية والنفسية لكل منهما. وفئة كثيرة أقل وعياً، تعتقد أن التطبيق يتم وفق معطيات الواقع وعبر أبعاده كلها: الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والبيولوجية، أي من خلال المقوّمات الاجتماعية، أو التجمعية، التي تختلف، أو تتعارض أو تتنوّع من فئة إلى فئة، من وطن إلى وطن، من دين إلى دين، ومن فرد إلى فرد. وترى هذه الفئة أن الفوارق القائمة تؤدي إلى طرح الموضوع على مستواه الواقعي.

أولاً مفهوم التربية

لـمَّا كانت التربية تشكل العنصر الأهم في نطاق إعلاء شأن الجنس البشري وتطوير قدراته الكامنة وتنميتها، فإن البحث يقضي بطرح مفهوم التربية في الأسرة والمدرسة والمجتمع. وإذ أتأمل موضوع التربية في هذه المستويات الثلاثة، أكتشف وجود بعد أو مستوى رابع هو النطاق العالمي أو المجتمع العالمي ككل. وعندما أبلغ هذا الحد من التفكير، أراني أتساءل في سري إن كانت التربية تتصل في مستوياتها الأربعة أو

تتداخل، فتتكامل، أم أنها تنفصل، فتتعارض، وتتناقض نتيجة لهذا الانقسام أو التجزئة. ففي عصرنا الحاضر، لم تعد الأسرة تشكل المرجع الوحيد لتلقين الأبناء المبادئ التي تخص الأسرة ذاتها بها، أو تتميز بها عن غيرها. فقد كانت الأسرة المرجع الأول للتربية في العصور الماضية، أو كانت تقوم بالدور الرئيسي في عملية التربية. وفي زمن لاحق، أصبحت المدرسة عنصراً جديداً في مجال التربية، فقد بدأ الأبناء يستمعون لآراء جديدة أو مختلفة، ويتعرفون على مبادئ وعقائد ونظريات، يُحتمل ألا يكونوا قد سمعوا بها من آبائهم أو أمهاتهم أو أقاربهم أو من ذوي الشأن، من المرشدين أو الموجهين. ومع ذلك، ظل الوفاق قائماً، إلى حد معين، بين الأسرة والمدرسة. وبدخول المجتمع ،كعنصر أو مستوى ثالث إلى نطاق التربية، بدأت المفاهيم والقيم تتعرض شيئاً فشيئاً لتبدل قد يكون مختلفاً أو متوافقاً مع معطيات المستويين الأوليين. والحق، أن المجتمع قد أخذ يهيمن، عن طريق تدخل الدولة، على غالبية القيم والمفاهيم. ونتيجة لاتساع العلاقات بين الدول، وتطوّر وسائل الإعلام، وانتشار التقنيات والمعلومات، وسرعة النقل والانتقال، بدأت مستويات التربية الثلاثة تتأثر بالمستوى الرابع الجديد. وهكذا، حدث تبدل يكاد يكون جذرياً. فقد بدأ الإنسان، الرجل والمرأة، يعدِّل في وجهات نظره ومواقفه نتيجة لإطلاعه أو إطلاعها على وجهات نظر ومواقف فكرية جديدة، ويحاول أو تحاول التوفيق بين ما هو خاص لديه أو لديها وما هو عام لدى المجتمع والعالم.

أعتقد أن هذه المستويات الأربعة تتداخل وتتفاعل لتوطيد العلاقة بينها، وذلك لتكون التربية عملية متكاملة. ومن جانبي، لا أسعى إلى إحلال مستوى تربوي محل مستوى تربوي آخر، أو تفضيل مستوى على مستوى آخر بقدر ما أسعى إلى التصريح بوجوب تحقيق الوعي في عالم تتداخل فيه مستويات التربية الأربعة. ففي هذا التداخل يصعب علينا أن نعتبر التربية نتاج مستوى واحد لا غير، ذلك لأن الإنسان يستقي معلوماته ومعارفه من تيارات وثقافات متنوعة، ويؤلف بينها أو يسعى إلى إحداث انسجام بينها. ومع ذلك، أعود إلى القضية الأساسية المطروحة: هل تسهم التربية في تكامل الرجل والمرأة في وجودهما، أو في علاقتهما بحيث أن أحدهما لا يميز نفسه عن غيره في نطاق الوظيفة أو الوجود؟

تتركز الإجابة عن هذا السؤال في النظرة التي يتبناها الإنسان عن التربية بغض النظر عن كونها مفهوماً يُلقن في الأسرة أو في المدرسة أو في المجتمع أو في العالم. ولما

كنت قد ذكرت الوعي، فإنني أؤكد على فاعليته لدى الإجابة. لذا، أقول إن الوعي هو المستوى الوحيد الفاعل الذي تتحقق فيه الإجابة. فإذا كان المرء قد بلغ مستوى عالياً وسامياً من الوعي كانت الإجابة: الرجل والمرأة يتكاملان في وجودهما ويتآلفان في تنوّع وظيفتهما. وإذا كان المرء قد حدد نفسه بمستوى وعي متدن كانت الإجابة: الرجل والمرأة يتناقضان في وجودهما، ويتمايز أحدهما عن الآخر في وظيفته الطبيعية.

أستطيع أن أقول: إن التربية الإنسانية لا تبقى أسيرة نطاقها الأسري أو المدرسي أو المجتمعي أو العالمي. وعلى الرغم من أنها تتراءى لنا في مستوياتها الأربعة، لكن الوعي الإنساني المتسامي يُقرُّ بوجودها دون أن يخضع لها كل الخضوع أو يحدَّ ذاته بها. وعلى هذا الأساس، يتمثل واجب المربين، آباء وأمهات كانوا أم مرشدين وموجهين، في تنشئة الجنس البشري على الوعي الذي يرفع أي مستوى إلى ما يجب أن يكون، ولا يبقيه مشروطاً أو مقيداً بهذا المستوى أو بذاك. فقد تكون جميع المستويات مشروطة أو مقيدة بمفاهيم معينة وخاصة. وبقولي هذا، أعني أن الأسرة قد تكون منفتحة أو مغلقة، محافظة أو ليبرالية. وأن ما يُطبق في نطاق الأسرة يُحتمل أن ينسحب على جميع الأطراف الأخرى، اجتماعية كانت أم مدرسية أم عالمية.

وإذا ما أخذنا بهذا الرأي أو الموقف الفكري والتحليل النقدي، علمنا أن التربية، بمعناها المجرّد، تنقسم إلى قسمين:

آ ـ تربية حقيقية، إنسانية في جوهرها ومنفتحة، تسعى إلى التعديل الدائم.

ب ـ تربية انفعالية أو مغلقة، مشروطة أو محدودة بتقليد أو بنموذج محدد يصعب أن يقبل التعديل، ويحتمل أن يرفضه بسبب خصوصيته الصلبة.

تشير التربية الإنسانية إلى الانفتاح الذي يشير بدوره إلى الفهم والوعي. وتشير التربية الانفعالية إلى الانغلاق الذي يشير بدوره إلى ضيق الأفق الفكري، والتعصب بأنواعه، والنظر إلى العالم والكون بمنظار خاص يرفض الاعتراف بوجود حقيقة شاملة أو بوجود تنوّع من الحقائق والمفاهيم والقيم.

في هذا التعريف للتربية، الانفعالية المغلقة أو الحقيقية المنفتحة، تكمن الإجابة الصريحة عن سؤال طرحه الأقدمون، وما زال المحدثون يتابعون البحث في مضمونه: قضية المرأة والرجل، قضية الثنائية الإنسانية. ومن جانبي، أميل إلى الاعتقاد بأن النزعة الانفعالية التي تأبى السعي إلى معرفة الجوهر الإنساني، وتخضع للتقاليد

والشرائع والمناهج والمواقف الفكرية المتنافرة والمتنازعة، وللتحديدات الضيقة هي الموقف التربوي الأدنى الظاهري على سطح الوعي الذي يُحدث التناقض في قطبي الإنسان الرجل والمرأة ويفضل أحدهما عن الآخر، ويسمح لأحدهما بالسيطرة على الآخر، و يُنشئ انقساماً وانفصاماً في الوحدة الإنسانية المتكاملة في قطبيها المتقابلين الذكر والأنثى. وبالفعل، تنحو هذه التربية التي لا تستحق أن نطلق عليها مصطلح تربية إلى إضفاء صفة السيطرة على الرجل وصفة الخضوع على المرأة. وعلى غير ذلك، نجد أن التربية الإنسانية الحقيقية تتعمق في معرفة الجوهر الإنساني، وتتسامى على التقاليد والأعراف الموضوعة، وتتجاوز التحديدات الضيقة، وتترفع عن إحداث شرخ أو انقسام أو تجزئة أو صراع في الكيان الإنساني، وتأبى تفضيل قطب على آخر، وتعلّم مبدأ تكامل القطبين. وترى هذه التربية في الرجل والمرأة قطبين لحقيقة واحدة وكيان واحد، يعمل كل قطب، من خلال وظيفته الجسدية والنفسية أو عمله الطبيعي أو الاجتماعي أو الكوني، ليكمل القطب الآخر، ويلتقي معه عند المركز الموّحد لكليهما وهو الأنسنة. وعلى هذا الأساس، تعلن هذه التربية مبدأ تكامل الرجل والمرأة وتساويهما الجوهري في الأنسنة.

ثانياً الوحدة القائمة في صميم كيان الرجل والمرأة

أبدأ بحث هذا الموضوع بطرح السؤال التالي: من هو الرجل ومن هي المرأة؟ هل هما كيانان منفصلان ومتغايران، أم هما إنسانان اثنان منفصلان، أم هما كيان واحد هو الإنسان وقطبان متقابلان قائمان في هذا الكيان الواحد؟ هل سبق وجود الرجل وجود المرأة؟ هل المرأة نصف الرجل أو ربعه أم ثلاثة أرباعه ، أم هي الكيان الواحد المحقق في ثنائية الوجود الأرضي؟

عندما نتعمق في فهم المبادئ الروحية، والكونية والعلمية، نجد أن كلّ ما هو موجود في الرجل موجود في المرأة أيضاً باختلاف النسبة، وكل ما هو موجود في المرأة موجود في الرجل أيضاً باختلاف النسبة. فإذا كان قولنا هذا حقيقة مجردة من تحديدات أفق تفكير أبناء التربية الانفعالية المغلقة، علمنا أن الكيان الإنساني جوهر واحد، يتكامل في ثنائية وقطبية الرجل والمرأة كتكامل وتفاعل القطب الشمالي والقطب الجنوبي. ولما كان كل شيء على مستوى كوكب الأرض لا ينبثق إلى الوجود إلا من خلال ثنائية، فإن التكامل، وليس التناقض أو التضاد، موجود على نحو وجوب، أي كما يجب أن

يكون. وهكذا، يكمِّل كل من الرجل والمرأة الوجود الأرضي في كيان واحد يتحقق عبر ثنائية قطبية. ومن جانبي، أعتقد أن الإنسان الأول أو الإنسان البدئي كان، كما تتحدث بعض الاتجاهات الفكرية، الفلسفية والنفسية، كياناً وحيد الجنس، قابلاً للانقسام إلى ثنائية الرجل والمرأة وذلك وفق ما تفرضه الإرادة الإلهية المرموز إليها بقانون الوجود الأرضي.

تشير الفقرة السابقة إلى أن الرجل لم يسبق المرأة في الوجود الأرضي. والحق، أن كلمة آدم لا تتضمن معنى الرجل بقدر ما تعني الجنس البشري، أي الإنسان الواحد في كل زمان ومكان. ولما كان الجنس البشري، منذ نشأته، ذكراً وأنثى، فيمكننا أن نقول: الرجل آدم والمرأة آدم؛ الرجل إنسان والمرأة إنسان وليست إنسانة. وهكذا، نجد أن صفة الآدمية تضفى على الرجل بمقدار ما تُضفى على المرأة، نقول: رجل آدمي وامرأة آدمية؛ ونعني بقولنا هذا، رجلاً يحقق إنسانيته وامرأة تحقق إنسانيتها؛ وعلى غير ذلك، لا نقول: امرأة حوائية. هذا، لأن صفة الآدمية ليست صفة ذكرية: إنها الإنسان بقطبيه: الرجل والمرأة. والحق أقول: تزداد دهشتي إذ أرى الناس الذين يأخذون بمعطيات التربية الانفعالية يتجادلون حول قضية الأسبقية... وتقل دهشتي إذ أعلم أن العلماء الدارسين والباحثين في شتى مجالات العلم عامة وعلم الحياة خاصة لا يتجادلون أو يختلفون حول موضوع أسبقية ذكر الحيوان على أنثاه. فلِمَ تثار هذه القضية على مستوى الإنسان الذي يُضفي على وجوده صفة العقلانية؟ عندما نحاول أن ندرك السبب الذي يُسوِّغ أسبقية كائن ذكري على كائن أنثوي يمثل كل منهما كلية الإنسان الرجل هو الإنسان الكامل، كل الإنسان، والمرأة هي الإنسان الكامل، كل الإنسان نجد أن النظريات والتقاليد التي جعلت من مبدأ الذكورة قضية لا تقبل النقاش، هي التي جعلت من الرجل كائناً سبق المرأة. وإذا ما حاولنا أن نفهم هذه القضية الصعبة قُلنا: تنقسم العقائد البشرية إلى قسمين:

آ ـ عقائد ذكرية أدت إلى سيطرة الرجل على المرأة، وإخضاع المرأة للرجل، وتفضيل الرجل على المرأة في أمور كثيرة، الأمر الذي أدى، بدوره، إلى إشعال نار النزاع بينهما على نحو علني أو مستتر.

ب ـ عقائد أنثوية تعلن مبدأ أنثوية الكون، وتنادي بالمرأة أماً للرجل وللمرأة على السواء، وبالأرض الأنثى أماً لكل ما هو حيّ. فالمرأة هي «آدم الإنسان»، وهي «حواء الإنسان» التي تحتوي في ذاتها على التكوين، وتحتضن الوجود... هي الاتساع أو

الامتداد الذي ينبض فيه كل شيء حي. وعلى هـذا الأساس، ينزع المبدأ الذكري إلى الصلابة والعنف، ويتميز المبدأ الأنثوي بالحنو والعطف. وإذا كان المبدأ الذكري يدعي امتيازه بالعقل الذي يُحكم الربط، كان المبدأ الأنثوي يتصف بالعاطفة التي من خلالها تنعطف الأقطاب المتقابلة إلى بعضها، وتتعاطف في محبة ووئام. وفي رأي يونغ، تكمن عظمة القطبية الإنسانية في تحقيق توازن، هو لقاء التكامل، بين العقل الصلب والعاطفة المرنة. وفي هذا السياق، يجدر بنا أن نفهم كلمة العاطفة وكلمة العقل بمفهوميها الساميين، وليس بمفهوميها العاديين. فالعاطفة ليست انفعالاً... هي التوافق والانسجام والمحبة، هي القوة اللاحمة التي تجذب العقل إلى الفعل أو التحريض. وهكذا، يتوافق قطبا الإنسان في فعل تحتوي الأنثى الذكر، فتحمل...

عندما نبلغ هذا الحد من البحث، نسأل: هل يتساوى الذكر والأنثى، العقل والعاطفة؟ وهل أن الرجل يحب المرأة الموجودة فيه كما تحب المرأة الرجل الموجود فيها، أي ما يدعى الأنيما والأنيموس؟ كيف تكون المساواة؟

ثالثاً مفهوم المساواة

تتحقق المساواة من خلال قطبين يلتقيان في وحدة الكيان، وفي تساوي القطبين ضمن الكيان الواحد. وهكذا، لا يتّسم الكيان بخاصة التفريق بين القطبين.

يمكننا أن نطرح قضية المساواة بين الرجل والمرأة على النحو التالي: هل نستطيع أن نجد أو نحقق المساواة بين امرأة وامرأة، أو بين رجل ورجل؟ مَن مِن النساء تساوي غيرها من النساء؟ منْ من الرجال يساوي غيره من الرجال؟ أي رجل يساوي رجلاً آخر، وأية امرأة تساوي امرأة أخرى؟ مع من تتساوى رابعة العدوية أو مدام كوري مع النساء الأخريات؟ كيف تتساوى المرأة المثقفة، الراقية، الإنسانية في مواقفها وسلوكاتها، والمحبة في جوهرها مع المرأة الجاهلة، الأنانية، الكارهة في فرديّتها؟ مع من يتساوى ابن سينا أو فيثاغورس مع الرجال الآخرين؟ كيف يتساوى الرجل العالم، أو الحكيم، أو المثقف، أو الراقي والمتسامي بإنسانيته مع الرجل الجاهل، أو الأناني، أو المبتذل في سلوكه؟ كيف يتساوى الرجل المتواضع مع الرجل المتكبر الذي يتضاءل أمام المغريات؟ كيف تتساوى المرأة المتواضعة المتسامية بنبلها مع المرأة المتكبرة التي تتلاعب بها المغريات؟ كيف يتساوى الرجل الضحّي أو المرأة الضحية مع الرجل

المتسلط أو المرأة المتسلطة؟ فإن كنا نعجز عن إقامة المساواة المطلقة بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة، فكيف نقيمها بين امرأة ورجل؟ وكيف نحكم على المساواة أو عدم المساواة؟ كيف يتساوى الناس؟ بمَ يتساوون، بأي صفات أو مزايا في هذا التنوع الأقصى من الصفات والمزايا؟ وكيف نستطيع أن نؤسس المساواة بين فلورانس نايتنغال الرائدة الأولى لتأسيس الصليب الأحمر أثناء الحروب وأعمال الدمار، وبين رجل أناني، طامع، متعصب، جاهل، سطحيٍ التفكير وضيّقه؟ وكيف نستطيع أن ننشئ قاعدة للمساواة بين رجل عبقري، فذ، أو مضح، ومحبٍ ومثقف وبين امرأة أنانية ركّزت فرديتها على جهل ثابت لا يقبل التعديل أو التصحيح؟ كيف تتساوى المرأة التي تهتم بقضايا مجتمعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع المرأة التي تجهل هذه القضايا وتسعى إلى زينتها الخارجية ومصلحتها الخاصة؟

إذا كانت المساواة نسبية وليست مطلقة، عجزنا عن إيجاد قاعدة أو أساس يرتكز عليه مفهوم المساواة. هذا، لأن المساواة لا تتحقق بمعادلة، أو بقانون أو بقياس يخضع للمعايير التي يضعها الإنسان الذي يعتمد التربية الانفعالية. وهكذا، ندرك أن تقويم الذكورة على نحو أفضل من الأنوثة، قياس وضعه الذكر الذي لم يتفهم المغزى الكوني المضمون في ذكورته والمغزى الكوني من أنوثة المرأة. ويُحتمل أن يتغير الوضع فتحتل أنوثة المرأة الأفضلية لو كانت المرأة هي المشرعة. وهكذا، نستطيع أن نعلن أن التقليد أو الشريعة أو العرف هو الذي أوصى بعدم التساوي في الجوهر وفي الواقع. وعلى غير ذلك، فقد أوصت الحكمة، المتمثلة بالوعي، بالمساواة في الجوهر والطبيعة والكيان. وفي هذا السياق نقول: تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة عندما يحقق كل قطب كيانه وفق ما تقتضيه وظيفته البيولوجية والنفسية. فإذا حقق الرجل إنسانيته عبر وظيفته الذكرية، البيولوجية، وحققت المرأة إنسانيتها عبر وظيفتها الأنثوية، تساوى الرجل والمرأة في الجوهر، أي في وحدة التحقيق، وتماثل الفعل الإنساني من خلال التكامل. وفي هذه المساواة يحقق الرجل كيانه عبر ذكورته وتحقق المرأة كيانها عبر أنوثتها. وبهذا الصدد، يجدر بنا أن نقول: كيان الذكر وكيان الأنثى واحد، يتكاملان في الإنسان الواحد.

إذ يفهم الرجل سيكولوجيا المرأة وتفهم المرأة سيكولوجيا الرجل، يحقق كل منهما كيانه، فيتساويان في الإنسانية، وتبطل الأنا المتملكة، وتحل محلها الذات

المعطاء، المحبة. وإذ يفهم الرجـل بيولوجيـا المرأة وتفهم المرأة بيولوجيا الرجــل، يحقـق كل منهما كيانه، فيتساويان. وعبثاً تتحقق المساواة إلا في هذا المنظور.

رابعاً العلاقة بين الوظيفة والأهلية الجسدية

إن فهمنا لهذا البحث يسمح لنا أن نقول: لا تشير الذكورة أو الأنوثة إلى تقســيم العمل، كما يزعم بعضهم، بقـدر ما تشير إلى تكامل الوظيفة بثنائيتها الذكرية والأنثويـة. ويمكننا أن نضيف إلى قـولنا هذا ما يلي: لا تعد الأهلية الجســدية سـبباً لتثبيـت الفـروق بين الرجل والمرأة. هذا، لأن هذه الأهلية الجسدية ذاتها هــي موضـوع قـائم بـين الرجـل والرجل، وبين المرأة والمرأة.

نستطيع أن نقول: إن الرجل والمرأة يتقاسمان وجودهما في كل فعل إنساني معاً. وهذا يعني أن تفضيل وظيفة على وظيفة، أو عمل على عمــل، أو مهنـة علـى مهنـة، أو اختصاص على اختصاص، أو قطب علـى قطـب، أو جنـس علـى جنـس، قضيـة ترتبـط بالتقييم الانفعالي، أي بالتربية الانفعالية التي صنّفت الإنســان، عـبر شـرائعها وتقاليدهـا وأعرافها، إلى عبد وسيد، إلى قــوي وضعيـف، إلى صـالح وسـيء، إلى ذكـر وأنثـى... إلى الثنائيات المتصارعة... هي التربية الانفعاليـة المغلقـة الـتي عجـزت عـن التضييـق علـى الفروق أو التنوعات الظاهرية، وعن إيجاد توازن بين التعارضـات أو الأقطـاب المتقابلـة، والمتكاملة في جوهرها.



الرسالة العاشرة

اليـــــأس

صديقي...

شعرت، وأنا أقرأ ردك على رسالتي السابقة، بأنك تعاني من قضية تحاول إخفاءها عني... شعرت بحزن رقيق يلامس شغاف قلبي وأنا أعيد قراءة عبارتك التي تشير إلى شيء من العبث أو اللاجدوى المتصل بتطبيق المثالية التي أحدثك عنها. وأحسست بأنك تتساءل، من طرف خفي، عن القيمة المتضمنة في السمو الإنساني إن كانت الغالبية العظمى من بني البشر تقاوم المثال وتسعى إلى الرغبات والشهوات، وتظل قابعة في ظلمات انفعالاتها... حدست مسحة اليأس التي اعترتك وأنت تستعرض آلام البشرية الناتجة عن سلوكات وأفعال تشير إلى انعدام الوعي. وعلى الرغم من أنك محق في ما تقول، وعادل في تصوير الواقع الأليم، لكنني أحب أن أجذب انتباهك إلى حقيقة يتردد صداها في ثنايا سطور هذه الرسائل، حقيقة جعلتها الغاية الأساسية لهذه الكتابات، هي: أن تبقى نوراً يتألق في سماء الغيوم المتلبدة، يقاوم العواصف بقوة، ويرسل شعاعه إلى الساكنين في الظلمة، وأن تتحلى بنظرة كونية شاملة تُمدك برؤية شاملة لحقيقة وجودك على الأرض، وتتعاطف مع الآخرين وتحزن للحالة التي يعيشونها إذ يتمرغون في مستنقع «الأنا»، دون أن تنفعل. والحق، أن تعاطفك يهيئك بطاقة المقاومة والصمود أمام تيارات الجهل والأنانية التي تحاول إطفاء النور المنبعث من عاطفتك، ومحبتك ومثاليتك. واعلم أن انفعالك يقلص طاقتك الفاعلة إلى حدِّ اليأس، الأمر الذي يجعل منك أحد شخصين: 1 شخص مقهور، مهزوم، وبائس. 2 شخص رافض للقيم الإنسانية والروحية والكونية ومنتمٍ إلى زمرة اللامباليين، الأنانيين الذين يهيئون الفرص لانتعاش التعاسة التي تحتضن البشرية. لذا، أقول لك بأن واجبك

الإنساني ينبهك إلى أن تكون شاهداً للحق لا شاهداً للباطل. وأحب أن تعلم، بيقين وحزم، أن شهادتك للحق ومقاومتك الداخلية القوية ستعرضانك لصعوبات كثيرة. فقد يتخلى عنك أقرب الناس إليك، أولئك الذين أطعمتهم خبز حياتك، وقدمت ذاتك قرباناً من أجلهم. وقد تلقى نفسك وحيداً، في الظروف التي يسيطر الخوف على قلوب الضعفاء. ومع ذلك، أريدك أن تظل قوياً تتجاوز اليأس دون أن تستسلم للصعوبات والمشقات التي تعترضك.

1 ـ العاطفة والانفعال

أتيت على ذكر كلمة الانفعال في رسالة سابقة. وهاءنذا، أوضح لك المعنى المتضمن في هذه الكلمة [20]. يتضمن الانفعال في المفاهيم الثلاثة التالية:

1ً. كل عاطفة تتجاوز حداً معيناً، أو درجة معينة أو عتبة معينة تنحرف إلى انفعال. فإذا كان الحزن عاطفة كان كل من اليأس أو التشاؤم أو الكآبة انفعالاً. وإذا كانت شدة الحساسية الناتجة عن محبة عاطفة، كان الهيجان انفعالاً.

2ً. كل عاطفة ملقحة بالمصلحة الخاصة ومرتبطة بالأنانية انفعال. فإذا أبحت لنفسي ما لا أبيحه لغيري، وسوغت تصرفاتي وأفكاري دون أن أسوغ تصرفات غيري وأفكاره، وسمحت لذاتي ما لا أسمح به لغيري، كنت منفعلاً.

3ً. كل عاطفة مسيطرة على العواطف الأخرى انفعال عاطفة قيس التي طغت على عواطفه الأخرى انفعال. عاطفة المعتقد أو المذهب التي تسود على العواطف الأخرى وتخضعها انفعال؛ الكبرياء أو التعصب الديني أو العرقي انفعال.

ترتبط الفكرة التي أسعى إلى بيانها بالنقطة الأولى التي تشير إلى أن اليأس انفعال. فإذا ما سيطر اليأس على العقل والشعور والعاطفة، تحول الإنسان إلى كتلة هامدة، عاطفة تعجز عن تحقيق فاعليتها. وإذا ما قُيدت العاطفة بإشراط الانفعال، تحولت الحياة إلى موت، وذلك لأنها تفرغ من معناها وقيمتها.

---

[20] راجع فصل «الشخصية المتكاملة» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

2 ـ نسبية اليأس

أحب أن أستهل موضوعي بتعليق بسيط يتركز في نقطتين:

آ ـ نسبية اليأس.

ب ـ اعتبار الحياة الأرضية صعوبة وليست مصيبة.

حملت لك رسالتي الثانية تأكيداً لوجود الصعوبة ونفياً لوجود المصيبة. وإذا كنت أذكر لك هذا الأمر مرة ثانية فلأنني أعلم، علم اليقين، أن إجمال المصائب في مصيبة واحدة، هي وجودنا، قضية تؤدي بنا إلى متاهة اليأس. وإذا سيطر اليأس على كياننا، خلت حياتنا من القيمة والمغزى... وهذا أمر أرفضه لكوني كائناً متصلاً بالوجود ولست منفصلاً عنه. أما بشأن النقطة الأولى، وهي نسبية اليأس، فيمكنني أن أقول: إن وجهات النظر العديدة والمواقف الكثيرة تختلف من إنسان إلى إنسان، ومن فئة إلى فئة، ومن شعب إلى شعب. وإذا كانت النسبية هي المجال الذي يتأرجح فيه اليأس، فلا بد لي أن أقول إنه لا يحتفظ بجوهر. وأضيف قائلاً: إن ما لا يحتفظ بجوهر، وما لا يُعرف بكيان، لا يتميز بحقيقة. وإذا شئت المزيد من الإيضاح ضربت لك بعض الأمثلة: الموت، أو المرض، أو الإفلاس، أو التعرض لصعوبات قاسية، أو الإحساس بالحرمان... الخ، أمور تخضع لمفهوم نسبي. هذا، لأن الناس يقفون منها مواقف نسبية. والحق، أن الحدث الذي يقع لي، أو لغيري، يخضع لمحاكمة ذاتية خاصة. فإذا كانت المحاكمة سليمة وواعية، كان موقفي من الحدث صعوبة، وبالتالي تتحرك عاطفتي متأثرة بالحزن. وإذا خلت محاكمتي من التعقل والوعي، كان موقفي من الحدث مصيبة، وبالتالي يتحرك انفعالي معبراً عن اليأس. إذن، فاليأس انفعال لا يقوم على تعقل، أو محاكمة، أو نظرة كونية، أو موقف شمولي، ويخلو من القيمة والمعنى.

يجدر بي، وقد قدمت لبحثي بالتمهيد السابق، أن أتحدث عن الأسباب العامة التي تؤدي بالإنسان الانفعالي إلى اليأس. ويمكنني أن أقسم الأسباب إلى ثلاثة أنواع، أو أصنف اليأس في أبواب ثلاثة:

اليأس المؤقت.

اليأس الناتج عن أوضاع اقتصادية واجتماعية.

اليأس الفكري أو المطلق.

1 ـ اليأس المؤقت

الأمور الصغيرة، التافهة أحياناً، التي تملأ مخيلتي، وتزيّن الواقع ببريق أخّاذ، زائف يتلاعب بنزواتي... الأمور الصغيرة التي أركز عليها وجودي في لحظة معينة قادرة على الإطاحة بهدوئي، ورصانتي وتعقلي، وإلقائي إلى أحضان اليأس المؤقت. وإذا ما شئت أن أضع تعريفاً لهذا اليأس المؤقت قلت: إنه تركيز وجودي برمته على شيء محدد، وإخضاعه لوضع معين، الأمر الذي يجعل وجودي كله، وحياتي كلها، مركزين في تلك اللحظة دون غيرها. إن فشلي في علاقة حب زائلة أو مؤقتة، أركز عليها معنى حياتي، وأرى وجودي كله من خلالها، قضية تخلق يأساً مؤقتاً. وإن وضعاً معيناً، في لحظة معينة، عجزت عن تحقيقه، أمر قد يجعل مني يائساً على نحو مؤقت. وإن فشلاً أحدثته بإهمالي، أو عدم تعقلي، أو سببه لي الآخرون، قد يجعل مني يائساً على نحو مؤقت... تلك هي الأمور الصغيرة التي أجعل منها أموراً هامة، أضخمها بخيالي وأنانيتي، وأرى حياتي مجسمة فيها... تلك هي الأمور التي تدعو إلى اليأس المؤقت.

يمكنني أن أقول لك إن الخلاص من هذه الحالة الداعية إلى يأس مؤقت يتوقف على أمور ثلاثة:

أولاً: ألا أحول يأسي المؤقت إلى يأس فكري دائم. وهذا يعني أن اللحظة الآنية لا تشكل كلية كياني وحياتي. فإذا كنت طاقة متجاوزة لآنيّتي، فمن واجبي أن أعتبر اللحظة الراهنة مرحلة قصيرة في ديمومة وجودي. وعلى غير ذلك، يركز الانفعالي وجوده في تلك اللحظة، ويتمنى لو كانت دائمة، إن كانت تبعث فيه اللذة والسرور؛ فهو يعيش لحظته دون أن يتجاوزها. ومع ذلك، لا أنكر واقع أن تجاوز اللحظة الآنية، أو الحادثة الحالية، قضية سهلة... إنها تتطلب وعياً ورؤية شاملة. وهكذا، يمكنني أن أخلص إلى نتيجة هي أن الانفعالي إنسان يائس، لأنه يركز حياته وديمومة وجوده وكلية كيانه على الحدث الحاضر، ويعجز عن معاينة الحقيقة الكلية. أما الإنسان المتجاوز لأناه وذاته، فإنه قادر على محاكمة الحدث الآني الذي وقع له دون أن يُخضع كلية وجوده له.

ثانياً: أن أتميز بوعي كوني يجعلني أتفهم حقيقة ما جرى لي، وأقيّم كياني وفق ما تقتضيه القوانين الكونية. والحق، أن مثل هذا الوعي حريّ بأن يُمدني بقدرة التسامي على الأمور التافهة، فلا أسمح لها بأن تكوِّن جوهر وجودي، وتزودني بطاقة

تهيئني لأن أمتص رحيق الحكمة من الحدث الذي يقع لي، وتهبني تعقلاً يساعدني على إضافة معلومات جديدة إلى سجل حياتي.

ثالثاً: أن أعلم أنني كائن يتسامى في سلّم الوجود الصاعد في سلسلة متصلة لا تنتهي.

2 ـ اليأس والواقع الاجتماعي

عندما ألتفت إلى الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أجد المأساة البشرية المتمثلة بمفهوم اليأس. ولا شك، أن الوضع الاقتصادي الماثل في الفقر، والبؤس، والحرمان، سبب رئيس لليأس. هذا، لأن الوضع الاجتماعي الماثل في الانتساب إلى طبقة متدنية، أو مهنة وضيعة، أو إرث لا أخلاقي تحدّر إليّ من أب متهم بالإجرام أو السرقة، أو أمٍّ متهمة بالابتذال، أو الاتصاف باليتم أو القبح...الخ، وضع يؤدي إلى الإحساس باليأس. وكما يكون الأمر في الوضع الاجتماعي والاقتصادي كذلك يكون في الوضع السياسي. فالإنسان الذي يتعرض لضغط نفسي ناتج عن طغيان، أو لظلم سياسي، أو عقائدي، أو مذهبي، يميل إلى الإحساس بخيبة الأمل، فالإحباط فاليأس.

أعتقد أن الإنسان قادر على تجاوز الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي، وتحسين إنسانيته من خلال هذا الوضع. ويتم هذا التجاوز أو التحسين بثلاث طرق:

1 ـ الإصلاح الاجتماعي الذي يضيّق الفجوة القائمة بين أوضاع الناس الاقتصادية، ويقلل من وطأة الفروق المميزة.

2 ـ تقويم النظرة الإنسانية إلى الإنسان. وهذا يعني ألاّ أقيّم الإنسان من خلال مهنته، أو عمله، أو مركزه، أو طبقته... الخ. بل من خلال إنسانيته.

3 ـ معرفة أن الإنسان غاية بذاته وليس وسيلة.

أحب أن أضيف إلى القضايا الثلاث المذكورة قضية رابعة تتصل بالمبدأ الكوني. وتتكشف حقيقة هذا المبدأ في اللحظة التي يطرح فيها الإنسان على نفسه تساؤلات معينة: لماذا ولدت في هذه البلاد ولم أولد في بلاد أخرى؟ لماذا ولدت من أب وأم معينين؟ لماذا اكتسبت بولادتي اسماً معيناً، وصفات وسمات خاصة، ووضع اقتصادي واجتماعي وسياسي محدد؟ لماذا أعمل جاهداً لأحدث تغييراً في المعالم التي تشكل شخصيتي؟ لماذا أتمنى ما لست عليه؟ لماذا أشتهي ما لا أملكه؟ لماذا أشعر بالحرمان

والفاقة؟ لماذا تتشكل قواعد مجتمعي على هذا النحو؟ والحق، أن الإنسان يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات بتسويغات عديدة، أو يعلن رفضه لواقعه. ومع ذلك، يتجنب الإنسان الإجابة الصحيحة القائمة على الوعي. ويمكنني أن أقول لك إن تفهُّم الإنسان لواقعه من منظور كوني ووعي شمولي ينجيه من الإحساس باليأس، وينقذه من تقييم ذاته على أساس اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، إذ يعلم أنه يستطيع تحقيق إنسانيته في كل وضع وفي كل مجتمع.

3 اليأس الفكري

عندما أطرح المستوى الثالث لليأس على بساط البحث، أتساءل إن كان اليأس الفكري أو المطلق موجوداً. وعندئذ، أعترف بوجوده في مفاهيم سائدة اتخذت لها أسماء عديدة كالعبث، واللاجدوى، والعدم، والسأم، والباطل، والاغتراب، والتفاهة، وضآلة القيمة... الخ، التي هي مؤشرات للإحساس بالانفصالية دون الاتصالية. ولكنني، مع ذلك، أتساءل عن أسباب هذه التسميات، محاولاً أن أجد تبريراً لها. وإذ أعجز عن التبرير، تتجلى حقيقة هي أن الإنسان اليائس، بهذا المعنى، يخلو من قاعدة الوعي، وذلك لأنه مشروط بالقيم الاجتماعية الزائفة، وخاضع لها، ويسعى إلى تحقيق ذاته من خلالها. وبالإضافة إلى هذا، يتقاعس الإنسان عن معرفة الحق، أي معرفة حقيقة وجوده لكي يتحرر من قيود وإشراطات الأنا المطروحة على الصعيد التجمعي الزائف. وإذا ظل الإنسان قابعاً في سجن أناه، الفردية أو التجمعية، ظل عبداً مقيداً، خاضعاً، يعجز عن الانعتاق. وإذا شئت، ضربت لك مثلاً: الإنسان كائن يسعى إلى الطمأنينة والاستقرار. وفي بحثه عن الطمأنينة ينزع إلى المفاهيم التجمعية معتقداً بأنها السبيل القويم إلى الاستقرار والخلاص. وعندئذ، يعمل جاهداً للحصول عليها. وتتمثل هذه المفاهيم بالمال الكثير، والمركز، والجاه والمجد، والانتماء إلى الطبقة الاجتماعية أو الفئة المتسلطة أو البارزة... الخ. وإذ يحصل على هذه المفاهيم، يجد أنه لم يحصل على الطمأنينة والاستقرار والخلاص، الأمر الذي يجعله يرتكس إلى ما كان عليه من قلق. وهكذا، يمر الإنسان في ثلاثة أطوار: طور القلق الذي يدفعه إلى البحث عن سبيل للخلاص. طور تحقيق الذات في الحقل التجمعي؛ طور الانتكاس إلى القلق الذي انطلق منه. وعلى هذا الأساس، يسيطر القلق على الإنسان الذي يتيه في عالم المظاهر الكاذبة، ويستسلم لليأس الفكري.

أحب أن أضع قواعد واقعية لمفهوم اليأس الفكري: أولاً قد ينتج هذا اليأس عن يأس مؤقت أجعل منه محور حياتي. ثانياً قد ينتج هذا اليأس عن وضع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي أجعل منه غاية وجودي. ثالثاً قد ينتج هذا اليأس عن موقفي من الوجود ومن جهل الغاية المرجوة من وجودي. ولئن كنت قد أتيت على ذكر أنواع اليأس وسعيت إلى بحث مضامينها، لكنني لم أنوّه إلى حقيقة اليأس الفكري من وجهة نظر كونية.

يتأمل الإنسان الكون... وفي تأمله هذا يخلص إلى إحدى النتيجتين: 1 يعلن ثورته على الكون ويرفضه. 2 يدرك الانسجام القائم بينهما، فيجتهد لتحقيق غاية وجوده. وإذا ما رفض الإنسان الكون أصبح متمرداً ومنفعلاً، يعتريه اليأس لأنه يرى في ذاته «أنا» تائهة في خضم العدم، الأمر الذي يجعله يشعر بالغربة، والعدم والتفاهة... الخ. وهكذا، يُرد انفعال الإنسان إلى إحساسه بالانفصال عن كلية الوجود، وتقوقعه في زنزانة «الأنا» المغلقة على ذاتها، وفي جزء مجرد من القيمة. أما إذا أدرك الإنسان أنه والوجود حقيقة واحدة، عمل على تحقيق الانسجام في كيانه أولاً، وتحقيق الانسجام مع الكون ثانياً، وتحقيق الاتصالية ثالثاً، وتحقيق الكل المركز في الجزء رابعاً... وعندئذ، تتضاءل، أو تختفي، مفاهيم العبث، و اللاجدوى، والتفاهة، والسأم والعدم... الخ وينتهي اليأس.

صديقي... تحفل كل رسالة أكتبها بقيمة تملؤها بجوهر الحياة، وتنأى بك عن التشيؤ.. أنا لست شيئاً... أنا حقيقة مركزة في قلب الوجود ولانهاية مجسمة. وكما يقول العلامة الفذ تيار ده شاردان: إن الإنسان لا نهاية ثالثة، يجمع اللا نهايتين، الكبيرة والصغيرة، في تشابك معقد. والحق، أن هذه العبارة تشير إلى القيمة التي يضفيها العلماء الإنسانيون الكونيون والحكماء على الإنسان. وإذا كنت أحدثك في هذا المستوى الذي يبلغ أقصاه في تكريم الوجود الإنساني، فلأنني أعلم أن الحياة لا تستحق الجهد إن كنت أرى فيها التفاهة، أو إن كنت أقلصها إلى شيء، أو إن كانت تخلو من القيمة. فبقدر ما أرفع من مستوى القيمة الوجودية والكونية، أرفع من مستوى الإنسان.



الرسالة الحادية عشرة

البحث العلمي والعقل التقني

صديقي...

تعد كل رسالة جوابية تزودني بها مدخلاً إلى موضوع جديد. وكثيراً ما تساءلت في سرّي: كيف يمكنني أن أطرح قضية جديدة على بساط البحث لو لم تكن تلهمني على الإبداع في نطاق الأسس التي تعتمد عليها مقومات الوجود الإنساني. ولقد شعرت، وأنا أتأمل مضمون رسالتك، بأنك توجه لي نقداً مباشراً يحمل في ثناياه اللوم المشوب بالعتاب والتقصير. وأحسست أنك تتهمني، من طرف خفي، بعدم بحث القضايا المتصلة بواقع الإنسان... القضايا الاقتصادية المتصلة بالمعيشة والناتجة عن التقدم العلمي. وأدركت أنك تسعى إلى معرفة المزيد عن البؤس الناتج عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي، والحل المطروح عبر الإصلاح السياسي والإداري. وعلى هذا الأساس، تريد مني أن أبحث في الطريقة التي يكون فيها العقل التقني الناتج عن البحث العلمي أداة خير ونفع للبشرية.

أحب، قبل البدء بمعالجة الأفكار التي يشتمل عليها البحث، أن أشير إلى أن بحثي هذا جهد متواضع يهدف إلى ذكر النقاط الرئيسية التي يعتمد عليها الموضوع، وأن أهمية البحث تكمن في الحوار الذي يعقب طرح الأفكار المذكورة، الحوار الذي يؤدي إلى وضوح المعالم الأساسية التي تؤلف أطروحة البحث العلمي أو التقدم العلمي والتكنولوجيا الحاصلة. ولهذا السبب، يُعد هذا البحث مدخلاً إلى نطاق علمي وفكري واسع، يسعى إلى إثارة القضايا التي تشغل الفكر الإنساني، ويحاول الإحاطة ببعض جوانبها.

يتألف بحث هذا الموضوع من ثلاثة أقسام:

آ مفهوم البحث ـ الإنسان كائن باحث.

ب العقل العلمي ومفهوم السيادة.

جـ العقل التقني أو مفهوم التقنية.

أولاً ـ مفهوم البحث ـ الإنسان كائن باحث. لِمَ البحث؟

عندما نتساءل عن الغاية القصوى لوجود الإنسان على كوكب الأرض، نعلم أن المعرفة هي السبيل الوحيد إلى إدراك أو فهم المغزى المتضمن في الوجود الأرضي والكوني. وإذا كان العالم الأرضي، الذي نحيا فيه ومنه وعليه، عالماً جلياً يدركه العقل، فلأن العقل الإنساني داخل في صميم الكون وليس خارجاً عنه؛ هو عقل متأصل في الطبيعة والكون؛ هو عقل تجريدي وعملي قادر على إدراك المخطط الكوني بما هو أو المشروع الكوني الذي يشير إلى وجود عقل كوني كامل، كلي المعرفة. لذا، تتجلى وظيفة العقل في تمثل المعرفة والوعي والفهم.

تشير العبارة السابقة إلى أن العقل الإنساني يسعى إلى معرفة وجوده في بحث دائم عن الحقيقة. وهكذا، يجد العقل الإنساني في البحث القائم على غائية المعرفة أطروحته الوجودية الأساسية داخل العالم، الأمر الذي يضعه أمام إلزام منطقي، أخلاقي، معرفي وجمالي يشاهد فيه القيمة والمعنى المتضمنين في جوهر الوجود الأرضي والكوني.

عندما نتساءل من جديد: كيف يكون البحث العلمي ممكناً؟ كيف نعلم أن وجودنا الأرضي يستحق الجهد المبذول في إطار البحث؟ كيف نوافق على واقع حقيقي هو أن البحث العلمي ضرورة يقتضيها الوجود الأرضي المتصل بالوجود الكلي، وسبب كاف لإنشاء المعرفة؟ نجيب قائلين: كل شيء يصدر عن ضرورة منطقية، هي عقلية، ويشير إلى أننا نستدل إلى طبيعة الكون من المنطق القائم على البحث والتقصي والدراسة. وبهذا الصدد، يقول إينشتاين: «أعتقد جازماً، أن الفكر المجرد قادر على إدراك الحقيقة تماماً كما تصورها الأقدمون». ويضيف قائلاً: «نستطيع بواسطة الصيغ والمعادلات الرياضية، أن نكتشف التصورات والقوانين التي تقيم صلة بينها، الأمر الذي يجهزنا بمفتاح الولوج إلى فهم الظاهرات الطبيعية».

في هذا الإطار الذي يتضمن فيه البحث الفكري والعلمي، نتحدث عن النقاط الرئيسية التي تستدعي تحقيق البحث في العالم الذي نحيا فيه:

آ ـ هنالك كون جلّي يدركه العقل، يتمثل في أن العالم منطقي وقابل لإدراك العقل. وفي الغالب، نجد لهذا الافتراض تعبيراً في «مبدأ السبب الكافي» الذي ينص على أن كل ما في العالمِ هو ما عليه لسبب عقلاني مُبرَّر. فلمَ يتسم الفضاء باللون الأزرق؟ ولمَ تسقط التفاحة؟ ولمَ توجد كواكب تسعة في النظام الشمسي؟

نعتقد بوجوب وجود سبب منطقي عقلاني يدعو إلى وجودها على هذا النحو، وندرك أن العالم وجود لا يتنافى مع العقل الباحث الذي يسعى إلى معرفة الأسباب والوقائع والحقائق. وإذا كان المشروع العلمي يقوم على افتراض هو معقولية أو عقلانية الطبيعة، علمنا أن التفسير النموذجي الناتج عن البحث لسبب وجود تسعة كواكب، يحتمل أن يلقي الضوء على الطريقة التي تشكل بها النظام الشمسي من غمامة سديمية أو غازية، وعلى الوفرة النسبية للعناصر في ذلك الغاز أو الغمامة السديمية، وهلمَ جراً، وعلمنا أيضاً أن التفاحة تسقط بسبب الجاذبية.

ب ـ يعتقد العلماء الباحثون بوجود نظام رياضي واحد يشتمل على الكل. ففي بحوثهم وأبحاثهم ودراساتهم يفترضون مرحلة نهائية تشير إلى التوحيد الفوقي الأعظم الذي يعني توحيد القوى الأربع الرئيسية كلها، بما فيها الجاذبية. إنهم يتحدثون عن نظرية كلية شاملة هي منظومة واحدة للفيزياء، تلازمها القوانين المتنوعة. والحق، أن العقلانيين من الفلاسفة والعلماء يتحدثون، كما تحدث ديكارت، عن نظام للفيزياء يتأصل في العقل، وفي الملاحظة والتجربة القائمتين على البحث والدراسة.

جـ ـ يعتقد بعض العلماء أن عالمنا هو العالم الوحيد الممكن الذي يجعل علم البيولوجيا ممكناً، وبالتالي قابلاً لنشوء متعضيات، أي كائنات، واعية. ويُعد العالم الوحيد الذي تكون فيه المعرفة القائمة على البحث قابلة للإدراك. وبهذا الصدد، يقول أحد العلماء: «إننا نبني نظرياتنا بوصفها جزءاً من هذا الكون، بمعنى أنها مضمونة داخل الكون وليس خارجاً عنه».

د ـ يفترض بعض العلماء أن الكون احتمالي وقابل للفهم، وذلك لكي يُحرِّض الإنسان على القيام بالتجربة العلمية والبحث الدقيق. وهم يعتقدون أن العلم ماثل في حضور الوعي لأن الكون أو العالم قابل للإدراك. وعلى هذا الأساس، يكتب أحد العلماء

الفلاسفة: «إن الاتحاد الناتج عن كلّ من الاحتمال وكون العالم قابلاً للإدراك يحرِّض الإنسان على البحث والسعي إلى أشكال غير متوقعة للنظام العقلاني». والحق هو أن المعجزة الكبرى التي نشاهدها في الكون تتمثل في أنه منظّم على نحو احتمالي. تظهر عظمة هذه المعجزة في النطاق البيولوجي حيث تكون المتعضيات الأرضية احتمالية في أشكالها الخاصة والمميزة، وذلك لوجود نظام جلّي يعم النطاق الحي الذي ندعوه الـ« بيوسفير». وهكذا، يشير الواقع إلى أن المعالم الاحتمالية للعالم منظمة ومنسقة بحيث أن انتظامها قضية تتسم بالمعنى والعمق معاً. وثمة مظهر آخر وثيق الصلة بالاحتمال الانتظامي للعالم يرتبط بطبيعة هذا النظام الذي يهب العالم والكون صفة الوحدة العقلانية. وعلاوة على هذا، يكون هذا الانتظام الكلي قابلاً للإدراك من قبلنا، نحن أبناء الأرض. وبهذا الصدد يكتب أحد العلماء: «هذا الاتحاد القائم بين الاحتمال والعقلانية، والحرية والثبات يمنح العالم أو الكون صفته الرائعة التي تجعل من البحث العلمي أو الاكتشاف العلمي أمراً ممكناً وإلزامياً». وهذا يعني، أن وعياً ما يُنفَثُ في معادلات تحول قوانين الفيزياء إلى رموز، ترتقي بما هو ممكن إلى ما هو واقعي وحقيقي. وهكذا، نعترف بعالم عقلاني، يبحث فيه العقل الإنساني ليكتشف سره وكماله.

هـ ـ يتحدث بعض العلماء عن التنوع الأقصى الماثل في الطبيعة. فهم يعتقدون أن قوانين الطبيعة والظروف الأولية هي على نحو يجعل العالم مشوقاً وممتعاً قدر الإمكان، الأمر الذي يشير إلى التنوع الأعظم والتعقيد الأكبر للمنظومات الفيزيقية ضمن وحدة شاملة. ولقد تصور اثنان من كبار الفيزيائيين وجود مبدأ أساسي وضمني في الطبيعة يجعل العالم متنوعاً في حده الأعلى. وهذا يعني أن الأشياء قد نظمّت ذاتها بحيث أنها تستطيع أن تُحدث التنوع الأعظم، وتقبل التحديد العلمي بدقة. ويرى أحد كبار العلماء أن العالم يكشف عن ذاته في تنوع أقصى خاضع لأعلى درجات النظام. وذكر بعض العلماء أن قوانين الفيزياء شبيهة بشيفرة كونية هي «رسالة» مخفية على نحو سر أو لغز في بيانات ومعطيات ملاحظاتنا. ويُحتمل أن تمثل القوانين الخاصة بعالمنا تمثيلاً أو صياغة أمثل في مدونة. ويشير اقتراح أحدهم أن تكون هذه المدوّنة الكونية قد نُظمت وأنشئت على نحو خاص لنقل المعلومات على نحو أمثل. وهكذا، تبدو لنا الطبيعة، بطريقة مجازية وغير مألوفة، قد دُوِّنت على نحو خفي في أشكال وصور ملائمة، تُلزم العقل الإنساني على إقامة التجربة والاختبار والمعرفة الملحقة بالبحث الدائم. وقد يفسِّر هذا القول النجاح المذهل الذي يحرزه العلماء في حل شيفرة الرسالة وكشف الغطاء عن

القوانين الأساسية في بحوثهم وتجاربهم. هذا ما ذكره بول دافيس في كتابه «العقل الإلهي».

نستنتج مما تقدم:

1 ـ يعد العالم وجوداً جلياً يدركه العقل.

2 ـ يقع العقل داخل الكون وليس خارجاً عنه... إنه كامن في صميم الوجود.

3 ـ يحرِّض التعقيد البيولوجي العقل على إقامة التجربة العلمية.

4 ـ يسمح التنوع الأعظم والأقصى بالبحث عن الوحدة الشاملة المُوَحِّدة لكل شيء.

5 ـ تسجِّل الطبيعة في مدوَّنة ترمز إلى أسرارها بشيفرة تتطلب الحل من قبل العقل الإنساني.

6 ـ يصبح الكون أو العالم قابلاً للإدراك والفهم لأنه منظم احتمالياً على نحو عقلاني. لذا، يدرك العقل الإنساني، من خلال الدراسة والبحث، العقلانية التي على أساسها صُمم الكون.

7 ـ يحرِّض الاحتمال، بالإضافة إلى كون العالم قابلاً للإدراك، العقل الإنساني على البحث والسعي إلى أشكال غير متوقعة للنظام العقلاني.

8 يعد الإنسان كائناً باحثاً عن سر وجوده الأرضي والكوني.

ثانياً ـ العقل العلمي ومفهوم السيادة

في البدء كانت الحكمة. وإذ بدأت رحلة الإنسان الفكرية والعقلية في عالم الأرض، تراجعت الحكمة إلى الفلسفة، إلى محبة الحكمة، إلى العقل الذي استهل تساؤله أو تساؤلاته في عالم الثنائية الظاهرية والتعددية أو التنوع الظاهري والتعقيد الأقصى. عندئذ، استهل العلم فلسفته الوجودية من خلال العقل الذي تلمَّس، وتصور وجرد. واستطاع العقل، في نطاقه الفلسفي المتضمن في العلم وفي نطاقه العلمي المتضمن في الفلسفة، أن يبحث في مقولات الوجود، والفكر، والمنطق، والنفس، والحياة والروح. وفي كل أطروحة، سعى، من خلالها، إلى معرفة الحقيقة. وبالفعل، بدأ العقل يدرك أنه على صلة بالوجود القابل للفهم والإدراك.

لم يبق العقل في إطاره النظري الصرف، بل أخذ يبحث في الوسائل التي تجعله يستفيد من المحيط، من البيئة، من الوجود المادي، فكانت تجربته العلمية الأولى. وعندئذ، أدرك الإنسان أنه يحمل رسالة في هذا العالم الأرضي الذي يدعوه إلى المعرفة والبحث، فتساءل عن ماهية هذه الرسالة، وأدرك أنها الوعي. وبالإضافة إلى ذلك، أدرك أن التساؤل الفلسفي، وهو معرفة نظرية، والمعرفة، وهي البحث الدائم عن جوهر الحقيقة والوجود، لا يحتفظان بكيان بمعزل عن العالم. فإذا ما وُجد العلم، وُجد معه العالِم والمعلوم. وهكذا، يتحقق العلم في العالِم والمعلوم. وعلى هذا الأساس، ندرك أن العلم والعالِم والمعلوم حقيقة واحدة، الأمر الذي يجعلنا نعي أن الصلة قائمة بين المجرِّب، أي المراقب، وأداة التجربة، وموضوع التجربة أي الموضوع المراقب.

إذ نعلم أن الإنسان العالِم، أو العقل العلمي، يستفيد من محيطه وبيئته، ندرك أن العقل العلمي يستفيد من الطبيعة على نحو استغلالي ليؤكد سيادته على الطبيعة والنبات والحيوان. وبالفعل، توغّل العقل العلمي في نطاق التجربة الاختبارية ساعياً إلى السيطرة على الطبيعة من خلال مفهوم الطبيعة. ونحن، عندما نتعمق في فهم جوهر السيادة، نعلم أن هذه الكلمة لا تمت بصلة إلى السيطرة التي يبديها الإنسان إزاء الطبيعة. هذا، لأن السيادة تعني السعي الدائم إلى المعرفة من أجل إدراك القوانين التي بموجبها تتحرك الطبيعة باتجاه التطور والنمو، أو تحيا أو تفعل، والجهد المبذول في سبيل التوافق والانسجام مع هذه القوانين التي هي واحدة في الطبيعة وفي الإنسان. وإذ تعالى العقل العلمي على الطبيعة المادية، جعل الإنسان من ذاته سيداً مسيطراً، مستغلاً، يستخدم الطبيعة المادية والنبات والحيوان لمآربه الخاصة ومصالحه التي ترتبط بالأنانية. ولمّا كنا نعلم أن العالِم والمعلوم مقولة واحدة تتحقق في العلم، فإننا نعترف بأن العالِم ليس هو الإنسان الذي يترفع على المعلوم الذي يتبطن العلم فيه. وهكذا، ندرك وحدة الفكر والموضوع، وحدة الإنسان المفكر والعالم الخارجي، وذلك لأن العقل والطبيعة ينسجمان ويتآلفان في قانون حياتي واحد، لا يتناقض في ذاته. وإذا كانت الفيزياء الحديثة تعلمنا أن المجرِّب، أي المراقب، لا ينفصل عن أداة التجربة، أي أداة المراقبة، وعن الموضوع المجرِّب، أي المراقَب، أدركنا أن العقل العلمي، إذ يدرس قوانين الطبيعة المادية يدرس، في آن واحد، قوانينه الذاتية. وإذ ينفصل الإنسان عن الطبيعة المادية جاعلاً منها مجرد موضوع، يعمل على استعبادها واستغلالها، والسيطرة عليها بالأدوات التي تمُدُّه بها

الطبيعة ذاتها. فهو يحاربها بما تقدمه له من علم وأداة. وفي هـذه الحالـة، وعلـى المدى البعيد، ينفذ صبر الطبيعة وتحملها، وترد على العقل العلمي المسيطر بالأسلوب ذاته.

وإذا ما بلغنـا هـذا الحـد من البحث، علمنـا أن العقـل العلمي الـذي يسـعى إلى إدراك حقيقة الوجود وحقيقته الخاصة مـن خـلال الثنائيـات، والتنوعـات والتعقيـدات، يعلم أنه والعالم جوهر واحد وكيان واحد. وعلى هذا الأسـاس، تشـير المعرفـة إلى السـعي الذي يبذله العقل العلمـي لفـهم الوجـود، في مستوياته المتدرجـة، ووعـي الأسـرار الـتي تكتنف الرموز المعطاة كحقيقة علمية في شيفرة مدوَّنة على نحو خفي. وإذ ينشط العقـل في هذا الإطار، يسعى إلى إدراك سر الوجود، فينسجم مع الطبيعـة الـتي تمـده بكـل وسـيلة وأداة دون أن يسيطر عليها. فهو يـدرس، على نحو بـحث معمق، قوانينها بأكملها. وفي هذه الدراسة، يبلـغ عمـق الوجـود، في لا نهايتيـه: الكـبرى والصغـرى. فـإذا مـا اعتمـد الرياضيات بلغ أعماق اللانهاية الكونيـة الكبرى؛ وإذا ما اعتمـد فيزيـاء الصغائـر، ومـا يدعـوه العلمـاء «المستـوى دون الـذري»، بلـغ أعمـاق اللانهايـة الصغـرى، وعلـم أن النهايتين تتشابكان على نحو تعقيد في كيانه. وفي هـذا النطـاق، يتّحـد الإنسـان، بعقلـه العلمي، مع الوجود والطبيعة والكون... إنه يفـهم حقيقـة الجاذبيـة النيوتونيـة، وتكـافؤ الطاقة والكتلة، ومعادلات الحقـل الكهرطيسي لماكسـويل، ومعـادلات الحقـل الجـاذبي لإنشتاين، ومبـادئ الترموديـناميك... الخ. عندئـذ، يـدرك أن الطبيعـة، وهـي المعلـوم الحافل بالعلم، تُمده بالعلم الذي يتميز به لكونه عالماً. عندئـذ، يحـب الطبيعـة، ويعيـد إليها ما يأخذه منها بمحبة وتعاطف.

نستنتج ما يلي:

آ ـ يعد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، فعلاً حضارياً يشير إلى تفاعل العقل الإنساني مع الطبيعة المادية للأشياء، وذلك من أجل الكشـف عـن أسـرار الوجـود وحقيقة الحياة.

ب ـ يمُد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، العقل الإنساني بالقدرة على فهم ذاته. وبقدر ما يكون هـذا التقـدم عمليـة خـروج العقـل إلى العـالم الخـارجي لمعرفـة أسراره، يكون أيضاً دخول العقل إلى عالمه الداخلي لمعرفة أسراره. والحق، أن علـم نفـس الأعماق، أو علم النفس التجاوزي، قد أحدث تقدماً كبيراً بعد أن بلـغ التقـدم العلمـي في نطاق الفيزياء المستوى دون الذري. وإذ بلغ علم الفيزيـاء هـذا المسـتوى مـن الرؤيـة لعـالم

الصغائر، وأدرك الأغوار العميقة للدقائق الجزيئية التي تنتهي إلى ذلك الدفْق الطاقي المجرد من الكتلة المادية، والمعبر عنه بالإشعاع أو بالحركة الكلية، استطاع علماء نفس الأعماق أن يتصوروا تلك الأعماق العظيمة للنفس البشرية المدعوة باللا وعي، والمعبّر عنه بمحيط لا ينتهي من النماذج أو الأنماط البدئية التي يغرف منها الوعي، ليستمد أشكال وصور الوجود بعد ملاحظتها أو معاينتها في الطبيعة، الأمر الذي ينشئ مطابقة وتساوقاً بين المستوى دون الذري في الفيزياء والمستوى اللاواعي في علم النفس.

جـ ـ يمُد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، كل العلوم الأخرى، النظرية منها والعملية، بالقدرة على التقدم الذي تحرزه في مجالها. لذا، نعلم أن تقدم جميع العلوم، والفنون، والآداب، والفلسفات، والسياسات الاقتصادية والاجتماعية، ومناهج التنظيم مرهونة بالتقدم العلمي.

د ـ يساعد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم التقني، في جانبه النظري، وفي جانبه العملي أحياناً، الإنسان على الامتداد إلى الأعلى والأدنى في وقت واحد. فبقدر ما يتقدم الإنسان في معرفة الأجواء الكونية السحيقة التي تكشف عن وجود إشعاعات، واهتزازات ومستويات رقيقة ولطيفة، يتقدم العقل الإنساني، بالقدر ذاته، في معرفة أعماق الوجود المادي، ليعلم أن الوجودين متطابقان، وبالتالي، يكون التقدم العلمي تقدماً في المعرفة الإنسانية الشاملة.

هـ ـ يُعد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، قضية أساسية تطرح ذاتها، على نحو إلزامي، على المستوى الذي يسعى إليه العقل الإنساني للخلاص من الإشراطات العديدة التي تقيده ضمن التقاليد التجمعية العادية، وأنواع التعصب العرقي والفئوي والطائفي والعائلي، وأنواع الانفعالات التي تطيح بالعقل الذي يسعى إلى بلوغ قمة معرفته بطرق عديدة، منطقية ومعقولة، تتدرج في نطاق المحاكمة ضمن سلسلة صاعدة ومتماسكة من الأحكام الصادقة. لذا، يتجرد العقل الباحث، وهو العقل العلمي الهادف إلى الغايات العظمى، من العوائق التجمعية التي تحول دون تحقيق انفتاحه إلى العالم الخارجي والداخلي.

و ـ يعد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، قضية أساسية وأصلية في مضمار التطور المدني لبني الإنسان. والحق، أن الكرامة الإنسانية تليق بالوجود الإنساني، وتتحقق في المعطيات التي يقدمها التقدم العلمي. لذا، لا يتحقق أي تقدم في

الاقتصاد المبني على أسس إنسانية، إلاّ في ظل نظام يعتمد العقل العلمي الذي يشير إلى تحقيق كرامة الإنسان التي تتطلب اللياقة الماثلة في المعيشة الكريمة. لذا، تتوطد بدايات تكريم الإنسان في تزويده بالضرورات الأساسية للوجود المعيشي المطوّر إلى وجود حياتي في ظل تقدم علمي إنساني.

ز ـ يعد البحث العلمي، المؤدي إلى التقدم العلمي، السبيل الأكثر إفادة في معرفة أسرار العالم الأدنى، أي العالم الأصغر، والعالم الأعلى، أي العالم الأكبر. وفي هذا السياق، لا يشير مصطلح الأدنى والأعلى إلى تنضيد تراتبي يكون فيه الأعلى «فوق» والأدنى «تحت»، بقدر ما يشير إلى اصطلاح لغوي. هذا، لأن أسرار العالم الأعلى مضمونة في أسرار العالم الأدنى على نحو شيفرة مخفية تتراءى للإنسان في صيغة الرمز، وتتكشف له شيئاً فشيئاً عن طريق العقل العلمي الباحث. ولا تتحقق معرفة هذه الأسرار إلاّ ببحث علمي يؤدي إلى تسامي الفيزياء في متافيزياء المادة. والحق، أن مصطلح «متا» لا يشير إلى وجود يقع إلى ما وراء أو إلى ما بعد، بقدر ما يشير إلى تسامي المعرفة العلمية لتبلغ درجات أسمى في وجودها.

ثالثاً العقل التقني

يقودنا البحث الذي أتينا على عرضه في هذا السياق إلى الاعتراف بأن المعرفة العلمية القائمة على التجربة والاختبار تتحقق على مستويين: 1 مستوى نظري، هو مستوى العقل الباحث عن المبادئ التي تساعده على اختبار حقيقة أسرار الوجود المادي في نطاق التجربة 2 مستوى عملي، هو مستوى تطبيق نتائج التجربة والاختبار الحاصلة في العالم الخارجي لفائدة الإنسان ولخير الطبيعة.

يمكننا أن نطلق على المستوى الثاني، مصطلح العقل التقني، أي التكنولوجي. لذا، يعد العقل التقني، أي التكنولوجي، حصيلة العقل العلمي الباحث، أو حصيلة التقدم العلمي.

إذا ما عدنا إلى ما طرحناه في مضمون هذه الباحثة، علمنا أن العقل العلمي هو العقل الباحث عن المعرفة في شتى فروعها، من علم الأخلاق إلى علم النفس، إلى المنطق وإلى التجربة التي تتألق فيها المعرفة على نحو عرفان بالأسرار التي تكتنفها المعجزات الطبيعية، الأرضية والكونية. والحق، أن العقل العلمي، المحقق في مسيرة التقدم العلمي،

يحقق أغراضه وأهدافه من خلال أدوات يبدعها أو يبتدعها، بحيث أنها تشاكل الطبيعة، أو يبدعها، لكي يزداد تعمقاً في مضمار المعرفة التي يسعى إلى تحقيقها. وفي هذه الحالة، يأخذ العقل العلمي من الطبيعة أدواتها، أو عناصرها ليؤلفها في وسائل أو مبادئ أو نظريات أو فرضيات تساعده على الكشف عن المزيد من أسرار الطبيعة ذاتها. لذا، نرى كيف يسعى العلماء إلى الكشف عن أسرار العالم الخارجي البعيد، المعروف بالفضاء الخارجي، عن طريق التلسكوب الذي يساعدهم على رؤية ما خفي عن بصرهم. والحق، أن التلسكوب هو بصيرة أخرى ممتدة تصل الإنسان بالكون. لذا، يردد العلماء العبارة التالية: إن دقة الأداة تساعد على دقة المعرفة، بمعنى أن أي تطوير لدقة الأداة يعني تطويراً للمعرفة، أي كلما تحسنت دقة الأداة تحسنت المعرفة أيضاً أو زادت. وبالمقابل، نجد المجهر الذي يتجه العالِم، من خلاله، إلى معرفة أسرار العالم الصغير، العالم الخارجي القريب المعروف بالفضاء الداخلي. فإذا ما وقف المرء المتميز بعقله العلمي عند شاطئ البحر، تأمل وسيلة اجتيازه، بعد دراسة التيارات الهوائية، والمواقع الفلكية، ليُنشئ هندسة البحار. وبالطريقة ذاتها، يُنشئ العقل العلمي هندسة الزراعة، وهندسة العمارة، والهندسات الأخرى في عوالم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا... الخ.

عندما نتفهم هذه التقنية، أي التكنولوجيا، الناتجة عن تقدم العقل التقني، ندرك أن هذه التقنية لا تخرج عن نطاق تفاعل العقل مع الطبيعة، هو تفاعل يشير إلى توازن قائم بينهما، وانسجام ووئام تشرف عليه سيادة العقل، ولا يشير إلى السيطرة أو الاستغلال. وهكذا، نقول: تُمد الطبيعة العقل العلمي بأسرارها ومكنوناتها وأدوات فهمها بقدر ما يمد العقل العلمي الطبيعة بقدرته التأليفية والتوفيقية، ليمثل هذا العقل القدرة الطاقية المبدعة والمتجهة دوماً إلى الأمام. وفي هذا التفاعل الودي والمتبادل، يسود التوازن بين العقل العلمي والطبيعة ضمن تفاعل ندعوه «التقنية الناعمة أو اللطيفة».

يشير مصطلح «التقنية الناعمة أو اللطيفة» إلى تفاعل العقل العلمي ضمن توازنٍ وتفاعل بين الطبيعة المادية والعقل الإنساني، وذلك من أجل تطوير المعرفة وتحسين الوضعٍ الإنساني والطبيعي. فإذا ما اكتشف العقل الإنساني البارود، زوّدته الطبيعة بمعادلات استعماله والاستفادة منه لصالحه وصالحها، فيسعى إلى تفتيت الصخور. وهكذا، تُمده الطبيعة بقوانين البارود. وإذا ما تعرض العقل الإنساني، أو الجسد الإنساني لخلل أو علة سارعت الطبيعة إلى تزويده بعلاجها ومعرفة أسبابها. وعندئذ،

لا تقف الطبيعة من ذاتها موقف العداء، وذلك لأنها تسترد ما تعطيه. فهي تقدّم قوانينها لتطبق عليها، وذلك، لأن الإنسان يسعى إلى تطويرها وليس إلى تدميرها. ففي تطويرها تطوير لعقله ونفسه وإنسانيته، وفي تدميرها تدمير لعقله ونفسه وإنسانيته.

تلك هي التقنية الناعمة المتصلة بالتقدم العلمي القائم على العقل العلمي الذي يتآلف مع الطبيعة دون أن يعتدي عليها، أو يدمرها أو يسبب خللاً في التوازن الحيوي للكيان الوجودي، الطبيعي، الإنساني والكوني.

إذ ننتقل إلى التقنية المتطرفة، الصارمة، الصلبة والعدوانية، التي تقف على نحو تضادٍ مع التقنية الناعمة، الإنسانية والمتعاطفة مع الطبيعة، نجد أن العقل العلمي المتطرف يبدأ، بناء على رغبات مفروضة عليه من قبل عقول غير علمية ولاإنسانية، أو من انفعالات بشرية مشحونة بالاستغلال والشر، في مطالبة الطبيعة بأكثر مما تستطيع أن تقدم، أو في استعمال أدوات الطبيعة وقوانينها في اتجاه معاكس لمسيرة التطور الصاعد، أو مناقض لحقيقة أغراضها وأهدافها واتجاهاتها. فالبارود لم يعد أداة تقدمها الطبيعة للإنسان من أجل تطوير الطبيعة ذاتها، وتطوير النطاق الإنساني عبر تقنية ناعمة، بل أصبح تقنية متطرفة، صلبة، مستغلة وعدوانية تستعمل لقتل الإنسان وتلويث الطبيعة وتدميرها. ودراسة الجزيئات والدقائق الصغيرة، لم تعد أداة تقدمها الطبيعة للإنسان للاستفادة منها في مزيد من البحث، وتطوير المعرفة، أو لتحسين الواقع الطبيعي والإنساني، بل أصبحت وسيلة لتفجيرها. ودراسة الجينات لم تعد أداة لتحسين المعرفة والوضع الإنساني عن طريق التوالد، وإضافة الحسنات التي تساعد الإنسان على المزيد من الوعي عبر تقنية ناعمة، بل أصبحت تقنية متطرفة قد تؤدي، في نهاية المطاف، إلى تشويه الإنسان بعد إحداث الخلل في متعضيته. وباختصار، تصبح التقنية القاسية، المستغلة والعدوانية وسيلة للعقل العلمي الذي يفجّر ذاته قبل تفجير الطبيعة. والحق، أن العلماء الإنسانيين بدأوا يدركون، تماماً كما أدرك حكماء الماضي، أن تفجير الذرة حدث ينتج عن خلل يطرأ على العقل العلمي الذي يتبنى التقنية المتطرفة، ويسيء استعمال الطبيعة التي لا تفعل إلاّ لصالح ذاتها وصالح الإنسان. لذا، يعد العقل التقني المتطرف، الصلب، المستغل والعدواني عقلاً لاعلمياً، بمعنى أنه يصبح عقلاً خاضعاً لنزعة التدمير، الممثلة بالكراهية، ونزعة الفساد والإفساد المشحونة بالخلل الذي يصيب المتعضية الإنسانية. وعندئذ، تتحول السيادة على الطبيعة، التي تشير إلى استجابة الطبيعة لمشيئة الإنسان العاقل والمتوازن، والذي يرى في هذا التوازن وحدة العالِم

والمعلوم، وتوافق الطبيعة مع العقل، إلى السيطرة التي هي النزعة التهديمية لهذا التوافق والانسجام القائمين بين الطبيعة المادية والعقل الذي يتبنى التقنية الناعمة. لذا، كانت التكنولوجيا المتطرفة خللاً يصيب التوازن الحيوي الذي نجده في أصعدة ومستويات الحياة برُمتها.

الخلاصـــة

نستطيع أن نخلص إلى نتيجة أصيلة تتمثل في المبادئ التالية: إذا كان العقل الإنساني متصلاً بالعقل الكوني، وكان العقل الكوني ممثلاً للمعرفة الكلية والوعي الشامل، كان العقل الإنساني باحثاً عن المعرفة الكامنة فيه. وإذا كانت المعرفة النظرية تُمده، عن طريق التفكير أو التأمل أو عن طريق التجريد في الرياضيات، كانت المعرفة العملية مرتبطة بالتجربة والاختبار. ففي التجربة يضع الإنسان المعرفة النظرية، أو الفرضية، موضع التطبيق الفعلي والعملي. وفي هذه التجربة المختبرة يبلغ العقل العلمي مستويين للمعرفة:

1 ـ تقنية ناعمة تشير إلى تطوير دائم ومستمر ومثابر على صعيدي الطبيعة والإنسان، بحيث أن التفاعل بينهما، يُمد كلاً منهما بأدوات معرفته والحصائل التي خلص إلى معرفتها.

2 ـ تقنية قاسية، مستغلة، متطرفة وعدوانية تشير إلى إحداث خلل في التوازن الحيوي بين الطبيعة والإنسان، وبين الإنسان ونفسه، بحيث أن العداء يقع بين الطبيعة والإنسان وبين الإنسان والإنسان.

نستطيع أن نقول: إن الحضارة الإنسانية، ورقي الإنسان، وتحقيق إنسانية عليا خالية من شوائب الإشراطات العديدة التي تقيده، تعتمد على التقنية الناعمة. وعلى هذا الأساس، لا تتقدم المجتمعات البشرية إلاّ في ظل التقنية الناعمة القائمة على العقل الإنساني العلمي، وذلك لأن الأسرار الحقيقية والجوهرية للوجود بدأت تكشف عن ذاتها في تقدم العلم المؤسس على قاعدة إنسانية.

الرسالة الثانية عشرة

الحريـــة والـوعـــي

صديقي...

تقول إن مسحة من اليأس اعترتك وأنــت تقرأ رسـالتي مـا قبـل الأخـيرة الـتي حاولت فيها أن أضع نهاية لليأس، أو أقلص آثاره إلى حـدوده الدنيـا. ومـن جـانبي، لا ألومك على إحساسك باليأس؛ هذا، لأن طرح القضية يثـير القضيـة ذاتـها علـى مسـتوى الواقع وعلى مستوى المثال. لكنني أحب أن أجيبك قائلاً بأنني لا أطـرح قضايـا الإنسـان على نحو شريعة أو ناموس أو نصيحة ، وذلك لأن مثل هذا الطرح يثير الجـانب السـلبي من الموضوع على نحو احتمـالي. فإذا ما حدثتـك عن شريعة الزنا، أو السرقة، وأنـت، في أعماق ضميرك ووجدانك، لم تفكـر فيـهما، فقـد أنبـهك إلى هـذا الأمـر أو ذاك، محرضـاً ناموس أو شريعة جسدك للاتجاه إلى الموضوع الذي أنبهك إلى اجتنابه. وعلى غير ذلـك، أسعى دائماً إلى البحث في الموضوعات بطريقة أجعلك تفكر، تعيد النظر، وتتأمل، لتكـون سيد مصيرك، وتعمـل بوحـي إرادتـك وأمـرك الأخلاقـي الـذي يتجـاوز النـهي المـانع أو التسيير الرادع. وفي هذا السـياق، تطـرح مخيلتـك صـورة معكوسـة للموضـوع، وأعـني أن الشـريعة الناهيـة توقـظ مـا هـو غـافل فيـك. أمـا إذا تـابعت التفكـير، وأعـدت النظـر، واستغرقت في التأمل، فإنك تبلغ، في نهايـة المطاف، الغايـة المرجـوة من البحث... تبلغ شريعتك الداخليـة الفاعلـة المعبـّر عنـها بالحريـة. هـذا، لأن البحـث يسـتبعد الشـريعة المكتوبة التي تحرض قانون الجسد على نحو سلبي أو انفعالي، أو غير مباشر.

يراودني مفهوم الحرية وأنا أكتب إليك. وعلى الرغم من أنني بحثت هذا المفهوم في مؤلفاتي الأخرى[21]، لكنني أرى نفسي مساقاً بقوة ضمنية تدفعني إلى التحدث عنه بوصفه مقولة إنسانية رائعة. ولا أبالغ، وأنا أعلن صراحة، أن الحرية هي مفهوم يشتمل على كل ما هو قائم في المفاهيم الأخرى. وبرأيي، أن مجموعة الفضائل، وقيم الخير، وصور المثالية، ورقي العقل، وسمو الأخلاق، وعظمة الوعي المتضمنة في الحياة الإنسانية، مفاهيم تتحقق ضمن إطار الحرية. وفي سبيل توضيح هذه المقولة الهامة، المتميزة بالكونية والشمول، أجد نفسي ملزماً على دراستها، من خلال صعودها درجات الوجود، في مراحلها الأربع المتتابعة، المتسلسلة والمتصلة:

آ مفهوم الحرية الاجتماعية.

ب مفهوم الحرية النفسية.

جـ حقيقة حرية الإرادة والاختيار.

د جوهر الحرية الفلسفية أو الحرية المنضوية تحت لواء الوعي والروح.

1 ـ الحرية الاجتماعية

تتشارك الحرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مفهوم واحد. ومع ذلك، تنقسم هذه الحرية إلى معالمها الثلاثة، بحيث يمكنني أن أتحدث عنها في علم الاقتصاد عن «الإنسان الاقتصادي»، وفي علم الاجتماع عن «الإنسان الاجتماعي»، وفي علم السياسة عن «الإنسان السياسي». والحق، أن مثل هذا التقسيم، يجعل مفهوم الحرية نسبيا، يختلف تطبيقه من نطاق إلى نطاق، ومن شعب إلى شعب. وبالإضافة إلى هذا، يؤدي هذا التقسيم إلى تجزئة الشخصية الإنسانية، وذلك لأنها تتوزع بين هذه النطاقات الثلاثة. وعندئذ، يتصرف الإنسان، ضمن كل نطاق، على غير ما يتصرف ضمن نطاق آخر.

عندما أحاول أن أتفهم الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الانقسام والتجزئة، أعمد إلى دراسة الواقع الاجتماعي. وعندئذ، أطرح الأسئلة التالية: ما الحرية

---

[21] راجع فصل «الحرية» في كتابي «بحوث فلسفية»، وفصل «الحرية الإبداعية ومبدأ الشمول» في كتابي «المبدأ الكلي».

الاقتصادية؟ كيف يكون الإنسان حرا على نحو اقتصادي في مجتمع تسوده الفروق في نطاق الملكية؟ وكيف يكون الإنسان حرا أن يعمل ما يشاء وفق قاعدة «دعه يعمل، دعه يمر» إن كانت المعطيات الاقتصادية مختلفة بين شخص وآخر؟... ما الحرية الاجتماعية؟ كيف يكون حرا من ينتمي إلى طبقة اجتماعية، أو فئة اجتماعية، تختلف في مفاهيمها عن الطبقة أو الفئة الأخرى؟ كيف يكون حرا من يعتنق مذهبا أو عقيدة يختلفان في موقفهما من الآخرين عن عقيدة الغير ومذهبه؟... ما الحرية السياسية؟ كيف يكون حرا ذلك المرء الذي ينتمي إلى نظام اجتماعي مستبد، أو ظالم، لا يحكمه الفلاسفة، أو لا يتخذ من القانون العادل قاعدة له؟ كيف يكون حرا ذلك الفرد الذي يعد مواطنا في وطن تحكمه فئة، غير حكيمة، جعلت من السياسة فن الدهاء، وتخلت عن المفهوم الحقيقي للسياسة، وهو الإدارة الحسنة؟ وهكذا، تكون الحرية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، حرية نسبية، لا تعبر عن جوهر الحرية الإنسانية الملازمة للوعي الكوني المتمثل في الإنسان. ومع ذلك، يمكنني أن أقول إن تطبيق هذه الحرية أفضل من عدم وجودها، وإن المجتمعات الأكثر تطورا بلغت مستوى أعلى وأفضل لمفهوم الحرية النسبية من المجتمعات الأخرى.

ثمة حقيقة أحب أن أشير إلى جوهرها المتصل بمفهوم الحرية الاجتماعية. فمن جانبي، أعتقد أن الإنسان «كيان» واحد يمتد في أبعاد عديدة. وتتمثل هذه الأبعاد في ما ندعوه: البعد الاقتصادي، البعد الاجتماعي، البعد السياسي، البعد الديني، البعد الأخلاقي... الخ. والحق، أن هذه الأبعاد تنبثق من حقيقة جوهرية واحدة هي كيان إنساني متحد يعبر عن ذاته من خلال أبعاده. لذا، يتجه الكيان الإنساني إلى العالم الخارجي المتمثل بالمجتمع، ليجد تنوعا من الأبعاد والمستويات. وعندئذ، يسعى الكيان إلى تطبيق مبادئه في كل بعد أو مستوى. ففي النطاق الاقتصادي يطبق الإنسان كيانه تماما كما يطبقه في النطاق أو البعد السياسي والاجتماعي والروحي والأخلاقي. وفي هذه الحالة، لا يتناقض الكيان الإنساني أو لا ينقسم أثناء تطبيق جوهره في الأبعاد العديدة. هذا، لأن «الإنسان الإنساني» واحد في كيانه وواحد في تطبيق أبعاد كيانه. ففي تطبيقه للبعد الاقتصادي يتكامل مع تطبيقاته الأخرى. والحق، أن هذه الأبعاد تتكامل لأنها تشكل المجالات التي يطبق من خلالها الكيان ذاته في الحقل الاجتماعي [22].

---

[22] راجع فصل «الإنسان وأبعاده الاجتماعية» في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».

يؤلمني أن أقول، إن الأبعاد المذكورة تتناقض مع بعضها في الحقل الاجتماعي. لذا، يتناقض الإنسان في تطبيق أبعاده الاجتماعية كلها. فهو يعتقد أن البعد الاقتصادي لا يتوافق مع البعد الأخلاقي أو البعد الروحي، كما وأن البعد الاجتماعي لا يتوافق مع البعد السياسي. وعلى هذا الأساس، يتجزأ الإنسان وينقسم على ذاته أثناء عملية تطبيق أبعاده الاجتماعية التي تشكل كيانا واحدا متعدد مستويات التطبيق. وفي هذه الحالة، يدرك المرء أن حريته الاجتماعية المتنوعة لا تحمل من مفهوم الحرية إلا اسمها، الأمر الذي يجعله يقر بنسبية الحرية.

يشير الانقسام الذي يقع للكيان، وهو يعمل على تطبيق أبعاده، إلى مطالبة الإنسان بالحرية في كل بعد على حدة، بحيث أن عملية المطالبة تنضوي تحت مقولة الحقوق. ولما كانت أبعاد الإنسان لا تعبر عن وحدة كيانه المطروحة في المستويات العديدة، فإنها تخضع للمفاهيم الزائفة التي وضعتها السلطات التقليدية من اجتماعية واقتصادية وأخلاقية ودينية... الخ. وعندئذ، يطالب المرء بحرية زائفة اعتقادا منه بأنه يطالب بحقوق مكتسبة من خلال تلك الفئة، أو العائلة، أو الطبقة، أو المذهب، أو العقيدة التي ينتمي إليها أو العمل الذي يقوم به. وعندما يتأمل الإنسان الواعي حقيقة الحرية التي يطالب بها كحق، يدرك أنها لا تمثل حريته التي يسعى إلى تطبيقها في الحقل الاجتماعي من خلال كيانه الموحد. فقد تعلمه السلطة المذهبية التي ينتمي إليها ويخضع لها، أن تطبيق البعد الاقتصادي لا يتصل، من قريب أو من بعيد، بتقاليد مذهبه، لأن الاقتصاد «شطارة ومهارة». وقد تعلمه السلطة الخلقية والدينية التي يخضع لها أن الأخلاق تختلف عن السياسة، كما يتمايز الاجتماع عن السياسة... الخ. وعندئذ، يدرك أنه فريسة تقاليد زائفة علمته أن يطالب بحرية، هي حق، انصياعا لمفاهيمها، وتحقيقا لقيمها التي تتوافق مع مصلحتها... تلك هي الحرية الاجتماعية النسبية التي تخلو من جوهر الحرية.

2 ـ الحرية النفسية

أنتقل إلى درجة ثانية من درجات سلم الحرية، هي الحرية النفسية. وإني أتساءل: ماذا تعني النفس؟ ماذا تعني الحرية النفسية؟ وكيف أكون حرا بنفسي وفي

نفسي؟ كيف تكون الحرية النفسية قيمة أسمى من الحرية الاجتماعية النسبية؟ كيف تمثل حريتي النفسية مستوى يبدأ فيه توازني الداخلي وتكامل شخصيتي؟

تشير كلمة النفس، في هذا السياق، إلى مجموعة القواعد التربوية التي نشأ عليها الفرد، تعلمها، وتركت آثارها فيه، وانطبع بها. وإذا كان الأمر كذلك، فيمكنني أن أتساءل عن المفاهيم المتضمنة في تلك القواعد التربوية. وأجيب بأنها المفاهيم التي ستشكل «نفسية» الطفل الناشئ في وقت لاحق من سيرورة حياته. وأتساءل من جديد: هل تشكل تلك القواعد التربوية إشراطات، أي قيودا لـ «النفسية» التي تكونت عقب تشكلها؟ وهل يستطيع المرء الذي تكونت نفسيته وفق قواعد مشروطة أن يحقق الحرية؟ وهل يستطيع الإنسان المشروط بكذبه، أو بطمعه، أو بكبريائه، أو بتعصبه، أو بهزئه، أو باستغلاله، أو بأنانيته أن يمارس الحرية؟

يمكنني أن أقدم مثالا أو أمثلة عن القواعد التربوية التي ستكون إشراطات قاسية للمرء الذي يتبناها. ألا ترى أن المرء الذي نشأ على الكبرياء، أو التعصب العرقي أو الطائفي أو الطبقي أو الفئوي أو العائلي، أو تمرس بالكذب، والطمع، والاستغلال، سيظل، في حال تجرده من الوعي، مشروطا بقواعد كبريائه وتعصبه المتعددة؟ وهل يستطيع هذا المرء أن يكون حرا، وقد تكونت نفسيته في وسط مشروط ومقيد لا يسمح له بالخروج من قوقعته ونطاقه الضيق؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ على قواعد تربوية سيئة تتجسد بالخداع، والنميمة، والغيبة، والهزء، وضيق الأفق الفكري، والتعصب بأنواعه، سيبقى مشروطا بهذه القواعد، بحيث تعجز «نفسه المكونة» عن التحرر من إشراطاتها وقيودها؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ وفق قاعدة حب الذات ومركزية الأنا سيحافظ على إشراطه النفسي المكبل بهذه المركزية، الأمر الذي لا يساعده على أن يكون حرا، بل مكبلا بسلاسل الأنا؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ على «كبت» مشاعره نتيجة قمع أو سيطرة أبوية أو تجمعية، وتربى على الخضوع والانصياع، سيفقد قدرته على الحرية لأنه مقلص في كبته، وخضوعه؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ على الخنوع والاستسلام سيحافظ على «نفسية» مشحونة بهذا الخنوع، تعجز عن انطلاقها في أجواء الحرية؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ على «اعتيادات» جسدية أو نفسية، يستمر في الخضوع لإشراطاتها دون أن يحقق الحرية؟ ألا ترى أن المرء الذي نشأ وفق قاعدة اللامبالاة واللامسؤولية سيخضع لهذين الإشراطين، الأمر الذي يقصيه عن مفهوم الحرية؟ ألا يمكنني القول إن هذا الإنسان «المكون»، الذي لا يستطيع أن ينفذ إلى الإنسان «المكون» سيفقد الحرية

في كل أفعاله وكل سلوك من سلوكاته؟... تلك هي «النفس المشروطة» بانفعالات التربية الزائفة...

أعتقد أنك أصبحت قادرا على تعريف «النفس الحرة» وتحديد «الحرية النفسية». وإن تأمل التساؤلات يمدك بالقدرة التي تمكنك من معرفة أن « النفس الحرة» هي النفس اللامشروطة، وأن «الحرية النفسية» هي الفعل الذي لا يرتبط بقيود تحول دون التعبير المنعتق من إشراطات التربية الزائفة. وفي سبيل التوضيح أقول: النفس المتكبرة، النفس المتعصبة لعرقها أو مذهبها أو طبقتها أو عقيدتها أو طائفتها أو عائلتها؛ النفس المخادعة أو الهازئة، أو الأنانية، أو المنفعلة، أو اللامبالية، أو اللامسؤولة، أو الخاضعة، النفس المستسلمة لاعتيادات اندفاعية لا عقلية؛ النفس الطامعة أو المستغلة، والراغبة بالتملك... الخ، نفس تقبع في ظلمة العبودية ولا تحيا في نور الحرية: هي نفس مكبلة بإشراطات جعلت منها «نفسا مكونة» تعجز عن إحداث «تكوين» جديد. لذا، أستطيع أن أقول لك بأن النفس الحرة هي «النفس المكونة» القادرة على الانعتاق والخلاص من إشراطاتها وانفعالاتها... ولما كانت النفوس المكونة، اللامشروطة، نادرة في عالمنا، فإن النفوس المكونة كثيرة جدا... هكذا، يقل عدد الأحرار ويكثر عدد العبيد.

3 ـ حرية الإرادة

إن إدراك المفهوم الذي تتضمن فيه «الحرية النفسية» يهيئنا بمعرفة حرية الإرادة والاختيار الحر. والحق، أن تأمل اصطلاح حرية الإرادة أو الاختيار الحر، يجعلنا نتعمق في فهم كلمتي الإرادة والاختيار، وذلك لنعلم كيف تكون الإرادة حرة وكيف يكون الاختيار حرا. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أقول إن الإرادة هي القوة التنفيذية التي تنقل أوامر السلطة التشريعية إلى الفعل والواقع والتطبيق. ولما كانت السلطة التشريعية الإنسانية محاكمة عقلية وفكرية سليمة، فإن الإرادة قوة تنفيذية تحول الفكر إلى عمل وسلوك. وهكذا، أقول إن حرية الإرادة تعبير آخر لحرية الفكر، للمحاكمة العادلة، التي تجد طريقها إلى الكشف والظهور عن طريق الإرادة. ولما كنت أعترف أن الإرادة هي حصيلة التفكير وليست ماهية أو قوة فكرية، فإن الحرية الملازمة لها ناتجة عن الصواب القائم في التفكير، أو السلامة في المحاكمة. ولما كانت الإرادة لا تسبق الفكر، فلا يمكنني أن أقول «أريد ثم أفكر»، بل «أفكر، أو أعقل ثم أريد». وإذا كان تفكيري

سليما وواعيا كانت إرادتي حرة. والحق، أن تفكيري لا يكون سليما، واعيا، صائبا ومحاكما بعدالة وسلامة، ما لم يكن عقلي منعتقا من إشراطات التربية النفسية الزائفة، ومن الانفعالات المجسدة بالأنانية والرغبات والشهوات وغيرها، الأمر الذي يجعل حرية إرادتي ملازمة لعقلي اللامشروط بأنواع الانفعالات. هذا، لأن العقل المشروط بانفعالاته ورغباته يعجز عن أن يكون أو يبدع تفكيرا سليما واعيا، يتحقق في إرادة حرة.

تشير حرية الإرادة إلى القدرة التي تهيئ لي سبيل الاختيار. فإذا كانت إرادتي الحرة حصيلة تفكير سليم، منطقي ومحاكم، وكانت إرادتي هذه قوة تنفيذية تهدف إلى نقل طاقتي العقلية إلى حيز التنفيذ والعمل، كان الاختيار هو التطبيق الذي تسعى إليه المحاكمة العقلية. وهكذا، يمكنني أن أقر بوجود ثلاثة أبعاد في حياة الإنسان: العقل الذي يحاكم، والإرادة التي تنفذ، والفعل الواقعي الذي يعبر عنه بالاختيار. وإذا كانت الإرادة لا تسبق الفكر، فلا يمكنني أن أقول «أريد ثم أفكر» أو «أختار ثم أفكر». وإضافة إلى هذا، لا أستطيع أن أعبر عن نفسي فأقول «أريد هذا دون ذاك» إن كان ما أبغيه خاليا من التفكير السليم، الصائب والمحاكم. يمكنني أن أقول «أرغب في هذا دون ذاك». وعندئذ، تكون رغبتي هي القوة الفاعلة... رغبتي التي تشرط عقلي وتخضعه. أما إذا سبقت رغبتي تفكيري، عنى ذلك انعدام حرية الإرادة وحرية الاختيار معا. لذا، يقتضي الأمر أن أفكر تفكيرا سليما أولا، وأريد ثانيا، وأختار ثالثا... تلك هي حرية الاختيار اللامشروطة بالانفعالات القائمة على الرغبات والشهوات.

4 ـ الحرية الفلسفية

لا يستقيم بحثي لمفهوم الحرية إلا بفهم الحرية الفلسفية التي أدعوها «الحرية الروحية». فإذا كانت الحرية الاجتماعية نسبية تحقق جزءا من معنى وجودي، وكانت الحرية النفسية تحقق جزءا أكبر من ذاتي، وكانت حرية الاختيار أو الإرادة الحرة تطبيقا لحرية نفسي وعقلي، كانت الحرية الفلسفية، أي الحرية الروحية، تعبيرا أكيدا أو كاملا للوعي. والحق، أن هذه الحرية تنعتق من كل قيد وإشراط انعتاقا كاملا، وتتمثل في معرفة الحق «اعرفوا الحق يحرركم». ولا شك، أن معرفة الحق تحررني من سلاسل العبودية القائمة في الجهل والأنانية.

إن دراسة الإنسان تشير إلى وجود الأنا، والذات والكيان. فالأنا هي تركيز الوجود المادي، بطاقتيه المادية والنفسية، في بؤرة تنثني على ذاتها في انطواء شديد. وتسعى هذه الأنا المغلقة إلى فهم ذاتها بفعل قدرة الوعي المتضمن فيها. والذات هي الأنا التي تعمل على فهم حقيقتها وواقعها. وفي اللحظة التي تستهل هذه الأنا فهم ذاتها، تنقسم إلى قسمين هما: الشعور واللاشعور: الشعور هو ما تكون عليه الذات في الحاضر، واللاشعور هو ما انطوى في الأنا من ماضي الحياة، انطلاقا من الخلية الأولى صعودا حتى الإنسان. وعندما تنقسم الأنا، يبدأ الصراع بين الشعور واللاشعور، الأمر الذي يؤدي إلى توازن الذات عن طريق تكامل الشعور واللاشعور. فإذا ما حقق الإنسان هذا التوازن، بلغ مستوى الحرية النفسية وحرية الإرادة والاختيار الحر... تلك هي الدرجة التي يسعى علماء نفس الأعماق الإنسانيون تحقيقها من أجل إبداع شخصية متكاملة[23].

إن الوعي الماثل في تكامل الشعور واللاشعور وتكامل الشخصية اللذين يتجليان في الحرية النفسية وحرية الإرادة، لا يعد الحد الأقصى أو الدرجة العليا في سلم الوعي. لذا، يقتضي الأمر تحقيق الكيان لكي يكون الوعي كاملا. هذا، لأن إحداث التوازن النفسي لا يخلو من احتمال التعرض لبعض الارتكاسات أو الأخطاء التي تحرض بعض الإشراطات البسيطة الغافلة في تضاعيف الذات. وعلى هذا الأساس، تتطلب الحرية الفلسفية وعيا يشير إلى نهاية كل إشراط وكل قيد. ولما كانت صعوبة هذا المستوى، الذي تتألق فيه الحرية بالوعي الكامل، قائمة، فإنني أشدد علىتحقيق الحرية في مستوييها النفسي والإرادي لكي تتكامل الشخصية. وفي رأيي، أن الذين حققوا الحرية الفلسفية، أو الحرية الروحية التي تتميز بالوعي الخالص، قلة من البشر. إنهم عمالقة إنسانيون تحرروا، بفعل الوعي، من كل إشراط. وهكذا، تجاوزوا كل أنا نية متمثلة بالطمع، والحسد، والرغبة في التملك، والكبرياء، وشهوة المجد، وحب المال، والانغماس في الرغبات والملذات، والكراهية. فقد اعتنقوا مبدأ المحبة، وقلصوا مقاومتهم المادية السالبة إلى حدها الأدنى. والحق، أن هذا التقليص سمح لمقاومتهم الإيجابية المتمثلة بالروح أن تحقق وجودها في كيان واحد غير منقسم. واستطاعوا أن «يروحنوا» أجسادهم وذلك بتوحيد الأنا والذات في الكيان المتكامل. وعلى هذا الأساس، لم يبق فيهم أثر

[23] راجع فصل «المعرفة سبيل إلى التكامل النفسي» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

للانفعال، للرغبة أو للشهوة... تلك هي الحرية الروحية أو الفلسفية التي تحيا في الوعي الكوني، وتوحد ما هو أرضي مع ما هو سماوي، ما هو مادي مع ما هو روحي في كيان لا ينقسم على ذاته، بل يتكامل من أجل تحقيق الحياة الكلية المنعتقة من كل صفة، وقيد وتعين.

5 ـ الحرية والحتمية

ثمة مفهوم أخير للحرية، أحب أن أحدثك عنه بإيجاز، هو مفهوم ينضوي تحت مقولة «الحرية والحتمية». ولا شك أن الفكرة الأولى التي تحفل باهتمام المرء تتجسد في مفهوم القدر. وإذا كان الواجب يقضي بوضع تعريف لمفهوم القدر قلت: إن القدر هو ما نأتي به من أفكار وأفعال قمنا بها في حياتنا أو حيواتنا الماضية... هو الرصيد الباقي من الماضي. وتعتبر الأفكار والأفعال التي حملناها إشراطات لنا« قدرناها» لأنفسنا وسببناها بأنفسنا. وعلى هذا الأساس، أنفي علاقة القدر بقوة غيبية أو بإله شخصي يلعب ويلهو بالمصير الإنساني كما يشاء. فإذا كنت متكبرا، أو مستغلا، أو طامعا، أو هازئا. أو أنانيا، أو شهويا، أو انفعاليا... الخ، في حياتي الماضية، فلا بد وأن أحمل معي تلك الصفات التي تميزت بها لتكون قدرا لي في حياتي الحاضرة. ووفق هذا المقياس، لا يكون قدري ما قدر لي أن أكونه من قبل مصدر متعال أو قوة خارجة عني. فأنا أقدر ما أنا عليه في حياتي الحالية. وبالإضافة إلى ما أقوله الآن، لا يكون قدري هذا عقوبة لي، بل تأكيدا لمسؤوليتي إزاء أفعالي وأفكاري. ولما كنت مسؤولا عن سلوكاتي وتصرفاتي الماضية، فإن الحرية هي التي تجعل مني كائنا مسؤولا. هكذا، تقف الحرية مقابل القدرية. ثمة سبب قدرته لنفسي، يتمثل في أعمالي، وآرائي، ومواقفي، وفي النتيجة التي أحصدها، وفي مسؤولية تلزمني على تحمل ما فعلت، وحصاد ما زرعت. وثمة حرية تتمثل في وعي، يساعدني على الانعتاق والخلاص من القدر الذي سببته لنفسي. وإذا ما أدركت هذه الحقيقة، وعيت دوري الحالي، وبدأت أحقق كياني والحقيقة الماثلة في على نحو يتوافق على ما أنا عليه. وإذا ما بدأت في «تعديل» ذاتي، علمت أنني بدأت أحقق عالم الحرية، وأدركت أن القدر، بمعناه الغيبي، كلمة ابتدعها أناس نفعيون رغبوا في حرمان الآخرين من قدرتهم على ممارسة الحرية، وحاولوا أن يجعلوا منهم عبيدا. وعلاوة على هذا، لا تتصل الحرية والقدر بماضي حياتنا أو حيواتنا فقط بل تشكل القاعدة التي نبني عليها صرح مستقبلنا. والحق، أن الحكمة

المتضمنة في عبارة «ما يزرعه الإنسان إياه يحصد» قضية تشير إلى أنني مسؤول عن تكوين مستقبلي من خلال حريتي أو عبوديتي. فإذا ما بقيت عبدا، من حيث فهمي للقدر المفروض علي من خارج كياني، قدرت على نفسي حياة مقبلة صعبة ومعقدة، تتطلب المزيد من الحرية. وإذا ما وعيت الحرية بأنها فعل يعتقني ويخلصني من قيود وإشراطات حياتي أو حيواتي الماضية، ومن قدري الذي سببته لنفسي، أصبحت امرؤا فاعلا باتجاه المزيد من الحرية، والوعي والانعتاق. فأنا «أقدر» ما سأكونه في حياتي المقبلة، بفعل حريتي ومسؤوليتي. وإذا ما فشلت في تحقيق هذه الحرية، رتبت على نفسي عودات مؤلمة وقاسية [24].

أحب أن أنتقل إلى نقطة أخرى من نقاط فلسفة الحرية والعبودية. لما كان التطور في الطبيعة وفي الإنسان يعبر عن الانفتاح إلى ما هو أسمى وأنقى، ويشير إلى الانعتاق من عبودية تكبل الطاقة في الإنسان والطبيعة، فإنه يتوافق مع مفهوم الحرية. لذا، كان التطور حرية فاعلة باتجاه الانفتاح، والخلاص من الانغلاق. وإذا كانت الحقيقة ماثلة في قولنا هذا، علمنا أن الحتمية في الطبيعة وفي الإنسان ظاهرية وليست جوهرية... إنها الانغلاق القائم في الكثافة المادية، وفي انطواء الطاقة الكونية على ذاتها في الكتلة. ولكن هذه الطاقة تسعى إلى الانفتاح بفعل حرية ناشطة فاعلة. إذن، فالانغلاق ظاهري والانفتاح باطني، والحتمية ظاهرية والحرية أصيلة وجوهرية [25]. وهكذا، يمكنني أن أقول: لا حتمية في الطبيعة وفي الإنسان. هذا، لأن الحرية تعني تحقيق القانون البدئي في الغاية التي تسعى المادة إلى تحقيقها، وذلك لأنهما مبدأ واحد. وهذا يعني وجود الوعي في الطبيعة وفي الإنسان... والحق، أن وجود الوعي متصل بوجود الحرية.

6 ـ الحرية والمصادفة والصدفة

ثمة نقطة أخرى أحب أن أتحدث عنها باقتضاب واختصار بالغين. وتتمثل هذه النقطة في مفهوم الصدفة. وإذا ما سألتني عن سبب إقحام مفهوم الصدفة ضمن

---

[24] راجع فصل «العودة» في كتابي «رد على اليهودية واليهودية المسيحية»، وفصل «العودة» في هذا الكتاب.

[25] راجع فصل «فلسفة السلب والإيجاب» في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية»، وفصل «التطور المشترك وظاهرة الإنسان» في كتابي «المبدأ الكلي»

موضوع الحرية، أجبت: إن أدعياء الصدفة، برمتهم وباختلاف أنواع معتقداتهم، يؤكدون وجودها، وينفون الحرية. فإذا كانت الحياة، أو الوجود، أو الإنسان، أو الخلية الأولى... الخ، قد وجدت بالصدفة، فإنما يعني نفي الحرية من عالم تسيطر فيه العشوائية. ولهذا، أرى نفسي ملزما على التمييز بين الصدفة والمصادفة لأبلغ حدا أقول فيه: حقيقة هي المصادفة، وزائفة هي الصدفة. إذن، فالمصادفة تشير إلى تطابق حدوث التعارضات في لحظة لاسببية معطاة. أفترض أنني، وأنا أسير في الحقول أتنشق الهواء النقي، أصابتني رصاصة طائشة انطلقت من بندقية صياد معين. وإذا ما أخضعت الحدث الذي وقع لي للمناقشة لوجدت أن الإنسان العادي، المتصف بوعي ضئيل، يعتقد أن الصدفة أو القدر يقف أو تقف من وراء ما أصابني. ولكنني، أجد في الإنسان الواعي إدراكا واضحا لما وقع لي، إذ يحاول أن يدرس جميع الأسباب التي أدت إلى انطلاق الرصاصة، في تلك اللحظة، بالطريقة التي أدت إل إصابتي، وجميع الأسباب التي أدت إلى مروري في تلك اللحظة، ليستنتج أن المصادفة هي المطابقة بين حادثتين وقعتا في لحظة واحدة. ويدرك الإنسان الواعي أن دراسة سلسلة الأسباب المتصلة بإطلاق الرصاص وبالمرور في تلك اللحظة، قضية شائكة تجد أصولها في نطاق حياتي الحاضرة وحياة الصياد الحاضرة، وقد تكون متصلة بحياتي الماضية أو بحياته الماضية. ولما كانت دراسة الأسباب العديدة قضية غاية في الصعوبة، فإن العلماء الذين يشاهدون تفاعل حدثين، أيا كان نوعهما، يجهلون الأسباب الكلية، الأمر الذي يحثهم على معرفة ما حدث. وكلما تعمقوا في معرفة الأسباب، أدركوا الحقائق.

أعود إلى مفهوم الصدفة، لأقول بأن نظرية الاحتمال تنفي وجود الصدفة. وعلى الرغم من نفي الصدفة، فإن العلماء يبذلون قصارى جهدهم لمعرفة القوانين والأسباب التي تؤدي إلى وقوع الأحداث الأرضية. وهاءنذا، أقدم لك مثلا هاما: يدرس علماء الحياة السبب أو الأسباب التي جعلت عناصر الحمض الأميني تجتمع معا في نطاق الخلية، ويتساءلون عن «كيف» اجتماعها وتآلفها. وهم، في دراستهم وتساؤلهم، يخضعون القضية للاحتمال والصدفة. يقولون: لو كان اجتماع هذه العناصر قد تم بالصدفة، لتطلب زمنا يتجاوز زمان كوكب الأرض بآلاف آلاف المرات، ومكانا أوسع بآلاف آلاف المرات من مكان هذا الكوكب. وعلى هذا الأساس، ينفون الصدفة ويثبتون المصادفة أو الاحتمال. وهاءنذا، أسمح لنفسي بتقديم مثل آخر أقل أهمية: لو أننا قرأنا العبارة التالية «الأم تحب أبناءها، تربيهم، وترسلهم إلى المدرسة ليتعلموا» لأدركنا بأنه يستحيل أن تكون

هذه العبارة مكتوبة بالصدفة للسبب التالي: إذا كانت هذه الكلمـات مؤلفة مـن الأحـرف الأبجدية العربية، فيجدر بنا، في سبيل التأكيد على وجـود الصدفـة أو نفيها، أن أجمع من كل حرف من حروف الأبجدية عددا كبيرا جدا وأخلطها مع بعضها: أكتشف وجود حرف «أ» و «م» قرب بعضهما. وإذا ما تعمقت في الدراسة، وجدت أن وجودهمـا قـرب بعضهما قد يشكل كلمة «أم» أو كلمة «ما»، أو قد ينفصلان عن بعضهما دون تحقيـق أي ارتباط. وإذا ما أخذنا من كل حرف من حروف الأبجدية مليارات ومليارات، لوجدنـا أن مكان كوكب الأرض لا يكون وافيا أو كافيا. وهكذا، نسـتنتج أن التوافـق القـائم في العقـل وفي الطبيعة، هو السبب الـذي أحـدث تـآلفا بـين الأحـرف، وأدى إلى اجتماعـها، في جملة نلمس فيها الإدراك، والوعي، والقصد.

صديقي... يمكنني أن أقول: إن الحرية هي القوة الفاعلة والشاملة الـتي تسـلب الصدفة معناها. فإذا كان تآلف العناصر يتحقق بفعل حرية، كان تطورهـا ونموهـا محققـا بفعل حـرية. وإن ما تفصح عنـه في مرحلة لاحقة كـان حقيقـة منطويـة في البدايـة، في العقل والطبيعة. ولقد أعلن العلامة تيار ده شاردان هذا المبدأ إذ قال: «كمال الأشياء قـائم في بداياتها». وإذا كان شاردان قد أقر بهذه الحقيقة فلأنه أدرك أن كل تطور، أو تنام أو انفتاح يحقق الغاية المتضمنة في قانون وجوده الأصلي، بفعل حرية هي انطلاق طاقـة مـن كثافتها.

7 ـ الحرية والكونية

تدفعني حماستي إلى متابعة حديثي مشيرا إلى قضية تشغل أذهـان البشـر. فثمـة من يقول إن الإنسان كائن مسير بطريقة تكاد تكون عشوائية، وثمة من يقـول إن الإنسـان مخيـر لأنه مسؤول عن أفعاله. والحـق، أن الفئـة الأولى تمثـل القدريـة بـاختلاف أنـواع التعبير عنها، لكـنها تعجـز عـن تفسـيرها إلا بضـروب مـن الأمثلـة الغيبيـة الـتي تـدب الرعب في قلوب معتنقيها، وتخلق فيهم الإحساس بالتفاهة والاستسلام. أما الفئة الثانية، فإنها تمثل الحرية في أجلى مظاهرها. وإذا كانت حماستي قد دفعتني إلى الخوض في هذا الموضوع، فإن حماستي ذاتها تدفعني إلى الدفـاع عـن حريـة الإنسـان في نطـاق المقـولات التالية:

1 ـ إذا كنت مؤمنا بالاتصالية الكونية، وأنفي الثنائية التي تقسم الوجود إلى قسمين مختلفين ومتناقضين، وأعتقد بوجود «حقيقة سامية» أو «حقيقة كونية» أو «وعي كوني» لا ينفصل عني لأن ثمة «قاسما مشتركا» بيننا، وأرفض المفاهيم ووجهات النظر التي تختلق «كائنا مفارقا» يتصرف بمقدرات البشر كما يرغب ويحلو له، كنت مقرا ومعترفا بالحرية ورافضا للتسيير. إذن، فالأمر يرتبط بإدراكي للكون والوجود والحقيقة. فإذا كنت مؤمنا بوحدة يتكامل في نطاقها حياتي ووجودي مع حياة ووجود «الحقيقة السامية» كنت مؤمنا بالحرية. وإذا كنت مؤمنا بانقسام وانفصال حياتي ووجودي عن حياة ووجود «كائن مفارق، فعال» كنت مؤمنا بالتسيير والقدرية.

2 ـ إذا كنت مؤمنا بالاتصالية دون الانفصالية، وبتكامل الروح والمادة، دون تناقضهما في الجوهر، وباتحاد الأعلى مع الأدنى، كنت مؤمنا بأن القانون الماثل في الكون قانون واحد، قد يتدرج وفق مستويات الوجود. وعندئذ، أدرك أن القانون، أو الوجود أو الكينونة، مشترك بين الإنسان و «الحقيقة السامية». وإذا كان القانون مشتركا، وواحدا في صميمه، علمت أن «الحقيقة السامية» لا تسير ذاتها في الإنسان. ويمكنني، في هذا السياق، أن أقدم لك مقاربة فكرية: الأب الذي يوجه ابنه الصغير. والحق، أن تقديم هذا المثل يجعلني أتساءل: هل أن الأب الأكبر يسير ابنه الأصغر؟ ويمكنني الإجابة بما يلي: إن الأب يسير ابنه، على نحو ظاهري، ولكنه لا يسيره على نحو باطني، داخلي وجوهري. هذا، لأن القانون المشترك بينهما هو قانون واحد... إذن، فالأب يعمل على تعليم ابنه كيف يتوجه، أو يتعلم، من خلال القانون الماثل فيه، ويسعى إلى إرشاده وحثه، عن طريق قانونه الذاتي الخاص، إلى قانون ابنه الذاتي الخاص. والحق، أن أي تعسف من قبل الأب، يؤدي إلى تمرد الابن، وذلك، لأن تحول الأب عن تحقيق القانون الواحد المشترك، قد يحدث خللا في العلاقة، الأمر الذي يدفع الابن إلى الاعتقاد بأنه مسير لا مخير. وهكذا، نرى أن الابن سوف يتصرف وفق حريته إذا ما بلغ سن الرشد. وهذا دليل واضح على أن الأب كان يسعى إلى تعليم ابنه كيف يستفيد من قانون ذاته، وأن تعليمه وإرشاده، أو توجيهه لم يكن تسييرا لأنه لا يتنافى مع القانون الموجود فيه، والمشترك أو المتماثل مع قانونه الخاص.

3 ـ إذا كانت «الحقيقة السامية» تدرك أو تعي كل شيء، لأنها حضور كلي، وتخرج عن نطاق الزمان والمكان النسبيين، فيمكنني القول بأن معرفتها تسبق فعلي المحدد بالزمان والمكان. وعلى هذا الأساس، أرفض أن تكون هذه المعرفة المسبقة

تسييرا أو تقديرا لما يقع لي. هذا، لأن المعرفة المسبقة التي يشتمل عليها الحضور الكلي لـ«الحقيقة السامية»، لا تشير، من قريب أو من بعيد، إلى أن أفعالي مرتبطة بهذه المعرفة. وبالقياس، أستطيع أن أضرب لك المثل التالي: لو أنك استطعت أن تشاهدني عن بعد، وترى مسبقا بأنني على وشك السقوط في حفرة أو هاوية، لم أكن قادرا على رؤيتها، لأدركت أن سقوطي لن ينتج عن معرفتك السابقة. إنك تستطيع، عن طريق القدرة التي تمتلكها، أن ترى ما سيقع لي دون أن تسبب الحدث الذي سأتعرض له.

4 ـ إذا كنت أعتقد بالتسيير، فأنا ملزم على نفي العقل. ولما كان العقل الإنساني قدرة فاعلة في نطاق الفهم والوعي ويستمد مبادئه من ذاته، فلا أستطيع أن أنفيه للأسباب التالية: في النطاق الإنساني، أجد صعوبة في «تسيير» إنسان عاقل، وأعجز عن التلاعب بعواطفه والإطاحة بمملكة محاكمته، كما أجد سهولة في« تسيير» إنسان غير عاقل، وأعني إنسانا لم يصقل ملكاته العقلية على نحو مثالي أو منطقي واف، الأمر الذي يجعلني أتلاعب بعواطفه وقراراته الفكرية. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أقول إن الإنسان العاقل أكثر قدرة، وبالتالي أكثر حرية على اتخاذ القرار وإنشاء المحاكمة، وأقل قابلية للتسيير. إذن، فالإنسان الجاهل، الذي لم يسع إلى ملء ملكاته الفكرية بعقلانية معمقة، أقل قدرة، وبالتالي أقل حرية، على اتخاذ القرار وإنشاء المحاكمة. وهذا يعني أن العقل مرحلة وسطى بين الحرية الكاملة، المتمثلة بالوعي، وبين الحتمية والقدرية الناتجة عن عدم صقل المواهب. هكذا، ترى أن العالم والحكيم والأخلاقي أكثر حرية من غيرهم، لأنهم يتميزون بعقل رصين، متماسك حلقات التفكير، وثابت في مبادئه وقواعده.

5 ـ إذا كان العقل يغفل مبادئه وقواعده الضمنية، فإنه يفسح المجال للتسيير والارتماء في أحضان الغيبيات والأوهام. والحق، أن عقلا كهذا، يصبح عرضة للانقياد إلى تقاليد وأعراف، تشكل إشراطات قاسية تحول دون تنميته وتحقيق مبادئه. ولهذا السبب، ترى أن الأفراد أو الشعوب التي لم تطور طاقاتها العقلية على نحو واف« قدرت» لنفسها أن تتأخر عن ركب الحضارة، وتخضع لـ «تسيير» يأتيها من خارجها أو من القيود والإشراطات الداخلية التي أخضعت عقلها لها.

8 ـ الحرية والأمر الأخلاقي

أعتقد أنني حاولت أن ألامس عمق هذه المواضيع، وأثير فيك الحماسة إلى العمل من أجل بيان حقيقتها. فأنا، يا صديقي، مجرد صديق محب يخلص لعلاقته، ويسعى إلى «تنشيط» القوى الكامنة في أعماقه وأعماق غيره. وإذا كنت أقوم بهذا الدور، فلأنني على يقين بأن عظمة دور المعلم أو المرشد، تتوقف على تنشيط طاقة مريده الفاعلة. ولا شك، أن سلوكه هذا يشير إلى تجاوز الشريعة التي تفرض ذاتها على نحو ناه دون أن تنشط الطاقة. ومن جانبي، أحاول أن أتجنب سلبية الشريعة ونهيها، إلى الأمر الأخلاقي الذي ينادي به المعلمون الذين ينشئون في كيان غيرهم القدرة على التفكير، وتماسك المحاكمة الداخلية، من خلال تنشيط طاقاتهم. فهم لا يفرضون سلطة ذاتية تنهي، بل يعلمون كيف ينشئ الآخرون من أنفسهم سلطة آمرة ترشدهم إلى سواء السبيل. وعلى سبيل المثال، أرفض الشريعة التي تنهاني عن الكذب إذ تقول «لا تكذب»، وذلك، لأنها نهتني عن شيء موجود رغم أنه سلب لحقيقة. وأعترف، بل أتقبل، الحكمة الآمرة إذ تقول «كن صادقا» وذلك لأنها تعلمني كيف أحقق الصدق الكامن في. وهكذا، أدعوك إلى التفكير الذاتي الحر الذي أحاول تنشيطه بالمبادئ والقواعد التي أريد أن تتحرك في أعماقك. والحق، أقول إن الشريعة قيد وإشراط، وتسيير وحتمية، والأمر الأخلاقي انعتاق، يتمثل في تنشيط الطاقة وتعديل ذاتها في مسيرة متسامية، تعرف بالحرية.



الرسالة الثالثة عشرة

فلسفة التأمل والهيكل

صديقي...

كنت أترقب استلام جوابك المتصل برسالتي الأخيرة التي حدثتك فيها عن الحرية، وختمتها بعبارات تفصح عن ذاتها في التمييز بين الشريعة غير المكتوبة على لوح أو غير مدونة في كتاب، وتلك المنحوتة في صدر الإنسان وعقله وقلبه وروحه منذ الأزل. والحق، أن هذه الشريعة غير المكتوبة تمثل القانون الكلي، أي الوعي الكوني، أي الحقيقة السامية المكتوبة في كياني، التي تشير إلى الحرية الكامنة في أعماقي. أما الشريعة المكتوبة، فهي تلك النواهي التي وضعت للإنسان، من قبل إنسان، بعد أن تخلى عن القانون السرمدي المتجسد فيه. ولا أبالغ لو قلت بأن الشريعة المكتوبة هي التي تفرض الإشراطات والقيود، وتحول دون تحقيق الحرية.

شعرت بغبطة تغمر كياني، وأنا أقرأ النتائج الفكرية التي بلغتها بعد قراءة رسالتي الأخيرة إليك. وسوف أجعل من آرائك التي أوردتها والتعليقات، التي قدمتها، والنقد الذي وجهته، والأسئلة الجديدة أو الطروحات الجديدة التي عرضتها، موضوعات لرسالتي هذه. ولقد فهمت، وأنا أقرأ ردك الأخير، أنك تريد أن أحدثك عن رأيي وموقفي من الموضوعات التالية: الصلاة، والصيام، والهيكل والله. ولما كانت هذه الموضوعات مضمونة في مؤلفاتي وكتاباتي على نحو مباشر أو غير مباشر، فإنني أسعى إلى مناقشتها بإيجاز بالغ:

1 ـ الصلاة التأملية

تحدثنا الحكمة القديمة عن الصلاة، وتدعونا إلى اتباع الإرشادات التالية: «عندما تصلون لا ترددوا الكلام باطلا... لأنه ليس بكثرة كلامكم يستجاب لكم... فالله يعرف ما في قلوبكم قبل أن تطلبوا». تتردد هذه العبارة المتصلة في حنايا صدري، وتترك أصداءها تدوي هناك. وأنا، بعد أن تأملت المغزى المتضمن فيها، أدركت أن هذه الحكمة تنبهنا إلى ثلاثة أمور:

1 ـ تجنب الترداد المعبر عن الكلام الباطل.

2 ـ لأن الاستجابة لا تقوم على كثرة الكلام.

3 ـ ولأن الله يعرف «الطلب» المرتبط بترداد الكلام قبل أن يلفظ، كما يعرف ما في القلوب.

أحب، وأنا أتجنب الخوض في هذا الموضوع على نحو شامل، أن أشير إلى الحقائق التالية:

1 إن صلاة الكلام شكل آخر لمفهوم صلاة الطلب التي تشير إلى ما نبغيه من ماديات.

2 إن صلاة الطلب نسخة مطابقة لما يعتمل في ذواتنا من رغبات تجسد الأنانية.

3 إن صلاة الكلام، المعبر عنها بالطلب المادي الذي يجسد الأنانية، توجه إلى إله شخصي يرتبط به الإنسان بمصلحة خاصة أو من خلال عقائد أو شعائر تجعله يعتقد بأنه إله خاص به يحقق له ما «يطلب» وما «يرغب» بسبب الصلة القائمة بينهما.

تقودني هذه النقاط التي ذكرتها، إلى التعمق في مضامين مفهوم الطلب والرغبة من جهة، ومفهوم الإله الشخصي من جهة ثانية. والحق، أن صلاة الطلب المادي، المعبرة عن الرغبة، والقائمة في الترداد وكثرة الكلام، توجه عقلي إلى دراسة البنية النفسية والعقلية المتصلة بالمصلي، أي «الطالب» المتحدث عن طلباته بـ «رغبة» ماثلة في «كلام يردده بكثرة» . ولا شك، أن دراسة نفسية هذا «الطالب الراغب» تجعلني أعترف، وأصمم على قولي، بأن هذه الصلاة مرتبطة ارتباطا وثيقا بـ «المصلي» أي« الطالب الراغب». لذا، يمكنني أن أقول بأن هذه الصلاة تعبر مباشرة عن صاحبها الذي «يطلب» من «إله شخصي»، خاص به، تقوم بينهما صداقة متينة مزعومة،

تحقيق ما يصبو إليه ويرغب به. وعندئذ، أسمح لنفسي أن أتيقن من النتيجة الأكيدة التالية: كل امرئ يعبر في «صلاة الكلام والترداد» عن «رغبات» تجتاحه، و«يطلب» من إلهه الذي صاغه وفق «نزعاته» تحقيق ما يطلب.

عندما أبلغ هذا اليقين أجد نفسي، وقد بلغت يقينا آخر أطرحه على نحو تساؤل: كيف تكون صلاة المتكبر، أو الطامع، أو المستغل، أو الهازئ، أو الكاره، أو المتعصب طائفيا أو عرقيا أو طبقيا أو فئويا أو عائليا، أو الأناني، أو المستغل أو المتمول.. الخ؟ ويمكنني أن أجيب على نحو أكيد: إن صلاته تتصل ببنيته النفسية والعقلية اتصالا وثيقا، كما ترتبط بفرديته أشد ارتباط، وذلك لأنها تعبر عما هو عليه.

الآن، أسمح لنفسي أن أتساءل: كيف تكون صلاة الكاذب «الكلامية»؟ أصادقة هي أم كاذبة؟ وهل «يطلب» من «إلهه» تسويغ كذبه بالغفران والصفح عن سيئته؟ وكيف تكون صلاة المتمول؟ وهل «يطلب» زيادة ماله و«توفيقه» في أعماله حتى لو كانت قائمة على الربح الفاحش؟ وكيف تكون صلاة السارق؟ هل «يطلب» التستر على سرقته؟ وكيف تكون صلاة الزاني أو الشهوي؟ هل «يطلب» الاستجابة لما يخفيه دون أن يعلنه، أو دون أن يتعرض للفضيحة؟ وكيف تكون صلاة المتكبر؟ هل «يطلب» الإبقاء على كبريائه التي يسوغها بطرق متعددة؟ وكيف تكون صلاة الكاره؟ هل« يطلب» إنزال العقاب بمن يكره، وإلحاق الضرر به؟ وكيف تكون صلاة الطامع؟ هل« يطلب» المزيد في أطماعه ؟ وكيف تكون صلاة الهازئ أو المستغل؟ هل «يطلب» كل منهما الحفاظ على ما حصل من «بركات» و«نعم»؟ وكيف تكون صلاة الطائفي المتعصب والمنفعل في عقيدته؟ هل «يطلب» الخير لتعصبه وغلبة عقيدته، وقهر الآخرين الذين لا يشاركونه مذهبه؟ وإذا كانت هذه الانفعالات كلها تنضوي تحت مصطلح «الأنانية»، فإنني أتساءل: كيف تكون صلاة الأناني ؟ هل «يطلب» أن تكون الجنة مرتعا له وفردوسا ينعم بملذاته ومتعه؟ ويمكنني أن أضيف وأنا أتساءل: إذا كانت الغالبية العظمى من الناس يتصفون بواحدة، أو بأكثر، من هذه الانفعالات، فلا بد وأن تكون صلواتهم تعبيرا عن بناهم النفسية، وتوجها إلى إله شخصي.

والآن، إذا ما طلبت مني توضيح حقيقة الصلاة، أجبت بأن الصلاة الكلامية المشبعة بالرغبات، والمنبثقة عن الانفعالات والأنانيات لا تعبر عن جوهر العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين «الحقيقة السامية» أو «الوعي الكوني» لأنها موجهة إلى« إله شخصي» هو صورة مضخمة لذواتنا. وبالفعل، يطلب الإنسان من «إلهه الذاتي» أن

يسوغ له رغباته، ويحقق له طلباته. فإن كان كارها، طلب من إلهه أن يشاركه كرهه للآخرين، وإن كان متعصبا على نحو طائفي، طلب من إلهه الوقوف إلى جانبه والإسهام في توكيد تعصبه؛ وإن كان طامعا، طلب من إلهه الذي تربطه به «قرابة» وثيقة أن يحقق له طمعه. أما جوهر الصلاة فإنه يكمن في تأمل الحقيقة الكونية، وتأمل الذات، والعمل على السمو الإنساني إلى درجات عالية من المحبة، والوعي والمعرفة والتضحية. هذا، لأن «الحقيقة السامية» لا تستجيب لانفعالات أو لطلبات مادية أو لرغبات لا تتوافق مع جوهرها.

ثانيا ذكرت أثناء بحثي للنقطة السابقة مصطلحات ثلاثة هي: الإله الشخصي، والإله الذاتي والإله الخاص. وأحب أن أحدثك عن هذا الإله الذي يعد العلة الرئيسية لاقتتال أهل الأرض مع بعضهم، والسبب المؤدي إلى تنازعهم، وكرههم لبعضهم، وانقساماتهم، وادعائهم معرفة الحق، واتهام بعضهم لبعض بالكفر والخروج على قواعد الدين، واستئثارهم به وحدهم دون غيرهم. أحب أن أذكر، على نحو مباشر وغير مباشر، عدة أمور تتعلق بهذا الإله الشخصي.

أولا، هو الإله الذي يتصف بصفات الشخص، أي بالصفات التي اصطفاها الإنسان. هو الإله الذي اصطفاه الإنسان على صورته، وأضفى عليه مزاياه البشرية. ومثل هذا الإله يسر بما يقدم له، ويتمتع بعبادة الناس له، ويحقق أماني، أو آمال، أو مطامع إنسان تقرب إليه أكثر مما تقرب إليه غيره، وعبده على نحو أفضل، ويسير في ركاب فئة من الناس أكثر مما يسير في ركاب غيرهم، ويكره ما يكرهون ويحب ما يحبون، ويغتاظ ويغضب كما يفعل الإنسان الذي لا يسر خاطره بشيء، ويعاقب بالطريقة التي يعاقب بها الإنسان، ويهب ما يشاء لمن يصطفيه، ويمنع هبته عن الآخرين، ويحابي هذا دون ذاك، ويتعاظم في ذاته، ويهيئ لعابده المؤمن ملذات تفوق الملذات الأرضية، ويندم كما يندم الإنسان دون أن يدرك بأنه في ندمه يؤكد عدم حكمته الكلية؛ هذا، لأن الحكيم لا يندم، ويصنف أعمال البشر دون أن ينسى أدق التفاصيل، ويظهر كرما بالغا إن عبده الإنسان أو سعى إليه بخضوع، وينتقم لمن يسيء إليه، ويهدد ويتوعد... إنه إله يحتضن في ذاته شمائل الإنسان، خصاله، أخلاقه، سلوكه، محاكمته، عدالته... الخ، إنما بأسلوب أحذق، وبقدرة وسلطة لا نهائيتين.

ثانيا، هو الإله الذي يحده الإنسان بمكان في السماء وبمكان آخر على الأرض. ففي الأعالي يحده الإنسان في مكان، وعلى الأرض يحده في بناء يضفي عليه صفات السماء. والحق، أن مثل هذا التحديد، يفقده الوجود الكلي المنبث والحاضر في كل مكان.

ثالثا، هو الإله الذي يحده الإنسان بزمان على الأرض. فإذا كان الإنسان يعيش في عالم الزمان، وكان الإله يحيا في عالم الأبدية، فإنما ليعني أن عالم الأبدية لا يخضع لعالم الزمان. ومع ذلك، يحده الإنسان بالزمان ويخضعه لسيرورة التطور المادي. ومثل هذا الإله مقيد بنهار مميز يعبده الإنسان، ويمنحه صفة اليوم المقدس. لقد أخضعه الإنسان لعالم زمانه، فجعله يخلق وفق التقسيمات أو الترتيبات التي وضعها، وألزمه على الانصياع لتسويغات هذه التقسيمات والترتيبات. وهكذا، جعل الإنسان للإله يوما، جعله يتوق لاقتراب ذلك اليوم الذي يرى فيه عابديه يمجدونه ويجلونه باحترام بالغ... ألا تعلم أن الحياة القدسية تخلو من تحديدات الزمان والمكان؟

رابعا، هو الإله الذي يختلف الناس على قضية وجوده أو عدم وجوده، تماما كما يختلفون على مسألة وجودهم أو عدم وجودهم. وعندما يطرح امرؤ موضوع وجود الله أو عدم وجوده، ويسأل: هل الله موجود؟ فإنه يتساءل عن وجود أو عدم وجود «الإله الشخصي» الذي ابتدعه خياله واختلقه على صورته. وإذا أدرك الإنسان أن سؤاله: هل الله موجود، ومن أوجده، وكيف هو موجود؟ لا يشكل قضية لسبب أصيل هو أن الله هو الوجود، هو الحقيقة، أدرك بطلان سؤاله. وإذا أدرك الأمر كذلك، علم أنه لا يستطيع أن يطرح مثل هذا السؤال، وذلك لأن الوجود حقيقة وليس وهما. وإذا كان الله هو الكل في الكل، الوجود الكلي، الحقيقة الكلية، فلا يحق للإنسان العادي أن يشك في الوجود الذي يحياه.

خامسا، هو الإله الذي يدركه الإنسان بالإيجاب، وأعني أنه الإله الذي يكسبه صفات، هي صفاته، ومزايا، هي مزاياه. وإذا ما فهم الإنسان الإله بالإيجاب قال عنه: قدير، حكيم، كريم، طويل الأناة، موجود في مكان ومحدود بزمان. وعندئذ، يكتسب هذا الإله الصفات التي تحد الكيان. وإذا فهم الإنسان الإله بالسلب، وعى حقيقته وجوهره. ويتوضح هذا الفهم بالطريقتين التاليتين:

آ ـ يشير السلب إلى نفي الصفات التي تحدد الوجود والكيان. وعلى هذا الأساس، أقول: الله لا نهائي، الله لا محدود، لا موصوف. ويمكنني أن أضيف

قائلا: اللـه لا موجود. ولكي أزيل إشكالات كلامي، أقول إن اللا نهاية أو اللا محدودية لا تعـرف لها حـدودا ولا تتقيـد بزمـان أو بمكـان، وأن اللا مـوصـوفيــة تشيـر إلى أن« الحقيقـة السامية» لا تخضع للصفات البشـرية الـتي هـي، بغالبيتـها، صفـات زائفـة أو صفات نسبية أضافها الفرد إلى ذاته على نحـو بـاطل، وأن الـلا موجوديـة، تعـني عـدم التضييق على الوجود الإلهي ضمن حدود الوجود المادي. هذا، لأنه يشتمل عليه، يوجـد فيه، ويسمو عليه.

ب ـ يشـير السلب إلى نفـي الصفـات المادية والنفسية وذلك لأنها تحدد وتقيد. وإذا شئت، ضربت لك مثلا هاما أعرضه كمـا يلـي: الضـوء الـذي يدخـل الموشـور كيـان واحد، خال من الألوان الظاهرة المرئية. وعندما يدخل هـذا الضـوء الموشـور، يتشـتت إلى ألوان نعلم أنهـا سبعة في عددها. والحق، أن هذا التشتت يخضع كل لون لتحديـد معـين فيما يتعلق بطول الموجـة أو بترددهـا... الخ. ويضفـي علـى اللـون صفـة نفسـية خاصـة. وعندئذ، يمكنني أن أتحدث عن الصفة الملازمة للـون الأحمـر، أو الأصفـر، أو الأزرق... الخ. وعندما نعكس عملية التشتت من خلال الموشور، وأعني، عندما نرجـع الألـوان مـن خلال الموشور، نكتشف أنـها تختفـي نتيجـة لعودتـها إلى الضـوء الواحـد اللامتمـايز إلى ألوان. وهـكذا، تنتهي الألـوان كما تنتهي الصفـات. وإذا ماثلنـا «الحقيقـة الساميـة» بالضوء قبـل تشتته، علمنا أنها مسلوبة الصفات. وإذا ماثلناها بـالضوء بعد عكس عمليـة التشتت، أدركنا أنها مجردة من الصفات. وإذا كانت الصفـات قائمـة في العـالم المـادي، لكنها متحدة بالحقيقة في اللا نهاية، ولا موجودة وفق مقاييس العالم المادي، ولا موصوفة وفق الإضافات التي يبتدعها الخيال.

سادسـا، هو الإله المتعالي على العالم المادي، المفارق للوجـود الـذي بلـغ أقصـى درجات كثافته في المـادة. هـو الإلـه المـنزه عـن المـادة، والشـر، والجـهل،... الخ، هـو الإلـه المنفصل الذي يأبى أن يكون متصلا بالعـالم. هو المحرك الـذي يسيـر العـالم كمـا يشاء... تلك هي نظرية الانفصال. وعلى غير ذلك، أتيقن أن «الحقيقة السـامية» متصلـة كل الاتصال بالكون. ولئن قادني الظن إلى وجود درجات لهذا الاتصـال، لكنـني أحـدس وجوده في كل نقطة من نقاط الوجود. ألا ترى أن الضوء المنبعث من الشمعة متصـل حتـى يبلغ أعلى درجات كثافته؟ ألا تشاهد الضوء في المستويات أو الفيـوض الأخـيرة لامتـداد الضوء في وجوده؟ ألا ترى أن وجود «الحقيقة السامية» واحد غـير نـاقص، في كـل نقطـة من نقاط الوجود؟ ألا ترى أن نظرية الخالق المنفصل عن خلقه، أدت إلى ابتـداع الشـر في

العالم الأدنى والخير في العالم الأعلى، الجهل على الأرض والعلـم في السماء، المادة في الأدنى والـروح في الأعلـى، الظـلام في الأدنـى والنـور في الأعلـى، الخليقـة، بمـا فيـها الإنسـان، في الأدنى والخالـق في الأعـلى؟ ألا ترى أن نظرية الإله المتعالي متصلـة بنظريـة الإله الشخصي، المحدود بالزمان والمكان؟

سابعـا، هـو الإلـه المعبـود الـذي يخافـه الإنسـان. وإذا كـانت العبـادة تتصـل بالعبوديـة فلأنهما تشتقـان من مصدر واحـد. وأضيـف إلى ما ذكرتـه أن الـخوف مـلازم للعبادة. وعندما أسأل: لماذا «يعبد» الإنسان إلها، و«يخافـه» في آن واحـد؟ أجيـب: إن العبادة لا تتجه إلا إلى «إله شخصي» أي «إله ذاتي» متعال، متسلط، قادر على كل شيء وفق المفهـوم الإنساني، كامل في ذاتـه، ديـان رهيـب، يعـاقب النـاس لأنـهم لا يمتثلـون لطاعته وسلطته، ويخلق جهاز زجر وعقاب يعبر عنه بإبليس، ويهيئ سجنا رهيبا تعـد النار زاده الوحيد للإنسان الذي يعصى أوامره الـتي نصـت عليـها شـرائع البشـر... الخ. وإذا كانت معطيات هذا الإله الشخصي المعبود تتمثـل بالصفـات المذكـورة، فـلا بـد أن« يخافه» الإنسان أشد خوف. ومتى وجد الخوف انتفت المحبة، وتقلصت العلاقة الوديـة الصميمة إلى حدودها الدنيا. ولا أبالغ إذا قلت، إن هذا الإله المعبود الرهيب الـذي يـزرع الخوف في قلوب الساجدين الورعين، يمثل الفكرة التي أضلت الناس، ودبت الخلاف في عقولهم والكراهية في قلوبهم، وذلك لأن كل فئة رسمته بصورة مختلفة تخدم أغراضها.

وإذا ما سألتني كيف تتوصل إلى فهم «الحقيقة السامية»؟ أجبت قائلا:

آ لا تقل «أعبد اللـه»، بل قل «أحقق اللـه». وهذا يعـني زوال الفـاصل الـذي أقامته جماعة منتفعة، مستفيدة من الصراع الذي خلقوه بـين النـاس. ولا شـك، أن زوال الانفصال يعني انبثـاق الاتصـال. وعندئـذ، تعلـم أن «الحقيقـة السـامية» متمثلـة فيـك ومتجسدة في كيـانك. وفي هـذا الاتصـال ينتـهي «الحجـاب» الـذي أقـام نظريـة العبـادة المشحونة بالخوف، ويدرك الإنسان العاقل أنه كائن إلهي وأرضي في آن واحد.

ب لا تقل «رأس الحكمة مخافة اللـه»، بل قل «رأس الحكمـة محبـة اللـــه». هذا، لأن اللـه الذي رسمته ريشة الفنان الذي ابتدع «جهنم»، رسمت أيضا معالم الخوف في تلك الصورة، فأصبح المتأمل يرى فيها البشاعة ممتزجـة بـالرعب. وعلـى غـير ذلـك، تتجلى روعة الفنان في الصورة التي أتأمل فيـها «الحقيقـة السـامية» تحتضـن الإنسـان، تعانقه، تعلمه، وتوجهـه مـن جـديد إلى تحقيـق السـمو الإلـهي في وجـوده الأرضـي،

وترشده إلى العودة إلى عالم الأرض لكي ينجز الكمال الماثل فيه. وفي هذه الصورة يتجلى إله الرحمة والمحبة والتعليم الذي ندعوه «الحقيقة السامية»، ويدرك الإنسان أن الصلة التي تقوم بينه وبين الله، تشير إلى المحبة التي تجذب ولا تنبذ.

جـ لما كانت كلمة «الله» تحمل في مضامينها مفاهيم عديدة تؤدي إلى نشوب الخلافات الفكرية العميقة بين الناس، فإنني أحب أن أحل محلها تعريفا آخر هو «الحقيقة السامية». ولو أنك طلبت مني التوضيح لعبرت عن نفسي قائلا: تشير الإجابات العديدة المتصلة بوجود الله إلى اتفاق ضمني بين الطوائف الدينية المتعددة، إذ يؤكد أعضاؤها والمنتمون إليها بأنهم يؤمنون بالله. وتشير الخلافات الحادة التي تبلغ حد الصراع الدموي، إلى أن الاتفاق على الله بالإيمان، لا يقابله اتفاق على الصفات المعزوة إلى الإله الذي تعتنقه عقيدة كل فئة وكل مذهب. إذن، فالاختلاف يرد إلى اعتقاد أنصار طائفة أن الصفات المعزوة إلى إلههم هي الصحيحة، وأن الصفات التي تعزوها الفئات الأخرى كاذبة، الأمر الذي يؤدي إلى إنهاء دور الإيمان وإبطاله، وإلى التركيز على الصفات المشخصة، والتناحر على صفات خلقها الإنسان الذي لم يدرك حقيقة وجوده. ولما كانت «الحقيقة السامية» لا تشير إلى وجود إله موصوف على نحو بشري، أو معبود يدب الهلع في نفوس الناس، أو خالق خاضع لمحدودية الزمان والمكان، فإنها لا تحمل التناقضات التي تتضمنها كلمة «الله»... هذه الكلمة التي توحد الناس بالإيمان العامي في الظاهر، وتجزئهم في الواقع.

ثامنا، هو الإله الذي يحتفظ بالكمال لذاته، ويلحق الضعف أو النقص بغيره. والحق، أن هذه العقدة نتيجة لازمة لمقدمة «الإله الشخصي»، المتعالي، المعبود، الديان الرهيب، المنفصل عن الناس... الخ. لذا، يمكنني أن أقول إن نظرية الانفصال، أي الفصل بين «الحقيقة السامية» والإنسان، أدت إلى شعور الإنسان بالنقص والضعف، والاغتراب، والنفي، والتفاهة، واليأس والشر... الخ. أما نظرية الاتصال، أي الصلة الموحدة للحقيقة السامية والإنسان، وأعني، الفكرة التي تدعو إلى أن الإنسان تجسيد للحقيقة السامية، فإنها تنادي بمبدأ الكمال الإنساني... الكمال الذي يسعى إلى تحقيقه. فكما أن الزهرة أو الوردة تسعى إلى تحقيق الكمال المنطوي في البزرة و البرعم، كذلك، يحقق الإنسان الكمال المنطوي فيه. ولذا، وجدت في القول المأثور «كونوا كاملين كمال الحقيقة السامية»، حكمة سامية. ألا ترى، يا صديقي، أن العبارة المذكورة مصاغة بصيغة الأمر وليس بصورة النهي. وهذا

يعني أن الحكمة تدعو الإنسان إلى تحقيق الكمال المنطوي في داخله، وإلى الانجذاب إلى الكمال المتجلي في الكون. وعلى غير ذلك، تناهض العقائد التي جعلت من الإنسان كائنا ناقصا المبادئ التي تبشر بإمكان الكمال الإنساني المتمثل في كثافة جسدية... الكمال الذي يعمل الإنسان على تحقيقه.

ثمة قضية أخرى أحب أن أجذب انتباهك إليها، هي مفهوم الخلق. فكما أن فرضية النقص والضعف تابعة لفرضية الكمال المفارق للإنسان، كذلك، تعد فرضية الخلق لازمة للإله الشخصي، الذي يخلق من عدم، ويجعل الإنسان عبدا محروما من البنوة، وسيدا للمخلوقات يتصرف معها بقسوة ويقف منها موقف المتسلط. هكذا، يكون الإنسان «عبدا» لإله «وسيدا» للحيوان والطبيعة... ألا ترى في هذه العبارة مفهوم السيادة الخاطئ؟ وإني أسمح لنفسي أن أعلق على هذه الفرضية بطريقتين:

آ التأكيد على أن الإنسان «ابن» للحقيقة السامية، وأعني أن الابن، هو الكثافة القصوى للطاقة الكونية الواعية... هو النقطة التي تتركز فيها الحقيقة السامية، والنقطة التي تتركز فيها الدائرة. وإن كونه البؤرة التي يتركز فيها الوعي الكوني أو الحقيقة السامية يجعله «مشاركا» لهذا الوعي وتلك الحقيقة، لأنه ممتلئ بها ويعمل على تحقيقها. والحق، أن ما يعرف بمبدأ «الاتحاد» مع الحقيقة السامية، ليس إلا تحقيق الوعي، أو الحقيقة التي تشمل كيانه وتستغرقه. فبقدر ما يحقق، يتحد.

ب التأكيد على أن الكون، والعالم المادي قد وجدا عن طريق الفيض الذي يدعى حضورا، أو انبثاقا أو صدورا. فإذا اتخذت من الفيض مبدأ الوجود، وكانت الحقيقة السامية شاملة لكل ما هو كائن، ومنبثة في كل ظاهرة، ومتصلة بكل مكان، كان الإنسان «ابنا» يشارك في عظمة الوجود ولا يستعبد له. وإذا اتخذت من الخلق مبدأ الوجود، وكانت الحقيقة السامية مفارقة، متعالية، ومنفصلة، كان الإنسان «عبدا» لا يشارك في عظمة الوجود.

تاسعا، عندما أتعمق في دراسة الأفكار التي تهيمن على عقول البشر، أجد أنني قادر على تصنيفها في زمرتين: زمرة أولى هي تيار الإيجاب الذي يسعى رواده وأنصاره إلى رفع الإنسان إلى نور الوعي، حيث يحقق اللاوعي الكامن في وعي منفتح. زمرة ثانية هي تيار السلب الذي يسعى أدعياؤه والمتسلطون على مقادير العالم إلى إبقاء الإنسان

قابعا في ظلام الوعي أو اللاوعي، الأمر الذي يحول دون سمو الإنسان في عالم إنسانيته وألوهيته.

وجدت أن المنادين بتيار السلب الذين يسعون إلى إغراق البشرية في متاهات النفس المعذبة، التي تعتبر جهنم الفعلية، يبذلون قصارى جهدهم للاحتفاظ بالنفس البشرية تحت سلطة الخطيئة، والضمير النادم، والعذاب الأبدي، والقدر المحتوم، والمصير المشؤوم، ولا جدوى العالم، وعبث الوجود، والانقياد إلى الغرائز كغريزة الموت والتدمير والعدوان، وتقليص الإنسان إلى بعد نفسي واحد كالجنس وغيره، وظلام المنطقة اللاشعورية في النفس، واللاوعي، بالمعنى الفرويدي، المهيمن على الوعي الخ. وقد استطاع «أبالسة» هذا التيار، وهم قادة السلب، أن يخضعوا الإنسان ويجعلوا منه عبدا يعجز عن تقرير مصيره، كما استطاعوا أن يلغوا دور الحرية الإنسانية كوعي وإرادة.

تأكدت من أن أنصار التيار الإيجابي يسعون إلى تحقيق فكرتين:

أولا ـ تخليص الإنسان من الإشراطات والقيود العديدة التي جعل منها أدعياء السلب مستنقعا يعيش الناس في ضحالته، وإنقاذه من المعتقدات التي غرست في باطن« لاوعيه»، واصطلح على تسميتها بالخطيئة التي ترافق الإنسان في الولادة وتلازمه حتى الموت، والعذاب المحتوم على نحو قدر لا فكاك منه. ولقد تجسدت الخطيئة والعذاب الحاصل في قضية آدم التوراتي، وبروميثوس وسيزيف اليونانيين. ولا شك أن «الإله الشخصي» الجبار، القادر على كل شيء، والمحرك لجميع الأشياء والكائنات، قدر على الإنسان المعاناة والألم السلبي في أرض الناس. وكما أعلم، يلعن هذا الإله القاسي الأرض بسبب الخطيئة المعصية التي اقترفها الإنسان.

ثانيا ـ تعليم الإنسان بأنه كائن إنساني إلهي تتوافر فيه قوة المادة والروح، وتوجيهه إلى تحقيق الطاقة المنطوية فيه على نحو كمال، وإرشاده إلى حقيقة هي أنه تركيز وتجسيد لـ«الحقيقة السامية» التي تحبه كما تحب العالم، وتسعى إلى خلاصه ومساعدته في نطاق التطبيق. لذا، يرفض أنصار التيار الإيجابي أن تكون ولادة الإنسان تعبيرا آخر لوجود الخطيئة، وذلك، لأنه صورة «الحقيقة السامية» أو وجود تنعكس فيه الأنوار الكونية الصافية. وهكذا، أستطيع أن أوجهك إلى تيار الإيجاب لكي تشعر بقيمة وجودك.

2 ـ فلسفة الصوم

أحب أن أقدم للفكرة التي أطرحها الآن بالتمييز بين السبب والسبب الكافي، أي السبب المبرر. فأنا أعتقد أن السبب أو الأسباب التي أعتمدها لتبرير تصرف أو معتقد أو سلوك، لا يكفي أو لا تكفي، إن كان أو كانت حصيلة الانفعال والرغبة. فالسبب الذي أقدمه لتسويغ أو لتبرير إهانتي لشخص أهانني، لا يعتبر سببا كافيا، وذلك، لأن الإنسان الواعي لا يعتمد السبب الذي قد يكون رد فعل مباشر أو انفعالا. والسبب الذي أجعل منه تبريرا للمعاملة بالمثل، لا يعتبر سببا كافيا لتوضيح سلوكي وتفسيره. أما السبب المبرر بالحكمة والوعي والتعقل، فإنه سبب كاف للتعبير عن شخصيتي المتكاملة وكياني المتوازن.

ثمة أسباب عديدة يتخذها الإنسان وسائل لتبرير عقيدة تتجسد في سلوك متصل بما يدعى الصيام. وفي رأيي، تعد هذه الأسباب غير كافية وغير مبررة. فإذا ما طرحت السؤال التالي على صائم، مهما يكن نوع صيامه والعقيدة التي يعتنقها: لماذا تصوم؟ لأجاب بأسلوب تستشف منه تبرير اعتياد متصل بالطعام يقوم على أسباب عديدة. فقد يزعم أنه يصوم من أجل الفقير دون أن 1ً ـ يعلم أنه لا يريد أن يكون فقيراً يصوم الناس من أجله، 2ً ـ لا يحق له التستر بوجود الفقير وإبقائه في حالة البؤس التي هي حالة شاذة للوجود الإنساني، تنتج من ظلم المستبد والمستغل والطامع والجشع، 3ً ـ لا يحق له أن يطالب الفقير بالصيام لأنه تمثل به. 4ً ـ يجهل أن هناك دولاً لا مكان للفقراء فيها، أو أن مفهوم الفقر نسبي فيها، الأمر الذي يجعل منه دافعاً لسلوك غير مبرر. وإذا اعتبر الصائم صيامه مرتبطاً بتطهير الجسد والنفس، أجبته قائلاً: لا يعد السبب الذي تدعيه كافياً، ذلك أن الأفكار السيئة التي تراودنا، تحول دون عملية التطهير المقصودة، ولأن عملية الطهر يجب أن ترافقنا طيلة العام لكي تظل نفوسنا وأجسادنا طاهرة نقية، ولأن الطعام ليس وسيلة تطهير، وبخاصة، عندما نعلم أن اختلاف أنواع الطعام في أصقاع العالم يحول دون تطبيق هذه العقيدة. والحق، أن ارتباط الصيام بالطعام وحده عقيدة يهودية مقتبسة من صلب التوراة، وشبيهة بعقيدة الختان.

أحاول الآن أن أتحدث عن السبب أو الأسباب الكافية لمفهوم الصيام. ويمكنني أن أشرح الموضوع بالطريقة التالية: الصيام، في مفهومه السري والإيزوتيري، الذي تعلمه الحكمة، يعني تحقيق الكمال عن طريق الانتصار على السلب المتمثل بالمقاومة السالبة القائمة في المادة والمدعوة «إبليس». وقد ارتبط مفهوم الانتصار على السلب برقم

أربعين الذي يشير إلى الكمال. فالأربعة تشير إلى العالم المادي، ويشير الصفر إلى اللانهاية المتمثلة بالواحدية. وهذا يعني تحقيق عالم اللانهاية الروحي اللامتجزئ في عالم المادة. وبالإضافة إلى هذا الإعلان الذي يعد وثيقة حياة، أحب أن أرشدك إلى تحقيق هذا الكمال.

أشرت سابقا إلى أن الدافع يتوافق مع العقل وأن الانفعال يسيطر على العقل، يخضعه ويضله. وذكرت لك أن الدافع يقبل الانحراف إلى رغبة وشهوة. وشرحت لك كيف أن الإنسان الذي يحقق دوافعه، يحقق عقلانيته، ويتوازن في شخصيته ويتكامل. وإذا كان تحقيق الدافع سبيلا إلى التكامل والتوازن، كانت الرغبات سبيلا إلى الانقسام والتمزق والتجزئة. ففي التكامل تتحقق الطاقة الروحية وتفعل بهدوء وطمأنينة، وفي الرغبات والشهوات ينتصر «إبليس» رمز المقاومة السالبة. وهكذا، أخلص إلى نتيجة تتمثل في عدم تحويل دوافعي إلى رغبة أو شهوة. فدافع الطعام يجب ألا ينحرف إلى شهوة الطعام، ودافع المجد يجب ألا ينحرف إلى شهوة المجد، ودافع الجنس يجب ألا ينحرف إلى شهوة الجنس، ودافع الاجتماع يجب ألا ينحرف إلى شهوة التجمع، والجسد يجب ألا ينحرف من «هيكل» الله إلى مملكة «إبليس». وعلى هذا الأساس، أدرك أن الصيام هو الانتصار على الشهوات... هو تقليص المقاومة السالبة المتجسدة في انحراف الدوافع إلى رغبات وشهوات وانفعالات... هو التوازن والتكامل في نفس الإنسان وجسده... هو الانتصار على الشر الناتج عن الانفصال والغربة والشهوة. والحق، إني أريدك أن تعلم أن تحقيق دافع الطعام عامل من عوامل تحقيق هذا التوازن، وأن إنجاز الكمال يتأصل في تحقيق الدوافع كلها من خلال عقل مستنير ونفس متكاملة وروح صافية. ويؤسفني أن أقول، إن الإنسان الذي لا يدرك الصيام إلا بالطريقة التي نصت عليها الشريعة ، يفرض على ذاته إشراطات وقيودا جديدة لا حصر لها. وأخيرا، أحب أن أقول إن عملية الصيام لا «تكتمل»، أي أن الإنسان لا يبلغ كمالها، بإحداث التوازن والتكامل وحدهما، بل أيضا بالسمو بالدوافع إلى روحانية صافية.

3 ـ الهيكل-الجسد

تشير دراسة التاريخ القديم إلى وجود هياكل شيدها الإنسان لأغراض لاهوتية خاصة. والحق، أن الشعوب برمتها، تلك التي ندعوها حضارية أو تلك

التي نجردها من مفهوم الحضارة، بنت هياكل لسكنى إلهها أو آلهتها. ومن جانبي، لا يمكن أن أتحدث عن «السرية» المتضمنة في كل هيكل أو في كل مكان مهيأ ليكون« بيتاً» لإله أو لإلهة. لكنني، مع ذلك، أستطيع أن أتحدث عن «السرية» القائمة في البناء الحجري على أساس «سري» يتوافق مع «سرية» الجسد الإنساني. ولما كان حكماء الماضي يرون في الجسد الإنساني مكاناً، أي هيكلاً للطاقة الكونية، فإنهم جسدوا مفهوم الهيكل الجسدي في مفهوم الهيكل المادي أي الحجري. وعلى هذا الأساس، نجد، ونحن ندرس الحكمة القديمة، أن البناء الحجري مؤسس، ومقسّم وفق التقسيم الإيزوتيري للجسد الإنساني وإذا كان الجسد الإنساني مكاناً تلتقي فيه الطاقة الكونية، فإن الهيكل، وهو البناء الحجري، يجب أن يكون مُعداً للاحتفاظ بهذه الطاقة الكونية، وذلك لأنه يرمز إلى الجسد الإنساني. والحق، أن الحكماء كانوا قادرين على الاتصال بالملأ الأعلى في تلك الهياكل التي كانت تستقطب الطاقة الكونية. وإذا شئت، شرحت لك شيئاً من هذا القبيل: كان الهيكل الكنعاني يتألف من فسحة خارجية تحيط ببناء حجري، تتألف واجهته، أي مدخله، من أعمدة خمسة، ويتألف داخله من غرفتين، إحداهما هي غرفة الذبيحة والأخرى هي غرفة قدس الأقداس. أما التطابق القائم بين هذا البناء المشيد على غرار التقسيم الإيزوتيري للجسد الإنساني وبين الجسد ذاته، فهو كما يلي: الفسحة الخارجية تشير إلى العالم الخارجي، الأعمدة الخمسة تشير إلى الحواس الخمس التي هي البوابات التي تصل عالم الداخل مع عالم الخارج، هي بوابات ينفتح من خلالها كل عالم منهما إلى الآخر، فترسل الطاقة الروحية الداخلية ذاتها إلى عالم الخارج المتجزئ والكثير ليعود إلى وحدته في عالم الداخل؛ غرفة الذبيحة التي تتماثل مع الجسد الإنساني، وغرفة قدس الأقداس التي تتوافق مع الروح الإلهية في الإنسان[26].

يمكنني أن أقول، إن الهرم، والفلك، والهيكل، والمدينة، رمز للجسد الإنساني، وإن الجسد الإنساني رمز للهيكل الكوني. وعلى هذا الأساس، يعد الهيكل الجسدي الهيكل الحقيقي الذي تتحقق فيه الروحانية السامية. والحق، أن الحكماء، بتعاليمهم وتعدد تجاربهم الروحية، نبهّوا إلى عدم تشييد الأبنية الحجرية ما لم تكن متوافقة مع التقسيم السرّي والإيزوتيري للجسد الإنساني[27]، هذا، لأن الحكماء الذين

---

[26] راجع فصل «الهيكل» في كتابي «رد على اليهودية واليهودية المسيحية».

[27] راجع فصل «الإنسان وأجساده» في كتابي «المادة والروح».

مارسوا التجربة الروحية، كانوا قادرين على تحقيقها وممارستها في الهيكل الحجري الذي كان يفيض بالطاقة الكونية المختزنة، الأمر الذي جعلهم يبلغون أسمى درجات التحقيق الروحي، وأعلى مراتب المعرفة والوعي. وهكذا، أشار هؤلاء الحكماء إلى تجنب «العبادة» في الأماكن الحجرية، وذلك لأن «الله لا يسكن في هياكل مصنوعة» بالحجارة، وعلّموا التحقيق في الجسد ذاته، الهيكل الحقيقي للألوهة المجسدة. فكما أن الكون كله هو الجسد الإلهي، أي الهيكل الكوني،كذلك، يكون الجسد الإنساني هيكل الروح. ولئن كان الناس لا يدركون من الحقيقة إلا حرفيتها الميتة، فإنني أدعوك إلى معرفة «السر» المنطوي في كيانك.

تعد النقاط الأربع التي عالجتها في سطور قليلة، مدخلاً إلى حقيقة شاملة، كلية وكونية. ولئن كنت قد مررت على ذكرها مرور الكرام، لكنني أتوق إلى الاجتماع بك لكي نتعمق في مضامينها، ونعمل على فهم الأسرار التي تكتنفها. وأنا أعلم أن دراسة هذه النقاط قضية غاية في الصعوبة. لكن واجبي يأمرني أن أطرح هذه القضايا الكونية المرتبطة بصميم الكائن البشري. وعلى الرغم من أنها تبدو، في نظر الإنسان العادي أو الغارق في المادية، أموراً لا تتصل بواقع الإنسان، لكنني أرى أن بحثها بعمق ووعي سريتها، مقولة ترفع من قيمة وجودي. ولمّا كنت أسعى إلى تحقيق هذا الوجود، فإنني أسعى، بالمقابل، إلى وعيه. والحق، أن عدم وعيه على المستوى الكوني، مشكلة، تؤدي إلى الانتحار العقلي.

الرسالة الرابعة عشرة

فلسفة الطموح

صديقي...

تشدني إليك رسالتك بكلماتها المعبرة عن عمق فهمك ورقة شعورك. وتعجبني عباراتك التي ترسم صورة الإنسان المتكامل، إذ تلمح إلى وجوب تنمية قوى العقل وقوى الشعور، والعاطفة. وتلامس أقوالك وتعليقاتك شغاف قلبي، ورهافة حسي، ودقة منطقي، إذ تعلن استجابتك لرسائلي، التي تمنحك هبة الفهم المنفتح إلى مستويات أعلى من الوعي. وتغبطني تصريحاتك بأن القيمة الإنسانية تتحقق في اكتشاف الأسرار الأرضية والكونية، وفي تجلي هذه الأسرار في واقع الحياة الإنسانية. وتفرحني إذ تعلن أنك لم تجد في الآراء التي عرضتها عليك تمردا [28] على القيم التقليدية السائدة، بقدر ما وجدت أنها بحث صميم في جوهرها دون أعراضها. وهكذا، أستنتج أنك تسعى إلى تجاوز التقاليد والأعراف المجتمعية إلى نطاق أسمى، وترفض أن تتقبل فكرة دون أن تدرك عمقها، أو أن تعترف بما اعتبره الناس حقيقة إلا بعد إعمال الوعي المجرد من الانفعال.

كنت أتأمل، صبيحة هذا النهار، السبل التي يسلكها الناس في حياتهم، والآمال التي تحدو بهم إلى السعي المثابر، والأماني التي يرغبون أو يريدون تحقيقها، والجهود التي يبذلونها من أجل تحقيق مآربهم، والطموحات التي يعربون عنها من أجل بلوغ وضع أفضل ومستوى أعلى، والصراعات أو التنازعات أو التعارضات التي تنشأ بين الناس بسبب تلك الطموحات أو الآمال والأهداف، والمآسي التي تغمر الروح البشرية بأنواعها العديدة، والآلام التي تعبر عن المعاناة الخفية المنطوية في أعماق صدور

---

[28] في سبيل التمييز الواضح بين كلمة» تمرد« وكلمة» ثورة«، راجع كتابي» فلسفة الإنسان الثائر«.

الناس. كنت أتأمل الصورة الاجتماعية التي تكاد تكون واحدة في العالم كله، فاتجهت إلى التحدث إليك عن مفهوم الطموح.

1 ـ الطموح والطمع

أستطيع أن أتفهم واقع مفهوم الطموح في علاقته بمفهوم الطمع. ففي كل طموح يدعيه الإنسان، أشاهد آثار أو سمات الطمع التي تغلف موضوع الطموح. وفي سبيل الوضوح، أحب أن أستعرض ظاهرة الطمع والطموح في تعريفين معبرين: الطمع انفعال متصل بالمعيشة، يتجه إلى تأمين الإضافات الزائفة على نحو مبالغ، والطموح وعي متصل بالحياة، يتجه إلى تحقيق الإضافات الصحيحة المعبرة عن الحقيقة الإنسانية والغاية السامية المرجوة من الوجود الأرضي. والحق، أن تعريف الطمع على هذا النحو، يجعلني أقر بأنه انفعال يتجه إلى الاستزادة من الأمور المادية التي تتجاوز الضرورة الإنسانية المبررة والمظاهر التجمعية الكاذبة التي تكشف زيف الأنا. وعلى غير ذلك، يعد الطموح مفهوما عقليا، وعلميا، وروحيا، وإنسانيا، ومثاليا. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أقول: إن الفردية في الإنسان تطمع لتعيش، وإن الشخصية تطمح لتحيا. ويمكنني أن أضيف قائلا: الإنسان الطامح يسعى إلى تحقيق دوافعه، والسمو بها إلى المثالية، والإنسان الطامع امرؤ تسيطر عليه عقدة النقص التي تلجأ إلى التقوقع في كهف عقدة العظمة المظلم. الإنسان الطامح يسعى إلى التعويض عن الشعور بالنقص بحيث يجعل منه دافعا إلى الكمال أو التكامل والتوازن، هو امرؤ يسعى إلى تحقيق «دافع المجد»، والإنسان الطامع يسعى إلى تحقيق «شهوة المجد». الإنسان الطامع يجهل الغاية من وجوده، واتصالية وجوده الأرضي بالوجود الكوني، ويتعلق بمحدودية هذا الوجود ويسعى إلى «شهوة الجسد»، والإنسان الطامح يدرك الغاية والمغزى من وجوده الأرضي، ويعي اتصالية وجوده الأرضي بالوجود الكوني، ويرفض محدودية هذا الوجود. الإنسان الطامع امرؤ يسعى إلى «تغطية» الفراغ الذي يلف كيانه بالمظاهر الآنية الباطلة، والإنسان الطامح يسعى إلى «ملء» الفراغ النفسي والعقلي بالحقائق المعرفية المنوه إليها بالعلم والوعي والحكمة. الإنسان الطامع امرؤ يسعى إلى «اللذة» التي هي حصيلة الرغبة الانفعالية، والطامح يسعى إلى «السعادة أو الغبطة» التي تحافظ على توازن كيانه. الإنسان الطامع امرؤ منقسم على ذاته لا يعرف التكامل النفسي، والإنسان الطامح يتكامل في داخله ويتوازن دون أن ينقسم في ذاته. الإنسان الطامع امرؤ «يكرر» ذاته دون أن

يتطور وينمو، والإنسان الطامح «يعدل» ذاته لكي يتطور وينمو. الإنسان الطامع فردية أنانية مغلقة، والإنسان الطامح شخصية كيانية منفتحة.

أحب أن أروي لك الحوار الذي دار بين شخصين، أولهما طامع وثانيهما طامح. وفي بدء الحوار، سأل الطامع محاوره الطامح: أرى أنك لست طامحا، فما السبب الذي يسوغ عدم طموحك؟ ولم ترضى أن تكون ما أنت عليه وتقنع بوضعك الاجتماعي، والاقتصادي، والمالي وأنت امرؤ مزود بالمعارف الإنسانية والعلمية، وتتقن عدة لغات، ومؤهل لأن تتسنم رتبة أعلى في سلم التصنيف الاجتماعي؟ لم تهنأ بمهنتك الوضيعة أو المتواضعة، وأنت قادر على تحقيق مهنة أفضل؟ لم تقبل العيش في وضعك هذا، وأنت مهيأ بقدرة فاعلة تساعدك على إقناع الآخرين بحسن بيانك وقوة بلاغتك ورجاحة عقلك؟

تركزت إجابة الطامح عن أسئلة الطامع في مستويات ثلاثة، فقال:

أولا: حاولت أن أحدث تغييرا في مهنتي وأنتقل إلى مهنة «أفضل»، وسعيت إلى إهمال عملي لأحصل على عمل «أفضل» يرفع «قيمتي الاجتماعية»، ويجعلني أهلا لتقدير الآخرين. لكنني، بعد تأمل جدي ورصين، أدركت أنني مهيأ، بطبيعتي وتربيتي واستعدادي وأهليتي، لعملي ومهنتي. فأنا في مهنتي هذه وعملي هذا، قادر على تحقيق إنسانية أفضل وأسمى. فأنا متكامل في كياني، وأخشى، إن فقدت عملي وغيرت مهنتي، أن أفقد هذا التكامل الذي يحدث توازني الداخلي، فأنقسم على ذاتي. وعندئذ، يخيم علي البؤس والألم السلبي والإحباط.

ثانيا: أخشى أن أصبح سفسطائيا أتلاعب بمشاعر الناس وعواطفهم وأحاسيسهم، وأحرفها إلى انفعالات ورغبات وشهوات وأمان باطلة ووعود وهمية. فأنا، إن استفدت من بلاغتي وبياني وحسن منطقي في نطاق المصلحة الخاصة، المتلبسة بالمصلحة العامة، وأثرت على نحو انفعالي في عقول الناس، وعبثت بموازين عواطفهم ومشاعرهم ومثلهم، كنت كالصنج الذي يطن، وكالصدى الذي لا يردد أو يرجع صوت الضمير الصارخ في أعماقي آمرا: ليكن كلامك متلازما ومنسجما مع الحقيقة الإنسانية، مع المثالية الصحيحة، وهادفا إلى توجيه الناس الذين ينحرفون عن سواء السبيل الذي يؤدي بهم إلى الغاية المثلى لوجودهم. كلم عقولهم، وعواطفهم، وأرواحهم. كلم إنسانيتهم لكي يمتثلوا بها ويعملوا على تحقيقها. وإن كنت قد هيئت ببلاغة

وفصاحة الكلام، فلكي أجعلها وسيلة للتأثير في ضمائرهم باتجاه الخير والمحبة، وفي عقولهم باتجاه المنطق المحكم المتسامي والتفكير السليم، وفي أرواحهم باتجاه الصفاء والنقاء. لذا، اتجهت إلى سكينة الصمت وتجنبت صخب الكلام، وعلمت نفسي أن أستعمل كلامي لما فيه خير البشرية.

ثالثا: أنا إنسان طامح، لا أقتنع بالأمور العادية التي تبقيني أسير عبودية الجهل، والإشراطات المقيدة العديدة... أنا طموح... أطمح إلى تحقيق آدميتي، أي إنسانيتي في نمطها البدئي، أطمح إلى تحقيق الفضيلة والخير؛ أطمح إلى المعرفة والوعي. أطمح إلى تحقيق عالم الصور والمثل في عالم الظل؛ أطمح إلى العلم والحكمة. أطمح أن أكون كريما أعبر عن قيمتي الإنسانية الحقيقية. أطمح إلى زيادة معرفتي كل يوم، وزيادة محبتي ومشاركتي الإنسانية. أطمح أن أكون ممجدا بأعمالي التي تخلو من الأنانية. أطمح إلى تجاوز أنا نيتي إلى أنا نتي وكياني حيث يبلغ احترامي لنفسي وتقديري لوجودي درجة قصوى. أطمح أن أكون صادقا في حياتي.

2 ـ الطامعون في التاريخ

أستطيع أن أحدثك، وقد بلغت هذا الحد من البحث، عن الفروق القائمة بين الطموح والطمع، فأقول: كثيرا ما يكون الطموح الذي تتحدث عنه غالبية الناس طمعا مصقولا ببريق يبهر الأنظار، ويعطل حكمة العقول، ويعمي القلوب. وإذا كان مفهوم الطموح ممتزجا بمفهوم الطمع، فإنني لا أتوانى عن التمييز بينهما، وذلك، لكي لا يطفئ بريق الطمع جمال نور الروح الهادئ، النقي، الذي لا تشوبه ظلمة متاهة الرغبات والانفعالات المجسدة في عقدة العظمة.

يقدم لنا التاريخ العام، الذي يروي لنا الأحداث التي أخذت مجراها في المجتمعات البشرية، صورة تمثل تطور المراحل المختلفة لبني الإنسان في خطين متوازيين:

1 خط يمثل الطامعين الذين نجد أمثالهم في الحكام وأصحاب العقائد الانفعالية العنيفة، وفي المتمولين المستغلين الذين سيروا المجتمعات الإنسانية من خلال أهوائهم ورغباتهم ومصالحهم الفردية، وأغرقوا الناس في انحرافات ميولهم.

2 خط آخر يمثل الطامحين المتمثلين بالحكماء، والعلماء الإنسانيين، والأخلاقيين، والفلاسفة المثاليين، والأنقياء الطيبين العاملين في الظل... الخ، الذين علموا البشرية حقيقة الخير، وحقيقة الوجود، والغاية الكونية للحلولية والتجسد، والقانون الكلي الجامع لكل ما هو في الكون في وحدة منسجمة ومتناغمة.

هكذا، أستطيع أن أتصور أعمال وآثار كل فئة على حدة: أثار الطامعون الحروب، وأذكوا نار البغضاء والكراهية بين الفئات والشعوب والأفراد، واحتلوا البلدان الأخرى، واستغلوا خيراتها، وأمروا بكتابة التاريخ بالأسلوب الذي يحلو لهم، ووظفوا كل خير وصلاح لمنفعتهم الخاصة، وتقبلوا المعتقدات والأفكار التي تخدم مصالحهم ومآربهم، ورفضوا المبادئ والآراء التي تعارض سلطتهم، ونصبوا أنفسهم أمثلة يحتذى بها، وأضافوا إلى فردياتهم صفات زائفة جعلوا منها معايير النجاح والعظمة الظاهرية الفارغة، واندفعوا في تيار جنون العظمة الذي يعبر تعبيرا دقيقا عن عقدة العظمة التي تغطي عقدة النقص، ونشروا معتقداتهم التعصبية، أو تلك التي تبنوها، بالعنف والقسوة، وسلبوا محاسن المجتمعات الأخرى، وأثاروا العداءات القبلية، والعائلية، والطائفية بين الناس واستغلوها شر استغلال، وأذلوا أولئك الذين اعتبروهم أعداء لهم، ورغبوا في المظاهر الكاذبة التي جعلت من الأحجار الكريمة والذهب والمال «آلهة» جديدة يعبدها الناس، ورموا البشرية في فوضى التقييم، ودفعوا بالناس إلى النجاح الانفعالي دون تحقيق العظمة الحقيقية، وأثاروا الصراعات الطبقية، والمذهبية، والسياسية والاجتماعية... الخ. وعلى غير ذلك، دعا الطامحون إلى محبة الإنسان للإنسان، وإلى نبذ الخلافات المذهبية والطائفية والطبقية، ووقفوا موقفا معارضا من استغلال الإنسان للإنسان، ونادوا بالعلم والمعرفة والحكمة والوعي والفضيلة، مبادئ تدعو إلى الوئام لسبب هو أن عنصر العنف فيها أو الصراع ضئيل أو غير موجود. ودعوا إلى الاهتمام بالقضايا الإنسانية، والفنية، والجمالية التي تقصي الكائنات البشرية عن التنافر والبغضاء، وبشروا بكل مبدأ رائع يجمع شتات الناس في لحمة واحدة، في نطاق واحد هو« الإنسانية»، ووجهوا الآخرين إلى تحقيق الغايات النبيلة، المثالية، والعقلية، التي تسمو بالإنسان حتى يبلغ مستوى الوعي والحرية والمحبة... وقالوا: ذلك هو الفردوس الذي أساء الإنسان فهمه وتخلى عنه.

ألا ترى، يا صديقي، أن جنون العظمة الذي يتصف به المستغلون النفعيون بأنواع فئاتهم، هو الميزة الأساسية في مفهوم الطمع؟ ألا نتساءل عن الأسباب التي تدفع

طامعا إلى اقتحام حدود دولة أخرى، يستغلها ويخضعها لسلطته؟ ألا تعجب، وأنت تقرأ أحداث التاريخ العام، كيف نقل طامع محتل مساوئ مجتمعه إلى مجتمع آخر، وكيف أذل الطامعين الآخرين؟ ألا يدهشك أن تعلم أن ذلك الطامع المستغل تخلف عن أداء واجبه الإنساني نحو مجتمعه، ونسي أن يكون مصلحا اجتماعيا، وأبقى على أنواع العبوديات السائدة؟ ألا يؤلمك أن تعرف أنه رغب في احتلال دولة أخرى، واشتهى التحكم بالآخرين؟ أليس لأنه يسعى إلى مد رقعة «عبوديته» إلى البلدان الأخرى؟ ألا تتساءل، وقد بلغت هذا الحد من الدهشة، عن الرغبة الملحة التي دفعت الاسكندر« الكبير» إلى اقتحام بلاد الشرق؟ وهل تعتقد بصدق ما حدثك به التاريخ العام؟ ألم يكن بإمكان الاسكندر أن يرسل فلاسفة الحكمة والعلم والمحبة الإغريق إلى تلك الأصقاع، لو كان يهدف إلى تأسيس حضارة جديدة؟ ألا تعلم أنه سعى إلى توطيد شمولية الفكر ووحدة الإنسانية على ركائز زائفة؟ ألا تدرك أن عباقرة «جنون العظمة» يسوغون سلوكاتهم وتصرفاتهم بأنبل المبادئ، بحيث أنهم يلحقون بها أفدح الأضرار وأسوأها؟ ألا تتساءل عن الرغبة الملحة التي دفعت بنابليون إلى اجتياح أوربا، وقهر ملوكها، وغلبة البلدان العديدة؟ ولئن كان نابليون قد حقق هدفه إذ بلغ عاصمة الموسكوفيين، لكنه أحس بخيبة الأمل والألم السلبي. ألا تعلم أن الألم السلبي الذي مزق نابليون ناتج عن انهيار جنون عظمته، إذ أدرك أن هروب الإمبراطور وحاشيته أمر يعيق أو يحبط إحساسه بالغلبة والقهر؟ ألا تتساءل عن الأسباب الانفعالية التي دفعت يوليوس قيصر، أو بغيره من زعماء العالم الطامعين، إلى غزو بلاد الغال وبريطانيا، في الوقت الذي كانت فيه روما ترزح تحت وطأة عبودية الإنسان، وتئن من الفروق الاجتماعية الكبرى؟ ألا يقلقك أن تعلم أن الأسباب الانفعالية التي دفعت بأولئك الثلاثة إلى اجتياح البلدان الأخرى، تكاد تكون متشابهة مع الأسباب الانفعالية التي دفعت بطامعين أمثال هولاكو، وتيمورلنك وأتيلا... الخ؟ ألم «يطمع» جميع هؤلاء الذين دفع بهم جنون العظمة إلى العنف والتسلط؟ ألم «يطمع» أصحاب المعتقدات والمذاهب الذين رغبوا في مد معتقداتهم ومذاهبهم إلى الآخرين وفرضها عليهم بالعنف؟ ألم ينكلوا بهم، وأوقعوا بهم أشد أنواع التعذيب والتدمير وهم يسوغون عدوانيتهم باسم الحق؟

3 ـ الطامحون في التاريخ

عندما ألتفت إلى الجانب الآخر للصورة، وأتأمل رسوم الطامحين، تتسارع التساؤلات في فكري، وأقيم الموازنات بينهم وبين الطامعين، أصحاب المنافع والمصالح والمراكز. ألا يغبطني أن أجد في باستور طامحا يقدم عصارة فكره، وموهبته وحياته خدمة للإنسانية، ويضحي في سبيل طموحه المتمثل بالعمل الدؤوب لإنقاذ البشرية من شبح المرض؟ ألا يسعدني أن أعلم أن فيثاغورس حقق طموحه في مبادئ علمه وحكمته اللذين قدمهما إلى بني الإنسان برهانا على محبته لهم؟ ألا أفرح وأنا أرى في ابن الهيثم، العالم الذي حمل سعادة البشرية إلى مستويات معرفية أعلى؟ ألا يرتاح قلبي وأنا أعي القرابة الروحية للإنسانية القائمة على القرابة بين رابعة العدوية والحكيمة تيريزا؟ ألا يطمئن فؤادي وعقلي، وتستقر نفسي وأنا أجد لدى جماعة الطامحين الغاية القصوى التي ترنو إليها روحي؟ ألا يعني ما أقوله إنني لا أعاين المغزى الحقيقي لوجودي إلا في حياة الأنقياء، والطيبين، والحكماء، والأخلاقيين، والعلماء الإنسانيين الذين رفعوا قيمتي الإنسانية، وحرروني من الإشراطات التي جعل منها الطامعون قيودا؟

4 ـ المقارنة بين الطامعين والطامحين

تدفعني حماستي إلى إقامة مقارنة بين فئة الطامعين وفئة الطامحين. وعلى الرغم من أنني أتجنب المقارنات، لأنها تنزع إلى إظهار الكم على الكيف، لكنني سأبذل جهدي لكي أغلب الكيف على الكم. ولما كانت المقارنة تتوضح عن طريق الأمثلة، فإنني لن أعتمد على الأسلوب المباشر في الكشف عن التباينات والفروقات. وعلى هذا الأساس، أعود إلى أسلوب التساؤل لأوضح ما أسعى إلى تبيانه: ألا ترى أن عالم الفلك الطموح الذي يسعى إلى معرفة الحقائق الكونية ويبتهج لكل رؤية جديدة أو قانون جديد، يرفض أن يتنازل عن معرفته، لقاء تعويض مالي ضخم أو مقابل مركز اجتماعي لا يجد فيه خدمة الإنسانية وتحقيق المعرفة؟ ألا ترى أن عالم الرياضيات الطموح الذي يسعى إلى التعمق في سر اللانهاية، وفي الانسجام الماثل في الأرقام والأعداد، والتناغم الذي يشعره في تكامل الوجود، يأبى أن يتخلى عن علمه ومعرفته لقاء كنوز العالم كلها؟ ألا ترى أن الحكيم الطموح، الذي بلغ أعلى درجات التحقيق، يسمو على كل ما يقدم له من ملذات، ومتع، ورغبات وشهوات وانفعالات؟ ألا ترى أن الموسيقي الطموح الذي

حدس التناغم الكوني في ألحانه، يقف من أمور المعيشة ومن المظاهر الخادعة موقف من يدرك أن الحصول عليها أو الخضوع لها، يعني فقد جوهره وضياع عظمة فنه؟ ألا ترى أن نقي القلب، وطاهر السريرة، وطيب النفس الطموح لا «يبيع» كرامته وإنسانيته ونقاءه بالأموال الطائلة؟ ألا ترى أن الطامح يشهد للحق وأن الطامع يشهد للباطل؟ ألا ترى أن الطموح غاية كونية دائمة وأن الطمع هدف دنيوي مؤقت؟

أعتقد أن رسالتي هذه لا تكتمل إلا في شرح القاعدة الأصلية التي أعتمدها للتمييز بين الطامح والطامع. والحق، أن الطموح مفهوم يشير إلى الغاية، وأن الطمع مفهوم يشير إلى السبب. وهذا يعني أن الطموح غائي والطمع سببي. وبكلمة صريحة أقول، إن الدافع الذي يقف من وراء تصرف الطامع هو السبب، فهو، إن درس، كان النجاح سببا لدراسته. أما الدافع الذي يقف خلف تصرف الطامح فهو الغاية. ففي دراسته نلمس غاية هي المعرفة والوعي وخدمة الآخرين. ويمكنني أن أضيف إلى ما ذكرت، فأقول: الناجح إنسان يأخذ أكثر مما يعطي، والعظيم إنسان يعطي أكثر مما يأخذ. وعلى هذا الأساس، تتمثل العظمة في الإنسان الطامح، ويتمثل النجاح في الإنسان الطامع. ألا ترى أن العلماء الإنسانيين، والحكماء، والفلاسفة والأخلاقيين الطيبين، أعطوا الكثير ولم يأخذوا شيئا، أو لعلهم أخذوا القليل؟ إنهم منارة البشرية؛ ويتحقق طموحهم في إنجاز وإكمال الغاية الكونية التي وجدوا من أجلها.

5 ـ الطمع والتربية الانفعالية

أخيرا، أحب أن أقول لك إن «التربية الانفعالية» التي ننالها وننشأ وفق قواعدها، تعلمنا مفهوم الطمع على أنه طموح. فقد جعلت من مجموعة الطامعين طامحين. فإذا ما سألت شخصا إن كان طامحا، أجاب بأنه طامح. وإذا ما طلبت منه أن يذكر الأمور التي «يطمح» إليها، لوجدت بأنه طامع كبير: فهو: «يطمح» أي «يطمع» بالمركز الاجتماعي، و «يطمح» أي «يطمع» بالسلطة، و «يطمح» أي« يطمع» بالمال الكثير، و«يطمح» أي «يطمع» بكل المظاهر والصفات التي تجعل منه« ذاتا» تجمعية مرموقة. وإذا ما طلبت منه أن يحدثك إن كان طموحه يتجه إلى خدمة الآخرين، وإلى التواضع والفهم، وإلى الوعي والحكمة، وإلى البساطة والنقاء، وإلى العلوم والمعارف، وإلى العيش في الظل... الخ، لأجاب بأن «طموحه»، أي«

طمعه»، ليس من هذا النوع... ألا ترى، يا صديقي، أن إنسان التربية الانفعالية يعجز عن التمييز بين الطمع والطموح؟ ألا يعني أنه تعلّم قواعد الطمع واعتبرها طموحاً حقيقياً؟ ألا ترى أن جميع الناس، أو غالبيتهم، «طامحون» لأنهم «يطمعون» بمظاهر المعيشة المادية كلها؟ ألا ترى أنني لا أستطيع أن أكون «طامحاً» إن كنت أتمثل بالأغنياء، والمتسلطين، والمنتفعين على حساب سعادة الآخرين؟ ألا ترى أنني «طامح» إن كنت أتمثل بفيثاغورس وسقراط، وإنني «طامع» إن كنت أتمثل بالاسكندر؟ ألا ترى أن واجبنا يقضي بإعادة الموازين والمقاييس إلى نصابها؟ ألا ترى أن المصيبة الكبرى التي حلّت بالبشرية، بدأت في اللحظة التي جعل الإنسان الطمع يرتدي لباس الطموح، وجعل الطموح صفة لا تلازم المرء الفعال والقوي؟

أحدثك بهذه الوقائع والحقائق علّك تستطيع أن تجعل من نفسك عظيماً لا ناجحاً. ولئن كانت الصعوبات تزداد وتتفاقم، وأنت تسير في دروب العظمة والطموح الحقيقي، لكن قدرتك، وإرادتك، وشخصيتك المتكاملة، ووعيك يقضي بأن تبقى منفتحاً على الحقائق التي تجعل منك كائناً يستحق لقب «ابن الإنسان»، و «ابن الحقيقة السامية». لذا، أشدد على أن تطمح إلى المثل العليا، وتتجاوز النجاح في الوقائع الدنيا. والحق، أن كل طامح عظيم، وكل طامع ناجح. وأنت، يا صديقي، تقرر ما يجب أن تكون، وأحب أن أستدعي انتباهك لأقول: يجب أن يقوم قرارك على إرادتك الحرّة.



الرسالة الخامسة عشرة

آدم الإنسان

صديقي...

قرأت رسالتك الأخيرة، وعلمت أنك تحبذ ما جاء في رسالة الطموح من تمييز بين مفهوم النجاح ومفهوم العظمة، ومن تلازم النجاح مع الطمع والطموح مع العظمة. وسررت إذ أدركت أنك تضفي الجمال على العظمة، وتعتبر كل عظمة جمالاً. وعلى هذا الأساس، تتألق العظمة، بأعلى درجاتها، في الجمال. هذا، لأن الجمال هو التجلّي الأسمى للعظمة، والانسجام الأمثل للتكامل. وأعجبني تعليقك الذي يوضح أن جمال الموسيقى الرائعة يكمن في عظمتها، إذ لا يمكن أن تكون جميلة ما لم تكن عظيمة. وبالمثل، يكون المرء جميلاً إذ يكون عظيماً. ولئن أنهيت رسالتك بتساؤلك عن عظمة الإنسان، في الوقت الذي ألحقت به الصفات التي تجرده من العظمة، وبالتالي من الجمال، فلن أتوانى عن الحديث عن هذا الكائن الذي نرفعه إلى أسمى درجات الوجود ونحط به إلى أدنى درجاته. والحق، أن تساؤلك عن هذا التناقض قضية تدعو إلى التفكير والتأمل. ولا أنكر أن هذه القضية تحتل حيزاً كبيراً من تفكيري، الأمر الذي دعاني للعودة إلى الأساطير القديمة، أتفحصها، أدقق فيها، وأتقصى حقيقة العظمة الإنسانية، والسبب أو الأسباب التي أدت إلى إلحاق أنواع الشرور بالإنسان، واعتباره كائناً ساقطاً.

1 ـ السلب والإيجاب

تذكر أنني حدثتك، في رسالة سابقة، عن تيار السلب وتيار الإيجاب. أولهما، يشد الإنسان إلى «لاوعي» منفعل يقيده بسلاسل ظلمته، وثانيهما، يشد الإنسان إلى« وعي» كامن حقيقي يتفتح في عالم النور، ويحرره من ظلام الوعي أو اللاوعي المنفعل[29]! أولهما، يلقح الكيان الإنساني بكل خطيئة وشر، ويثقله بفكرة الوجود العبء. وثانيهما، يملأ الكيان الإنساني بكل خير ونعمة ونقاء، ويخفف عنه عبء الوجود. أولهما، يقيد الإنسان بـ«خالق» يلعنه، ويحتم عليه العذاب، وثانيهما، يصل الإنسان بـ«حقيقة سامية» تباركه، تحبه، .وتنقذه من كل عذاب، وبؤس. أولهما، يخضع الإنسان لـ«خالق» جبار، قاس، متسلط، يجعل منه عبدا، وثانيهما، يوحد الإنسان مع «حقيقة سامية» محبة، عطوفة، رحيمة، متجاوبة، تجعل منه« ابنا» أو صديقا أو مشاركا. أولهما، يجعل من الإنسان كائنا جاهلا يقترف الخطيئة إذا ما حاول معرفة أسرار الحقيقة، وثانيهما، يجعل من الإنسان كائنا يهدف إلى المعرفة التي تقوده إلى الاتحاد مع الحقيقة السامية. أولهما، يجعل من «الخالق» شخصا يدين، يعاقب، يخيف، يعتمد على «إبليس»، سلطته التنفيذية. وثانيهما، يجعل من «الحقيقة السامية» كيانا كونيا يعلم، يوجه، يسامح، يجمع الوجود كله في كنفه بحيث لا يبقى مكان لإبليس. أولهما، يبتدع خرافة «الشعب المختار» الذي يرتبط بـ«خالق» أو يصطنع« الأمة الفضلى» التي تعتبر ذاتها خليفته على الأرض وفي السماء. وثانيهما، يبشر باختيار جميع الشعوب، أبناء للحقيقة السامية والحياة الكونية، وتنادي بخلاص الأمم قاطبة. أولهما، يتحدث عن كائن إنساني وجد ليعبد، وثانيهما، يتحدث عن كائن إنساني هو مرآة الحقيقة السامية والوعي الكوني مرآة تنعكس فيها الحقيقة السامية وتتجلى لمن يشاء اكتشاف جوهرها. أولهما، يقحم إله الخوف المنتقم، الإله الشخصي، وثانيهما، يعلن وجود إله المحبة، الإله اللاشخصي. أولهما، ينادي بأن الإنسان مشدود في ولادته بالخطيئة، ومشدود في موته بجهنم، وثانيهما، يصرح بأن الإنسان طاهر في جوهره، وأن وجوده سعي حثيث لتحقيق الكمال الكامن في جوهره. أولهما، يصور الإله على صورة «ذكر»، الأمر الذي يجعل من عقيدة الذكورة مبدأ يتصف بالقسوة والتسلط، وثانيهما، يصور الألوهة على صورة «أنثى»، تحتضن الوجود وينبثق كل شيء عنها،

---

[29] راجع فصل» المعرفة سبيل إلى التكامل النفسي« في كتابي» تأملات في الحياة النفسية«.

الأمر الذي يجعل من مبدأ الأنوثة حكمة تتميز بالعطف، والرحمة، والروح، والحدس. أولهما، يخضع الإله لعالم الزمان والمكان، يخلق في يوم، اثنين، ثلاثة... الخ. وفي نهاية الأمر يرتاح لأنه يتعب، وثانيهما، يماثل الألوهة بالأبدية أو اللانهاية التي لا تبدأ ولا تنتهي إلا في نطاقات الكثافة المادية... هكذا، نرى أن تيار السلب هو العقيدة السائدة التي جعلت من الإنسان كائنا هو عبد تافه، جاهل، قاصر، ناقص لا يشارك في الوجود السرمدي.

2 ـ مفهوم الإنسان

تقودني دراسة تيار السلب وتيار الإيجاب، إلى التركيز على مفهوم الإنسان ضمن النقاط التالية:

1 ـ لا تشير كلمة «آدم» إلى مبدأ الذكورة.

2 ـ تشير كلمة «آدم» إلى الجنس البشري قاطبة، المرأة والرجل.

3 ـ كما أن المرأة تشير إلى آدم، كذلك، يشير الرجل إلى آدم. هذا، لأنهما يشتركان في الإنسانية وفي الآدمية، ولأن صفة «آدم» ليست صفة ذكرية بل إنسانية.

4 ـ تشير أسطورة آدم إلى الإنسان الإلهي، البدئي الأول الذي كان وحيد الجنس، قابلا للانقسام إلى ذكر وأنثى.

5 ـ تشير أسبقية وجود آدم إلى تفضيل الذكورة على الأنوثة، وتوطيد عقيدة العنف، وسيطرة العقل على الروح.

6 ـ يشير ارتباط أسطورة آدم بالله إلى شيوع عقيدة الشعب المختار. فقد هدف كاتبو الأسطورة إلى إعلان تحدر هذا الشعب من إله، وصعود الشعوب الأخرى من التراب. إذن، هنالك تطور هابط من الله إلى الإنسان، يتمثل في الشعب المختار، هم الجبابرة وأبناء الله، وهنالك تطور صاعد من التراب مرورا بالحيوانية إلى الإنسان، يتمثل بشعوب العالم قاطبة، هم أبناء الناس الذين لا تصلهم بالله صلة. والحق، أن هذه الأسطورة التي تبناها اليهود وغيرهم من أبناء العنصرية المتحدرة من أب معين، أصبحت ركيزة أساسية للنظرية العرقية.

7 ـ تشير قصة تحدر البشرية من رجل واحد وامرأة واحدة إلى الصعوبات التالية:

آ صعوبة الاعتقاد بتحدر البشرية كلها من رجل واحد وامرأة واحدة.

ب صعوبة الاعتقاد بزواج الأخوة من الأخوات.

جـ صعوبة معرفة نسبة الأخوة للأخوات.

د صعوبة تفسير الألوان البشرية.

هـ صعوبة الانتقال من مكان إلى مكان آخر لتعمير الأرض.

و صعوبة الاعتقاد بأن انتشار البشرية انطلق من مكان واحد، وذلك، لأن البحوث الباليننتولوجية برهنت عن وجود مراكز سبعة، توزعت منها الأنواع البشرية على نحو متزامن. والحق، أن الأسطورة لا تشير، من قريب أو من بعيد، إلى الانطلاق من مركز واحد، وذلك، لأن أحد أبناء آدم المزعوم مضى إلى أرض أخرى وتزوج هناك. لذا، قصد الكاتب وجود أناس آخرين لا يتحدرون من السلالة العنصرية.

8 ـ تشير قصة الخلق، خلق الإنسان، وفق ما أعلنه تيار السلب إلى الصعوبات التالية:

آ لم يشهد أحد عملية الخلق ليتحدث عن «يوم».

ب اليوم اصطلاح بشري... ولما كانت الأرض تدور دون أن تعين أو تحدد زمانا، فإن الإنسان تحدث عن انقضاء يوم بعد أن حدد بدء الدوران من نقطة.

جـ عين الإنسان الأيام بزمن بعيد قبل إقدام الإنسان الملهم على كتابة فرضية الخلق.

د ارتبطت أسماء الأيام بالكواكب انطلاقا من الشمس، مرورا بالقمر وانتهاء بزحل.

هـ يشير تقسيم الزمان إلى وقت، إلى أته عمل إنساني.

و تشير الأيام إلى إخضاع «الحقيقة السامية»، وهي نظام الأبدية، لنظام الزمن المحدد.

ز لما كانت «الحقيقة السامية» روحا لازمانية، ولامكانية، ولامحدودة، ولاجسدية، فإنها لا تتعب لكي ترتاح.

حـ لما كان اليـوم رمـزا لدوران الأرض حول ذاتـها، وبالتـالي لدورانـها حـول الشمس، فإنه ترتيب بشري، وذلـك، لأن الأرض كـانت في حـالة السـديم، ولم يكن الدوران قد بدأ أو تحـدد.

ط تشـير قصـة الخلـق المرتبطـة بالإلـه الشـخصي، إلى أن كـاتبها سـعى إلى التأكيـد على نظرية «مركـزية» الأرض ودوران الكواكـب حـولها، وخـلق الفـلك المرصع بـالنجوم لتزيـين الأرض.

ي تحدد قصة الخلق المعتمدة الإلـه في مكـان مـا في الأعلـى، وفي مكـان مـا في الأرض.

تلك هي فرضيـة خلـق الإنسان وكوكب الأرض التي تزعم وجـود إلـه شـخصي. تلك هي القصة التي تروي انحدار الإنسان، سقوطه، طـرده، عبوديتـه، خوفـه، نقمتـه. تلك هي القصة التي تدعو إلى «لعنـة» تلازم الأرض والإنسان. تلك هي القصة التي سلبت الإنسان حقيقته بالعذاب الأبـدي الـذي يبـدأ بوجـوده، ويتوسـط وجـوده، ويسـتمر بعـد وجوده على كوكب الأرض. تلـك هـي القصـة الـتي ألقـت الإنسـان في متاهـة الوجـود، وقلـصت قيمتـه إلى اللاشيء. تلك هي القصـة التي سببت تـمرد الإنسـان وعصيانـه ضد إله، ابتدعتها ريشة كاتب عرف كيف «يزرع» بذرة السوء في لاوعي الإنسان الأول النقي.

عندمـا أتأمل المغزى المتضمن في تأويل التيار الإيجابي لهذه القصـة، أتوصـل إلى النتائج التالية:

آ تعد الأيام مراحل تم خلالها تطور كوكب الأرض.

ب وجد الإنسان في المرحلة السادسة للتطور، الأمر الـذي يتطـابق مـع نظريـة التطور التي أتى بها تيارده شاردان القائلة بانبعاث مـتزامن للبشـرية مـن سـبعة مراكز على كوكب الأرض.

جـ لا يعبـر يـوم الراحة عن يـوم. هـذا، لأن الزمـان ينعدم في الأبـدية. وعلى غير ذلك، يعني يوم الراحة اكتمال الوجود بعد تطوره، وتطور الإنسان بعد تطور العالم المادي.

د يشيـر رقم سبعة إلى تحقيـق العالم الروحي في العالم المـادي. هـذا، لأن رقـم أربعة يشير إلى العالم المادي، ورقم ثلاثة يشير إلى العالم الروحي.

هـ - يشير المعنى السري لرقم سبعة إلى عودة العالم المادي إلى ما كـان عليه في البدء... إذ تعود الكتلة إلى الطاقة، والمادة إلى الروح.

أصبحت تدرك أن تيار الإيجاب يتحدث عن أسطورة الوجود البدئي، أو ما يسمى بقصة الخلق، وفق ما أتت به العقيدة التقليدية، على نحو تساعد الإنسان على توحيد حقيقته مع حقيقة الوجود، واتصاله به دون انفصاله، وإضفاء القيمة الجوهرية على كيانه. والحق، أن هذا التيار يرفع القيمة المعنوية والمادية للكائن الإنساني. وإذا كنت قد حدثتك عن هذا الموضوع بإيجاز بالغ، فلأنني أعتقد بوجوب إقصاء كل فكرة أتى بها التيار السلبي، وإحضار كل فكرة أتى بها التيار الإيجابي. وهكذا، ندرك أن أنصار التيار السلبي، اختلقوا قصة أو قصصا، ترمي أتباعهم في «جحيم» العذاب الفكري، وتجعل منهم أناسا مسيرين بمصالحهم ومتعصبين لعرقية تحدرهم من أب بشري... إنهم المستفيدون من تضليل البشرية... إنهم المنتفعون الذين لقحوا الإنسان بكل هذه الأفكار التي تجعل منه عبدا... وأنت، بعد قراءة الكتب التي ألقت بالإنسان في تيار السلب، وأظلمت روحه واستعبدت عقله، تدرك أن دفاعي عن تيار الإيجاب دفاع عن قيمة الإنسان، وسمو بجوهره وحقيقته.

الرسالة السادسة عشرة

فلسفة الوطنية

صديقي...

شعرت بالارتياح إذ قرأت ما جاء في رسالتك بأن قيمة الإنسان الجوهرية تكمن في كونيته، وأن توافقه مع هذه الكونية أو الحقيقة السامية، يمده بإحساس الوجود، ويجهزه بطاقة فاعلة، أو بشعور العظمة الحقة. وتتوقف هذه القيمة، وهذا الإحساس والشعور على تصور أو فهم للحقيقة المطلقة المنبثة في الكون. فإذا ما وجدها مجسدة فيه، ومتصلة به، تأكد من قيمة وجوده. وإذا ما وجدها منفصلة عنه، تشكل كيانا لا يشارك فيه، ووجودا مفارقا يخاف دينونته، تأكد من تفاهة وجوده وضعف كيانه. وبالإضافة إلى تعليقك الجميل واستنتاجك المبدع، علمت، وأنت تعبر عن فكرك بطريقة غير مباشرة، بأنك تريد أن أحدثك عن وجود الإنسان في مجتمع معين، وعن انتمائه الوطني أو القومي، كما تريد أن تعرف إن كان وجوده هذا وانتماؤه ذاك، يشكلان عائقا في نطاق تحقيق كونية الإنسان وإحساسه بالقيمة، أو إن كانا يتعارضان مع عالميته وشموله.

1 ـ الوطنية تماثل الشخصية والقومية تماثل الفردية

أحب أن أبدأ حديثي بدراسة مفهوم القومية والوطنية، وإقامة مقارنة بين القومية والفردية وبين الوطنية والشخصية أولا، ودراسة النظرية العضوية التي تشير إلى تكامل وتآلف أعضاء الجسد الواحد في لحمة لا تنفصل ثانيا. وسوف أعمل على دراسة نموذج من النماذج أو مثال يحتذى به من أجل توضيح مفهوم الوطنية والقومية.

سبق لي أن حدثتك عن الفروق بين الشخصية والفردية بصورة عامة. وهاءنذا، أطرح الفرق القائم بينهما بصورة خاصة، أي فيما يتعلق بمفهوم القومية والوطنية. وأنت تعلم أنني ركزت تمييزي للشخصية عن الفردية كما يلي: الفردية هي الفرد الذي يضيف إلى ذاته إضافات زائفة، والشخصية هي الشخص الذي يضيف إلى ذاته إضافات صحيحة. وبالإضافة إلى هذا التعريف، أوردت المزايا الملحقة بكل من الشخصية والفردية. وذكرت أن الشخصية منفتحة، متعاطفة، مشاركة، واعية، متجاوزة للأنا، لا تتقوقع في خبايا الذات، وأن الفردية مغلقة، منفعلة، منكفئة على ذاتها، تقبع في لاوعي الأنا.

تقودني النتيجة المستخلصة في العبارات السابقة إلى وجود تمايز كبير بين الشخصية والفردية إلى الحد الذي لا يمكن لإحديهما التحول إلى الأخرى. والحق، أنني أجد في هذه الخلاصة الكثير من الصدق. ولكنني، بعد تأمل دقيق وممعن للفروق الحادة القائمة بينهما، أستطيع أن أرى علاقة تحصل في حالة واحدة من الحالات. ولا شك، أن الشخصية، بمعالمها وسماتها، تحتفظ بدورها الواعي، وموقفها العقلاني والمنطقي من الأحداث، وتتصرف من خلال محاكمة تنأى بها عن الانفعال. وعلى غير ذلك، تتجرد الفردية من الوعي، وتتصرف من خلال الانفعال الذي يطيح بقواعد المحاكمة، ولا تقف من الأحداث موقفا يشير إلى اعتماد المنطق والعقلانية. ومع هذا، أتساءل في سري: هل يمكن أن يتحول التحمل الذي تتميز به الشخصية، والمحاكمة التي تنشئها، والعقلانية التي تتبناها إلى انفعال؟ ويمكنني أن أضع السؤال في صيغة أخرى: هل يمكن أن تنحرف الشخصية، بكل ما تتصف به من حكمة وروية وبصيرة وتكامل، إلى فردية يلعب بها الانفعال ويطيح بعرش تحملها العقلي والإنساني؟

يمكنني القول إن الشخصية قابلة للانحراف إلى الفردية، بمعنى أنها ترتكس إلى أناها، إلى الانغلاق في فرديتها، إذ يزداد الضغط عليها على نحو قاس وظالم. وعلى سبيل المثال أقول: إذا بدأت أعامل «الشخصية» معاملة فظة، قاسية وظالمة، وتعاظمت معاملتي لها وبلغت مستوى الاعتداء على كرامتها الإنسانية، ومستوى الظلم القاسي غير المسوغ وغير المبرر، وإذا وصلت معاملتي السيئة إلى حد القضاء على آخر خيط من خيوط العلاقة، استخلصت النتيجة التالية: قد ترتكس الشخصية إلى الفردية، وقد تتراجع إلى قوقعة الأنا، لتدافع عن وجودها على نحو حق طبيعي. والحق، أن محاولة التضييق على الشخصية إلى حد الإبادة، أو محاولة إنهاء دورها الإنساني، وتحقير كيانها، مشكلة

قد تدفع بها إلى التراجع عن قيمها التي تبلورت في التكامل، والتوازن، والانفتاح، والتحمل والتسامح... الخ، لتدافع عن وجودها على نحو انفعالي تبرز الفردية من خلاله إلى الواقع المفروض. ومع هذا كله، أحب أن أقول لك إن القليل من بني البشر يحافظون على تماسك شخصياتهم، ولا يسمحون لها بالتراجع إلى الفردية.

ثمة تماثل كبير بين الشخصية والوطنية وبين الفردية والقومية. ويتراءى وضوح هذا التماثل في تعريف كل منهما: 1 الوطنية هي محبة المواطن لوطنه. والوطن هو الأرض التي يعيش عليها شعب يسعى إلى تحقيق إرادة مشتركة ونظام اجتماعي يهدف إلى تحقيق العدالة. وكما ترى، تجاوزت، في تعريفي هذا، عنصر التاريخ، واللغة، والعادات والتقاليد، لسبب هو أنها سمات معطاة على نحو طبيعي. 2 القومية هي تطرف الوطنية إذ تتعرض للغزو، أو للاحتلال، أو الاندثار، أو الاعتداء.

تستطيع أن تدرك العلاقة أو التماثل بين الوطنية والشخصية، وبين القومية والفردية. والحق، أن تعرض شعب أو أمة لاحتلال خارجي، أو لاعتداء تقوم به أمة أخرى انحرفت وطنيتها إلى قومية متطرفة، قضية تدعو هذه الأمة التي تعرضت لخطر القضاء على وطنيتها إلى الدفاع عن وجودها وحقها في العيش ضمن حدود آمنة. وهكذا، تدرك أن الوطنية تستفز لتنحرف إلى قومية، تماما كما تستفز الشخصية لتنحرف إلى فردية.

أدركت، وأنا أتفحص وأستقصي السبب الرئيس الذي يدفع الشعوب المنظمة في دول، والممثلة بحكومات إلى الحرب والعدوان، أن القومية هي الحافز الأول والأهم. وأدركت أيضا أن الشعوب التي تتبنى مبدأ الوطنية هي شعوب تسعى إلى التآلف والتفاهم، والانسجام، وتبادل المنافع، وإقامة تعاون مشترك، بحيث أن «الأمة الوطنية» الأقوى والأكثر تقدما، تساعد «الأمة الوطنية» الأضعف والأقل تقدما، دون أن تعتدي عليها، أو تستغل ثرواتها، أو تستبيح أرضها وممتلكاتها. ولا شك، أن مفهوم الوطنية حري بأن يقلص التمييز العرقي والعنصري، واستعلاء شعب ناتج عن تقدمه العلمي أو الاقتصادي والاجتماعي، إلى حده الأدنى. ولما كانت الأمم والبلدان تتنوع عن بعضها بالموارد الطبيعية، والمناخات المختلفة، والموارد الأولية، فإنها تعمد، وفق مبدأ الوطنية، إلى التبادل الحر، بحيث أن كل دولة تسد حاجات الدول الأخرى بما تحتاجه. أما إذا ساد مبدأ القومية، فإن الدول تنقلب على بعضها بالعداء، وتتحول الأقوى منها إلى دول استعمارية، وتزداد الأطماع الاقتصادية، وتسود عقيدة السيطرة والغلبة، وتأخذ الأمور

مجراها السياسي، وتغفل المفاهيم الأخلاقية والإنسانية... الخ. لذا، أعتبر الموقف القومي القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها الأطماع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

أعتقد أن تساؤلات عديدة تراودك وأنت تتأمل موقف المواطن من وطنه. وقد يدعوك التساؤل إلى اعتبار «الوطنية» مظهرا من مظاهر التعصب القومي. ومن جانبي، أعتبر أن الوطنية هي الإطار الذي أحقق فيه اجتماعيتي وإنسانيتي. وأعتقد اعتقادا جازما أن واجب المواطن يكمن في تفضيل وطنه على الأوطان الأخرى. فهو يفضل أن يخدم مجتمعه قبل خدمة المجتمعات الأخرى، ويفضل أن يكتب بلغة مجتمعه، ويقدم أسمى مبادئه لبني وطنه. والحق، أن هذا التفضيل لا يشير، من قريب أو من بعيد، إلى تعارض موقفي الإنساني والعالمي إزاء الشعوب. هذا، لأن طبيعة الأمر تحتم علي تقديم خدماتي برمتها إلى الجماعة التي أعرفها أكثر مما أعرف غيرها، وأشاركها مفاهيمي أكثر مما أشارك مفاهيم غيرها، وأقاسمها وجودي أكثر مما أقاسم وجود غيرها. ويتحقق هذا التفضيل دون أن أتخذ موقفا عدائيا من الأوطان الأخرى. ولا تنس، يا صديقي، أن هذا الموقف الوطني لا يحول دون توجيه إنسانيتك إلى الشعوب الأخرى، كما يعني استعدادك الدائم لأن تشاركها وجودك. والحق، أن هذا التفضيل لا يتصل بمبدأ الأثرة والأنانية على الإطلاق. ولما كنت كاتبا فإني أفضل أن أضع مؤلفاتي بلغة الأم أولا، وباللغات الأجنبية ثانيا، كما أريد أن أعمل لخير مجتمعي قبل أن أعمل لخير مجتمع آخر، ليس لأنني لا أريد الخير للمجتمعات الأخرى، بل لأنني أطبقه في المجتمع الذي يشكل الحقل الذي أزرع فيه بذوري.

2 ـ الإنسان والوطنية

تتماثل الوطنية مع الجسد الإنساني. فكما أن الجسد الإنساني وحدة متكاملة تجمع في ذاتها الأعضاء العديدة، كذلك كوكب الأرض وحدة متكاملة تجمع في ذاتها في الأوطان العديدة. وعلى هذا الأساس، تتماثل الأوطان مع أعضاء الجسد، ويتماثل كوكب الأرض مع كلية الجسد. وإذا كان هذا التطابق يعني تماثل الصورتين، فإنني أسعى إلى بيان التشابهات والتوافقات المشتركة.

ثمة أعضاء في الجسد، تتآلف على نحو يكون كل عضو فاعلا لذاته ولكلية الجسد. وهذا يعني أن كل عضو يفعل لذاته كما يفعل للأعضاء الأخرى، وبالتالي للجسد

كله. وإذا كان العضو يفعل لذاته ويفعل للأعضاء الأخرى، فإنما يعني أنه وحدة قائمة بذاتها تتصف بقطر تحتفظ بنصفه لها وتمد نصفه الآخر إلى الأعضاء الأخرى، وإلى الجسد كله. وإذا كان ما أقوله لك حقيقة، فلكي أشير إلى وجود لحمة هي نسيج واحد متداخل الخيوط التي هي الأعضاء. وهكذا، أستنتج أن الأعضاء كثيرة والجسد واحد. وهاءنذا، أصرح قائلا: ليس الجسد مجموعة أعضائه، بل هو واحد يفعل من خلال أعضائه التي هي قنوات له أو وجودات تقوم بدورها، أو بوظيفتها على نحو نظام شامل، وإرادة التعايش.

أتجه إلى دراسة العلاقات الودية القائمة بين الأعضاء. وعلى غير ما تكون النظرية العضوية في العلوم السياسية، تتعاون الأعضاء بعضها مع بعض على نحو توافق تام وتعايش مشترك. وإذا كانت النظرية العضوية، من وجهة النظر السياسية، تضع ترتيبا هرميا للأعضاء ترجح فيه أفضلية عضو على عضو آخر، بحيث أن الأعضاء الأخرى تأتمر بأمره، فإن النظرية العضوية «الكيانية»، أي المتصلة بوجود الجسد المتكامل بأعضائه، تستبعد الهيمنة العضوية وتضع الأعضاء كلها على مستوى واحد من الأهمية الملحقة بالتفاعل. هذا، لأن اللحمة التي توحد فاعلية الأعضاء ترى في وظيفة كل عضو دورا هاما يؤديه للكل المتحد في الجسد. وإذا ما تأملنا عمل الأعضاء أدركنا استحالة وجود العضو المنعزل عن الأعضاء الأخرى. فالقلب لا يعمل وحيدا على نحو منفصل عن الأعضاء الأخرى ضمن الكلية الجسدية والوحدة المتكاملة. والرئتان لا تعملان بمعزل عن الأعضاء الأخرى، والدماغ لا يعمل على نحو متنافر مع الأعضاء الأخرى. هذا، لأن العضو المجرد، المعزول غير موجود... لا وجود لقلب مجرد، مستقل لأن وجوده لا يعني شيئا إلا ضمن الكل المتحد. ويعود موضوع تلاحم الأعضاء، وعدم انعزالها أو انفصالها لسببين:

أولاً- لما كان وجود العضو، كالدماغ أو القلب أو الكبد، لا يتحقق إلا من خلال التفاعل القائم بينه وبين الأعضاء الأخرى، فإن وجوده الفعلي مرتبط بوجود العضو الأخر وبقدرة الاتصال بينهما. ولما كان التكافؤ قائما بين الأعضاء فإن «الألفة» أو« المحبة» أو التعاون المشترك القائم بينها قضية تجعل المساواة محققة. وعلى هذا الأساس، لا يستطيع عضو أن يتفاخر على عضو آخر ويقول له: أنا أفضل منك. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأعضاء تتساوى في القيمة والعمل بغض النظر عن «الأهمية» التي يضفيها البشر على بعض الأعضاء... ثمة تكافؤ، توافق، تكامل، وتعاون مشترك بين أعضاء

الجسد يجعلها تعمل ضمن نظام كلي، منسجم ومتماسك يدعو كل عضو إلى تحقيق ذاته وتحقيق التكامل المتحد.

ولقد أعجبت بالحوار الذي أنشأه أحد الحكماء مبينا تكامل الأعضاء مع بعضها وتوافقها بحيث أن العضو الواحد لا يمكن أن يقوم مقام العضو الأخر. قال الحكيم: «لو أن الجسد كله عينا فأين الأذن؟ ولو كان الجسد كله دماغا، فأين القلب؟ ولو كان الجسد كله قلبا، فأين الرئة؟» وهذا يعني أن كل عضو يملأ وجوده كاملا في الجسد الواحد، وأن استغناء عضو عن عضو آخر ضرب من الاستحالة، وأن تساوي الأعضاء وتكافؤها حقيقة أساسية، وأن الهبة الممنوحة لكل عضو تجعله يحقق الوجود الجسدي الكلي.

ثانيا ـ تشير القدرة الكامنة في الأعضاء على الاتصال، والمشاركة، والتوافق والتكامل، وإلى وجود «خلفية» تلحم الأعضاء بعضها إلى بعض. وتظهر هذه الخلفية في الأعصاب والمراكز العصبية التي تنتشر في الجسد كله، وتشكل مراكز اتصال وربط وتوحيد. وتتمثل هذه الخلفية بالنفس التي تكشف عن ذاتها على نحو تجل في الشعور والإحساس. وإن ما ينطبق على الأعصاب ينطبق أيضا على الدم الذي يجري في الشرايين والأوردة المنتشرة في الجسد كافة. وهكذا، أستنتج وجود «كيان» يلحم، أو يجمع، فعاليات الأعضاء التي تسعى إلى التكامل.

الآن يمكنني، وقد أتيت على ذكر الأعضاء المتكاملة في الجسد الواحد ضمن خلفية، هي كيان، تلحم الفعاليات الوظيفية كلها، أن أوازن هذا المبدأ مع مفهوم أو مبدأ الوطنية. وهكذا، أسمح لنفسي أن أتوغل إلى عمق الموضوع بالطريقة ذاتها، وأعمل على توضيحه بطريقتين:

1 ـ ثمة أوطان، أدعوها بلدانا، أو أقاليما، أو أقطارا، أو أمما أو شعوبا، تتميز بمواهب متنوعة. ولما كانت «الطبيعة» أو أية قدرة قد هيأت لكل وطن منحة أو هبة أو موهبة معينة، خاصة بها، تظهر على نحو موارد طبيعية، أو موارد أولية، أو قدرة علمية، أو جمال طبيعي... الخ، فإن واجب الوطن يتركز في مبدأ إعادة هذه الهبة إلى الأوطان الأخرى، إذا كان الوطن الموهوب قادرا على الاستغناء عنها، أو مشاركة هذه الموهبة الفائضة مع الأوطان الأخرى. وهكذا، تتفاعل الأوطان من خلال «الوظيفة» الطبيعية والمنوطة بتحقيقها، بحيث أن هذه الوظيفة المعبر عنها بالموهبة تمثل نصف

القطر الذي يجعل الوطن يمتد إلى الأوطان الأخرى. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أستنتج أن كل وطن من أوطان كوكب الأرض عضو يعمل لذاته كما يعمل للأوطان الأخرى. وإذا كان التماثل قائما بين الأعضاء التي تتفاعل في الجسد الواحد، فإن التماثل قائم بين الأوطان التي تتفاعل ضمن الجسد الذي هو الكوكب الأرضي المتحد. ألا ترى أن الأوطان أعضاء في جسد واحد هو العالم، وأن كل وطن مزود أو مجهز بوظيفة يقوم بها، تماما كوظيفة العضو في الجسد الإنساني؟

2 ـ إذا كانت النفس تمثل اللحمة أو القدرة الجامعة لفاعليات الوظائف العضوية على نحو شعور أو إحساس لا ينبثق من عضو معين، بحيث يستحيل أن أقول إني أتألم بيدي اليمنى أكثر مما أتألم بيدي اليسرى أو أشعر بإحداهما على نحو أكثر مما أشعر بالأخرى، فإن الإنسانية تمثل اللحمة أو القدرة الجامعة لفعاليات الوظائف الوطنية على نحو وحدة الإنسان، وتنوعه في آن واحد: وحدة الثقافة والحضارة وتنوعهما في آن واحد، وحدة الحياة وتنوعها في آن واحد، وحدة المعرفة وتنوعها في آن واحد، وحدة الفكر وتنوعه في آن واحد، وحدة الجو وتنوع مناخاته في آن واحد، وحدة الأرض وتنوع مواردها في آن واحد. هكذا، يكون كوكب الأرض وطنا واحدا، جسدا واحدا، وأوطانا متنوعة، أي أعضاء عديدة.

3 ـ وحدة الإنسانية

إن وحدة الإنسانية ووحدة الحياة، القوة الجامعة واللحمة الشاملة، وتنوع الأوطان، قضيتان تشيران إلى واقع واحد يتحقق في مبدأ واحد هو الوطنية. وعلى هذا الأساس، يمكن أن أقول إن الشعوب التي تسلك مسلك الوطنية تمثل أمما أو أوطانا متحابة، متعاطفة، مشاركة، تتبادل ثرواتها أو مواهبها الطبيعية ضمن الوجود الطبيعي الواحد الذي يحتم مبدأ الوحدة من خلال الكثرة، والوحدة من خلال التعدد والتنوع، والكثرة في الوحدة. فكما أن العضو في الجسد يحقق ذاته ويحقق الكيان الكلي للجسد، الأمر الذي يدعو إلى تعايش الأعضاء مع بعضها في سكينة الوحدة والتكامل، كذلك يحقق الوطن ذاته ويحقق الأوطان الأخرى، الأمر الذي يدعو إلى تعايش الأوطان مع بعضها في «وطنية انسانية» ضمن عالمية الوجود الإنساني.

أخيرا، أحب أن أشير إلى الإرادة المشتركة الـتي هـي الحاضنـة الحقيقيـة الـتي تضم الدول الـتي تغـاضت عـن تطرفـها الوطـني، وتنـازلت عـن قوميتـها، وأبقـت علـى وطنيتها. لقـد نبـذت تلـك الـدول مفاهيمـها القوميـة المتطرفـة، والتجـأت إلى الوطنيـة تناشـدها الخلاص. والحـق، أن الإرادة المشتـركة جـعلت من تلك الشـعوب التي حاربت بعضها طيلة قرون عـديدة، ودمـرت ثروات بعضـها، وشحنت نفوس مواطنيها بالبغضـاء، وأثارت النعرات العرقية، وأقـامت الحدود سـدودا مانعـة، أوطانـا تحقـق وطنيتـها الـتي تدعوها إلى التـآلف، والتفاهم، والتعاضد، والتوافـق، وتبـادل المنـافع الخيـرة، وتقليـص الأطماع، والعمل الدائب لتحقيـق وطنيـة شاملـة ضمن إنسـانية راقية، منفتحة. وبالفعل، استطاعت الشعوب التي أخذت بمبدأ الوطنية، أن تحقق ائتلافا وتلاقيا اجتماعيا أفضل، وذلك لأنها قلصت دور التاريخ القومي، الذي يثير تدريسه للطلبة، الانفعالات الجامحـة المتجهة إلى العدوان، وأنهت العقائد التي تدعو إلى الاسـتغلال والاستئثار، وعدلـت عـن اتباع سياسة القهر. وهكذا، لم تعد دراسة التاريخ القومي الهـاجس الأهم في نطـاق تلقـين الشباب عقيدة العنف والعدوان. وعلى غير ذلك، أصبحت دراسة التاريخ الوطني تشـتمل على الموضوعات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تجمع شمـل الأوطـان في تكـامل من هذا النوع، وتؤلف الفعاليات بحيث تكون وظائف وطنية تخدم وطنية أشمل.

يخالجني شعور، هو حدس عقلي، بأنك ستتأمل رسالتي هذه وأنت تعيد النظـر في مضامينها وتطبيقاتها، وأتصور أنك ستسعى إلى رؤية الشمول الكامن في مفهوم الوطنية. وأتخيل إدراكك لأبعاد القضية الإنسانية التي تتجلى في أوطان عديدة وكوكب واحد. وإذا كان تصوري منوطـا بتطبيق الإنسانية على مستوى وطـني، كـان تطبيـق العالميـة، وهـي الإنسانية الشاملة، منوطا ليس بتحقيق دولة واحدة في العالم كله، بـل بتحقيـق إنسـانية الشعوب والأمم. وعلى هذا الأساس، أعتقد أن كل مبدأ شمـولي يشـير إلى تحقيـق كونـي من جهة، وتحقيق إنساني، اجتماعي وأرضـي مـن جهـة أخـرى. لـذا، تعـني الوطنيـة امتـداد الإنسان من خـلال أمته، أو وطنه، إلى الآخرين الذيـن يقطنـون أوطانـا أخـرى، كما تعني الإقرار بحقيقة إنسانية واحدة متنوعة التحقيـق علـى مستوى كوكـب الأرض، تتعايش في محبة ووئام وانسجام.

الرسالة السابعة عشرة

الخلود

صديقي...

ترددت في رسالتك عبارات تكاد تكون مبهمة. ولقد أرجعت الإبهام القائم إلى رهافة إحساسك وآداب سلوكك. فهمت أنك تريد أن تعبر عن رأي أو عن آراء بأسلوب رقيق ناعم. لكنني، بعد قراءة ردك مرتين، استطعت أن أتبين وجهة النظر التي تسعى إلى الإفصاح عنها. ومن جانبي، أعترف أنك محق في ما ترتأيه. أدركت أن قراءتك لرسالتي الأخيرة، بالإضافة إلى الأفكار السابقة والاستنتاجات الحاصلة، حدت بك إلى تأمل الحياة، من حيث قيمتها، مغزاها، معناها وحقيقتها. والحق، أن الأفكار التي تراودك بصدد وجود الإنسان أو عدم وجوده بعد الموت، قضية تستحق البحث. فمن جهة قيمة الحياة، حدست بأنك تتساءل إن كانت قيمتها ملازمة لكونية الوجود الإنساني واتصاليته بالكل. وشعرت بأنك مقتنع بهذا التعليل. ومن جهة مغزاها أحسست بأنك تلمح إلى بحث قضية الخلود واستمرار الكيان الإنساني، والحالة أ الوضعية التي سيكون عليها الإنسان بعد الموت. ومن جهة المعنى، فهمت أنك تسعى إلى تفسير يعلل الغاية من حياة الإنسان، ومعرفة ما إن كانت تنتهي بالموت، وتوضيح المغزى الخلقي لوجوده على كوكب الأرض وعلاقته بالفناء. وهكذا، تتساءل: هل ترد القيمة الخلقية إلى فكرة الخلود المتأصلة بتحقيق الوعي الكوني؟ وهل أن اعتقادي بعدمية الوجود الإنساني وانتهائه بالموت سبب يدفعني إلى استباحة كل شيء؟ ولقد أغبطني رجاؤك الذي يشير إلى طلب يتبطن بمعرفة العلاقة بين الإباحية واللياقة. وهكذا، تطلب مني أن أشرح العبارة القائلة: «كل شيء يحق لي، أي كل شيء مباح لي، لكن لا يليق».

1 ـ الحق واللياقة

يتوقف شرحي للعبارة الأخيرة المذكورة على تفسير كلمتي الحق واللياقة.

أولا ـ تشير كلمة الحق، في هذا السياق، إلى مجموعة المطالب البشرية. ولما كنت أربط مفهوم الحق برغبات الإنسان وانفعالاته وشهواته، فإنني أقف إلى جانب الواجب الذي يهيب بي أن أحقق وجودي[30]. وأنا، إذ أنعم النظر في فهم الحق، أجد أن مطالبي التي أصوغها وفق مبدأ الحق تعبير لما أرغب به، وأنفعل به، وأن واجباتي تتجاوز مطالبي التي ترتكز على الرغبة والانفعال.

ثانيا ـ تشير كلمة اللياقة إلى الإحساس بالعظمة الإنسانية التي تتجاوز مفهوم النجاح، وتكتمل في مفهوم القيمة. لذا، تحمل هذه الكلمة معناها: القيمة الإنسانية التي ترفعني إلى درجة من السمو، وتجنبني الابتذال الذي يشير إلى الإحساس بالتفاهة. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أعيد صياغة العبارة التي تطلب مني تفسيرها، فأقول: يحق لي أن أرغب بكل شيء، وأنفعل به، وأشتهيه، لكن لا يليق بي أن أرغب وأنفعل وأشتهي. هذا، لكي لا أكون عرضة للابتذال، وخاضعا لتفاهة الوجود وانعدام القيمة[31]. وإذا كنت ترى في اللياقة مبدأ يسمو بك إلى درجات أعلى في سلم وجودك، فلا بد وأن ترى فيه مبدأ كونيا يشير، في صميمه، إلى اتصالية الوجود الإنساني بالوجود الكلي، وإلى استمرارية هذا الوجود المعبر عنها بكلمة خلود. إذن، فمفهوم القيمة الذي يتضمن في حقيقة الوجود حري بأن يفعل في على صورة لياقة تجعلني أترفع عن الأمور المنحطة، المعبر عنها بالرغبات والشهوات، وأسمو في كياني. ألا تعني هذه اللياقة أنك مشدود إلى مستويات ترتقيها بفعل الوعي والحرية لكي تتجاوز الحق إلى الواجب، والرغبة إلى الإرادة، والانفعال إلى المحاكمة، والشهوة إلى الحكمة، والفوضى إلى النظام؟ أليس هذا

---

[30] راجع فصل» فلسفة الواجب والحق« في كتابي» بحوث فلسفية«.

[31] أحب أن أضيف العبارة التالية: يحق لي أن أحتسي الخمرة وأفقد وعيي، ولكن لا يليق بي أن أفقد محاكمتي وأتصرف تصرفا يشير إلى الحماقة وانفعال مكبوت، يحق لي أن أستبيح حسد غيري، ولكن لا يليق بي هذا العمل الشائن. يحق لي أن أتكبر، ولكن لا يليق بي أن أذل الآخر، يحق لي أن» أسرق« بطرق عديدة، ولكن لا يليق بي أن أسلب غيري... إلخ.

التجاوز فعلا روحيا، أو تعبيرا عن طاقة كونية تعمل لتحقيق وجودها من خلال الإنسان... طاقة كونية «كائنة» لا تضمحل ولا تنتهي؟

2 ـ الاتصالية الكونية

أستهل بحثي لمبدأ الخلود، أي البقاء ضمن استمرارية الوجود واتصاليته، بمقدمة وجيزة تعقبها دراسات أربع هي:

1 ـ الخلود على المستوى الطبيعي أو المادي.

2 ـ الخلود على المستوى الاجتماعي والفكري.

3 ـ الخلود على المستوى العلمي.

4 ـ الخلود على المستوى النفسي والفلسفي والروحي.

والحق، أن هذه المستويات الأربعة لا تشير إلى اختلاف في الجوهر بقدر ما تشير إلى «الطاقة الكونية» وهي تفعل في سلسلة الوجود الكبرى التي ترتبط حلقاتها بإحكام.

أحب، في مقدمتي هذه، أن أتحدث عن فكرة الخلود من حيث أنها جوهرية في الإنسان وملازمة لوجوده المحدد بالمستوى الأرضي الذي هو الحلقة الأولى، أو الدرجة الأولى في سلم الكينونة والديمومة. والحق، أن كون فكرة الخلود صميمية وجوهرية في كيان الإنسان قضية تعني أن الإنسان يرفض العدم كمفهوم نهاية الوجود المتعين، ولا يقبل إلا أن يكون خالدا بصورة من الصور. فإذا ما أدرك الإنسان عدم خلوده، مال إلى احتقار نفسه، واحتقار الكون، ورفض الوجود، الأمر الذي يدفعه إلى إعلان تمرده والتعبير عن الإحساس بالتفاهة. هكذا، يرفض الإنسان العدم بمفهومه العامي، ويتمسك بالخلود إذ يدرك أن معنى وجوده متصل بديمومته واستمرار بقائه ضمن مستويات الوجود المتحولة في صورها وتعييناتها.

تشير العبارة السابقة إلى أن الإنسان يطرح مبدأ الخلود على كل مظاهر الوجود المادي. فهو يعترف بعدم فناء الطاقة، ويؤمن بتحول الأشكال في تنوع الطاقات، ويؤكد وجود اللانهاية، ويتيقن من أن الأشياء لا تنتهي إلى لا شيء ولا تأتي من لا شيء... الخ. لكنه يتعرض، وهو يطرح مبدأ خلوده الخاص، لفوضى التقييم واضطراب

الفكر. ويعتريه ريب رافض، وقبول قاهر أو إلزامي، ويتأرجح بين اليقين والشك بمعناهما العاميين. وعلى الرغم من موقفه هذا، يظل متمسكا بمبدأ الخلود وذلك لأنه يرفض أن يكون «لاشيئا»، أو أن تنتهي حياته وقيمته الإنسانية في هاوية العدم. ولما كان الإنسان يعترف ضمنا باستمرارية وجوده، ويجهل ما يقع وراء وجوده المحدد أو المتعين، ويسيطر عليه الخوف الناتج من نقص معرفته لمستويات الوجود اللامتعينة بالتحديدات المادية، فإنه ينزع إلى إبداع أو ابتداع صور أو صورة للاستمرارية والخلود. وفي اللحظة التي يتأرجح فيها تفكير الإنسان بين الاعتراف الملزم بالخلود والتوق الملح لمعرفة حقيقة هذا الخلود وتلك الاستمرارية، يبتكر، عن طريق خياله، صورا للخلود تتناسب مع الوضع القائم على كوكب الأرض. وعندئذ، يشرط استمرارية الحياة في مستويات أسمى بمفاهيم أو صفات وجوده الأرضي. فهو يرغب أن يكون خلوده في مستويات أخرى مطابقة لوجوده على كوكب الأرض: إنه يفكر بأبنائه و«يرغب» أن تبقى الصلة قائمة بينه وبينهم بعد التحول الطارئ الذي يدعى الموت. ويرغب في الاستزادة من المال، والملكية بأنواعها، والمجد الدنيوي، والخير المؤقت والدائم لمن «يحب». ويسعى إلى الحصول على رتبة ممتازة في المستوى الذي سينتقل إليه وذلك بمقدار ما «يحقق» من خيرات طلبت منه وفق ما نصت عليه شريعة مكتوبة اتسمت بطابع «أخروي». وهكذا، يتخيل وجود مكان في الأعالي، يجهل موقعه، ويدعوه بأسماء متعددة، ويعتبره نسخة مطابقة لوجوده الأرضي. ومع ذلك، يضيف إلى ذلك المكان النسخة صفات «روحية» هي في صميمها أرضية ومادية: لقد ربط السماء بالأرض، وجعل مفاهيم الأرض تسود مملكة السماء، ومعطيات الأرض تتوافق مع معطيات السماء، وملذات الأرض تتضاعف في السماء، وذلك لأنه «يرغب» أو يتوق إلى خلود هو استمرارية لما هو عليه في هذا المستوى الكوكبي. وهكذا، تسيطر عليه الحيرة، ويهيمن عليه التردد. ولكنه يعترف بهذا الوجود الآتي، بالسماء المنتظرة، لأنها نسخة مطابقة للأرض، مشروطة بملذاتها، ومسراتها ورغباتها الخ... إنه يحتفظ بمفهوم الخلود المادي والأرضي، ويصبغه بصبغة روحية. والخلود، وفق هذا المفهوم، أرض تحولت إلى فردوس... أرض تحولت إلى سماء تجسد رغباته التي لم تشبع... رغباته المشروطة ببقائه الآني.

تعبر الصورة المرسومة في الفقرة السابقة عن اعتراف الإنسان بالخلود من جهة وإلى إنكاره من جهة ثانية، كما تشير إلى رغبته في خلود خاضع لتعيينات كوكب الأرض من جهة ثالثة. والحق، أن هذه الصورة تحمل في ذاتها بذور تناقضاتها، الأمر الذي

يجعل من الإنسان كائنا قلقا، معذبا. ويرد هذا القلق إلى «حدس» أو «شعور» عميق متأصل فيه يهتف في داخله: ليست الصورة التي رسمتها للخلود حقيقية بل زائفة. وعندئذ، يسعى إلى معرفة الحقيقة، ويجتهد في رسم صورة جديدة صحيحة. لكنه، يتعرض لهزة نفسية جديدة في اللحظة التي تقدم له الصورة الجديدة إذ يشاهد فيها مفاهيم جديدة لا تتوافق مع رغباته التي أشرطت الخلود، إذ لا يجد فيها رغبته في الاحتفاظ بأبنائه وثروته الممتدة عبرهم. ولا يرى فيها «الصورة المقلوبة» لسكنه الأرضي... إنه يرفض هذه الصورة لأنها تجاوزت حدود أنانيته... أقول لك، يا صديقي، إن غالبية الناس يتهربون من الاستماع إلى حقيقة ما يحدث بعد الموت، أي بعد التحول، حتى ولو طلبوا الاستماع وطرحوا الأسئلة العديدة بغية الاستزادة من المعرفة... إنهم يتهربون من الإصغاء لسبب هو أن الحقيقة المقدمة تتعارض مع المفاهيم التي بنوها على استمرارية« الأنا» التي تركز الوجود والكون في ذاتها، وترغب أن تكون في كل مكان كوني على نحو يحقق وضعها الأرضي.

يمكنني الآن أن أتحدث عن الصورة الحقيقية لواقع الخلود المرتبط بالموت أو بالتحول الطارئ، فأقول: الخلود وجود دائم، يتحقق في كل مكان قائم في الكون... الخلود ليس هنا أو هناك، هو في كل مكان... الخلود فعل الطاقة الكونية في الإنسان، يحققها في كل مكان أو محل في الوجود الكوني، في الحياة الكونية، وفي الوعي الكوني... العمل الصادر عن الإنسان يسجل على لوحة الوجود والكون... هو في كل مكان، وخالد على صفحة الوجود. هذا، لأن كل فكرة، أو تصور، أو عمل يسجل على لوحة الوجود. ويحمل مغزاه الكوني... ليس الخلود موضوعا ملحقا بعالم آخر، إذ ليس هنالك عالم آخر، بل هنالك عالم متصل في سلسلة وجوده، له حياة واحدة.

3 ـ الخلود في مستوياته الأربعة

ذكرت أنني سأبحث موضوع الخلود ضمن نطاقاته الأربعة المتنوعة في صورها والمتحدة في جوهرها. ولما كانت الصعوبة تكتنف البحث، فإنني أستأنف إلى محكمة تصورك ومنطقك وروحك لكي تحلق عاليا إذا ما أردت أن تطل على الحقيقة، أو تغوص إلى الأعماق إذا ما أردت أن تشاهد قلب الحياة. وفي سبيل الوضوح، سأبذل قصارى جهدي لأتحدث إليك بلغة الواقع وأنا أبسط المستويين الأوليين، المستوى الطبيعي أو

المادي والمستوى الاجتماعي أو الفكري. وإنني أرجوك، وأنا ألج محراب المستويين الآخرين، المستوى العلمي والمستوى الروحي، أن تنفذ إلى تصورك وبصيرتك وحدسك، وذلك لكي تكون قادرا على تأمل «المثل» التي تسمو بالوقائع إلى الحقائق.

آ ـ النطاق الطبيعي والمادي

أحب أن أبدأ حديثي بدراسة المستوى الطبيعي أو المادي. والحق، أن هذا المستوى ينضوي تحت مقولة الحياة. وفي عرف الماديين الذين يعتبرون المادة اصل كل شيء، تكون الحياة مظهرا للمادة. وعلاوة على ذلك، يعتبرون العقل والإحساس والشعور والطاقة الخ، بالإضافة إلى الجسد، آثارا مادية أو تشكلات انبثقت إلى الوجود من عناصر المادة. ولما كنت قد ألمعت إلى أن الحياة مظهر للمادة، كما يزعم الماديون الذين يقولون: « لا شيء موجود غير المادة»، فإنني أتجه إلى بحث مفهوم المادة والحياة [32].

في البدء، قبل تشكل أي وجود عضوي، وقبل وجود أية متعضية أو جسم تكون في خلية واحدة أو عدة خلايا، وجدت دقائق لا متناهية في الصغر، لا تقبل القياس، أو الحد أو التعيين. وعرفت تلك الدقائق الأولية بلاتمايزها، أي بانسجامها وتناغمها. ومع ذلك، كانت قابلة للتمايز، والتغاير والتباين. وبالفعل، بدأت تتمايز إلى الأجناس والأنواع العديدة التي لا تحصى ولا تعد. وكانت تلك الدقائق تتضمن في ذاتها الخصائص العقلية والنفسية التي نجدها في كل الكائنات وفق مستوياتها، وفي النبات والمادة. وعلى هذا الأساس، اتصفت الدقائق الأولية، السابقة للتكون الخلوي والعضوي بثلاثة معالم: آ الحياة. ب الخصائص العقلية والنفسية. جـ القدرة على التحبحب والتمايز. ووفق هذا المنظور، يمكنني أن أقول إن المادة الأولية حية، عاقلة، قادرة، من خلال طاقتها، أن تتنوع، وتتغاير وتتمايز. والحق، أن كل ما نجده في المملكة الإنسانية، والمملكة الحيوانية والمملكة الأرضية التحتية ينبض بالحياة، ويتصف بمبادئ العقل والنفس الأولية، ويفعل بطاقة داخلية قابلة للتحول إلى كل شيء.

أستخلص من العبارات السابقة أن الحياة أو المادة طاقة كونية واعية، منظمة، منسجمة، متناغمة، وقابلة للتحول إلى أي شيء، طاقة تكاثفت بفعل تطور هابط، فأصبحت مادة. وتتراءى المادة في وجهيها: الكتلة والطاقة. فمن الكتلة يتشكل الدماغ والجسد، ومن الطاقة تتشكل النفس، والعاطفة، والشعور، والحدس والعقل

---

[32] راجع فصل» التطور المشترك وظاهرة الإنسان« في كتابي» المبدأ الكلي«.

الخ. ويمكنني أن أقول إن الجسد، وعلى رأسه العقل الذي يتجلى من خلال الدماغ، يتشكل من الطاقة المادية المعروفة بالكتلة، وإن النفس تتشكل من الطاقة الحياتية. هذا، مع العلم أن الطاقة المادية والطاقة الحياتية حقيقة واحدة. وهكذا، تكون المادة حية، تفعل طاقتها وتتطور على نحو انفتاح بعد انطواء.

عندما تتجلى هذه الحقيقة في فكري، أدرك أن الجسد الإنساني حي لأنه يتشكل من عناصر المادة الحية. وأدرك أيضا أن الاعتراف بوجود وحيد للمادة، يشير إلى عدم وجود سواها على مستوى كوكب الأرض، لا ينفي الحياة عن الجسد، وذلك لأن المادة حية في ذاتها. لذا، يمكنني أن أقول بوجود حضور على المستوى المادي والطبيعي بحيث أن الحياة لا تقبل الموت. ويمكنني أن أعلن المبدأ التالي: لا موت في الحياة. فإذا كان الجسد حيا، كان الفرق بين وجوده حيا ووجوده ميتا كما يلي: في الحالة التي نطلق عليها اصطلاح الموت تكون العناصر الحية والمتوزعة والمنحلة حية. لذا، أتصور الفرق بين الحياة والموت كما يلي: الحياة في الجسد هي تآلف واجتماع العناصر الحية، والموت في الجسد هو تحلل، أو تجزئة أو عودة العناصر إلى ما كانت عليه من حياة قبل تآلف العناصر. ويمكنني أن أستخلص ما يلي: إن عودة العناصر إلى ما كانت عليه من تجزئة وتوزع يعني أنها كانت حية قبل تآلفها في الجسد، وتظل حية بعد عودتها إلى التجزئة في المملكة الترابية... كانت حية قبل التآلف وتظل حية بعد انتهاء التآلف في الجسد. وعلى هذا الأساس، نردد العبارة التالية المرافقة لموت الإنسان: «من الحياة وإلى الحياة تعود»، ونلغي العبارة التي يرددها بعضهم «من التراب وإلى التراب تعود». أما إذا قصد قائل العبارة الثانية أن التراب حي، فإنني أعترف أن الحياة لا تموت. وعلى الرغم من وضوح ما أحدثك به، لكنني أحب أن أقدم لك مثلا ينطبق، على نحو غير مباشر، على حياة العناصر قبل اجتماعها، وحياتها بعد تفرقها. أنت تعلم أن ذرة الماء مؤلفة من عنصرين هما الأوكسجين والهيدروجين، وتعلم أنهما يعودان إلى ما كانا عليه قبل تآلفهما، علما بأنهما يعودان إلى الحياة ولا يتعرضان للموت. هذا، لأن الأوكسجين يظل أوكسجينا حيا، كما يظل الهيدروجين هيدروجينا حيا دون أن يتعرض أحدهما للموت أو الاندثار. وهكذا، أقول إن النظرية المادية لا تنفي مبدأ الخلود لأنها تؤكد الحياة. وإذا كانت تؤمن بالطبيعة أو بوجود مادي فحسب، فلأنها تؤكد الخلود على المستوى المادي... ثمة خلود على المستوى المادي والطبيعي... ألا ترى في الحكمة التي عرضها المعري، الحكيم العربي، وعبر فيها منبها إلى عدم السير على رفات العباد لأنه من

أجساد البشر، سرا حياتيا عظيما؟ فإذا كانت القشرة الأرضية تحتوي العناصر الحية التي تنحل من آلاف آلاف الكائنات والمواد، أفلا يعني هذا أن الحياة هي المبدأ الأوحد في الوجود، وأن التركيب والتحليل مظهران لها على مستوى كوكب الأرض، وأن الإنسان والكائنات الحية تأتي من هذه العناصر لتعود إليها، ولتحيا بها، ولتتحرك بها، وتأكل منها، وتقتات من ذاتها، الأمر الذي يجعل الحياة الأرضية دورة تنطلق من الدقائق الأولية، إلى وحيدات الخلايا، إلى كثيرات الخلايا، إلى الذرات، إلى الإنسان، لتعود إلى ما كانت عليه ضمن عملية الحياة المستمرة؟

أنتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل البحث هي النطاق العقلي، والشعوري والنفسي. والحق، أن أنصار النظرية المادية لا يخطئون إذ يعتبرون العقل والنفس نتاج تفاعل كيميائي، أو خلاصة تفاعل العناصر التي تكون الجسد. ومن جانبي، لا أقف منهم موقف الرفض لسبب أصيل هو: أن المادة حية، عاقلة، واعية، ديناميكية، لها نفس تنبض بالإحساس. فإذا كانت المادة «تعرف» أنها تتطور إلى درجات أسمى من التشكل أو التكون المادي يجعلها تفرز، نتيجة تطورها التلقائي، البطيء والواعي، العقل والشعور والنفس، وهي أعلى مظاهر الحياة المادية، فيمكنني الاعتراف بأن المادة عاقلة. ألم أذكر لك أن الخصائص العقلية والنفسية كانت منطوية في تلافيف الدقائق الأولية؟ ألا يعني هذا القول إن العقل لم «يكن» بالصدفة، بل «كان» هناك منطويا أو منثنيا في المادة الأولية الواعية؟ إذن، فما نراه في الإنسان، في الوقت الحاضر، «كان» هناك في بداية النشوء والتمايز من حالة اللا تمايز الأولية. وعلى هذا الأساس، أردد مع العلامة تيارده شاردان: «إن كمال الأشياء قائم في بداياتها». فإذا كان العقل يتميز بقوة الإبداع والتصور الخ، فلا بد أن يكون وجود هاتين الصفتين أكيد في المادة الأولية. وإذا كان العقل، والشعور، والإحساس والنفس مكونات تنشأ من المادة، فإنها ستعود إليها، إلى ما كانت عليه من خصائص أولية، لتكون المادة عاقلة، وشعورية وحساسة تنبض بالنفس. وعلى هذا الأساس، أقول إن العقل ملازم للمادة، والنفس ملازمة لها أيضا.

ذكرت لك أن المادة طاقة كونية تكاثفت بفعل قدرتها على التحول. والحق، أن تكاثف الطاقة الكونية في المادة يشير إلى «تطور هابط» من اللطافة إلى الكثافة. وإذا كنت تسعى إلى الاستدلال إلى الطاقة الكونية بكلمة مألوفة لدى غالبية البشر، قلت إنها «الروح» أو «الحياة» أو «الوجود». وهكذا، تشير العبارة التي أتى بها أحد

الحكماء إذ قال: «بها نوجد، ونحيا ونتحرك» إلى سرية ووحدة الحياة، والروح والوجود.

يسعدني أن أقول إن التأكيد على وجود الحياة قبل تشكل العناصر في متعضيات، وأجساد وكيانات، وبعد تشكل عناصرها، دليل على أن الحياة هي القوة الفاعلة، اللامرئية، الواعية، العاقلة، الشاعرة. ويغبطني أن أطرح قضية أساسية على بساط البحث متسائلا: إذا كانت أجسادنا تتماثل في التكوين وتتساوى في الكتلة، وإذا كانت قد تشكلت من عناصر واحدة لم تزد في جسد إنسان ولم تنقص في جسد إنسان آخر، فكيف أستطيع أن أعلل الاختلافات أو التنوعات القائمة بين الطاقات؟ وإذا كانت المادة تتكافأ مع طاقتها، وكانت جميع الأجساد البشرية متكافئة بطاقتها وكتلتها، فمن أين تنبثق الفروق والتنوعات في القدرات والمواهب؟ ألا يعني هذا أن المادة الأولية، اللامتمايزة، وهبت كل جسد إنساني حصة متساوية بالكم والكيف؟ وإذا كان التساوي قائما في الكم، فكيف أستطيع أن أعلل ما حدث من اختلاف في الكيف؟ ألا يعني هذا أن الطاقة هي الفاعلة، القادرة على التطور والنمو والتحقيق؟ ألا يعني هذا أن الاختلاف بين الناس أمر يرد إلى قدرة طاقتهم على النمو أكثر من طاقات غيرهم؟ ولئن كانت الكتل متساوية، لكن الطاقة لا تنحصر بكتلتها، وذلك لأنها قوة الحياة، قوة الروح، قوة الوجود التي تشتمل على الوعي. والحق، أن العبارة الأخيرة تشير إلى أن التساوي الأولي المطلق في الكتل البشرية لم يحل دون اختلافها في الطاقة الفاعلة. وهكذا، أقول إن الذين حثوا أو نشطوا طاقاتهم على الفعل، استطاعوا أن يتقدموا على غيرهم في مسيرة الحياة. ولسوف يأتون، أو يعودون، إلى الوجود الأرضي بقوة أعظم، بوعي أكبر، الأمر الذي يعني أن الروح موجودة، وأن الخلود قائم في قدرة الطاقة على النمو وعلى تجاوز الجسد، وفي استطاعتها على روحنة الجسد الكتلة الهيكل... ليس الجسد إلا الهيكل الذي تقيم فيه الروح وتمارس فيه طقوسها. والحق، أن جميع البشر أتوا، في بدء التشكل الجسدي، بكم متساو وكيف متساو. ولكن قدرة الطاقة، أي الروح، على النمو، والانعتاق والتحرر، قضية تفسر الفروق القائمة بين الناس. وعلى هذا الأساس، أبرر مبدأ العودة إلى التجسد، المبدأ الذي يفسر الاختلافات والفروق النوعية بين الكائنات البشرية.

ب ـ النطاق الفكري والوراثي

أحب، قبل أن أحدثك بتفاصيل المستوى الثاني للخلود الذي دعوته «الخلود على المستوى الفكري والاجتماعي»، أن أعمل على تفسير العبارة التي اعتمدتها الفيزياء

الحديثة، وهي: «إذا تفاعل جسيمان في زمن ما فإن تابع الموجة الخاص بهما يجعلهما على ارتباط، مهما حصل». والحق، أن تفسير هذه العبارة لا يتوافق، كل التوافق، مع المستوى الثاني لمبدأ الخلود، لكنه يلقي ضوءا على مضامينه.

عندما أتساءل عن حقيقة شخصيتي: كيف تكونت؟ كيف أفكر، أو كيف أتميز بتفكير خاص أو عام؟ أراني أبحث عن حقيقة وجودي وكياني الفكري والاجتماعي. فأنا أعلم أنني، منذ الطفولة، لقنت عقائد، وتعرفت على أفكار أبدعها أناس سبقوني في الزمان الماضي، واقتبست ما تعلمت منهم إلى درجة أن أفكاري هي كل ما ألفته من الأفكار السابقة. فقد تعلمت مبادئ فيثاغورس الرياضية والفلسفية، وتعلمت مبدأ أرخميدس، وفلسفة أفلاطون والفارابي، والحلاج، وصوفية بوذا، وأخلاقية كونفوشيوس... الخ. وأدركت أن مبادئهم وآراءهم انتقلت منهم إلى أولئك الذين تعلموها، وإلى أولئك الذين اقتبسوها ممن سبقوهم، وهلم جرا، حتى بلغت عصرنا الحالي، فانتقلت إلى عقلي الذي تبناها وعمل بها. وعلى هذا الأساس، أتساءل: هل ماتت آراء فيثاغورس وغيره من جهابذة الفكر وأئمة العلم، أم أنها ظلت حية، تنتقل من عقل إلى عقل، من كيان إلى كيان، تحيا فيه، ويستمر بقاؤها؟ لذا، يمكنني أن أقول إن فيثاغورس يحيا فيَّ، يتكلم في داخلي، وإن فكري مؤلف من الأفكار العديدة التي تحيا فيَّ، في داخلي. وإذا ما شئت الوضوح قلت: إنني تأليف لآراء من سبقوني، وآرائي التي رافقت وجودي، بل لازمت حيواتي السابقة، وآرائي التي أبدعتها أو كونتها خلال حياتي الحاضرة. وإذا كنت تأليفا لأفكار، وآراء، ومبادئ وجدت قبلي ، اقتبستها، وأصبحت حية في داخلي وموجودة في واقع حياتي، وأضفت إليها، ونسقتها، وعشتها الخ، فإنني أتذكرها. وإن كنت أتذكرها فهي موجودة، حاضرة، وكائنة فيَّ. فأنا أعرفها لأنني أتذكرها... والمعرفة، كما يقول سقراط، عملية تذكر. إني أتذكر ما كان، وما يكون، وما سيكون. وإذا ما سألني سائل: إن معرفتك هذه، وتذكرك هذا، وحياة الأفكار التي انتقلت إليك، سوف تندثر باندثار الإنسان على كوكب الأرض ونهاية هذا الكوكب، أجبت: إنني أتحدث عن الخلود على المستوى الفكري، كما أتحدث إلى من لا يستطيع أن يقر به على المستوى الكوني.

عندما بلغت هذا الحد من التحليل طرحت على نفسي السؤال التالي: إن كان فيثاغورس قد تعرض لانحلال عناصر جسده لتعود إلى المادة الحياة كما كانت حية قبل تآلفها وتشكلها، فكيف أستطيع القول إن أفكاره تبقى وتستمر؟ وإن كنت أتفق مع

القائلين بأن العقل أو الفكر نتاج التفاعل الكيميائي الناتج عن تفاعل العناصر المتآلفة، أفلا يعني أن أفكار فيثاغورس تعود مع عناصر جسده إلى ما كانت عليه من خصائص عقلية في المادة الحية؟ وإن كنت أتفق مع من يقول بهذا الرأي، أفلا يعني أن انحلال الأفكار مع تحلل العناصر المادية والحية المؤلفة قضية تشير إلى بقاء الأفكار مع عناصرها في المادة الحية؟ ألا يعني هذا أن البقاء لا ينسحب على العناصر وحدها بل على الأفكار كذلك؟ لكن الحقيقة هي أن الأفكار قابلة للانتقال على مستوى شخص مثل فيثاغورس أو شخص بسيط علم أبناءه حكمة الحياة في أجلى صورها، وأن انتقالها دليل على بقائها خالدة. وإذا كانت أفكار فيثاغورس بقيت حية، موجودة، قابلة للانتقال بعد انحلال عناصر جسده، أفلا يعني أن أفكاره تلك لا تتعرض للتجزئة، والانقسام، والتشتت، ولا تكون عرضة للزوال والموت، الأمر الذي يجعلها تقترن بالطاقة الروحية التي هي الجوهر اللامنقسم؟ وكما يبدو أن الحياة في الجسد تأخذ لها وجهتين بعد الموت: اتجاه يعود بها إلى حالتها الأصلية في المادة عبر العناصر الحية القابلة للانقسام والانفصال، واتجاه آخر يعود بها إلىحالتها الأصلية في الطاقة الروح عبر الجوهر الحي الذي لا يقبل الانقسام والانفصال والتجزئة.

تعترضني تساؤلات عديدة وأنا أحاول تفسير عملية الانتقال. وأتساءل في سري: أما من وسيلة أخرى أو سبيل آخر يسهل عملية الانتقال ويفسرها على نحو واقعي؟ وإذ أجتهد في توضيح هذه النقطة التي تكاد تكون مبهمة، أعود إلى ما أتى به علم الوراثة الذي يحدثنا عن المورثات والجينات حاملات الصفات. والحق، أن علم الوراثة أقر، في بدء رحلته العلمية، أن الصفات المادية تورث. ومن جانبي أتساءل: ألا تؤكد وراثة الصفات المادية وجودها أولا واستمرارها ثانيا؟ ألا يعني أنها تبقى وتخلد في الإنسان ما دام حيا على كوكب الأرض؟ ولكن علم الوراثة، بعد أن قطع شوطا طويلا في رحلته العلمية، اعترف ضمنا باحتمال انتقال وتوريث الصفات المعنوية. وإني أتساءل: ما هي هذه الصفات المعنوية؟ ألا يعترف علم الوراثة بوجود ذاكرة بيولوجية في الخلية، قادرة على نقل المعلومات المختزنة لا من آلاف السنين فحسب، بل من البدء الذي كون التعيينات المادية؟ فإذا كان كل ما مر على الوجود الأرضي، منذ بدء التكوين، مختزنا في ذاكرة بيولوجية قائمة في الخلية، سجل فيها تاريخ وجودنا ووجود الكائنات الأخرى، وفي آلاف الذاكرات المختزنة فينا، أفلا يعني أن المعلومات والمعارف، والمشاعر،

والأحاسيس والذكاء الخ، تنتقل وتظل خالدة في الإنسان، وتعيش فينا لاشعورا ماضيا وشعورا حاضرا؟

إن طرح مفهوم مبدأ الخلود على الصعيد الفردي لا يحول دون طرحه على الصعيد الاجتماعي. ونحن نشاهد في كل مجتمع بشري، يتمثل في جماعة أو في أمة ودولة، حضورا للماضي في استمرارية الزمان وديمومته. فلكل أمة ذاكرة سجلت فيها مآثر الماضي؛ وكل أمة تعمل على إحياء تلك الذاكرة الماضية في الحاضر. وهكذا، يحيا الماضي، وهو البعد الزمني الوحيد، في حاضر الأمة، في ضمير الشعب... وكما أن الإنسان يحيا ماضيه الحاضر فيه، كذلك تحيا الأمة ماضيها الحاضر فيها. وإذا كان ما أبحثه حقيقة، قلت: الحضور هو النطاق الجامع للماضي وللمستقبل، الحضور هو البقاء والخلود.

أحب، قبل أن أبلغ ببحثي إلى كماله، أن أتساءل من جديد: إذا كانت كتلة جسد فيثاغورس مكونة من عناصر متماثلة مع كتلة جسد أي شخص آخر، فلم استطاعت طاقة فيثاغورس، روح فيثاغورس، عقل فيثاغورس، أن تعطي أكثر من طاقة إنسان آخر تماثل معه في الطاقة والكتلة؟ ألا يعني أن اختلاف فيثاغورس عن غيره يعود إلى أمرين: أولا، استطاع فيثاغورس تنشيط طاقته التي لا تتعين بحد. ثانيا، ولد فيثاغورس مزودا بطاقة أتى بها من حياته السابقة وطورها أكثر من غيره. ألا يعني هذا أن الطاقة الإنسانية لا تتكافأ مع كتلتها فحسب، بل تتجاوزها إلى آفاق كونية؟

جـ ـ النطاق العلمي أو الطاقي

ينضوي المستوى الثالث لهذا البحث الذي أسعى إلى توضيحه تحت مقولة العلم. والعلم، كما أعتبره، هو وضع الحكمة موضع التجربة، وصياغة هذه الحكمة في قوانين ومعادلات. ولما كان العلم طريقة أخرى للتعبير عن الحكمة، فإنني أدعوك إلى حدس الفكرة التي أحاول أن أضعها موضع اليقين. والحق، أن وجودنا على كوكب الأرض مرهون بقدرتنا على التصور والحدس بالدرجة الأولى، وعلى التأمل والاستغراق بالدرجة الثانية. ومن جانبي، أعتبر هذا المستوى الثالث مرحلة جديدة في البحث تشير إلى بزوغ فجر الروح. وكما لاحظت، حاولت، وأنا أناقش المستويين الأوليين، أن أتجنب ذكر كلمة الروح قدر المستطاع. ففي المستوى الأول رمزت إلى الروح بالحياة،

وفي المستوى الثاني رمزت إلى الروح بالفكر والذاكرة، أما في المستوى الثالث الذي أعالجه فإنني أرمز إلى الروح بالطاقة.

تعتمد دراستي لهذا المستوى الذي رمزت إليه بالطاقة على المبادئ التالية:

أولا ـ يقدم لنا العلم أطروحته المتمثلة بعدم فناء أي شيء. فإذا كانت الأشياء لا تأتي من العدم فإنها لا تمضي إلى العدم ولا تتعرض للفناء أو للزوال. فما من شيء إلا ويأتي من شيء، ويتحول إلى شيء آخر . فإذا ما شاهدت ضوءا قلت إنه موجود. وإذا ما أدركت أن الضوء قد تلاشى أو انطفأ قلت، خطأ، بأنه غير موجود. والحق، أن العلم، من خلال تقدمه وتطوره، أقام الدليل على أن الضوء لم يضمحل أو أنه لم ينعدم، بل تحول إلى طاقة أخرى. وعلى الرغم من أن العلم يثبت واقع التحول ويصرح بأن العدم غير موجود، لكنه يصطدم بصعوبتين في معرفة أنواع التحول: أولاهما، قياس لحظة التحول، ثانيتهما، هي صعوبة معرفة أنواع تحولات طاقة إلى طاقة أخرى. لذا، يمكنني القول إن الضوء كان موجودا على نحو طاقة معينة وظل موجودا على نحو طاقة أخرى مجهولة قد لا تكون قابلة للقياس على غرار ما يحدث للطاقة الأولى المعينة.

ثانيا ـ يعرض العلم حالة أخرى للوجود واللاوجود في آن واحد، بحيث أن كل وجود مرئي ومعين يتحول إلى وجود لامرئي، لامعين، معدوم، لاموصوف، لاموجود. وتشير هذه الحالة إلى انتقال الحركة إلى السكون. وهاءنذا أضرب لك مثلا: أمامي قطعة من المعدن، أقيس اهتزازها فأجدها ساكنة ظاهريا، أحركها فينطلق منها اهتزاز. أخضع هذا الاهتزاز للقياس، فأجده يقاس ضمن حدين. لكنني أكتشف أن الاهتزاز بدأ يتضاءل، فأزعم بأنه قد تلاشى أو فني أو انعدم. وإذا ما تساءلت: هل تلاشى الاهتزاز ولم يعد موجودا وفق قابلية قياسه بالمقياس البشري؟ أجبت بأنه موجود على نحو سكون. والحق، أن السكون وجود لا يخضع لمقاييسنا الكوكبية الأرضية. ولما كان يتجاوز مقاييسنا البشرية فأقول بأنه غير موجود أو أنه معدوم. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أقيم علاقة بين الوجود اللاوجود، والوجود العدم، والوجود اللامتعين والسكون. فإذا ما تحولت الوجودات المتعينة أصبحت وجودات لامتعينة تحيا في سكينة السكون، الأمر الذي يجعلنا نعلن عدم وجودها الظاهري. والحق، أن الاهتزاز القابل للقياس، والموجود على نحو تعيين وتحديد، ينتقل من حالة السكون إلى حالة الحركة، ومن ثم يعود إلى السكون... كان ساكنا في قلب اللازمان، اللاحركة، اللاوجود، العدم، وانتقل إلى قلب الزمان، والحركة، والوجود، ليعود إلى سكينته في اللازمان، واللاوجود،

الوجود الذي يأبى القياس وفق المصطلحات البشرية. وعلى هذا الأساس، أعتقد أن السكون، إذ ينبض بالحركة، يتحول إلى وجود قابل للتعيين. وفي هذا السكون نحيا ونوجد ونتحرك... في السكون يحيا كل شيء، يوجد ويتحرك... وإذ يتحرك، يتضاءل في حركته حتى يعود إلى السكون. وإذا كان الواقع يعبر عن ذاته بهذه الطريقة، فأستطيع أن أقول إن «الوعي الكوني» أو «الحقيقة السامية» أو الوجود المحض سكون... روح قابلة للتحول إلى كل شيء.

ثالثا ـ يبسط العلم الحديث عامة والفيزياء النظرية خاصة، مبدأ تكافؤ الطاقة والكتلة. وقد استطاع العلم الحديث تجاوز الفرضية السابقة الداعية إلى اعتبار الطاقة نتاجا للكتلة. ولما كانت النظرية الحديثة تؤكد تحول الطاقة إلى كتلة والكتلة إلى طاقة، فيمكنني أن أستخلص مبدأ بقاء الطاقة ووجودها بمعزل عن الكتلة. ويمكنني أن أضيف قائلا: لا وجود للكتلة بدون طاقة. وهذا يعني أن الكتلة مجرد طاقة كثيفة. إذن، فالكتلة طاقة تعينت وفق اهتزاز محدد، أي ضمن حدين للاهتزاز. والحق، أن المادة المتمثلة بالكتلة تسير إلى غاية هي الطاقة، لكي تحقق ذاتها... كانت طاقة، تكاثفت هذه الطاقة، أصبحت مادة، تعينت هذه المادة في كتلة أو في جسم. وهدفت هذه الكتلة المادية أن تعود إلى ما كانت عليه... طاقة غير معينة، لاموصوفة بحسب مقاييس الكتلة المادية، لامرئية، لامكانية، لازمانية الخ. وإذا ما شبهت الطاقة بالروح والكتلة بالجسد، وجدت أن الروح تخلد، تبقى، تستمر بدون الكتلة، وأن الجسد لا يقبل الاستمرار بدون الروح.

إن طرح قضية الكثافة، والقول إن المادة طاقة تكاثفت موضوع يدعوني إلى فهم عملية الانتقال من عالم اللطافة إلى عالم الكثافة. فإذا أخذت النور مثالا قلت: النور يتحول إلى نار، والنار تتحول إلى مادة، والمادة تتضمن في ذاتها جوهر النور والنار. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أصرح بأن المادة هي كثافة النور والنار. ولقد برهن العلم الحديث أن المادة، في صميمها ، إشعاع. والحق، أن المادة طاقة ضمن حدي اهتزاز. ويشير الاهتزاز إلى وجود عوالم تتنوع في درجة الكثافة واللطافة، وتختلف في درجة الاهتزاز. فكلما كان العالم أرقى وأسمى كان أكثر اهتزازا وأقل ترددا ضمن حدين. وجدير بي أن أنوه إلى أن العوالم لا توجد منضدة فوق بعضها، الأمر الذي يجعلها غير متصلة، بل إنها توجد متداخلة ضمن اتصال. ولكن المستوى الأقل لطافة، أي الأكثر كثافة، لا يشعر أو لا يحس بوجود العالم الأكثر لطافة، أي الأقل كثافة ما لم يرفع من

درجة اهتزازه. وهكذا، أقول إن المادة التي ترفع من درجة اهتزازها تصبح أقل كثافة وأكثر لطافة بحيث أنها تتحول إلى طاقة، إلى روح. وذلك يعني أن الإنسان ملتزم برفع مادته إلى مستوى لطافتها، وذلك لكي تتروحن. وإذا كانت العوالم تتداخل فإنما لتكون الطاقة الكونية، أي الروح الكونية حاضرة في كل مكان، ومنبثة في كل المستويات. وعلى الرغم من تداخل العوالم، لكن العالم الأقل لطافة لا يحس بوجود أو حضور العوالم الأكثر رقيا وسموا. وهذا يعني أن رفع مستوى اهتزاز جسم معين لا يتيح لي إمكان الشعور به حتى ولو اخترقته، أو وجدت معه أو حضرت معه.

رابعا ـ يشير التطور الحاصل في نطاق العلم إلى انبثاق نظرية أتى بها كيريليان، أحد كبار العلماء الروس. وقد عرفت نظريته أو التجربة التي قام بها بـ «صورة كيريليان». وأنجز كيريليان تجربته بالطريقة التالية: تم وضع شيء بين صفيحتين معدنيتين زودتا بمجال كهربائي شديد. ووضعت صفيحة معدنية تصويرية أو شاشة متألقة، متفسفرة، إلى جوار الشيء. وكانت الجزيئات المشحونة، أي المشبعة، أو الأيونات المتسارعة نتيجة لهذا الحقل تصيب الشاشة فتصدر نورا، وتنطبع على اللوحة المعدنية المتفسفرة. وتوصل كيريليان، بواسطة صوره، إلى الإعلان أن كل الأشياء الحية وغير الحية تتصف بحقل مرتبط بها. وهذا يعني أن كيريليان أقام الدليل على وجود الجسم الأثيري الملازم للجسد المادي [33].

عندما نتأمل «صورة كيريليان» نتأكد من أن الجسم الأثيري ملازم لكل كيان أو وجود مادي. فإذا ما صورت زهرة معينة وجدت جزيئاتها تنطلق لتنطبع على اللوحة الفوسفورية، وتأخذ لها الشكل المطابق للزهرة. وإذا ما اقتطعت أو بترت جزءا من الزهرة وأعدت تصويرها، وجدت أن صورتها المنطبعة على اللوحة الفوسفورية تظل كاملة، غير ناقصة. ولكنك تكتشف أن الصورة المنطبعة تتضاءل يوما بعد يوم، وذلك لأن جسمها الأثيري يتصف بطاقة قد لا «تخلد» أو لا تستمر ببقائها لفترة لا منتهية. وإذا ما اقتطعت يد إنسان، وأخضعت الجزء المبتور للتصوير بحسب طريقة كيريليان، اكتشفت أن اليد المقطوعة تظهر بكاملها على اللوحة الفوسفورية، الأمر الذي يعني وجود الجسم الأثيري الذي لا يخضع للبتر أو للتجزئة. وهذا يعني أن الشعور وحدة لا

[33] راجع فصل» العلم والجسم الأثيري« في كتابي» المادة والروح«.

تتجزأ أو تنقسم، وذلك لأنه ملازم للجسم الأثيري الذي «يخلد» ما دامت الحياة الكونية والطاقة الواعية لانهائية.

د ـ النطاق الروحي

ينضوي المستوى الرابع، وهو المستوى الروحي، تحت مقولة الجسم الروحي والجسم المادي، ويقبل التفسير عن طريق البرهان النفسي والبرهان الفلسفي. ويمكنني أن ابدأ بدراسة الجسم الروحي والجسم المادي بعبارة قالها أحد الحكماء، هي: «يولد الإنسان جسما ماديا ويقوم جسما روحيا». والحق، أن هذه العبارة تتطلب الشرح الوافي: الجسم الروحي هو تركيز طاقة كونية في بؤرة، في نقطة، فلتكن خلية روحية، والجسم المادي هو تركيز طاقة مادية في بؤرة، في نقطة، فلتكن خلية مادية. وهذا يعني أن الجسم الروحي ينشأ من «الخلية الروحية»، وأن الجسم المادي ينشأ من «الخلية المادية». وفي اللحظة التي يتم التلقيح، تلتقي «الخلية الروحية» مع «الخلية المادية» ليتشكل الإنسان في كيان هو جسد مادي وجسم روحي. أما مواصفات كل من الجسدين، فيمكنني أن أوضحها كما يلي:

آ ـ في اللحظة التي يتحقق الانفصال، أي ما ندعوه الموت أو التحول، يعود الجسم المادي إلى حياته في المادة، بمعنى أن عناصره المتآلفة تعود إلى تجزئتها حية في المملكة الترابية، كما يعود الجسم الروحي إلى طاقته الكونية محتفظا بالشكل الذي اتخذه في الجسد المادي.

ب ـ لا يتصف الجسم الروحي بالزمن، فهو لا زمني. ولا يمكننا أن نقول إنه بلغ العاشرة أو الخمسين عاما. فإذا ما بلغ الجسم المادي درجة زمنية معينة، ظل الجسم الروحي مجردا من العمر الزمني.

جـ ـ لا يتصف الجسم الروحي بشكل؛ لكنه يأخذ شكل الجسم المادي ويتطابق تماما معه، بحيث أنه يظل محتفظا به بعد الموت حتى يعود إلى التجسد من جديد. لذا، يظل الجسم الروحي متماسكا، موحدا، لا يتعرض للتجزئة على غرار الجسم المادي، ولا يخضع للزوال.

ذكرت لك أن الجسم المادي والجسم الروحي يمثلان تفسيرين يعتمد أحدهما البرهان الفلسفي ويعتمد ثانيهما البرهان النفسي.

يقوم البرهان الفلسفي على المثال التالي: يشير العزف على الكمان إلى انبثاق أو صدور اللحن، الأمر الذي يعني وجود الكمان ووجود اللحن: نعمد إلى تحطيم الكمان، جسد الكمان، إلى أجزاء وأقسام؛ ندرك أن جسد الكمان يعود إلى العناصر التي تألف منها أو تكون منها. وعندئذ، نتساءل: ماذا يحدث للحن المنبثق من الكمان؟ هل يتعرض للانقسام والتجزئة اللذين وقعا لجسد الكمان؟ نجيب: لا يتعرض اللحن المنبثق للتجزئة بل يحافظ على تماسكه ووحدته، ويظل موجودا، بمعنى أنه «يخلد» على لوحة الوجود والكون. والحق، أن هذا اللحن المتحد في جوهره، يعود إلى التجزئة في اللحظة التي يتم تسجيله على نحو نوتات منفصلة، لكي يعود إلى الوحدة في اللحظة التي يصدر من جسد الكمان. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أشبه وحدة اللحن بوحدة «الحقيقة السامية» وتجزئة اللحن بالكثرة المجزأة التي نجدها في مظاهر الوجود بأكمله. والحق، أن هذا التشبيه يشير إلى «لعبة» الوجود المتمثلة في تحول الوحدة إلى كثرة وتعدد، وعودة الكثرة إلى الوحدة التي انبثقت منها. وإضافة إلى ذلك، يمكنني أن أشبه اللحن بالروح وجسد الكمان بالجسد الإنساني. فإذا ما طرأ تحول على الجسم المادي عاد إلى أجزائه العديدة، إلى عناصره الكثيرة، المنبثة في المادة الحية. وإذا ما طرأ تحول على الجسم الروحي عاد إلى وحدته المتميزة بشكل الجسم المادي.

يشير البرهان النفسي إلى وجود لحمة تحدث تكاملا وترابطا بين أعضاء الجسد، بين الجسم المادي والجسم الروحي. وتتمثل هذه اللحمة بالنفس المعبر عنها بالشعور أو بالإحساس، وبالدم الذي يسيل في الجسد كله دون أن يفرق بين عضو وآخر. فإذا ما أغمي على شخص، تأكد لك شعوره أو إحساسه بالوخز قائما، الأمر الذي يعني أن النفس هي الرباط الذي يلحم الجسم الروحي مع الجسم المادي. وإذا ما سألت شخصا يعاني من ألم أو يبتهج بفرح، عن ألمه أو فرحه، أجاب بأن ألمه يغمر كيانه وجسده كله، وأن فرحه ينبث في كامل شعوره. ولا يستطيع هذا الشخص أن يقول بأنه يتألم نفسيا بيده اليمنى أكثر من يده اليسرى، أو أن رأسه أكثر فرحا من قدميه، وذلك لأن الشعور أو الحس عملية كلية، غير ناقصة في المتعضية البشرية، جسدا وروحا.

إن شمولية الشعور وكلية الإحساس تشير إلى وجود وحدة جامعة لأعضاء الجسد تتمثل في النفس. وهذا يعني أن المبدأ الذي نستقيه من صورة كيريليان، يشير بأن بتر عضو من أعضاء الجسد لا يؤدي إلى نقص في الشعور أو الإحساس، وذلك لأن الجزء العائد للجسم الروحي والمطابق للعضو المبتور من الجسم المادي لا يقبل البتر أو القطع.

وعلى الرغم من أن الجسم الروحي لا يخضع للزمان أو للشكل، لكنه يتخذ شكل الجسم المادي طالما أنه متصل بهذا الجسم عن طريق النفس. ولما كان الجسم الروحي كاملا، فإنه لا يقبل التجزئة والانقسام، الأمر الذي يجعل الشعور أو الإحساس كاملا في الكيان الإنساني، ويجعل النفس، المعبر عنها بالأعصاب والمراكز العصبية الموزعة في الجسد كله، لحمة توحد أعضاء الجسد المادي في عملية وظيفية واحدة. ألا ترى انتشار الأعصاب في أعضاء الجسد دون تمييز بين دماغ وساق، وسيلان الدم في أنحاء الجسد المادي دون تمييز بين قلب أو رئة أو كبد أو يد؟ ألا تشير هذه اللحمة إلى وجود كيان يوحد؟ وهل يمكنك أن تتصور قلبا يعمل على حدة بمعزل عن الأعضاء الأخرى، أو رئة تعمل على نحو منفصل عن الأعضاء الأخرى، أو عينا تعزل ذاتها عن الأعضاء الأخرى؟ ألا ترى أن حياة واحدة تسري في الكل المتحد، وأن نفسا واحدة تنبض بالشعور والإحساس، وأن دما واحدا يسري في الكل، وأن طاقة واحدة تفعل على نحو شمولي؟ ألا ترى أن كل عضو يعمل لذاته بقدر ما يعمل للأعضاء الأخرى؟ العين ترى للجسد كله، والقلب يعمل للجسد كله، والأذن تسمع للجسد كله، والرئتان تتنفسان للجسد كله، والمعدة تعمل للجسد كله، والعضو التناسلي يعمل للجسد كله.

أحب، قبل أن أبلغ نهاية هذا البحث، أن أميز بين كلمتين هما: الروح والجسم الروحي. وأنا أقصد بهذا التمييز إزالة الغموض الملازم لعشوائية التفكير. فالروح هي تفاعلية كونية شاملة، أو كيان كلي، يقبل التحول إلى كل شيء [34]. ويمكن القول بأنها شبيهة بنظام الكهرباء الموجود في كل مكان، أو بالجاذبية الشاملة، كما يمكن القول بأنها معيار للتحول بحيث تكون نظيرة معادلة إينشتاين الشهيرة: الطاقة تساوي الكتلة مضروبة بمربع سرعة الضوء. أما الجسم الروحي فهو تركيز طاقة كونية في نقطة أو بؤرة. والحق، أن الجسم الروحي ليس هو «الروح الكلي» بالمعنى الحرفي، بل هو تركيز هذا الروح الكلي في درجة دنيا من درجات الوجود. ويمكنني القول إن الجسم الروحي واحد من الأجسام الأخرى التي هي تركيزات أعلى للطاقة الكونية. وبإمكان هذا الجسم أن يحقق الروح الكلي حتى يصبح روحا كليا [35]. ويمكنني أن أضيف قائلا: إن الجسم الروحي هو المبدأ البسيط، غير المركب، الذي لا يقبل الانحلال أو الفساد، ولا يخضع

---

[34] راجع فصل» الإدراك الحسي الزائد، البسيكوترونيك« في كتابي» المادة والروح«

[35] راجع فصل» الإنسان وأجساده« في كتابي» المادة والروح«.

للبحث والتحليل، أو للتجربة العلمية. لذا، تنصب التجارب العلمية على الجسم المادي وحده. والحق، أن العلماء قادرون على دراسة الدماغ على نحو تجريبي، لكنهم يعجزون عن إجراء تجربة للعقل. ويستطيعون التحدث عن الأعصاب على نحو اختباري، لكنهم يفشلون في معرفة سر الشعور والإحساس. ويستطيعون أن يصوروا الجسم المادي، لكنهم يواجهون الصعوبات البالغة وهم يحاولون تصوير الجسم الروحي. ومع ذلك، تشير التجارب والدراسات العلمية إلى احتمال تصور الجسم الروحي من خلال النتائج الباهرة التي حصل عليها بعض كبار العلماء. وعلى سبيل المثال، يدرك الحكماء الذين يعرفون أسرار الجسم الروحي، أن العلماء الذين توصلوا إلى فهم حقيقة الـ DNA والـ RNA يقفون عند تخوم المعرفة السرية للطاقة التي تسيل في العمود الفقري العائد للجسم الروحي، وفق ما تعلمه الحكمة السرية.

أحببت أن أنهي رسالتي هذه على النحو الذي تراه، لأتيح لك مجال التأمل والتقصي والتبصر. ومن جانبي، أريد أن تعيد النظر وتتأمل كل ما جاء في هذه الرسالة، علما بأنني كنت، في العديد من الأفكار المطروحة، أحاول أن أتلمس الحقيقة. وإذا ما خطر لك أن تتساءل: كيف يدرك صديقي هذه الوقائع أو الحقائق؟ أجبت: إن أفكاري هذه تعود إلى مصادر اذكر منها:

1 ـ مبادئ الحكمة السرية التي تخرج عن نطاق الدراسات الأكاديمية والتقليدية.

2 ـ مبادئ العلم الحديث، أو العلماء المحدثين الذين بدأوا يستشفون الحقائق والوقائع.

3 ـ تجربتي الروحية الخاصة التي حدت بي إلى التعرف إلى الأسرار الروحية المتوافقة مع الأسرار العلمية. لذا، تراني ألح، كلما سنحت الفرصة، إلى أن تقوم بدور المتأمل. هذا، لأن كل علم أو حكمة، أو مبدأ، أو شعور، هو تجربة داخلية، لا تعبر عن حقيقتك إن كنت لا تحياها، أو إن كانت لا تستغرق كيانك، أو لا تمتلئ بها. وتظل خارج ذاتك، غريبة عنك، ومنفصلة عنك إن كنت لا تتمثلها في أعماقك. والحق، أن المؤسسات العديدة، الفكرية أو اللاهوتية، فشلت في توجيه الآخرين إلى الطريقة التي تعلمهم «كيف يحيون مبادئهم» أو كيف «يحيون الحقيقة» القائمة في كيانهم. وعلى غير

ذلك، دأبت على تعليمهم كيف يرددون القواعد الموضوعة، والمـثل، والمبـادئ الأخلاقيـة والروحية دون أن يحيوها في داخلهم.

الرسالة الثامنة عشرة

العودة إلى التجسد مبدأ كوني

صديقي...

غمرتني غبطة لا موصوفة، تتجاوز بلاغة اللغة، وأنا أعيد قراءة ما جاء في رسالتك وأتأمل فحواها. وأدركت أنك تحيا وجودا يحفل بفلسفة الأمل التي لا تشتمل في ذاتها على شيء من التفاؤل أو التشاؤم. ففي التشاؤم يكمن التفاؤل، وفي التفاؤل يكمن التشاؤم. فإذا ما تفاءلت بامتلاك شيء أو إنسان، وجدت نفسي متشائما في اللحظة التي أفقده، فأحس بالخذلان والإحباط. وإذا ما تشاءمت بصدد موضوع، وجدت نفسي متفائلا في اللحظة التي يتحول فيها لصالحي. أما الأمل فإنه يختلف عن التفاؤل، وهو الطاقة الفاعلة في داخلي، والمتجهة إلى محبة الوجود، وتحقيق الوعي الكوني، والسمو بالوجود إلى الوجوب، إلى ما يجب أن يكون؛ هو الاستغراق في المعرفة والحياة في الكيان، والإحساس بقيمة الكينونة.

أدركت، وأنا أتابع خيوط تفكيرك لأحيك منها نسيجا واحدا متكاملا يتمثل في شخصية متوازنة واعية، أن استهلالك للانطلاق في المحيط أو الوسط الروحي الطاقي الحياتي المادي قضية تدعوك إلى الاعتراف بأنك أصبحت تحقق إنسانيتك المؤلهة الكونية الواعية. وعلى الرغم من غبطتي المفعمة بنشوة الروح، وإدراكي الملقح بمنطق العقل، أحسست، بل أدركت، أنك تعاني من مسألة تطبيق مبدأ الخلود. فأنت تصرح في رسالتك بأنك مقتنع، كل الاقتناع، بديمومة واستمرارية الوجود الإنساني، ولكنك تجهل الوضع الذي سيكون عليه الإنسان بعد التحول الطارئ الذي يطلق عليه مصطلح الموت. وجدتك تتساءل: كيف يحيا الجسم الروحاني؟ ما الوظيفة الحياتية التي سيقوم بها؟ كيف يفكر، وبم يتأمل؟ وهل يعاقب أو يكافأ على أعماله الدنيوية؟ وهل

يوجد مكان يدعى «جهنم» ومكان آخر يدعى «سماء»؟ وهل يوجد كائن يصطبغ بالحمرة أو بالسواد يدعى «إبليس»؟ وهل يوجد كائن آخر، نوراني الجوهر، يدعى «الله»؟ وهل أن بقائي على كوكب الأرض بضع عشرات السنين يكفي لتقييم وجودي الأبدي بعد الموت؟ وهل تقيم الأبدية بسنوات قليلة يقضيها الإنسان على الأرض؟ وهل يتسم هذا التقييم بالعدالة والمحبة؟ وهل أن خطيئة يقترفها الإنسان تؤدي به إلى الهلاك الأبدي؟ وهل أن التوافق مع «تقاليد» آلية تجمعية تميزت بمفهوم العبادة، يفتح للإنسان أبواب فردوس النعيم والملذات؟

تصورت أن رسالتي السابقة ستثير نفسك المتعطشة إلى المعرفة، وتلقي بك في دوامة التساؤل والبحث. ومن جانبي، أتفق معك إذ تقول إن مفهوم الخلود يبلغ حتفه في اللحظة التي يرتبط بالحياة «الأخرى» التي تخيلتها أدمغة معينة من بني البشر. والحق، أن قيمة الخلود تتقلص حتى تبلغ اللاشيء إن نحن أبقينا على إيماننا التقليدي بحياة تنقسم إلى جهنم وسماء، إلى عذاب وراحة. هذا، لأن مفهوم هذا الانقسام يجزئ الأبدية إلى ثنائية وينفي عنها وحدتها ويلقيها في خضم الصراع. وبالإضافة إلى ذلك، يختلف مفهوم هذا الانقسام من فئة إلى فئة، ومن طائفة إلى طائفة، ومن شعب إلى شعب. فما قيمة الخلود إن كان خلودا أبديا في عذاب، أو خلودا أبديا في لذات تكاد تكون أشد وأشهى، أو أسوأ، من ملذات كوكب الأرض؟ أبهذه الصورة يرسم الخلود؟ وهل يستطيع الإنسان أن يقبل بخلود من هذا النوع، يتمتع بهذا الوصف؟ ألا يسقط مفهوم الخلود في اللحظة التي نخضعه للتقاليد السائدة؟ وما قيمة الخلود إن كان يرتكز على قواعد لا يقبل بها الإنسان وهو يحيا حياته الأرضية؟

لمست جديتك التي عبرت عنها بالتساؤلات العميقة العديدة التي أبلغتني إياها في تضاعيف رسالتك. وعلى الرغم من أنني لا أتميز بالحكمة الكلية التي تخولني حق الإجابة الكاملة والشرح الوافي، لكنني أجتهد لكي أوضح بعض المعالم، وأفسر بعض المفاهيم المتصلة بالموضوع.

1 ـ الغاية المرجوة من الحياة

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما بدأت أتأمل المغزى الحقيقي لوجود الإنسان على كوكب الأرض، والمعنى الذي تحمله حياتي التي لبست جسدا. وتابعت

تأملي، وأكثرت من دراساتي للتصورات، والعقائد والمبادئ المنتشرة في أنحاء العالم الأرضي. وفي مرحلة من مراحل شبابي بدأت أستشف الغاية المرجوة من الحياة على كوكب الأرض. وأدركت أنني مهيأ لاختيار طريق من أصل طريقين: الحياة أو المعيشة. ففي طريق «الحياة» أبحث عن حقيقة وجودي وكياني، وأسعى إلى السعادة والغبطة، وأهدف إلى المعرفة والفضيلة. وفي طريق «المعيشة» أنغمس في تيار اللذة، وأرتمي في أحضان التملك، تملك الأشياء والإنسان، وأضيع في متاهات الأنا، وأرضخ لمطالب ذاتي التي تتجه إلى التسلط والتعلق بالمظاهر الزائفة. وعندئذ، أقمت مغايرة ومقارنة بين الحياة والمعيشة، بين المعرفة والوعي والفضيلة من جهة، وبين مطالب الأنا من جهة ثانية. وسألت نفسي كيف يمكنني أن أحدد الغاية من وجودي؟ وأجبت: ثمة نوعان من الغايات 1- غايات قريبة آنية تتجسد في الاستزادة من مطالب الأنا التي تستند إلى الطعام، واللباس، والمسكن، وامتلاك المال والعقارات وهيمنة الذات، 2 - غايات بعيدة دائمة، أو سامية، تتمثل في المعرفة والفضيلة والوعي والمحبة، وتهدف إلى تحقيق الكيان.

استطعت أن أحدد الغاية من حياتي بالمعرفة والوعي الكوني والفضيلة والمحبة وبالتحقيق المثابر للكيان. ولقد أرجعت هذا التحديد والتعريف بالغايات البعيدة، بعد تفضيله على الغايات القريبة، إلى سبب رئيسي تبينت حقيقته لي كما يلي: إن كنت أضع الغايات القريبة هدفا لي، فإنني أسعى للحصول عليها والاستزادة منها. وإذا ما افترضت أنني نلت أكثر وأفضل ما يتيسر منها، أدركت أنني لن أجد فيها المغزى الحقيقي لوجودي. فلو وهبت أجمل منزل، وأشهى طعام، وأثمن لباس، وأعطيت المال الكثير، لكن السؤال الذي أطرحه ويتصل بالغاية المرجوة من حياتي الأرضية لا يبطل ولا يتوقف. ألا يسأل المتمولون أنفسهم عن الغاية الحقيقية للحياة؟ فإن كانوا لا يطرحون على أنفسهم مثل هذا السؤال، فلأنهم لا يدركون القيمة المنطوية في الوجود، ولأن أموالهم المنحرفة إلى ملذات قد خدرتهم. ومع ذلك، تلزمهم الأحداث الأليمة التي تقع لهم على التفكير بمعنى الحياة. ألا يسأل الساعون إلى الملذات والشهوات، بأنواعها، عن الغاية الحقيقية لحياتهم؟ ألا يتساءل الذين يتأنقون باللباس ويتفاخرون بالمظهر الخادع، إن كانت حقيقة حياتهم تكمن في لباسهم ومظهرهم؟ ألا يعني هذا أن الغاية القصوى للحياة، لا تكمن في أنواع التملك المتجسدة في امتلاك المال، والجاه، والطعام الشهي، واللباس الفاخر، والمسكن الفخم المريح؟ والحق، أن الإنسان يسعى، أول ما يسعى، إلى

الغايات القريبة، ليكتشف، بعد أن تشرف شمس حياته على المغيب، أن الغايات القريبة أو المادية لم تكن الغاية الأساسية للوجود الأرضي. وعندئذ، يدرك أنه أضاع حياته، وهدر الطاقة العظيمة التي منحها له الوعي الكوني، أو الحياة الكونية، أو الحقيقة السامية.

أدركت أن الغايات القريبة التي ينشدها الإنسان اعتقادا منه بأنها ركيزة استقرار وطمأنينة، لا تمثل المعنى المتضمن في الوجود الأرضي. وقادني إدراكي إلى رؤية حقيقة الغاية في المعرفة والوعي والفضيلة لتحقيق الكيان الواحد. وعندما ألتفت إلى كبار الحكماء، والعلماء الإنسانيين، والأخلاقيين علمت أنهم لا يتنازلون عن غاياتهم البعيدة السامية مقابل الغايات القريبة كلها. هذا، لأنهم أدركوا سر الوجود المتمثل في تحقيق الكيان وتجاوز الأنا. وعندما طرحت على نفسي السؤال التالي: لم يسعى الناس إلى الغايات القريبة ويعرضون عن الغايات البعيدة؟ أجبت بما يلي: أولا – لأنهم لا يفهمون الاتصالية الكونية، ثانيا – لأنهم يعتقدون بمركزية الوجود الأرضي، ومركزية الأنا ويتشبثون بها. فهم يجهلون أن وجودهم الأرضي متصل بالوجود الكلي، وأن الحقيقة واحدة في كل مكان، ويزعمون أن مركزية الأرض، أو مركزية أناهم، تقوم على تجسيد هذه المركزية في أكثر المظاهر واقعية، وفي الوقائع المنظورة أو الملموسة، وفي الأمور التي تحدث النشوة الحسية، ومدها إلى أرجاء الكون.

بلغت هذا الحد من تأملي، واقتنعت بجدوى المعرفة والوعي والفضيلة، وتحقيق الكيان. ولكنني، تعرضت للارتياب والشك في القيمة المعطاة لمعنى وجودي بعد التحول الطارئ الذي أدعوه الموت. عندئذ، أخذت أتفحص وأتأمل ما جاء في العقائد التي تبناها غالبية الناس. وجدت أنها تنادي بحياة سعيدة للأخيار في السماء، وبحياة تعيسة للأشرار في جهنم. تأملت القواعد التي تقوم عليها سعادة الأخيار، فوجدت أنها نصوص تختلف من فئة إلى فئة بحيث أن حظ الأخيار ليس واحدا في كل النصوص. وتأملت القواعد التي تقوم عليها تعاسة الأشرار، فوجدت أنها نصوص تدين كل من يخرج عن نطاقها. وأخيرا، قادني تأملي إلى تقصي حقيقة جهنم وحقيقة السماء، وتيقنت من أن الخلود أو البقاء أو الاستمرارية قضية تشير إلى اتجاه واحد لمفهوم التعالي وليس إلى اتجاهين، وأعني، أن الثنائية ميزة العالم المادي وليست خاصة تلحق بالعالم اللامادي. وإذا كان الأمر كذلك، فإن قضية جهنم بوصفها «مكانا» غير موجودة. هذا،

لأن الطريق إلى الإله الموجود في كل مكان، والمنبث في حضور دائم، يجب أن يملأ الكل ويكون وحيد الاتجاه... وبالإضافة إلى ذلك، أقول: ليس ثمة ثنائية في الأعالي.

2 ـ السلب المنفي

يقوم دحضي لمفهوم «المكان الجهنمي» ولما يحمله من صور بشعة ومنفرة على المقومات التالية:

1 ـ القول إن جهنم مكان قول مردود، وذلك لأن أبعاد المكان الأرضي غير متوافرة في عالم آخر، أو في مستويات أخرى من الكون... لذا، لا يتوافر مفهوم المكان في العالم الروحي.

2 ـ القول إن جهنم نار قول مردود، وذلك لأن النار تحرق الجسد المادي ولا تحرق الروح اللامادية.

3 ـ القول إن جهنم نار مخيفة قول مردود، وذلك لأن «الحقيقة السامية» تعرف بأنها نار ونور.

4 ـ القول إن جهنم مكان قول مردود، وذلك لأن «الحقيقة السامية» وجود يملأ كل مكان بما فيه جهنم.

5 ـ القول إن جهنم مكان ترسل إليه أرواح البشر بحسب مفهوم الشر الملازم للشريعة قول مردود، وذلك لأن الإنسان صورة «الحقيقة السامية». وعلى هذا الأساس، لا ترسل الحقيقة السامية صورتها إلى جهنم لكي تتعذب. هذا، لأن الصورة تمثل حقيقة الكائن.

6 ـ القول إن جهنم مكان للعذاب قول مردود، وذلك لأن العدالة الإلهية لا تقضي بتعذيب الإنسان أو إدانته ما دامت «الحقيقة السامية» محبة؛ وفي المحبة تنتفي الإدانة أو العذاب المحتم. أقول هذا وأنا أدرك أن الألوهة المحبة تأبى أن تعاقب الإنسان الذي اقترف خطيئة عن جهل. وإذا ما سألنا: هل يتساوى الخاطئ الذي اقترف عملا شائنا مع الخاطئ الذي اقترف أخطاء فادحة وشريرة عديدة بوجودهما في جهنم؟ وما الزمن الذي يقضيه الخاطئ في جهنم؟ فإذا كانت الحياة على الأرض تنتهي بالموت لتبدأ حياة الأبدية، فهل أستنتج أن العقوبة ستكون أبدية؟ وهل أن

السنوات القليلة التي يقضيها الإنسان على الأرض تحدد الحياة الأبدية؟ ألا يعني هذا أن الأبدية تخضع لمفهوم الزمان الأرضي؟ وهل تتفق هذه الإدانة مع العدالة الإلهية؟ فإذا كان الإنسان يسامح غيره لخطأ اقترفه ضده، فكيف نجرد المحبة الإلهية من التسامح والتحمل؟

7 ـ القول إن الأشرار من أهل الأرض يتجهون إلى جهنم قول مردود، للأسباب التالية:

آ لا يمكن أن تكون جهنم وجودا أدنى من وجود كوكب الأرض؛ هذا، لأن العالم الأرضي يمثل المستوى الأدنى في سلم العوالم.

ب إذا كان الناس الأشرار يمضون إلى جهنم، فإنما يعني أنها مكان متسع جدا، وقد يكون أضخم الكواكب أو النجوم.

جـ يبدو لي أن الطريق الذي يسلكه الناس يؤدي بهم، بالتأكيد، إلى جهنم، وذلك بحسب الحكمة المأثورة «من قال لأخيه يا أحمق، يستحق نار جهنم». وهكذا، يمكنني أن أستنتج أن جميع الناس، باستثناء فئة قليلة جدا لا تحسب بالنسبة المئوية، ماضون إلى جهنم.

د لا أستطيع أن أحدد أو أعين المكان الذي تحتله جهنم في الكون.

8 ـ إذا كانت جهنم موجودة بسبب أخطاء البشر وشرورهم، فإن وجودها ينتهي بعدم أو بنهاية وجود الأرض والناس وشرورهم وأخطائهم. وهكذا، أستنتج أنها ليست موجودة أصلا.

9 ـ القول إن جهنم تفترض وجود الشيطان، أو إبليس، قول مردود، لأن إبليس ليس وجودا مشخصا... ليس إبليس أو الشيطان شخصا. وإذا ما سألت: من أو ما هو إبليس؟ أجبت بما يلي:

آ هو المقاومة السالبة التي تبديها المادة ضد النظام والوعي والمحبة، هو القدرة النابذة للقدرة الجاذبة.

ب هو «الإنسان العتيق» الذي يحيا في، الإنسان الخاطئ الذي يتوجب علي خلعه لكي أحقق «الإنسان الجديد» النقي. والحق، أنني أحقق الألوهة، وأعني أنني أتجدد في كل لحظة أخلع الإنسان العتيق الخاطئ، إبليس، الذي كنته

سابقا. إذن، فعملية جهنم تتم في داخلي، وليس في مكان معين في «الأعالي». فإذا كنت أخلع الإنسان الخاطئ، فإنما يعني أنني أخلع إبليس الكامن في جسدي. وإذا كنت أقبع في ظلام الإنسان الخاطئ، فإنما يعني أنني إبليس، وأحيا في جهنم. وإذا كان كوكب الأرض المكان الذي توجد فيه المقاومة السالبة، وقوة النبذ، والإنسان الخاطئ، فإن كوكب الأرض هو المكان الذي يدعى جهنم، المكان الذي يدعوني إلى غلبة جهنم لأحيا في السماء. وبالإضافة إلى ما ذكرت، تعد الصورة المرسومة لإبليس سببا رئيسا لمفهوم التمييز العنصري القائم على اللون. ولما كنا نكسب إبليس صفة السواد أو الحمرة، فإنما يعني أننا نسحب هذه الصفة على كل إنسان أو شعب ملون أو أسود. وإذا ما كرهنا إنسانا، تحدثنا عنه كما نتحدث عن إبليس، فنكون إبليس. إذن، فإبليس هو الصفة التجسيدية للشر الناتج عن الجهل، المدعو بالشر، الذي يقاوم الوعي. في الجهل يكمن إبليس وفي الوعي يكمن الإله. ويمكنني أن أقول: إن الإنسان يشخص الشر الذي يفعله في إبليس، ويشخص الخير الذي يفعله في الله. وأخيرا، أخلص إلى النتيجة التالية: يخلق الإنسان إبليس؛ فإن كان الشعب الذي «يعتقد» بأنه الشعب الوحيد المختار لله، أو الشعب المفضل عند الله، فإنه يعني أنه جعل من الشعوب الأخرى التي لا تنضوي تحت معتقده، شعوبا لإبليس؛ وهكذا، يخلق أصحاب العقائد المغلقة إبليس، ويشخصونه باختبارهم المزعوم أو أفضليتهم الأنانية.

10 ـ القول إن الله أوجد إبليس لأنه ضرورة محتمة في الخطة التي وضعها للوجود المادي قول مردود للأسباب التالية:

آ لا توجد حقيقتان أو جوهران في الكون؛ هنالك حقيقة واحدة هي« الحقيقة السامية» التي ندعوها الألوهة، خالقة أو مبدعة الكل.

ب أدى الاعتقاد بإله شخصي إلى الاعتقاد بوجود إبليس. فلو تنازل أصحاب العقائد عن إيمانهم بإله شخصي لتنازلوا عن الإيمان بإبليس شخصي له مملكته الخاصة في نطاق الألوهة. أما إذا آمنوا بوجود أو بكيان كلي إيجابي، فإنما ليؤمنوا بوجود إيجابي قابل لاتخاذ صورة السلب أو النفي في عالم الثنائية. وعلى هذا الأساس، يعتبر إبليس النفي المتمثل بالمادة أو بالمقاومة السالبة في عالم الثنائية الظاهرية.

جـ لا توجد ثنائية في الكون، وذلك لأنهما مظهر ملازم للعالم المادي الذي يحتمل مفهوم «الثنائية الظاهرية» والوحدة الجوهرية.

د تفترض نظرية الخلق وجود إله شخصي خالق ووجود إبليس. أما نظرية الفيض، أو الصدور أو الانبثاق فإنها تثبت مبدأ الوجود الواحد عبر تسلسل وجودي تراتبي ومتصل. ويشير مبدأ الصدور إلى تناقص تدريجي للنور، ينتهي أخيراً في الظلام إبليس هو الظلام، ظلام النور والروح وإلى تناقص اللطافة المتحولة إلى كثافة هي المادة إبليس هو المادة، هو الروح المغلقة في المادة، ورئيس عالم المادة. ولمّا كان الظلام، وهو قضية مجازية، والمادة النتاجين الأخيرين لعملية الفيض الكونية، فإن مفهوم السلب قائم فيهما، الأمر الذي يشير إلى وجود ما نسميه الشر إبليس. وعلى هذا الأساس، أقول: إن إبليس هو القوة السالبة، أو المقاومة السالبة الكامنة في انغلاق المادة؛ وهو النبذ الذي تبديه المادة السالبة لقوة الجذب الموجبة. والحق، أن هذا النبذ وتلك المقاومة تتشخصان بمفهوم واحد هو إبليس، أو الشر. ولكن الإنسان الحكيم الذي يعي هذا الواقع يستخلص حقيقة كونية واحدة هي: الإيجاب هو السلب الذي يعود إلى الإيجاب [36].

ألا تذكر أنني حدثتك عن الطريق ذي الاتجاه الواحد إلى الحقيقة السامية التي ندعوها «الله»؟ ألا يعني هذا أن السلب ينفي ذاته ليعود إلى الإيجاب؟ وإذا كانت تلك هي الحقيقة، فإن تجسيد إبليس في شخص ينتهي، لتبدأ كونية مفهوم الإيجاب والسلب. أخيراً، أحب أن أشير إلى أن الإيجاب والسلب يخلوان من مفهوم التناقض. لذا، يتمثل التناقض في مفهوم «إله مشخص» و«إبليس مشخص».

11 ـ القول إن جهنم مكان مهيأ للخطأة قول مردود، لأن انتفاء الخطيئة يعني انتفاء جهنم. وإذا كانت جهنم، بوصفها مكاناً، قد وجدت للخطأة، فمعنى ذلك أنها وجدت بعد تأسيس كوكب الأرض، وبعد اقتراف الإنسان للشر. فلو لم يقترف الإنسان الخطيئة، لما وجدت جهنم. ألا تعني هذه العبارة أن جهنم ليست موجودة أصلاً في الكون لأنها نتيجة حاصلة من اقتراف الشر، وليست سبباً له؟ ألا يعني هذا أنها ليست مكاناً، إذ نعلم أن كوكب الأرض هو المكان الأخير في سلسلة الوجودات؟ ألا يعني

[36] راجع فصل «الإيجاب والسلب» في كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».

هذا أن وجودها، وفق هذا الشرح، دليل على أنها أدنى درجات اللطافة وأعلى درجات الكثافة؟

12 ـ القول إن جهنم مكان يحتضن أو يحتجز الأشرار قول مردود، لأن مفهوم جهنم ينفي وجود الألوهة الحقيقة السامية. وإذا كان الخاطئ يحترق في جهنم ما دامت الأبدية، فإن هذا البقاء الأبدي في جهنم المكان يحول دون تحقيق الألوهة أي الحقيقة السامية. وإذا كانت الغاية القصوى التي يسعى إليها الإنسان الأرضي تتمثل في تحقيق الألوهة، فلا بد أن تنتفي عقيدة جهنم المكان ـ، وذلك لأن الإنسان يعجز عن تحقيق الألوهة وهو محتجز في جهنم المكان. وفي هذه الحالة، يتألم الله في سره لأنه لم يتحقق في خلقه، وفي الإنسان. إذن، فتحقيق الألوهة يقتضي عدم وجود جهنم المكان. هذا، لأن التطور الروحي ينمو باستقامة إلى الأعلى، وحيد الاتجاه.

13 ـ إذا كان الشيطان، أي إبليس، هو السلب القائم في المادة، فإن العودة تكون إلى كوكب الأرض لأن الشيطان إبليس، أي السلب، قائم فيه. وإذا كان واجب الإنسان يتجلى في تجاوز السلب والسمو إلى الإيجاب، فإن عملية التجاوز تتم على المستوى الأرضي، عبر المادة، أي عبر السلب. وإذا كان الإنسان يخطئ أثناء وجوده على الأرض، ويلتزم بالخلاص من خطئه، فإنما عليه أن يعود إلى الأرض لكي يتجاوز السلب إبليس، ويحقق الإيجاب الله في الموضع الذي يتطلب منه الخلاص من الكثافة المادية التي تطوي في ذاتها مفهوم السلب إبليس.

14 ـ أستنتج، مما تقدم، أن جهنم تكمن في داخلي تماما كما تكمن السماء، وأن السلب يكمن في داخلي تماما كما يكمن الإيجاب. لذا، تنبثق جهنم من عدم تحقيق السلب في الإيجاب، أو في إبقاء التناقض الثنائي بينهما. وإذا ما تساءلت عن النتيجة اللازمة لمقدمة عدم التحقيق، أجبت: يتلظى الإنسان الذي يعيش سلب حياته دون إيجابه، ويحترق هذا السلب مع الإيجابية الكونية في نار جهنم. وإذا شئت أن أفسر الغموض أو الصعوبة التي تكتنف هذه العبارة، قلت:

آ تشبه جهنم بالنار لسبب رئيس هو أن النار رمز لمستوى من مستويات الطهر والنقاء. إذن، فجهنم هي عملية النقاء، أو العذوبة المرافقة للإنسان الذي أخطأ، وهو يعيش في جهله تحت كنف السلب.

ب يرافق عملية الطهر والنقاء ألم شديد، وعذاب يدعى جهنم. ولما كان الإنسان العادي لا يعرف، أو لا يعترف بخطئه، أثناء بقائه على كوكب الأرض، فإنه سيتعرف على حقيقته بعد الموت. وعندئذ، ينتابه ألم غير محدود، تصاحبه معرفة، وتوق إلى الخلاص من الخطيئة والعودة إلى كوكب الأرض حيث تم اقتراف الشر المنوه عنه بالسلب. أما إذا رفض الجسم الروحي العودة إلى كوكب الأرض لتجاوز الأخطاء المقترفة والسمو إلى درجات أسمى في سلم الكمال، فإنه يحيا في عذاب مرير أدعوه جهنم. وهكذا، أقول إن جهنم هي الرفض الذي تمارسه الأجساد الروحية الخاطئة للعودة إلى التجسد. والحق، أن رفضها هذا يلقي بها في أتون الألم السلبي المعروف بجهنم... ليست جهنم مكانا. إنها الحالة التي تحياها الروح بعد فراق الجسد لتنشد الألوهة وتتخلص من السلب إنها رحلة الإنسان من السلب إبليس إلى الإيجاب الألوهة.

3 ـ حقيقة العودة

لا تعد العودة إلى كوكب الأرض، المكان الذي يجسد التعويض عن الأخطاء المرتكبة في حياة سابقة، عقوبة أو إدانة، وذلك لأن الغاية من العودة تشير إلى تحقيق المزيد من الكمال من خلال الخلاص أو الانعتاق من القيود السلبية الماضية. والحق، أن تحقيق الكمال لا يندرج تحت مفهوم العقاب. وفي هذا الصدد، يمكنني أن أقدم مثلين: أولهما تصور بأنك موجود في غرفة حالكة الظلام لا مجال للرؤية فيها، وتعرف، عن طريق الحدس أو غيره، أن الغرفة تمتلئ بأوان ثمينة مبعثرة هنا وهناك. تصور بأنك تبحث عن مصدر النور ليتبدد ظلام الغرفة. ولما كنت تعلم أو تحدس أن جهاز إنارة موجود في الغرفة فإنك تسعى للبحث عنه. وأثناء بحثك عنه، أدركت أنك تصطدم بالأواني الفاخرة الثمينة، لتكسر منها الكثير... يعتريك الندم والإحساس بالخطأ. ولكنك لا تستطيع رؤية نتائج وآثار أخطائك لأنك تعيش في الظلام. وعندما تبلغ جهاز الإضاءة، تنيره لتشاهد وتتأمل الأخطاء السيئة التي ارتكبتها والآثار المدمرة التي خلفتها وراءك... عندئذ، تتألم ألما سلبيا، شديدا أو طاغيا... وفي اللحظة التي ينتابك الألم السلبي جهنم، تشعر بميل كبير إلى إصلاح الخطأ. والحق، أن إصلاح الخطأ لا يخرج عن نطاق المكان الذي حدث فيه هذا الخطأ. وإن انطلاقك إلى مكان آخر لا يساعدك على إزالة آثارك السيئة. وبالمثل، يقع للإنسان، وهو يعيش حياته الأرضية، ما يقع لمن

يعيش في غرفة مظلمة. فهو يسعى إلى مشاهدة أعماله التي سجلّها على لوحة الوجود من خلال الضوء الذي يبحث عنه. فإذا مات الإنسان، استطاع جسمه الروحي أن يعاين الأفعال التي قام بها أثناء وجوده على كوكب الأرض.. والغرفة المظلمة، هي ظلمة الأنا، هي الفترة التي يقضيها الإنسان على ا لأرض، وجهاز الإنارة هو الحدث أو التحوّل الذي يسهل عملية الرؤية. وإذا أدرك وتأمل ما سبق وفعل، أراد العودة إلى كوكب الأرض ليصلح ما كان أفسده، وذلك لأن كماله يعتمد كل الاعتماد، على هذه العودة [37].

أحب أن أقدم لك مثالاً آخر يقرب مفهوم العودة إلى تصورك: ثمة إنسان اقترف أخطاء كثيرة في وطنه.. استطاع أن ينتقل إلى وطن آخر تسوده العدالة والحكمة والمحبة. وما أن وطأت قدماه أرض ذلك الوطن حتى استدعي إلى محكمة العدالة والمحبة والتعليم والإرشاد التي لا تقبل في صفوف مواطنيها إلا المواطن المحب العادل. بسط له الحاكم العادل مبادئ وطن العدالة ونوّه إلى أعماله السيئة، التي اقترفها في الوطن الذي كان يعيش فيه، وقال له: لما كنا نرفض في وطننا أناساً مسيئين قوّضوا مبادئ الحكمة الكونيّة والوعي الكوني، ومبدأ المحبّة الشامل، فإنه مطلوب منك أحد أمرين: عودتك إلى وطنك والتعويض عن أخطائك بإصلاح ما أفسدت دون أن تعتبر عودتك هذه عقوبة، بل جهداً تبذله لتحقيق كمال إنسانيتك المتمثل بالنقاء والطهر، وسعياً للتماثل مع مستوى مثالية وطننا، أو إرسالك إلى غرفة مظلمةٍ، شديدة البرودة تثير فيك الألم السلبي، أعددناها للخطأة الذين يؤمون بلادنا من البلدان الأخرى؟ أقول لك هذا لأننا نحن، من نحيا في وطن المحبة والعدالة، لا نعاقب بل نعلّم ونوجّه لأن المحبة والانسجام هما المبدآن الفاعلان في مستوى وجودنا. ألا ترى، يا صديقي، أن ذلك الإنسان الخاطئ يفضل العودة إلى وطنه للتعويض عن أخطائه وإصلاح ما أفسد دون أن تصطبغ عودته بالعقوبة والإدانة؟ ألا ترى أن مبدأ العودة أفضل من فرضية جهنم، مكان الأهوال والآلام السلبية؟

عندما تنعم النظر في الأمور التي أحدثك عنها في رسالتي هذه، تدرك أن الحقيقة السامية، التي نطلق عليها اسم الله، وفق تعاليم مبدأ العودة، لا تعاقب ولا تجازي لأنها محبة وواعية. وإذا كان الإنسان يوجد في الحضرة القدسية بعد فراق هذا العالم، فإنما ليتعرّف على أخطائه التي لم يتعرّف عليها أثناء إقامته في ملكوته الأرضي، ويعود إلى الانسجام مع القانون الكوني. إنه يحيا في الحضرة الإلهية لا لكي يحاسب

[37] راجع فصل «يوحنا وإيليا، أي العودة» في كتابي «رد على اليهودية واليهودية المسيحية».

ويـدان، بل لكي يوجـه إلى طريق الخـلاص والكمال. وفي الحضـور القدسـي يـدرك أنـه أسـاء إلى الحقيقـة التي هي هـو، وهو هـي. وعندئـذ، يعلـمه الحضور القدسي، أو يتعلم من خلاله، أو عن طريق الكائنات النورانية السامية، كيف يحيا في عالم النـور ويتجـاوز كثافة مادته ومقاومته السلبية. والحـق، أنه يعجز عن إدراك حقيقة أمره ما لم يتجرد من عالم الحس والكثافة. هذا، لأن القليل القليل من بني البشر يدركون الحقيقة وهم يلبسون أجسادهم. ويكون الموت شبيها بعزلة يفرضها الإنسان على ذاته ليتفـهم حقيقـة وضعـه، ويتأمل أفكاره، وأعماله وتصرفاته. لـذا، ذكرت لك أن الطريق إلى الحضور القدسي وحيد الاتجاه... من الأرض ذهاب إلى الألوهة، ومـن الألوهـة عـودة إلى الأرض. وتبقـى عمليـة التجسد قائمة ومستمرة حتى يبلغ الإنسان درجة كمال تسمح لـه بالخـلاص مـن عجلـة الولادة والموت. وتعتبر مرحلـة تجسده الأخيرة التي يحقـق الكمـال من خـلالها، كمـال الوجود الأرضي، وينعتق من إسار الكثافـة الماديـة، قيامـة. إذن، فالقيامـة الـتي عـبر عنهـا التقليـديون بمصطلح «اليوم الأخير أو المنتـهى»، هـي الخـلاص الكـامل مـن عـالم الموت والحياة الأرضية، مـن عمليـة الذهـاب والإيـاب، ومـن مبـدأ التجسـد. وأخـيرا، يمكنني أن أقـول إن الإنسان لا يبلغ كمالـه إلا بعـد تجسـدات عديـدة، ولا يحقـق هـذا الكمال إلا من خلال عودات يتحرر وينعتـق، كل مـرة، من عبودية سابقة، مـن قيـد أو إشراط قديم... إنه لا يحقق كماله في جهنم المكان.

4 ـ العودة مبدأ كوني

يدفعني بلوغ هذا الحد من الحديث إلى القول بأن مبدأ العودة مبدأ كونـي. فكمـا أنـه مبـدأ كونـي يتحقـق في المسـتويات الكـبرى، مسـتويات النجـوم الكـبرى والأنظمـة الشمسية، كذلك هـو مبـدأ كونـي يتحقـق في المسـتويات الصغـرى، مسـتويات الكواكـب والإنسان والجزيئات. فعلى مستوى النجوم الكبرى نجد كيف تبدأ، كيـف تنتهي وكيـف تعود إلى الانبثاق من جديد في عـود أبـدي لا ينتـهي. وعلـى مسـتوى الأنظمـة الشمسـية تتجلى لنا عملية بدئها وانتهائها، وعودتها من جديد إلى الانبثاق في عود أبـدي لامنتـه. وعلى مستوى الإنسان نعلـم أنه يولـد، ويمـوت، أي يتحـول، ليعـود ثانيـة إلى عـالم الجسـد والكثافـة. هـذا، لأنه لايستطيع أن يكمل وجوده ويحققه في دورة حياتية واحدة.

لما كانت الأرض الموضع الذي يحقق فيه دورات عديدة، متصلة، هادفة إلى الكمال، فإن جهنم المكان فرضية تقبل الإلغاء لسبب واحد هو: لا تحقيق في جهنم المكان. لا خلاص في جهنم المكان. لا حرية في جهنم المكان. لا معرفة في جهنم المكان. لا وعي في جهنم المكان. لا محبة في جهنم المكان. لا ألوهة في جهنم المكان. لا شمول في جهنم المكان. ولما كانت الثنائية الظاهرية سمة عالمنا، فإنها تلغى وتبطل في الوجود القدسي الواحد الذي لا ينقسم في ذاته إلى: إله وإبليس، سماء وجهنم. هكذا، تدرك أن عقيدة العودة مبدأ كوني يقبل التطبيق في كل نقطة من نقاط الوجود. قالت الحكمة: كما في السماء كذلك على الأرض. أما الجزيئات فإن عودتها تتحقق في ديناميكية الوجود وليس في آليته. وتشير الديناميكية إلى اتصالية جميع الأشياء، ووحدتها، وحياتها، وموتها، أي تحولها، وعودتها.

5 ـ الحرية والقدر

يرتبط مبدأ الوجود بمفهوم الحرية والقدر، والتسيير والتخيير. والحق، أن مفهوم القدر قضية معترف بها في الدراسات السرانية العميقة على نحو يختلف اختلافا كليا عن مفهومه في التقاليد والعقائد المذهبية التي تنبع من الإيمان بإله شخصي ترد إليه جميع الأفعال والتصرفات. ثمة قدر أستخلصه من المبادئ الإيزوتيرية التي تبحث في جوهر الحقيقة الكونية والإنسانية. ويمكنني تفسير مفهوم القدر من وجهة نظر مبدأ العودة كما يلي: القدر هو ما نأتي به من حياتنا أو حيواتنا الماضية... هو أفعالنا، أفكارنا، شخصيتنا التي نعود بها إلى التجسد من جديد. وفي هذا المنظور، يبدو القدر وكأنه حتمية ألقيت علينا. والحقيقة، أن القدر ليس حتمية تلقى علينا من الخارج... هو مجموعة ما «حتمناه» على أنفسنا من أعمال في حياتنا أو في حيواتنا الماضية. فإن كنت متكبرا في حياتي السابقة، فلا بد لي أن أحمل كبريائي إلى حياتي الحالية على نحو قدر لأتخلص منه على نحو حرية. وإن كنت مستغلا، أو طامعا، أو أنانيا، أو كارها الخ، في حياتي أو حيواتي السالفة، فإنني ألتزم بحمل صفاتي التي طبعت بها كياني وقمت بتطبيقها في ذاتي، ونبعت من ذاتي، ورغبت بها بذاتي، ولم تفرض علي من خارجي. والحق، أن هذه الصفات تصبح قيودا لي وإشراطات أحضرها معي، لتكون قدرا. ولذا، يمكنني أن أقول إن مفهوم القدر الذي أطرحه على هذا المستوى، يخرج عن نطاق الإيمان بإله شخصي يتلاعب بمصائر البشر ويمسك بزمام

أمورهم، ويقدر ما يشاء. والقدر الذي أتحدث عنه هو ما «قدرتـه» على نفسي مـن أفعـال سابقة وآراء ماضية، قمت بها، واكتسبتها في حياتي أو حيواتي السابقة.

يشير مفهـوم القـدر إلى احتمـال الـخلاص منـه بفعـل حـرية داخليـة تتصـل بالوعـي. ولـذا، ترافق الحرية مفهوم القدر. فإن كنـت قـد حملـت معـي مـيراث حيـاتي السابقة من أفعال وآراء، هي قيود وإشراطات، فلا بد لي وأن أكـون قـادرا علـى الانعتـاق منها بفعل حرية هي دافعي إلى الكمال. وإذا كانت إشراطات وقيود حياتي السـالفة قـدرا لي، حتمته على نفسي، ويشكل المقاومة السالبة، فإن حريتي الداخلية التي، من خلالها أنعتق وأخلص، تمثل المقاومة الإيجابية. وبقدر ما تكون المقاومة الإيجابيـة قويـة، واعيـة وحـرة، يكون بلوغ الكمال أمرا ممكنا. وإذا حتـمت على نفسي أن أبقى في نطاق قـدري، فإنني أكون كمن ينكر وجود الحرية. أما إذا علمت أن حريـتي، وهـي وعيـي، تفعـل في داخلي كقوة إيجابية تخلصني من إشراطات حيواتي السـابقة، فـإنني أكـون كمـن يؤكـد وجود الكمال، ووجود الحقيقة السامية، ووجود الاتصالية في الكون، ووجود طريق واحـد واتجاه واحد أسلكه إلى الوعي الكوني. وهكذا، يتـأرجح الوجـود الإنسـاني بـين القدريـة والحرية، بين الحتمية والفاعلية. وإذا كان الإنسان «يقدر» على نفسـه سـلوكات تقيدهـا الإشراطات و الحتميات والعبوديات، فإنما يعني أنه مسؤول، بفعل حريته، عن انعتاقـه منهـا... ليست جهنـم غـير العجـز النـاتج عـن عـدم القدرة علـى التحـرر، والخـلاص والانعتـاق... ليست جهنـم ألا الخضوع والاستسلام للحتمية والبقاء في مسـتنقع القـدر... وإذا ما بقي الإنسان قابعـا في زوايا قدره، اعترف بوجود إله شخصي فرض عليه مـا هـو عليه، واستسلم له، وخضع له بعبادة أشبه ما تكـون بالعبوديـة، الأمـر الـذي يـؤدي إلى انعدام مسؤوليته وحريته. وإذا ما أدرك الإنسان حقيقة وجوده، وغايته المتمثلة في مسيرته إلى الكمال، عرف أنه حــر في الفعـل الـذي ينقـذه مـن قيـود مـا حتـم علـى نفسـه ومـن إشراطات حملها من حياة أو من حيوات سابقة. لـذا، يمكنني أن أقول إن هـذه الحريـة لا تتحقق في جهنـم المكان، بل في مبدأ العـودة. هـذا، لأنـه يتيـح للإنسـان القـدرة علـى الانعتاق من قدر حياتـه أو حيواته الماضية. وإن ما ينطبق على الفـرد ينطبـق أيضـا علـى الجماعة أو الفئة. فإذا أخضعت الجماعة لمفهوم القدر الحتمي وتغاضت عن مفـهوم القـدر الحر، ظلت متخلفة عن ركب الحضارة وعاثت في الناس فسادا. وبقدر مـا تظـل خاضعـة لقدرها ومتغاضية عن الحرية، تبذر المزيد من بذور القدر الحتمــي، الحـافل بالإشـراطات والقيود، لمستقبل وجودها. وإذا كانت أفكاري تجعل مني، ما سأكون، فإن أفكار الفئات

تجعل منها ما ستكون. وإذا كانت أفكار الفئة تتجه إلى إعلاء شأنها، والتشديد على العلاقة النسبية والعنصرية، والافتخار على الفئات الأخرى، فإنها تقدر على ذاتها عودة أو عودات في نطاقها الجماعي، الأمر الذي يسبب لها قدرا قاسيا.

إن القدر الذي يحمله الإنسان من حياته أو حيواته الماضية مرتبط بمفهوم الحرية، القوة الفاعلة باتجاه الكمال. وكما أن الإنسان يعمل للخلاص من قدر حتمه على نفسه في الماضي، كذلك يتعرض أن يحتم على نفسه قدرا مماثلا يحتمه على حياته المقبلة. وكما أن شخصيتي الحالية هي نتاج الصفات الشخصية التي ولدت بها وحملتها من ماضي حياتي، كذلك تتشكل حياتي المقبلة من الصفات التي أقدرها لنفسي في حياتي الحالية. فإن شئت أن أكون عالما في حياتي المقبلة، فما علي إلا أن أسعى إلى ملء كياني بالمبادئ العلمية، وإن شئت أن أكون فيلسوفا في حياتي المقبلة، فلا بد لي أن أملأ وجودي بالدراسات الفلسفية، وإن شئت أن أكون أخلاقيا، أو فنانا مبدعا أو معلما أو موسيقيا الخ، فما علي إلا أن تحتل الصفات الخلقية، والفنية والإصلاحية وجودي الداخلي. ألا ترى أن العبارة الحكيمة «ما يزرعه الإنسان إياه يحصد» تشير إلى أن حياتي المقبلة تعتمد على ما أزرعه في حياتي الحاضرة، ولا تمت إلى وجود عالمين، جهنم والسماء، يشكلان مصيري، وذلك لأن الوجهة الصحيحة واحدة وليست اثنتين. وأحب أن أضيف قائلا: «ما يفكر به الإنسان يكونه». وهذا يعني أن قدري نابع من تفكيري وفعلي، وأن مستقبلي مزروع في البذور التي أبذرها. ومن جانبي، أحب أن أحدثك عن وجودي الحالي، أي حياتي الحاضرة: أتيت إلى هذا العالم وأنا أحمل تراث حياتي الماضية، وأضمر في داخلي «قدري» الذي «حتمته» على نفسي في تلك الحياة السالفة. ففي مرحلة حياتي الأخيرة كنت متكبرا، قلقا، ثريا، أحتل منصبا اجتماعيا عاليا، وأتمتع بدرجة عليا من الجمال الجسدي. ومع ذلك، كنت شغوفا بالدراسات الفلسفية والفكرية عامة، وبالبحوث السرية خاصة. وفي مجيئي الحالي، أحضرت معي مزايا حياتي السابقة: ولدت طفلا هادئا، وتحول هدوئي إلى قلق شديد إذ بلغت مرحلة شبابي الأولى. واستطعت، من خلال قراءاتي وتأملاتي، أن أعيد «التوازن» أو «التكامل» إلى نفسي. وهكذا، حققت التوازن والتكامل اللذين افتقدتهما في حياتي الماضية. فلم أعد أسعى إلى شهوة المجد، أو الجاه، أو المال، وفضلت تجنب الأضواء والعيش في الظل. وأصبح هدفي مركزا في البساطة والعمق العمودي دون السطحية الأفقية. ولم يعد الطمع أو الجشع يطغى على تفكيري، وأصبحت أبذل جهدي لكي أحقق

إنسانيتي المؤلهة... وتخلصت من قدري الماضي بحرية تطلبت وعيا كبيرا، كنت قد أحضرت معي شيئا منه في ولادتي. وإذ أعلم أنني لم أبلغ كمال حياتي، وأدرك أنني سأعود مرة أخرى، ستكون الأخيرة في سلسلة ولاداتي، فإنني أزرع في حياتي الحاضرة البذور التي أحب أن تنبت أشجارا مثمرة في حياتي المقبلة. لذا، وجدت نفسي، بعد أن حققت توازنا وتكاملا دلا على تحرري وانعتاقي من قيود حياتي الماضية، أنني بدأت أسعى بتركيز المعلومات المتمثلة بالفلسفة العلمية، والأخلاقية التي ستجعل مني عالما حكيما في حياتي المقبلة. وسوف أنشأ في بيئة تهيئ لي الحقل الذي ستنبت فيه المعلومات التي أزرعها.

عندما بلغت هذا المستوى من تفكيري، أدركت أنني قادر على تفسير الوضع الذي أحتله في العالم. وأصبحت تساؤلاتي التالية:

لماذا ولدت في بلاد دون أخرى؟ لماذا ولدت في أسرة دون أخرى، أو في فئة معينة، أو في طبقة معينة، أو في عقيدة معينة؟ لماذا ولدت قصيرا أو طويلا، نحيفا أو سمينا، فقيرا أو غنيا، محدودب الظهر أو مستقيمه، قوي الجسد أو سقيمه الخ، قابلة للتفسير. والحق، أن مبدأ العودة يقر بوجود حكمة في الوضع الذي يشغله الإنسان. ولهذا، يدعو مبدأ العودة تماما، كما تدعو الحكمة، لا إلى «تغيير» الوضع القائم بل إلى «تعديله». ففي التغيير عدم الاستقرار، وانعدام التوازن والتكامل، وخضوع لمركزية الأنا، وفي التعديل قدرة على إحداث ثورة ديناميكية داخلية تجعلني أرتقي سلم وجودي الإنساني انطلاقا من الوضع الذي يحمل كياني... تقول الحكمة: التعديل كما أنت. ويؤسفني أن أقول إن غالبية الناس يرغبون في التغيير الذي سيؤدي بهم إلى مزيد من «القدر الحتمي» وإلى عودات كثيرة. فهم يرغبون في تغيير أسمائهم، وأجسادهم، وأوضاعهم، وبلدانهم، وأهلهم الخ. ويفرحني أن أقول إن الذين يعدلون أنفسهم انطلاقا مما هم عليه، يسيرون في طريق التكامل، وينشطون طاقتهم الحرة، ويقللون من عوداتهم. وعلى هذا الأساس، تشدد الحكمة على عدم تركيز القيمة الإنسانية على الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي، بمعنى التملك، بل تركيزها على الكيان. هذا، لأن الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي يشكل الوسط القدري لولادة شخص، قد يؤدي به إلى مزيد من التحتيم القدري، والمزيد من العودات. فيا صديقي، لا تشته التملك... وعدل نفسك من خلال ما أنت عليه... وارفض التغيير لأنه يكسبك وجوها عديدة، ويجعلك تنقسم على ذاتك... وأنت تعلم أن المملكة التي تنقسم على ذاتها تخرب. وبالإضافة إلى ما

ذكرته، أحب أن أذكرك، بأن الأسباب التي تقف خلف ما أنت عليه، قد لا تكون قابلة للتفسير في ضوء ما أنت عليه الآن، وقد تضطر إلى دراسة حيواتك الماضية إن كنت تسعى إلى معرفتها، وذلك لأنها آثار تلك الحيوات. ومن جانبي، لا أنكر عليك أن مثل هذه المعرفة غاية في الصعوبة، وقد لا تدرك شيئا عنها إلا من خلال الأحلام، أو التذكر اللامباشر، أو الاستغراق الروحي العميق.

6 ـ تحقيق العودة

أعتقد أن البحث السابق لمبدأ العودة يطرح قضية هامة أعبر عنها في السؤال التالي: كيف تكون العودة؟ والحق، أن الإجابة عن هذا السؤال يتطلب الاعتراف بأن الجسم الروحي الذي لا يتعرض للتجزئة أو الانقسام أو الانحلال، ويحمل تراث شخصيتي الماضية، يستطيع أن يتمركز في نقطة دعوتها سابقا «خلية روحية». وعندما يقرر الجسم الروحي الذي يحمل صفات ومزايا وجوداته السابقة، التجسد، يسعى إلى الالتحام والاندماج مع «خلية مادية» تشكلت بفعل لقاء تم بين رجل معين وامرأة معينة. وهكذا، يمكنك أن تلم بحقيقة حضورك إلى هذا العالم الأرضي من أب معين ومن أم معينة، وفي بلد معين. وليس صدفة أن تكون قد ولدت من والدين خاصين. هذا، لأن جسمك الروحي ينتظر، أو يتوقع، تكون خلية مادية معينة يشكل منها جسده المادي. وسوف يكون هذا الجسم المادي المشكل الهيكل الذي يمارس فيه الجسم الروحي كيانه الذي حمله عبر التجسدات السابقة. ويمكنني أن أقول إن أجساما روحية راقية ترقبت لقاء تم بين رجل وامرأة ساميين حتى تتمكن من الحلول في الخلية المادية التي تشكلت نتيجة لقائهما. وإذا ما أدركت هذه الحقيقة، توقفت عن التساؤل: لماذا أتيت إلى هذا العالم الأرضي من أب وأم معينين، من أسرة أو عائلة معينة، في بلد معين، وبجسد معين؟ هذا، لأنه يستحيل أن يكون حضورك إلى كوكب الأرض إلا من خلال أبوين معينين يسهلان عليك عملية التجسد عن طريق الخلية الجسدية المؤهلة التي سيمارس جسدك الروحي، من خلالها، كيانه، وظيفته ورسالته في هذا العالم. ألا تعلم أن مجيئي، أو حضوري، أو تجسدي، أو عودتي لم تكن قابلة للتحقق إلا من خلال أب طيب القلب، سليم النية، روحي النزعة وإنساني الاتجاه، ومن أم تنزع إلى الأخذ بالواقع المعاش؟ ألا تعلم أنني وجدت في لقائهما جسما ماديا أمارس من خلاله ما كنت عليه من كبرياء تتمثل في أحدهما، وتواضع يتمثل في الآخر؟ ألا تعلم بأنني سأعمل على تحرير

نفسي من قيود كبريائي، ومنطق تفكيري وواقعية وجودي لأنطلق في أجواء النقاء الذي هيأه والدي؟

7 ـ الاتحاد مع الكل

أصبحت تعلم، يا صديقي، أن مبدأ العودة ليس مجرد فرضية أو نظرية أو عقيدة قد تحظى بالرفض أو بالقبول. ولما كان هذا المبدأ مبدأ كونيا، فإن الإنسان يعجز عن تحقيق الكمون الكوني الماثل فيه إلا بعوداته المتكررة التي يبلغ من خلالها، النقاء والصفاء. فكما أن الإنسان صدر أو انبثق عن النقاء،كذلك يعود إليه نقيا. هذا، لأنه لا يقبل في مستوى النقاء إن كان ملوثا. والحق، أن مبدأ العودة يفيد في تحقيق أعلى مراتب إنسانيتي، وأعظم مستويات كينونتي. فمن خلاله، أتعلم كيف أحب جميع البشر دون أن أميز بين لون البشرة، والعرق والجنس. ومن خلاله، أتعلم كيف أحترم جميع المهن دون أن أحتقر إنسانا أوحد كيانه مع عمله أو مهنته، بمعنى أنني أقدره أو أقيمه من خلالهما. ومن خلاله، أتعلم كيف أكون شمولي التفكير وعالي النزعة الإنسانية. ومن خلاله، أتعلم أن جميع المعارف سبل إلى تحقيق الألوهة أو السمو المثالي والروحي. وهكذا، يعلمني هذا المبدأ محبة جميع البشر لسبب أصيل هو أنني سأولد في أماكن مختلفة، وبلدان متعددة وفئات متنوعة. إنه يعلمني كيف آخذ جميع المهن والأعمال والأشغال، وجميع المستويات البشرية بعين الاعتبار، وذلك لأنني سأمارس هذه المهن بأنواع مختلفة، وأقوم بأدوار اجتماعية عديدة. إنه يعلمني أن أحترم الألوان والأعراق لعلة أساسية تشير إلى أنني سألبس ألوانا عديدة. ويعلمني أن أتعمق في المعرفة والفضيلة وذلك لأنني، في عوداتي العديدة، أو في عودتي، سأكمل ما كان ينقصني ويعوزني. فإذا ما كنت عالما كبيرا، تعوزني النظرة الإنسانية، فلسوف أعود لإكمال ما كان ينقصني في نطاق إنسانيتي. ألا ترى أنك تكتشف في «شخصيات» أناس بسطاء تلتقيهم عمقا كبيرا وعقلا راجحا، وحكمة سامية، وتوازنا نفسيا وتكاملا؟ ألا ترى أنك تكتشف في« فرديات» أناس متعلمين تلتقيهم سطحية لا تليق بمستوى علمهم، ونفسا قلقة غير متزنة، وعقلا لا يمتلئ بالروح؟ وإذا ما فكرت في هذين المثلين أدركت حقيقة العودة. وأخيرا، ألا ترى كيف تتبخر مياه المحيط لتهطل أمطارا وتشكل أنهارا وجداول تتحدد باسمها، ومقدارها، وكمها، وطولها وعرضها، وتعرف بصفاتها، لتعود إلى المحيط؟ ألا ترى أن عودتها إلى المحيط قضية تشير إلى فقد الصفات التي تميزت بها؟ ألا ترى أن الإنسان

ينبثق من المحيط الكوني ليشكل اسما وصفات، ويعود إلى كونيته بعد أن يكون قد تجاوز تحديداته وتعييناته التي نطلق عليها مصطلح الأنا؟



الرسالة التاسعة عشرة

الصوفية حكمة الحياة المحققة

صديقي...

شعرت، وأنا أقرأ رسالتك بحدس عميق، أنك تلمح إلى أمر تتجنب الإفصاح عنه، وأدركت أنك تخفي في مضامين عباراتك ومكنونات ألفاظك فكرة تشير إلى توق دفين لمعرفة القيمة الكامنة في الحكمة التي تدعى «الصوفية». وما إن انتهيت من قراءة رسالتك حتى تيقنت من أن سعيك إلى طرح موضوع «الصوفية» على بساط البحث حصيلة مخاض داخلي ينفعل في أعماقك على نحو إيجابي لتتمثل المغزى السري لكلمة« الصوفية». وعلاوة على ذلك، علمت، بيقين ثابت، أن إرادتك، كقوة منفذة لفكرك، تتجه إلى بحث قضية الصوفية سعيا إلى إلقاء الضوء على موقفي منها، وتقليصا أو إلغاء لسوء الفهم المتصل بـ«تهمة» ألحقت بي، في هذه القضية. أحسست، بحدسي الذاتي، أنك تنبهني إلى الواقع الأليم الذي يحياه «الفكر السائد» وإلى الفوضى التي يتخبط بها التقييم الأخلاقي والعقلي والفلسفي. والحق، إني أتمثل، على نحو فكري، موقفك من التقييم السائد للمفاهيم الإنسانية والفلسفية والروحية والاجتماعية... هذا التقييم الذي يعجز عن التمييز بين المضامين الحقيقية للكلمات والسرانية الجوهرية والباطنية للمصطلحات.

صديقي، أنا عالم بواقع الأمر... أنا عالم بما أتهم به... عالم بأن بعضهم يسعون إلى إخراجي، على نحو لاإنتمائي، من دائرة أو نطاق الوجود الاجتماعي أو الواقعية الاجتماعية إذ يلحون على القول بأنني صوفي... أنا عالم بما يحاول أولئك« المفكرون الساذجون»، أن يضفوا علي صفة الانعزالي أو صفة الروحاني الذي يسعى إلى

خلاص نفسه دون الآخرين... أنا عالم بسوء الفهم الذي يسيطر على عقول «المفكرين الطيبين البسطاء» الذين يغامرون في صحراء «التيه الفكري»، ويعجزون عن الاستدلال إلى السبيل الذي ينقذهم من متاهة العقل المشحون بمغالطات التقييم ومساوئ التحيز دون الخلاص والانعتاق من الإشراطات الفكرية واللفظية التي تحتجزهم ضمن نطاق «اللفظة» أو «الاسمية»، وترجمة المفاهيم بطريقة خاطئة أو غير معقولة. لذا، أعتقد أنهم أسرى التفسير التقليدي الشائع أو العامي لحقائق الأمور. فقد تعلموا التفاسير العامة التي تلقنوها في العلوم الإنسانية التي أخضعت لتقييم اجتماعي أو منهجي خاص، أو لتفكير فئوي خاص، مشروط بنظرة ضيقة للوجود والكون والوعي والحكمة. وفي سبيل توضيح ما أرمي إليه، أسمح لنفسي أن أقدم مثالا يتصل بالتاريخ: إن دراستي للتاريخ زودتني بقدرة على التمييز بين نوعي التاريخ: العام والسري. أدركت أن التاريخ العام يسرد أحداثا عامة أو خاصة ترتبط بتفسير معين أملته الظروف الخاصة والأوضاع والانفعالات. وأدركت أيضا أن الأخطاء العديدة والمغالطات الكثيرة الواردة في مؤلفات التاريخ العام ترد، بغالبيتها، إلى جهل الحقيقة وعدم معرفة باطن الأحداث وجوهرها. وعلمت أن التاريخ السري، وهو تاريخ لا يدرس في معاهد التعليم ولا يؤخذ كمصدر للوقائع الاجتماعية، يلقي الضوء على ما خفي من الوقائع، ويكشف عما استتر من أمور. والحق، أنني وجدت الحقيقة في دراسة التاريخ السري، ووجدت التناقض وإغفال الحقيقة والأسباب الكامنة التي تفسر الوقائع على نحو انفعالي في دراسة التاريخ العام. إذن، فدراسة التاريخ العام تتم في المعاهد التعليمية التي تعتمد المنهجية. ودراسة التاريخ السري تتم في مدارس الحكمة المعروفة بصوفيتها وسرانيتها.

إذ انتهيت من إعادة النظر وتأمل ما جاء في رسالتك، سمحت لنفسي أن أحدثك عن الصوفية التي تعني الحكمة، وسعيت إلى تدبيج دفاع أخلاقي وإنساني واجتماعي عن حقيقة أمري. وأعتقد، يا صديقي، أنك اطلعت على كتابي «بحوث فلسفية» وقرأت ذلك الفصل الذي يحمل عنوان «التصوف العقلي». وإذا ما تأملت ما جاء في ذلك الفصل أدركت حقيقة صوفيتي أو تصوفي، وعلمت أن ما أحدثك به الآن هو توضيح أشمل وأعمق لمفهوم الصوفية العقلية التي وردت في كتابي المذكور الذي وضعته في فترة تعود إلى مرحلة الشباب. والحق، أن دفاعي يتجاوز سوء الفهم المتصل بالصوفية ويتسامى على «اللافاعلية» التي ألصقت بها، ويتعالى على الانعزالية التي ألحقت بها. ودفاعي هذا، يجعلك تعلم على نحو توكيدي أن الصوفية هي الحكمة الأزلية والوعي

الكوني الكامن في أعماق الوعي الإنساني والمنبث في الوجود الكلي، والقوة الفاعلة لتحقيق هذا الوجود الكلي على مستوى كوكب الأرض في كل الأبعاد الفكرية والعلمية والفنية والفلسفية والروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية الخ... هذا، لأن الصوفية هي الحكمة المعاشة... وبهذا الصدد، يقول ألبرت شفايتزر، الطبيب الصوفي: «أنا الحياة التي تحيا في وسط الحياة التي تريد أن تحيا»، أو كما يضيف قائلا: «في وسط الإرادة للحياة يدرك الإنسان نفسه خلال كل لحظة يقضيها في تأمل نفسه والعالم المحيط به». ومن جانبي، أعتقد أن عبارتي شفايتزر تحفلان بالمغزى الحقيقي للصوفية... هذا، لأن الإنسان الذي يعرف وحدته مع الوجود الكلي، يحياه في وجوده المتعين والمحدد ليكون الوجود الكلي ذاته، المحقق في واقعية الفيزياء ومثالية المتافيزياء، في واقعية الوجود ومثالية الوجود أو ما وراء الوجود، وذلك في توحيد ثنائية المادة والروح، والفيزياء والمتافيزياء، والوجود وما بعد الوجود. هذا، لأن المتافيزياء قائمة في الفيزياء، وما بعد الطبيعة قائم في الطبيعة، والمثالية قائمة في الواقع. ويمكنني أن أضيف قائلا: إن المثالية هي الواقع الذي ينشد غايته الكلية والشمولية، والمتافيزياء هي الفيزياء المحققة على نحو كوني، وما بعد الطبيعة هو الطبيعة المتجلية في ذاتها. وعلى هذا الأساس، أستطيع أن أعلن الحقيقة التالية: الصوفية هي تجاوز الثنائية إلى الوحدة، ليكون الإنسان واحدا مع نفسه ومع الكون، متوازنا في كيانه ومتكاملا في باطن حقيقته.

صديقي، إذا كنت أسعى، في رسالتي هذه، أن أدافع عن نفسي ضد تهمة ملفقة، وأفند مزاعم من يناصر هذه التهمة، وأعمل على شرح مضمون الصوفية بحيث تصبح تهمتهم أو تلفيقهم مزية هامة يتصف بها الإنسان الواعي، وأحول فهمهم المغلوط إلى إدراك حقيقي للصوفية، فلا بد لي أن أوضح المعالم والأسس التي تقوم عليها الصوفية الحقيقية في أبعادها الفلسفية والاجتماعية والكونية والإنسانية.

أولا ـ فلسفة الصوفية

تشير الدراسة السرانية للوجود الكلي والتأملي، والاستغراق في معرفة الحقيقة الكونية، إلى أن الحكمة تتجلى في مظاهرها الثلاثة المتصلة: آ ثيوصوفيا، الحكمة القدسية، ب صوفيا، الحكمة البدئية، جـ فيلوصوفيا، محبة الحكمة. وعلى

هذا الأساس، يمكنني أن أقول إن الحكمة الإلهية، ثيوصوفيا، هي الحكمة المنبثة في كل نقطة من نقاط الوجود على نحو متصل، حكمة تتعدد وتتنوع في تدرجاتها ومعالمها الظاهرية، وتحتفظ بجوهر واحد حقيقي، وإن صوفيا هي الحكمة البدئية التي عرفها الإنسان الإلهي البدئي إذ كان متصلا بها، وإن فيلوصوفيا هي الحكمة بعد تراجعها إلى النطاق العقلي، إذ أصبحت محبةالحكمة [38].

تزودنا هذه المعرفة بالصورة الثلاثية للصوفية، المتمثلة في إطارها الثلاثي البعد أو المستوى: آ المستوى الكوني، ثيوصوفيا. ب المستوى البدئي لتجلي المستوى الكوني، صوفيا ، السابق للثنائية والتعددية. جـ المستوى العقلي، فيلوصوفيا، المتصل بالثنائية والتعددية.

صديقي، أصبحت تدرك أن المفاهيم السابقة الملصقة بالصوفية لا تتصل بالانعزال، والزهد الزائف، والسلبية القائمة في الانفراد ورفض العالم أو احتقاره، والاستسلام لغيبيات مضللة. أصبحت تدرك أن الصوفية هي الحكمة الكونية أو الوعي الكوني، وأن الصوفي هو الإنسان المتميز بنظرة عميقة للعالم، يتصف بوعي كوني، ويحيا في العالم وفق مبادئ كونية شاملة وكلية يحقق من خلالها إرادة الحياة المتمثلة بالاتصالية الكونية. ووفق هذا المنظور، يكون الصوفي كل عالم أو فيلسوف أو حكيم، كل إنسان، يعرف نفسه ويعرف أسرار الحقيقة المستترة، أو يطبقها ببساطة وحدس وبصيرة.

ثانيا ـ الصوفية العقلانية، أو التصوف العقلي

أعتقد أنك تبينت، في أحاديثنا السابقة وحواراتنا العديدة، أن العقلانية الفوقية، العقلانية التي بلغت أقصى درجات المحاكمة، صوفية هي حكمة. وأعتقد أيضا أن مثل هذا التصريح يتطلب الوضوح والشرح الكافي.

يعد العقل تعبيرا عن الطاقة الداخلية الكامنة في عمق الكيان الإنساني، هو إفصاح عن الروح أو الوعي المكنون الذي تطلق عليه مدرسة «علم نفس الأعماق» مصطلح« اللاوعي». وكما تعلم أن هذا العقل يتخذ من الدماغ والحواس سبيلا للتعبير، أي قناة للاتصال مع العالم الخارجي. والحق، أن العقل الإنساني يتجلى على مستويات

---

[38] راجع فصل «النزعة الإنسانية والشمولية في الفلسفة» في كتابي «وحدة الفكر الإنساني»

ثلاثـة: المسـتوى الأول، هـو العقـل المرتبـط بـالواقع الاجتمـاعي والمشـروط بالانفعـالات، والتقاليد، والعقائد، والأعـراف الـتي تقيـده، وتلقـي بـه في متاهـة الضيـاع والتشـتت، وتخضعه لانفعـالية الأنا. المسـتوى الثاني، هو العقـل المرتبـط بالدمـاغ، العقـل المنطـقي، الصـوري والريـاضي، العقـل الذي يـترأس العـالم المـادي، يدرسـه، يصنفـه، ويرتبـه في سلسلة صاعدة متماسكة، تبلغ مثالية الوعي والـروح. وإذ يبلـغ العقـل أعلـى درجـات المحاكمة المنطقية والعلمية والمعرفية يطـل علـى الحقيقـة. المسـتوى الثـالث، هـو العقـل الفوقي الذي يستغرق في الحقيقة السامية، ويعاين الوعي الكوني ليتحد به.

صديقي، ألا تـرى أن المسـتوى الأول، وهـو العقـل المشـروط بالأنانيـة الفرديـة، وبالانفعال الناتج عن أنواع التعصب، وضيق الأفق الفكـري، والتقليـد التجمعـي الـخ، لا يشير من قريب أو من بعيد، إلى الصوفية الحكمة، لأنه عقل يتيـه في غيـاهب الاغـتراب والضياع والتشتت في الثنائيات والتعدديات؟ ألا ترى أن العقل المرتبط بالدماغ يتدرج، من خلال المنطق الصاعد في درجات سلم الوجود، ومن خلال المعرفة التي تنتقـل علـى نحـو متصل من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى لتبلغ الرؤية الصوفية الحكمة، وصولا إلى القمـة المطلة على الأجواء العليا اللامنتهية وعلى المبادئ الأدنـى الـتي تقـع دونـه؟ ألا تـرى أن العلماء النظريين والإنسانيين، والفلاسفة، والرسـامين الكبـار، والموسـيقيين الأفـذاذ، هـم صوفيون حكماء؟ ألا ترى أن المستوى الثـالث، وهـو العقـل الفوقـي المتصـل بـالروح، هـو الغاية القصوى للصوفية الحكمة التي تعانق الحقيقة السامية والوعي الكوني وتتحد بهما؟

صديقـي، ألا ترى أن العـقل الـذي ينتقـل تدريجيـا من مستوى ارتباطه بالدماغ إلى مستوى اتصالـــه بـالروح عـقـــل صوفـــي حكيـم، يتصور شـمولية الحقيقـة وكـلية الوجـود، ويحـيـا حقيقتـه الجوهريـة؟ ألا ترى أن العـقل الـذي بلغ قمة التصور في العلم والـمعرفة عـقل صوفـي حـكيم؟ ألا ترى أن العـقل الـذي صقل وعيـه بالمنطـق والعرفـان الصاعـد عـقـل صوفي حكيم؟ ألا ترى أن العقل، في أساسه وجوهره، لا يخرج عـن نطـاق الحكمة الصوفية؟ ألا ترى أنني صـوفي عقلـي، أحيـا أبديـتي في عرفـاني الـذي يعـاين الأسرار العليا في الأسرار الدنيا؟

ثالثا ـ العيش في وسط الحياة

إذ أفكر في الكيفية التي يكون فيها الإنسان في العالم ويحيا فيه، يمثل أمامي مثال «زهرة اللوتس». وكما تدري، أن الوجود الواعي قد هيأ المستنقع ليكون الموقع الطبيعي لحياة زهرة اللوتس. وأنت تعلم أن المستنقع رمز للضحالة والركود والتلوث. وفي هذا المثل، يقوم التعارض بين جمال زهرة اللوتس وقذارة المستنقع. وإذا ما مررت بالمستنقع، استوقفتك زهرة اللوتس التي تدعوك إلى تأمل رونقها وجمالها، ولتتساءل عن سر وجود الجمال في المستنقع. وإذا ما تأملت هذا التعارض القائم، أدركت أن تلوث المستنقع وقذارته لا يحولان دون إظهار جمال الزهرة الرائعة. وعندئذ، تردد مع أحد الحكماء القدامى تلك العبارة العظيمة: «كما يزدهي جمال زهرة اللوتس في وسط المستنقع، هكذا تزهو الفضيلة في وسط الرذيلة».

هكذا، تشترك زهرة اللوتس مع المستنقع في جذور واحدة وأصول واحدة، لكنها تنبثق إلى الوجود الظاهري وهي تتجاوز تلك الجذور والأصول المشتركة. وهكذا، يشارك الصوفي الحكيم الجذور والأصول الاجتماعية في قواعدها، ويتجاوز تلك الأصول والجذور المشتركة، ليحيا في قلب المجتمع ممثلا زهرة اللوتس، ومترفعا عن كل ما هو مبتذل، منحط ودنيء.

إذ تتأمل عظمة هذا القول وتدرك السر المكنون فيه، تتيقن من أهمية حياة الإنسان وعيشه في وسط الحياة الاجتماعية دون أن يخضع للزيف التجمعي والمظهر الكاذب. ألا ترى أن الحكماء الأقدمين يشددون على بقاء الإنسان في المجتمع ويستبعدون انعزاله وانفراده عن الآخرين؟ إنهم يؤكدون اجتماعية الإنسان، أي امتداده في الآخر، إذ يعرفون أن انعزاله عن هذا الآخر، والتفرد بذاته، موت للحقيقة والفضيلة. هذا، لأن الفضيلة، زهرة اللوتس، لا تحيا ولا يستقيم وجودها إلا في الحياة الاجتماعية. فإذا اعتبرت نفسك صوفيا، حكيما، وأعني إذا اعتبرت نفسك زهرة اللوتس، فما عليك إلا أن تثبت جذورك في المجتمع، لترتفع إلى الأعلى، وتزهو وتتألق كما تزهو هذه الزهرة في وسط التناقضات، والصراعات، والأطماع، والأنانيات.

يؤكد الحكماء الصوفيون، الذين حققوا إرادة الحياة الاجتماعية، أن المجتمع هو النطاق الصالح الوحيد لممارسة الفضيلة، والحقل الوحيد لزرع البذور الإنسانية، والوسط الوحيد لتحقيق الكيان الإنساني والروح السامية، والعقل المنطقي، والعقل الفوقي،

والأخلاق الرفيعة، والمثالية الواقعية. لـذا، تشدد الصوفية الحكمة على العيش وسط المجتمع لأن الإنسان لا يعرف حقيقته إلا في هذا النطاق. فهو لا يعرف إن كان صادقا أم كاذبا، متكبرا أم متواضعا، حقيقيا أم زائفا، طامعا أم قانعا، أنانيا أم غيريا، مستغلا أم عادلا، قاسيا أم حنونا، محبا أم كارها، ظالما أم عادلا، شهويا أم عاطفيا، مشاركا ومتعاطفا أم متحيزا، متعصبا أم منفتح العقل والقلب الخ، إلا في اجتماعه مع الآخرين. هذا، لأن الآخر هو مرآة نفسي وكياني المنعكسة في المجتمع. والحق، أن صدقي مع نفسي هو صدقي مع الآخر، وكذبي على نفسي هو كذبي على الأخر، ومحبتي لنفسي هي محبتي للآخر، وتواضعي مع نفسي هو تواضعي مع الآخر، وكبريائي مع نفسي هي كبريائي مع الآخر، وأنانيتي هي أنانيتي مع نفسي ومع الأخر الخ... هو المجتمع الذي يؤكد حقيقتي، وهو النطاق الذي يتجلى فيه كياني. لذا، لا أستطيع أن أعرف نفسي إن أنا أوغلت في وحدتي وتهت في صحراء انعزالي... هكذا، تكون الصوفية... حركة إنسانية اجتماعية تتحقق في غلبة كل انحراف اجتماعي ندعوه الشر.

الآن، تدرك، يا صديقي، أن الانعزال مقاومة سلبية، وأن الزهد استسلام وإنكار للحقيقة السامية والوعي الكوني وهما يمارسان دورهما في الحياة الاجتماعية. فإذا كان المجتمع هو الروح المعبرة عن ذاتها في التاريخ الإنساني، كانت الصوفية هي القدرة الفاعلة لتحقيق الروح، عبر مسيرة التاريخ، في المجتمع. والحق، أن الزهد، في معناه السري، هو التجرد عن الرغبة والشهوة، والتعالي والترفع عن الدنايا والأمور المنحطة التي تنزل بالإنسان إلى أسفل دركات النذالة والحقارة، وليس هو الانسحاب من العالم. لذا، تأبى الصوفية والحكمة أن تنظرا إلى العالم بأنه مكان غربة، أو شر يجب على الإنسان اجتنابه. وعلى غير ذلك، تعد الصوفية الحكمة قوة إيجابية تتلاءم مع الواقع الطبيعي، والعقلي والروحي، وذلك لأن الحياة الأرضية هي الحياة السماوية الممارسة في نطاق العمل والواقع... هي ديناميكية الروح وإيجابية الموقف. وعلى هذا الأساس، تدرك صوفيتك إذ تعيش وتطبق إيجابية الحياة الاجتماعية وفاعلية الحياة في العمل الذي تمارسه في وسط المجتمع.

رابعا ـ فلسفة الأمل

صديقي، أعتقد أن أحاديثنا ومناقشاتنا السابقة حول فلسفة الأمل تلعب دورا كبيرا في تفكيرك إذ تحقق مضمونها الجوهري. ألا تذكر، وقد تحدثنا عن العلم ومصير الإنسان، كيف جعلت من فلسفة الأمل القاعدة الأساسية لمتابعة مسيرة الفكر أو الروح في التاريخ الإنساني، والقوة الفاعلة لتحقيق الغاية النهائية لوجود الإنسان على الأرض وخلاصه، وانعتاقه من إشراطات التعددية العلمية والاجتماعية والدينية؟ ألا تذكر كيف جعلت من فلسفة الأمل السبيل الذي تعتمده الحرية ويتبناه الوعي لإنقاذ الإنسان من كل مقاومة سلبية ومن كل عائق يبقيه في انطوائه وانغلاقه الذاتي والمادي[39]؟

وإذا ما خطر لك وسألت من جديد عن تعريف فلسفة الأمل أجبت، وأنا أصر على ما ذكرت في حواراتنا وأحاديثنا السابقة، بأنها القوة الفاعلة والمنشطة لطاقاتنا الداخلية المتمثلة بأبعادنا الوجودية كلها، والمعبر عنها بالمواهب، لتحقيق الغاية من وجودنا. والحق، أن هذه الغاية تعبير عن القانون البدئي الذي ينطوي، في ذاته وجوهره، على سر وجوده إذ يفصح عنه من خلال التطور... ألم أقل لك سابقا إن الياء تحقيق للألف، وإن الألف كمون للياء؟ ألم أذكر لك وجود الياء في الألف والألف في الياء؟

إذ تتأمل هذه العبارات تدرك أن فلسفة الأمل تتجاوز مفهوم التشاؤم والتفاؤل. ففي التفاؤل ينطوي التشاؤم على نحو كمون، وفي التشاؤم ينطوي التفاؤل على نحو كمون. ألا تذكر حوارنا السابق يوم أعلنت لك أن تفاؤلي الناتج عن الحصول على شيء يتلوه تشاؤم ناتج عن فقدانه؟ ألا تدري أن تشاؤمي ينتهي في اللحظة التي أعلن حصولي على ما أبغي على نحو تفاؤل؟ ألا ترى، يا صديقي، أن التشاؤم والتفاؤل نتيجتان حتميتان للانفعال، وأن فلسفة الأمل تعبير عن العقلانية الفوقية التي تسعى إلى تحقيق كمال الوجود على الأرض؟

أعتقد أنك قادر على استخلاص العبرة من كلامي هذا، إذ أنك أصبحت تلم بحقيقة الصوفية الحكمة. هذا، لأن الصوفي الحكيم هو ذلك الإنسان الذي يتميز بعقلانية فوقية، وفاعلية ناشطة، وديناميكية داخلية تحرك عمقه باتجاه معرفة الحقيقة، وسر الوجود، والغاية القصوى من الوجود. لذا، لا يتصف الصوفي الحكيم بالانفعال والسلبية. هو إنسان فاعل في قلب الحياة، والمعيشة، والمجتمع، والطبيعة

---

[39] راجع فصل «العلم ومصير الإنسان» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

والكـون. هو الإنسان الذي ينشط طاقتـه للانسجـام مـع القـوانين الكـونيـة والأرضيـة، والعمل بموجبهـا وبما يتـلاءم معهـا، وليس هـو الانعـزالي الـذي يسـلب الوجـود قيمتـه الفاعلـة وحقيقتـه الإيجابيـة... هـو من يعمل لرفع مستوى الوجود المادي.

خامسا ـ فلسفة الصعوبة

أعتقد أنك لا تزال تذكر تلك اللحظات الجميلة الهادئة التي قضيناها معا ونحن نناقش القيمة المعـزوة لحياتنا وواقع وجودنا على كوكب الأرض. أعتقد أن حوارنا، إن لم يكن جدلنا، قد تمحور حول الواقع المأساوي لوجود الإنسان لسبب هو أنك كنـت تعـاني من ألم دفين سـلبي، ألم متصـل، أو نـاتج عـن فـراق مـن تحـب، وإحساسـك بـالوحدة الحاصلة عن ذلك الفراق الصعب. ومن جانبي، أذكـر أنـك نظـرت إلى الوجـود في العـالم الأرضي وفي العالم الكوني على نحو مفعم بالتشاؤم والتفاهـة، واعتـبرت الوجـود مصيبـة. ولئن كنت قد حدثتك، في مناسبات أخرى، عـن الفـرق القـائم بـين الصعوبـة والمصيبـة، لكنني أعود مرة أخرى لأذكرك بما كان يدور بيننا من أحاديث تتصل بفلسفة الصعوبة.

صديقـي، ألا تذكـر أنـني ركـزت، ونحـن نعـالج موضـوع وجودنـا الأرضـي والكـوني، علـى قـانون الصعوبـة الـذي يهيمـن علـى معطيات كوكبنـا؟ وإذا كـانت الصعوبة الملازمة لتطور العقـل هـي القـانون السـائد في حياتنـا الأرضيـة، فأسـتطيع أن أقول: إن الصعوبة ترافق وجودنا انطلاقـا من لحظة ولادتنـا حتـى لحظـة فراقنـا لهـذا الوجـود. والحـق، أن قـانون الصعوبـة ضـرورة كونيـة وأرضيـة تقتضـي تطويـر العقـل الإنساني. وإذا كـان الإنسان يحيـا في عـالـم صعب، فلكي يتجـاوز الصعوبـة مـن خـلال فاعلية روحية، وفكرية وأخلاقية سامية دون تحويلـها إلى مصيبـة. لـذا، يعـد الوعـي الحـكمة السبيل الوحيد لتجاوز الصعوبة والتغلب على المصيبة الناتجة عن عدم انتصارنـا على الصعوبـة. وهـكذا، تدرك أن المصيبـة نتيجـة وليست سـببا... إنـها حصيلـة عـدم الانتصار وعدم تحسين الأمر الواقـع... هـكذا، تدرك أيضا أن التغلـب يتحقـق في تنميـة الوعـي والحـكمة.

تستطيع أن تتصور الآن، حقيقة الصوفي الحكيـم. الصـوفي هـو المـرء الـذي يـرى صعوبة العالم، يدركها، ويعمل على تجاوزها، لا في ابتعـاده وانسـحابه مـن العـالم، بـل بالعيش في قلب العالم، ويجتهد من أجل تجاوز هذه الصعوبة وهو يعلـم الآخريـن كيـف

ينتصرون يوم يجدون فيه المثال المحتذى. هكذا، يدأب الصوفي ساعيا إلى تقليص الصعوبات التي ترافق واقع الوجود الأرضي، وذلك لكي لا تتحول إلى مصائب. والحق، أن سبيل الانتصار والتجاوز لا ينحصر في عمل واحد أو مهنة واحدة، بل يتحقق في كل عمل أو مهنة. أما الانسحاب من العالم والمجتمع فهو ضرب من الكبرياء وإحاطة الذات بهالة التعالي الزائف وفرض الأنا على الآخرين. وهكذا، لا ينسحب الصوفي من العالم ولا يعلن «فلسفته التشاؤمية» فيقول: باطل هو العالم، مصيبة هو العالم. وعلى غير ذلك، تظل جذوره عميقة في الحقل الاجتماعي ليعلن مبادئ فلسفة الأمل، دون أن يصرح بموقفه التفاؤلي، فيقول: صعب هو العالم، عظيم هو العالم. وعندئذ، يعلن خلاص العالم من خلال فلسفة الصعوبة التي تشير إلى إحياء القوة الفاعلة في الإنسان من أجل غلبة العالم بالوعي والحرية والحكمة.

سادسا ـ الإرادة الفاعلة

أعتقد أن حديثنا السابق المتصل بموضوع الإرادة يحتل مركزا هاما في تفكيرك. وأعتقد أنك تذكر كيف انتهينا في حوارنا إلى الاتفاق على أن الإرادة قوة تنفيذية للفكر الواعي والمحاكمة السليمة. وعلى هذا الأساس، توصلنا إلى الإقرار بأن الإنسان يفكر ويعقل ويحاكم ثم يريد. وإذا كانت الإرادة قوة تنفيذية للفكر الواعي، فإنها تنأى عن أن تكون انفعالا لا يعتمد الحرية الفكرية التي تقوم، في أساسها، على المحاكمة الواعية. وإذا كانت الإرادة نتاجا للتفكير الواعي، أو المنطقي، أو للموقف الأخلاقي السليم، فلا بد وأن تكون حرية الاختيار إرادة قائمة على الوعي. والحق، أن حرية الاختيار هي الإرادة الفاعلة، الإيجابية التي تشير إلى أننا نعرف ما نريد ونريد ما نعرف، ونختار سبيل حياتنا بحرية تتصل بالوعي.

إذا كان ما ذكرته في الفقرة السابقة صحيحا أو معقولا، فجدير بي أن أتساءل: كيف تكون إرادة المتصوف الانعزالي، المنسحب من قلب العالم إلى صحراء الاغتراب، الزاهد بحقيقة الوجود القائمة على العمل الذي هو ثمار الموقف الإنساني، المدعي بتفوقه الأخلاقي والروحي، الراسم هالة المجد والظفر والتقوى حوله؟ كيف أفهم حرية اختياره إن كان قد تخلى عن كل علاقة اجتماعية وإنسانية؟ ما هي إرادته؟ وما هو الاختيار أو الحكم الذي تنفذه هذه الإرادة؟ ما هو الفكر الواعي الذي تنفذه لتكون حرة في

اختيارها؟ ما الإرادة الفاعلة، الحرة التي تعبر عن موقف إنسان لا يعرف ما يريد، ولا يريد ما يعرف،... إنسان تجرد من كل علاقة إنسانية اجتماعية؟ ألا تعلم أن الإرادة قوة فاعلة في المجتمع ولا تخرج عن النطاق الذي رسمته «الحقيقة السامية» أو «الحكمة الكونية» أو «الوعي الكوني» لتحقيق ذاتها على المستوى الأرضي؟ وإذا ما تنكر المتصوف الانعزالي، المتنكر لحقيقة وجوده، لهذا المثال المطبق في الواقع الطبيعي والاجتماعي، ليكون الواقع متطابقا مع المثال، تنكر لحقيقة الحكمة الصوفية، وأصاب المثال إصابة قاتلة، وكان السبب لاتهام الصوفية الحكمة بالهروب من العالم. لذا، كانت الإرادة الفاعلة أو حرية الاختيار، هي إرادة الحياة الكلية ذاتها وهي تمارس حقيقة وجودها على مستوى كوكب الأرض ضمن النطاق الطبيعي والاجتماعي الإنساني. وهكذا، يحيا «الصوفي» في قلب العالم، ويهرب «المتصوف» من مسؤولية وواجب وجوده في قلب العالم.

سابعا ـ فلسفة التحمل

إذ أتأمل المعنى المنطوي في فلسفة التحمل، أفكر، في الوقت ذاته، بمفهوم الصبر وأتفهم الفرق الكبير القائم بينهما. فالصبر، كما تعلم، تعبير لقبول خارجي ورفض داخلي. وفي هذا القبول الظاهري والرفض الضمني إنكار للحقيقة في كل مستوياتها. فأنا أدعي بأنني أعترف بوجود الحقيقة السامية وأرفض، في آن واحد، الحياة وفق مبادئها، وأعتبر الموت شرا أو مصيبة. وفي الوقت الذي أدعي بأنني أقف من ظروف الحياة وصعوباتها موقف من لا يحولها إلى مصائب، أرفض أن أكون قوة فاعلة في مضمار الوعي والحق. هذا، لأن الصبر استسلام لكل قدرية وحتمية، ورضوخ للضعف الإنساني المزعوم لجبروت قدرة كائن متعال على كياني. أما التحمل فإنه يتسم بمعلميه الرئيسيين: المعلم الأخلاقي والمعلم العقلاني. والحق، أن المعلم الأخلاقي تعبير للموقف المتسامح إزاء تصرفات وسلوكات الآخرين على أساس أن الإنسان الأخلاقي، المتسامح، يتجاوز كل شر، وأذى، ونذالة، أو ابتذال، أو انحطاط أو خطأ يصدر عن الآخرين. وفي هذا التسامح تتألق المحبة البشرية. ويشير المعلم العقلاني إلى التسامح إزاء المعتقدات والأفكار والمبادئ التي يعتنقها الآخرون، وإلى الانفتاح العقلي الذي يسمح بتفهم آراء الآخرين قبل الحكم عليها بتحيز وتعصب.

الآن تدرك أن الصوفي الحكيم هو الإنسان المتحمل من وجهة النظر الأخلاقية والعقلانية. فهو يعلم أن الوجود على مستوى كوكب الأرض يتألق بالتعددية المتنوعة التي تعبر عن وحدة الحقيقة في أشكالها وصورها الكثيرة، الأمر الذي يشير إلى تنوع التجارب والخبرات وتنوع الجمال في الحقيقة الواحدة أو في النطاق الواحد. ألا تذكر ما قاله أحد الحكماء إن الجسد ليس أذنا واحدة، أو عينا واحدة، أو قلبا واحدا، أو معدة واحدة الخ. إنه العين والأذن والقلب واليد والمعدة والرئتان والدماغ الخ، إنه الكثرة الفاعلة في الوحدة الجسدية التي تلحم جميع الأعضاء والأجزاء. وبالمثل، يعد كوكب الأرض جسدا واحدا تتعدد فيه الوظائف الفكرية والعقائدية والدينية والفنية... الخ. والحق، أن الصوفي الحكيم هو من يؤلف هذه التعددية في جوهره لتكون حقيقة واحدة من خلال مبدأ التحمل والتسامح.

أحب، وقد شرحت لك مبدأ التحمل، أن أضيف إلى ما ذكرته الآن فأقول: الصوفي الحكيم الحقيقي، في تحمله وتسامحه، لا يدعي «التصوف» في ظل عقيدة واحدة أو مبدأ واحد. هذا، لأن الانضواء تحت لواء عقيدة معينة يعني تقليص مبدأ التحمل والتسامح العقلاني إلى حدوده الدنيا المغلقة. وهكذا، لا أسمح لنفسي أن أدعي أن هنالك أنواعا من الصوفية، وذلك لأن الصوفية حكمة تؤلف التعددية في الوحدة... هي اعتراف بوجود الحكمة في أنواعها وتعدداتها دون أن تختزل إلى منهج وفق عقيدة معينة... هي الموقف المحب للكل... هي صهر التنوع في الواحد. ومن جانبي، أسمح لنفسي أن أعترف بوجود أنواع من «التصوف»، يدعي كل نوع منها بمعرفته للحق.

ثامنا ـ تقديس الحياة

حدست، وأنا أقرأ رسالتك، بأنك تتساءل عن المعنى المتضمن في عبارة« التعاطف مع كل شيء». ويتردد صدى تساؤلك في داخلي، ويخلق في كياني إحساسا بعظمة الوجود الإنساني والإجلال الذي أضفيه على كل ما هو حي، كل ما هو مادي، وكل ما هو نفسي وعقلي وروحي. ويتضاعف هذا الشعور بإجلال الحياة وتقديسها إذ أتأمل السر القائم في كل شيء. فإذا ما ركزت تفكيري لأدرك حقيقة أي شيء، في نطاق المادة الصلبة والنبات والحيوان والطير والإنسان، اكتشفت السر العميق المكنون في جوهره. فما أن أتأمل النحلة أو النملة، أو طيرا، أو ذرة، أو جوهرا، أو خلية، أو زهرة أو

كوكبا، حتى أجد الكون كله ممثلا فيها أو فيه، وأشاهد الحياة وهي تعمل بألق النور والوعي والإدراك. وهكذا، أرى العظمة القائمة في أدق الأشياء، وأدرك اتصال كل الكائنات والأشياء بالوعي الكوني. وإذا ما استشرفت هذه العظمة أدركت أنني أقدس الحياة، وأتعاطف مع كل شيء، وأجل كل ما ينبض بالحياة الإنسانية، والطبيعية والكونية. وعندئذ، أشعر بالوحدة التي تشمل الكل، وتغلف كل شيء، وأدرك سرية جوهري وكياني.

وإذا ما بلغت هذا الحد من التأمل والفهم بإجلالي للحياة أو تقديسها، والتعاطف مع كل شيء، فلا أرى العداء في الأشياء بل الانسجام والتوافق، عمدت إلى التوفيق بين الحياة الطبيعية وحياتي الداخلية، وأقمت تكاملا بينهما أو انسجاما ووحدة. وفي هذا التكامل والانسجام والوحدة، أتوقف عن إقامة حد فاصل بينهما. وفي هذه الحالة، أقبل الحياة وكل شيء، وأعترف بوحدة حقيقتي وحقيقتها، ولا أرفض الوجود الأرضي لعدم وجود ثنائية بيننا. وإذا ما أدركت حقيقة وجودي ووجود الحياة يبطل العداء بيننا، وتزداد محبتي، ويشتد توقي وعطفي لمعانقة الكل دون أن أكره كينونتي، أو ألعن الوجود، أو أتذمر، أو أتشاءم. هذا، لأن من يكره الوجود الأرضي، أو يتذمر منه، أو يرفضه، يكره ويرفض الوجود الكلي. هذا، لأن تحقيق الوجود الكلي يتم ويكتمل في تحقيق الوجود الأرضي.

صديقي، ألا ترى أن الصوفي الحكيم هو الإنسان الذي يحيا في وسط القدسية الحياتية، ويتعاطف مع الأجزاء والأشياء إذ يدرك أن حياته وحياتها حقيقة واحدة. وفي إدراكه هذا، يتحد مع الكل إذ يتحد مع نفسه، ويهيئ الوجود الأرضي ليكون النطاق الروحي الذي يتمدى يصبح ماديا في حياة الأرض ووعيها.

تاسعا ـ التوفيق بين الحياة الداخلية والأخلاقية الفاعلة

عندما أتأمل حياتي الداخلية وأعاين ألق النور المنبعث في داخلي، وأصغي للصوت الأخلاقي الآمر الذي يعبر عن الشريعة التي نحتتها في كياني الحقيقة السامية لتوحدني معها، أدرك أن حياتي الداخلية هي حياة قدسية تهيب بي وهي تعلن حقيقتها بصراحة ووضوح: عليك أن توفق بين حياتك الداخلية القدسية وأخلاقيتك الفاعلة. هذا، لأن الحياة الداخلية القدسية تطبق في الفاعلية الأخلاقية الواقعية.

وعندئذ، أتساءل: من أين أستمد فاعليتي الأخلاقية؟ كيف يمكنني تطبيق ملكوت الحقيقة السامية في ملكوت الحقيقة الأرضية ليكونا واحدا في ثنائية ظاهرية؟

إذ تعلم أن العبارات السابقة مظهر مثالي للتوفيق بين حياتك الداخلية وأخلاقيتك الفاعلة، تفهم أن هذه الأخيرة لا تجد نطاقا أو وسطا لتطبيقها إلا في الحقل الاجتماعي. وإذ تدرك هذه الحقيقة تستخلص المقولة التالية: عليك أن تحسن الوضع الإنساني في مستوياته الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والفكرية، والسياسية، ورفع درجة الكائن البشري إلى ذرى الحكمة والتعقل، والسير بالنظم الاجتماعية إلى المشاركة والتفاهم في سلام وسكينة المحبة، والتضييق على الفروق المذهبية والطائفية التقليدية والعقائدية، وتوحيد الفكر الإنساني بتنوعاته في شجرة تحمل الأغصان العديدة المتآلفة والمتكاملة، وتعليم الإنسان كيف يحقق الغاية المنشودة في وجوده. وهذه الأمور كلها تشير إلى واقع إنساني يتطلب التحقيق... إذ تعلم هذه الحقيقة وتدرك هذا الواقع، تتأكد من أن العيش في المجتمع، لا الهروب منه، هو السبيل الوحيد إلى التوفيق بين الحياة الداخلية التي تتألق في نور الوعي الكوني، والأخلاقية الفاعلة التي تسعى إلى تحقيق الحياة الداخلية. وعندئذ، ينسجم ما هو فردي مع ما هو اجتماعي، وما هو كوني مع ما هو أرضي، وما هو كياني مع ما هو إنسي.

صديقي، ألا ترى أن سوء الفهم المرتبط بالصوفية، وأقصد التصوف الزائف، يحول دون هذا التوفيق المذكور؟ ألا ترى أن الصوفية هي الحكمة الكونية المطروحة في الواقع الطبيعي والإنساني الاجتماعي عبر مستوياته كلها؟ ألا ترى أن الفاعلية الأخلاقية لا تتجلى إلا في المجتمع ولا تتجسد إلا في العلاقات البشرية، الأمر الذي يعني أن يعيش المرء الصوفي الحكيم أخلاقيته ويحياها؟ وهكذا، تعلم أن الحياة الداخلية تفقد معناها وتنقلب إلى ضدها ما لم تكن الأخلاقية فاعلة في الوعي الإنساني والاجتماعي. وعلى هذا الأساس، تدرك كيف أسعى إلى هذا التوفيق من خلال المبادئ الثلاثة التالية:

آ ـ السمو بالوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي.

ب ـ التكامل الداخلي أو توحيد مستويات الكيان وأبعاده.

جـ ـ وضوح الغاية من الوجود.

إذ تحقق هذه المبادئ الثلاثة تحقق قدسية حياتك الداخلية. ولا يتم هذا التحقيق إلا بالتأمل. والحق، أن مفهوم التأمل يعني العلاقة الضمنية والعلنية بين

الإنسان وكل ما يحيط به. وإذا ما تأمل الإنسان وجوده، أدرك بأنه يتأمل نفسه. وإذا ما تأمل قدسية حياته الداخلية أدرك قدسية حياته الخارجية السامية، وعلم أن ما هو طبيعي وكوني هو داخلي وباطني، وسعى إلى التوفيق بين عالم الداخل وعالم الخارج.

صديقي، ألا ترى أن «المتصوف» الزاهد يعجز عن هذا التوفيق لأن انعزاله عن الواقع الاجتماعي يحول دون معرفة هذا الواقع، فلا يعيشه. وإن كان عدم عيشه لهذا الواقع يدفعه إلى ظاهرية التحقيق، فإن عيشه لحقيقة داخلية ينم عن انسحابه من المجتمع والعالم وعزلته وغربته... وفي مثل هذه الغربة تتقوض أسس الحياة الداخلية التي لا تتحقق إلا بالفاعلية الأخلاقية. هذا، لأن الصوفي الحكيم هو كل إنسان يمارس حكمته في حقل الواقع، ويعمل في أية مهنة دون تذمر وشكوى، ويحيا في قلب المجتمع، ويتأمل مغزى وجوده الاجتماعي كل يوم، ويحقق أخلاقيته التي تفعل في الواقع الإنساني.

عاشرا ـ معرفة النفس ومعرفة الحقيقة

لدى قراءتي لرسالتك أدركت أنك تتساءل: كيف أستطيع أن أعرف نفسي وأعرف الحقيقة؟ كيف أستطيع أن ألم بشمولية الوعي، وبالسر أو العمق الذي يغلف الحقيقة ويطويها في باطن داخلي يصعب سبره والتوغل إلى جوهره؟ وإذا ما حاولت الإجابة عن تساؤلك هذا قلت: إن النفس هي الطاقة الحيوية الفاعلة في الكيان الإنساني. وتتألف هذه النفس من مكونات ثلاثة متصلة في أساسها وصميمها. والحق، أن الإنسان الذي يتفهم الصلة الجوهرية لهذه العناصر الثلاثة، يهيئ ذاته لمعرفة نفسه. وإذا جهل الإنسان هذه الصلة، أو عجز عن إقامة التوازن بين العناصر الثلاثة أو بين المكونين الأوليين، أحدث انقساما أو تجزئة وفصاما في نفسه. وفي هذا الفصام أو الانقسام أو التجزئة ينبثق جهل النفس إلى الوجود، وينبثق معه القلق والاضطراب، ويصدر كل شر وأنانية وتمرد وانفعال، ويتحول الإيجاب إلى السلب.

وإذا ما ركزت على معرفة هذه الصلة الصميمة بين مقومات النفس الثلاثة، أجبت بأن النفس الإنسانية تتألف، ظاهريا وليس جوهريا، من الأنا والذات والكيان. فالأنا هي تجمع الطاقة المادية كلها، بخصائصها العقلية والنفسية، في نقطة أو بؤرة هي الأنا. وتمثل هذه الأنا الوجود الإنساني منذ بداية تشكله في الخلية. وهكذا، تنطوي الأنا

على سيرة الحياة الماضية كلها، وتجسد اللاشعور واللاوعي الجمعي، وهو وعي كامن، المنثني فيها. والذات هي الشعور الحاضر، أو الوعي الحاضر. والحق، أن توازن النفس يتحقق في التوازن القائم بين الأنا والذات وتوحيدهما في مجال المعرفة. هذا، لأن الأنا تسعى إلى إدراك ذاتها، أي إدراك شعورها أو لاوعيها الكامن. فإذا أدركت لاوعيها الماضي المعبر عنه بالوعي الحاضر، توازنت. وهكذا، تبدأ معرفة النفس. أما الكيان فهو التوحيد الكامل للفاعليات النفسية والعقلية، التوحيد الذي يلغي كل إشراط، أو كبت، أو رغبة، أو انفعال، وذلك في سبيل تحقيق الجوهر الروحي الذي لا ينقسم[40].

صديقي، إذ تحقق هذا التوازن القائم بين الماضي السحيق المعبّر عنه باللاوعي أو اللاشعور، وهو الأنا، وبين الحاضر المعاش المعبر عنه بالوعي والشعور، وهو الذات، تحقق معرفة النفس. هذا، لأنك تتخلى عن الإنسان العتيق، وهو الأنا، وتتبنى الإنسان الجديد، إنسان المعرفة. وإذا ما تعمقت في باطن وجودك أدركت سر كيانك وجوهر كونيتك. وفي هذا الصدد، أحب أن أقول: إن الصوفي الحكيم هو الإنسان القادر على تحقيق التوازن الداخلي أولاً، وتجاوز هذا التوازن النفسي الذي يحقق مصالحة بين الأنا والذات إلى الكيان الروحي الذي يخلو من كل انقسام أو تجزئة ثانياً. والحق، أن معرفة الحقيقة تكمن في الكيان الروحي المتحد في سكينة السلام والمحبة والألوهة. ومع ذلك، أحب أن أنبهك إلى أمر هام هو أن تحقيق هذه المعرفة لا يرتبط باتجاه فكري معين، أو بعمل معين، أو بعلم خاص، ولا يتجلى في عزلة صارمة يفرضها الإنسان على ذاته فينبذ المجتمع، بل في كل فعل إنساني يُحقّق فيه الوجود القدسي، وفي كل فعل اجتماعي يتسع إلى دائرة الإنسانية جمعاء. وهكذا، تدرك أن معرفة النفس جهاد وسعي دؤوب في دروب المعرفة الشاملة. وفي كل معرفة من أنواع العرفان تَمْثُل معرفة الحقيقة. فإذا ما التقيت الإنسان المتوازن في نفسه، والعارف لهذه النفس ولهذه الحقيقة، أدركت أنك التقيتَ صوفياً يرشدك إلى المعرفة التي أتْقَنها وأوصلته إلى الحقيقة.

---

[40] راجع فصل «المعرفة سبيل إلى التكامل النفسي» في كتابي «تأملات في الحياة النفسية».

حادي عشر ـ فلسفة المحبة

إذ تتأمل الوجود وتعرف كيف تتآلف عناصره ومكوناته وكواكبه ومجراته مع بعضها بفعل الجاذبية، تدرك فلسفة المحبة. وعندئذ، تفهم أن الجاذبية، في لغة العلم، هي التعبير الأمثل للمحبة. هذا، لأن الانسجام، والتناغم، والتوافق والائتلاف والنظام مفاهيم هي حصيلة الجاذبية التي توحد الوجودات الجزئية، والكيانات المتعددة والمتنوعة في خلفية واحدة تلحم جميع التعارضات والثنائيات والتعدديات. وإذا ما ابتغيت التعبير عن التجاذب والتنافر أو النبذ في مفهوميهما العلمي والكوني في اللغة الإنسانية والاجتماعية والشمولية، سعيت إلى التحدث عن المحبة والكراهية. فإذا كانت المحبة تقوم مقام الجاذبية بمفهومها الإنساني، كانت الكراهية تقوم مقام النبذ بمفهومها الإنساني. في التنافر ينفرط عقد الوجود، وفي الكراهية تتنافر القيم الإنسانية، وتتناقض، الأمر الذي يؤدي إلى التدمير والخراب.

يعلمني مبدأ المحبة أن أتحد مع كل ما يحيط بي. ومحبتي للعالم بممالكه كلها، النباتية والحيوانية والإنسانية والجماد، تعني اتحادي به وتوحيد كياني مع كيانه... وفي المحبة تختزل الثنائية والتعددية أو تلغى. وكراهيتي للعالم، بممالكه كلها، المعبر عنها بالأنانية وجهل الغاية القصوى لحياتي، تعني انفصالي عنه، وتسلطي عليه، وفرض سيادتي الكاذبة عليه، واستغلالي له، وإقامة حاجز بيني وبينه... في كراهيتي هذه، ألفظ العالم ويلفظني العالم، أرفضه ويرفضني، أؤذيه ويؤذيني، وأبقى مرتبطا بقانون الموت والحياة ما دمت أكرهه، إ ذ لا أتحرر من هذا القانون إلا باتحادي مع العالم ومحبتي له. إذن، فمحبتي للعالم تنقذني من قانون الذهاب والإياب، المعبر عنه بالعودة. هذا، لأن كمالي متصل، بل مرهون، بمحبتي للعالم، ونقصي ينتج عن كراهيتي له. وإذا شئت الوضوح قلت: إن كراهيتي للعالم ورفضي له يرتبان علي عودات عديدة. هذا، لأن واجبي يفرض علي محبتي للعالم. وفي محبتي هذه أتحد معه، وأرى نفسي وهي تنعكس في آلاف الوجودات والكيانات والظاهرات الأخرى. ولا أخفي عنك إذ أصرح بأن المبدأ الأساسي للمحبة يكمن في علاقتي بالإنسان والعالم. وهكذا، أجد في العبارة التي ذكرها أحد الحكماء، وهي: «أن تحيا أو أن تعيش يعني أن تقيم علاقة ودية، متبادلة، وأن تنشئ محبة مع الإنسان ومع كل شيء»، الحقيقة الحياتية العظمى.

إذ أحدثك بمبدأ المحبة، أجد نفسي ملزما على التحدث عن الطريقة التي تتحقق بها هذه المحبة، وعن السبب أو الأسباب التي تدعو إلى تحقيقها، والنتيجة أو

النتائج التي تلخص سيرورتها وسياقها. أستطيع، أولا، أن أقول: إن علاقتي بالحياة، بالطبيعة و بالعالم لا تقوم على عقيدة التسلط والسيطرة والاستغلال، بل تقوم على مبدأ السيادة المحبة المعرفة التوجيه. لذا، لا أسمح لنفسي أن أسيطر على العالم أو أتسلط على ممالكه أو أستغله. هذا، لأن سيطرتي عليه تعني أنني أقمت حاجزا بيني وبينه ووضعته في منزلة أدنى، أو جعلت منه أداة أستغلها لتنفيذ مآربي ومصالحي الأنانية. أما سيادتي فتعني أنني أسعى إلى فهمه ومعرفة أسراره التي هي أسراري، وأنني أقيم انسجاما معه، فأتآلف مع الحيوان والطير والنبات والجماد والإنسان، وأنشئ علاقة أو صلة مع كل شيء، بحيث أرى نفسي في كل شيء. وفي هذه السيادة التي تشير إلى أن الإنسان يمثل الطبقة المفكرة الموجهة، أرفع العالم والطبيعة إلى مستوى الروح. وبهذا، أعني أن أفهم الطبيعة، أعقلها، وأدرس قوانينها ومبادئها، دون أن أفجرها، لكي أتحد معها، وأعود بها إلى روحانيتها الأصلية، أو أكتشف سرها المكنون وهو النور والوعي والروح. وأستطيع، ثانيا، أن أضع نهاية للألم السلبي الناتج عن آ الرفض الذي يلازم كراهيتي للوجود. ب الجهل الذي يحول دون معرفتي للحقيقة. جـ الثنائية التي تقسمني وتجزئني، وتنأى بي عن التكامل الداخلي أو تحرمني منه. د الرغبة التي، كما يقول بوذا، تجعلني أتعلق بالعالم من خلال أنانيتي. وعلى الرغم من النهاية التي أضعها لألمي السلبي عن طريق محبتي للعالم، يظل ألمي الإيجابي قائما. والحق، أن هذا الألم الإيجابي يشير إلى الإحساس بالعالم، كما هو، لأرفعه إلى ما يجب أن يكون. فإذا ما رأيت البؤس، والتعاسة، والشقاء، والفقر، والجهل الذي يؤدي إلى الشر، والكراهية التي تؤدي إلى التجزئة والتدمير، سعيت، من خلال محبتي الإيجابية المتألمة، أن أكون قوة فاعلة لإسعاد البشرية. وفي هذا الألم الإيجابي، القوة الدافعة التي تربطني بالوجود المادي، تتحقق غبطتي وصوفيتي وروحانيتي. هكذا، يكون الصوفي الحكيم محبا. وهكذا، تكمن المحبة في قلب صوفيا الحكمة. وفي هذا المنظور، لا يتجنب الصوفي العالم بل يبقى في قلبه، يحبه، لأنه القوة الفاعلة لإنقاذ العالم وخلاصه، ويتألم معه ألما إيجابيا ليكون هذا العالم دافعا روحيا وإنسانيا لخدمته والتضحية من أجله. وفي هذه المحبة، والألم الإيجابي، يقع الصوفي من العالم موقع القلب المنفتح، والعقل المنفتح، والمدبر المسؤول.

اثنا عشر ـ الخلاص

أعتقد أنك أصبحت تدرك القيمة المتضمنة في كلمة الصوفية الحكمة، والمفهوم الصحيح للصوفي الحكيم. الآن تعلم أن الصوفي الحكيم هو الإنسان الذي يتجرد من الإشراطات العديدة التي تقيد كيانه... هو الإنسان الحر الذي ينعتق من كل حرف، وشريعة، وتقليد، وتعصب وتمذهب... هو الإنسان الواعي الذي يحيا وجوده الأرضي لتحقيق غاية تسمو به لكي يتصل مع كلية الكون، ويتحد معه دون انفصال... هو الإنسان الذي يحقق وجوده الكلي ويطبق الوعي الكوني، والنظام الكوني، ويتناغم مع الانسجام الكلي... هو الإنسان الذي يحب دون أن يرى في الآخر الذي لا يتفق مع موقفه الفكري عدوا له... هو الإنسان الذي يستطيع أن يرى إلى ما بعد حجاب الأنا وإلى ما وراء المحدودية الفكرية الخاضعة لهذه الأنا... هو الإنسان الذي يطفئ الرغبة والشهوة وينهي سيطرة الألم السلبي... هو الإنسان الذي يحب وجوده الأرضي لأن محبته وتحقيقه له يعنيان محبة الوجود الكلي وتحقيق الحكمة القائمة فيه... هو الإنسان الذي لا يختزل الصوفية الحكمة إلى تصوف يتوافق مع دين معين أو ملة معينة، بل يعاين فيها الفعل الكوني المحقق... هو الإنسان الذي يرفض الاعتزال والزهد بمفهوميهما العاميين، ويأبى الانسحاب من الوسط الاجتماعي الذي هو حقله الخاص... هو الإنسان الذي يعمل دون أن يفضل عملا على عمل أو دون أن ينظر إلى ثمار عمله، أو دون أن يترفع عن عمل، أو دون أن يتذمر من عمل... هو الإنسان الذي يحقق كونيته في عمله... هو الإنسان الذي يدرك أن واقع الوجود الأرضي يتركز في العمل، ويعلم أن كل شيء، انطلاقا من أصغر الجزيئات والكيانات، يعمل بما يتوافق مع القانون الكلي... هو الإنسان الذي يدرك أن الأرض تتطلب العمل الزراعي، وأن الحنطة تتطلب الطحن، والدقيق يتطلب الخبز، والماء يتطلب الري، والفلك يتطلب الدراسة، والمادة تتطلب البحث، والمرض يتطلب العناية، والطفل يتطلب التربية، والمرأة والرجل يتطلبان الزواج، والسكن يتطلب البناء الخ. وهكذا، ترى أن الصوفي الحكيم هو الإنسان الذي يفعل من خلال القانون الأرضي ليرفعه ويسمو به إلى مراتب القانون الكوني، فيوحد ما هو أعلى مع ما هو أدنى.

الآن تدرك أن الصوفي الحكيم هو الإنسان الذي لا ينظر إلى الحياة عبر بعد واحد يجعله الهدف الأسمى للوجود على المستوى الأرضي... فلو أن الزاهد المتصوف بشر الناس بقيمة الزهد والانسحاب من العالم، وعلمهم أن الزهد هو الطريق الأفضل

للكينونة الأبدية والالتحاق بالملأ الأعلى، لأدرك أن الأرض لن تنبت ولن تعطي ثمارها، وأن الناس يتضورون جوعا ويعانون من وطأة خمولهم وعطالتهم. ألا ترى أن الإنسان المتزوج قادر على تحقيق أسمى درجات الصوفية الحكمة، وأن العامل، في أي مستوى أو نوع، قادر على تحقيق الصوفية الحكمة، وأن المزارع، أو الاقتصادي، أو القانوني، أو المدرس، أو المهندس، أو الطبيب، أو العالم، أو الكاتب هو كل من يحقق كونيته، وشموله، وكليته، ووعيه، وحريته، وإنسانيته، وروحانيته، واجتماعيته، وألوهيته في العمل الذي يمتهنه، وذلك في سبيل خدمة المجتمع والتضحية من أجل ازدهار وخير البشرية جمعاء، ويسعى إلى خلاص نفسه من خلال خلاص الآخرين... هذا، لأن الإنسان لا يخلص إلا بخلاص الآخرين...

الرسالة العشرون

مثاليـــة الحيـــاة

صديقي...

اعتقدت، وقد أشرفت رسائلي على الاكتمال وبلوغ الغاية المتوخاة من كتابتها، أنك تجاوزت حدود النقد القائم على الدراسة. لكنني شعرت، وأنا أعيد النظر في ذاكرتي مضامين الردود المتمثلة بالتعليقات والتوضيحات والتوجيهات، أنك تلمح إلى نقطة خفية تنطوي على اتهام لطيف ورقيق يشير، بدوره، إلى «الاستقامة» أو «الصلابة» الفلسفية والمنطقية التي تتسم بها رسائلي، والتسامي الإنساني الذي يتجاوز سبل التفكير المألوف. أدركت بأنك تسعى إلى تلطيف هذه «الاستقامة» الملازمة لكل بحث ودراسة.

تدفعني حماستي إلى القول بأنني قرأت في جوابك الأخير الآراء التي ترددت في سطور رسائلي. وسمعت، وأنا أرهف السمع وأصغي بتأمل مركز، أصداء روحي. وشعرت، وأنا أعيد قراءة ما كتبت في رسائلك السابقة، بأنك أهل للسمو بإنسانيتك من خلال المبادئ والقواعد التي حاولت بيان حقيقتها. ولئن كنت قد كتبت لك، وحدثتك بأمور عديدة، أعلم أنك قادر على تصورها وتطبيقها، لكنني أعترف بأن الكثير مما جاء في رسائلي وارد في مؤلفاتي السابقة. وإذا كنت قد اعتبرت رسائلي هذه تكملة لرسائلي التي حررتها في كتابي «رسائل في حضارة البؤس»، فإنني أعتبرها كذلك ملخصا وجيزا لما جاء في مؤلفي «دراسات في المثالية الإنسانية» الذي أعده المدخل إلى فلسفتي الأخلاقية والإنسانية، وفي مؤلفي «بحوث فلسفية» الذي أعده أطروحة بسيطة، منسقة تصلح لحياة تأملية وحياتية رصينة، وفي مؤلفي «تأملات في الحياة النفسية» الذي جعلته مجموعة مترابطة من المقالات التي تحمل فكرة واحدة، تكتشفها في سياق القراءة، هي الحياة النفسية وتكامل الشخصية، وفي كتابي «المبدأ الكلي» الذي هو تعبير

للحقيقة الكونية الواحدة. ومن جانبي، يمكنني أن أجذب انتباهك إلى أن كمال رسائلي تجده في المؤلفات المذكورة على نحو خاص، وفي مؤلفاتي الأخرى على وجه عام. ولما كنت أنشد مثالية الحياة، فإنني وجدت نفسي ملزما على تحقيق واجب إنساني دعاني إلى تحرير هذه الرسائل.

أحب أن يتألق كمال رسائلي بخلاصة جميلة تدعو إلى تحقيق الكيان والإعراض عن التملك. والحق، أن مفهوم التملك لا يشير إلى امتلاك الأشياء فحسب، بل أيضا إلى امتلاك الآخر وامتلاك الذات. فإذا ما امتلكت الأشياء أصبحت عبدا لها. وإذا ما امتلكت الآخر أصبح عبدا لك، وأصبحت عبدا له وعبدا لذاتك وذلك لأنك جعلت منه ومنك شيئا. وإذا ما امتلكت ذاتك أصبحت عبدا بكل ما في الكلمة من معنى. وعندئذ، يضيع كيانك، وتتيه في عالم المعيشة، وتصبح حياتك مبتذلة. هذا، لأن التملك، وبالتالي العبودية يكمنان في الامتثال إلى مركزية الأنا. أما الكيان فإن تحقيقه يبدأ في اللحظة التي تتجاوز الأنا إلى الذات. وتتحقق الغيرية إذ بدأت تشعر بوجود الغير وتمتد إليه. ويتألق الكيان في اللحظة التي تحب الغير، وتحب الحياة، وأعني المحبة وليس الحب. ففي المحبة تكمن الحرية والوعي، وفي الحب يكمن التبادل. وعندما تبلغ مستوى المحبة، يتقلص التملك إلى أدنى حدوده، أو ينتهي، ويتحقق الكيان. وفي تحقيق الكيان تدرك المغزى الجوهري لوجودك على كوكب الأرض.

فهـــــــــرس

رسائل في حضارة البؤس

مقدمة الطبعة الثانية		7
1 الرسالة الأولى	المثالية والواقع	11
2 الرسالة الثانية	المحبة والنزعة الفردية	13
3 الرسالة الثالثة	مؤسسة الكذب	17
4 الرسالة الرابعة	مفهوم التربية	21
5 الرسالة الخامسة	مفهوم الزواج	27
6 الرسالة السادسة	المظاهر الاجتماعية	31
7 الرسالة السابعة	المفاهيم والقيمة الإنسانية	37
8 الرسالة الثامنة	التصنيف الاجتماعي	41
9 الرسالة التاسعة	المساواة الجوهرية	47
10 الرسالة العاشرة	الخدمة والتضحية	51
11 الرسالة الحادية عشرة	ظاهرة العنف	57
12 الرسالة الثانية عشرة	فلسفة اللاعنف	63
13 الرسالةالثالثة عشرة	فلسفة العدالة	67
14 الرسالة الرابعة عشرة	القيم الزائفة	73
15 الرسالة الخامسة عشرة	ضياع الشباب	79
16 الرسالة السادسة عشرة	فلسفة الحرية	85

فهــــــــــــــرس

رسائل في مبادئ الحياة

مقدمة الطبعة الثانية		93
الرسالة الأولى	المبادئ، قيمة إنسانية وكونية	95
الرسالة الثانية	فلسفة الصعوبة	99
الرسالة الثالثة	من الحياة وإلى الحياة نعود	107
الرسالة الرابعة	فلسفة الصداقة	111
الرسالة الخامسة	السعادة واللذة	119
الرسالة السادسة	الترفــّع	127
الرسالة السابعة	المحاكمة والشخصية	135
الرسالة الثامنة	الزواج	143
الرسالة التاسعة	المساواة الجوهرية بين الرجل والمرأة	155
الرسالة العاشرة	اليأس	165
الرسالة الحادية عشرة	البحث العلمي والعقل التقني	173
الرسالة الثانية عشرة	الحرية والوعي	185
الرسالة الثالثة عشرة	فلسفة التأمل والهيكل	201
الرسالة الرابعة عشرة	فلسفة الطموح	215
الرسالة الخامسة عشرة	آدم الإنسان	225
الرسالة السادسة عشرة	فلسفة الوطنية	231
الرسالة السابعة عشرة	الخلـــــود	239
الرسالة الثامنة عشرة	العودة إلى التجسد مبدأ كوني	259
الرسالة التاسعة عشرة	الصوفية حكمة الحياة المحــققة	279
الرسالة العشرون	مثالية الحياة	299

صدر للمؤلف

1 ـ رسائل في حضارة البؤس
2 ـ الاشتراكية ومفهوم العدالة
3 ـ النقد الفلسفي للماركسية
4 ـ مقالة في العقل والنفس والروح
5 ـ فلسفة الإنسان الثائر
6 ـ بحوث فلسفية
7 ـ رد على اليهودية واليهودية المسيحية
8 ـ رد على التوراة
9 ـ المادة والروح تأليف جديد
10 ـ دراسات في المثالية الإنسانية
11 ـ المبدأ الكلي
12 ـ تأملات في الحياة النفسية
13 ـ وحدة الفكر الإنساني
14 ـ رسائل في مبادئ الحياة

15 ـ ظاهرة الإنسان	تيارده شاردان	ترجمة
16 ـ موضع الإنسان في الطبيعة	تيارده شاردان	ترجمة
17 ـ الفكر الفلسفي الهندي	رادا كرشنان ومور	ترجمة
18 ـ التطور العلمي والروحي في الألف القادمة	روبير لنسن	ترجمة
19 ـ علم النفس اليونغي	يولاند جاكوبي	ترجمة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



يشتمل هذا الجزء من الأعمال الكاملة لمؤلفات ندره اليازجي على الكتاب الأول «رسائل في حضارة البؤس» الذي صدر في الربع الأخير لعام ١٩٦٢، وأهداه إلى شباب أمته. ولقد تصور ندره اليازجي أصدقاءه، الشبان والشابات، وهم يتهيأون للدخول إلى نطاق الحياة الاجتماعية. وهدف، وهو يوجه إليهم رسائله، إلى التحدث عن القضايا الإنسانية، والنفسية، والفلسفية، والأخلاقية والاجتماعية التي سيواجهونها يوم يودعون مرحلة الشباب ويدخلون النطاق الواقعي في المجتمع.

وسعى ندره اليازجي في كتابه «رسائل في مبادئ الحياة»، الصادر عام ١٩٩١، إلى تحقيق كمال تلك الرسائل الأولية. وفي هذه الرسائل الأخيرة، يتحدث المؤلف إلى أصدقائه، الذين تجاوزوا مرحلة الشباب إلى مرحلة الرجولة، عن القضايا الهامة التي تتطلب منهم الحكمة، والوعي، والتأمل العميق في حقيقة حياتهم وفي مغزى وجودهم.

الناشر

المجلد الأول

رسائل في حضارة البؤس

رسائل في مبادئ الحياة

المجلد الثاني

تأملات في الحياة النفسية

دراسات في المثالية الإنسانية

المجلد الثالث

المبدأ الكلي

المادة والروح ـ تأليف جديد

مقالة في العقل والنفس والروح

المجلد الرابع

بحوث فلسفية

وحدة الفكر الإنساني

فلسفة الإنسان الثائر

المجلد الخامس

الاشتراكية ومفهوم العدالة

النقد الفلسفي للماركسية

المجلد السادس

رد على التوراة

رد على اليهودية واليهودية ـ المسيحية

دار الغربال